الكشف عن حقيقة
الصوفية
لأول مرة في التاريخ

تأليف
محمود عبد الرؤوف القاسم

المجلد الأول

المكتبة الإسلامية
مكتبة التوعية الإسلامية
دار النوادر القيمة

طبعة عام ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

توزيع دار طيبة
مكة المكرمة هاتف ٥٥٨٩٠٢٧
الرياض هاتف ٤٢٥٣٧٣٧

المَكتَبَة الإسلاميَّة
ص.ب. (١١٣) الجبيهة - هاتف: ٨٤٢٨٨٧ - عمّان - الأردن

الكشف عن حقيقة
الصوفية
لأول مرة في التاريخ



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله تعالى فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

أما بعد ..

لننتبه إلى الآيات التالية ، ولنتمثلها جيداً ، قبل البدء بقراءة الفصول ، يقول سبحانه :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) ﴾[المائدة] .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران ١١٠] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾[الأنفال] .

ثم :

يقسم الصوفية إلى طريقة وحقيقة .

والطريقة هي التي تؤدي إلى الوصول إلى الحال الذي يعرفون به تلك الحقيقة .

فما هي الطريقة ؟ وما هو الوصول ؟ وما هي الحقيقة ؟

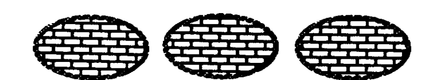
وسنبدأ بدراسة الحقيقة أولاً . ثم الطريقة . ثم الوصول . ثم بعد ذلك تأتي المناقشات .

وستكون المناقشات بعرض حقائق الصوفية على القرآن والسنة ، ثم تفسيرها فيزيولوجياً . ثم الكشف عن آثارها التارخية والاجتماعية .

وعلى هذا فسيكون الكتاب قسمين :

ـ القسم الأول للدراسات.

ـ والقسم الثاني للمناقشات .



القسم الأول:

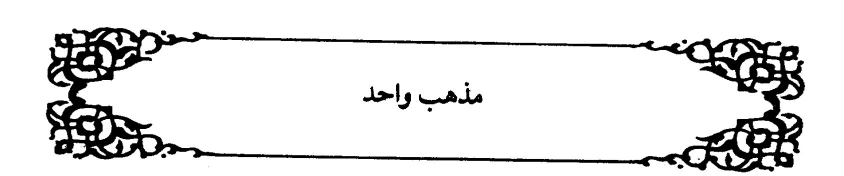
الدراسات

الحقيقة ـ الطريقة ـ الوصول

الباب الأول: الحقيقة الصوفية



الفصل الأول:



عبـارتنـا شتى وحسنـك واحـد وكـلٌّ إلـى ذاك الجـمال يشـير

لا يوجـد إلا صوفيـة واحـدة، غايتهـا واحـدة وحقيقتها واحدة (وسنرى أن طريقتها واحـدة) منـذ أن وجـدت الصوفية حتى النهاية، وإن اختلفت الأسماء، وهذه براهين من أقوال عارفيهم (وصاحب البيت أدرى بما فيه):

قال الجنيد[1] (سيد الطائفة):

الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم[2].

وقال أبو نصر السراج الطوسي[3] (صاحب اللمع، الكتاب الأم في التصوف):

... لأن علم الحقـائق ثمـرة العلوم كلهـا، ونهاية جميع العلوم. وغاية جميع العلوم إلى علم الحقـائق، إذا انتهى إليهـا وقـع في بحـر لا غايـة له، وهـو علم القلوب، وعلم المعـارف، وعلم الأسـرار، وعلم البـاطن، وعلم التصـوف، وعلم الأحـوال، وعلم المعاملات، أي ذلك شئت فمعناه واحد[4].

---

(١) الجنيد بن محمد، إمام الطائفة، مات في بغداد سنة ٢٩٧هـ.

(٢) الرسالة القشيرية ص١٢٧.

(٣) عبد الله بن علي بن محمد، طاووس الفقراء، مات سنة ٣٧٨هـ.

(٤) اللمع ص ٤٥٧.

ويقول أبو طالب المكي[1]:

. . . فأما المعرفة الأصلية التي هي أصل المقامات ومكان المشاهدات، فهي عندهم واحـدة، لأن المعـروف بها واحـد، والمتعـرف عنهـا، إلا أن لها أعلى وأول، فخصـوص المـؤمنـين أعـلاها، وهي مقامات المقربين، وعمومهم أولها، وهي مقامات الأبرار، وهم أصحاب اليمين[2]. .

ويقول أبو حامد الغزالي[3]:

. . . فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة، فكيف يكون حجاباً وهو منتهى المطلب[4]. . (وعبارة «منتهى المطلب» تعني بوضوح أن لا غاية غيره).

ويقول ابن عربي[5] (الشيخ الأكبر):

. . . وينكرون الذوق لأنهم ما عرفوه من نفوسهم، مع كونهم يعتقدون في نفوسهم أنهم على طريق واحـدة، وكـذلـك هو الأمـر، أصحـاب الأذواق على طريق واحدة بلا شك، غير أن فيهم البصـير والأعمى والأعمش، فلا يقـول واحـد منهم إلا ما أعطـاه حاله، لا ما أعطاه الطريق، ولا ما هو الطريق عليه في نفسه[6] . .

ويقول ابن البنا السرقسطي[7]:

مذاهـب النـاس على اختـلاف ومـذهـب القـوم على ائتـلاف[8]

---

(١) محمد بن علي المكي مات في بغداد سنة ٣٨٦هـ.

(٢) قوت القلوب: ٢ / ٧٩.

(٣) محمد بن محمد الغزالي مات سنة ٥٠٥هـ.

(٤) إحياء علوم الدين: ١ / ٢٥٥.

(٥) محمد بن علي بن عربي الحاتمي، أندلسي مات في دمشق سنة ٦٣٨هـ.

(٦) الفتوحات المكية: ٣ / ٢١٣.

(٧) أبـو العبـاس أحمـد بن محمـد بن يوسف التجيبي، من سرقسطـة في جنوب الأندلس، مات في فاس في حوالي الربع الأول من القرن التاسع.

(٨) الفتوحات الإلهية، ص١٠١.

يشرح ابن عجيبة[1] هذا البيت فيقول :

. . . يقول (أي ابن البنا) : ثم تقوم الحجة الدالة على أنهم على المحجة والطريق المستقيم، بشيئين : . . بخلاف مذهب الصوفية، فهي متفقة في المقصد والعمل وإن اختلفت المسالك . . فمرجع كلام القوم في كل باب لأحوالهم، وإلا فلا تنافي بين أقوالهم لمن تأملها، وذلك بخلاف مذهب غيرهم، والوجه فيه أن الحق واحد وطريقه واحدة وإن اختلفت مسالكها، فالنهاية واحدة، والذوق واحد، وفي معنى ذلك قال قائلهم :

الطرق شتى وطريق[2] الحق واحدة والسالكون طريق الحق أفراد

. . . ومذهب الصوفية هو الاتفاق في الأصول والفروع، أما الأصول فنهايتهم الشهود والعيان، وهم متفقون فيه لأنه أمر ذوقي لا يختلف[3] . . .

ويقول عبد الرزاق القاشاني[4] في شرحه على فصوص الحكم :

. . . يعني أن الطريق والغاية كلاهما واحدة في الحقيقة، وهو الحق، فالعارف يدعو على بصيرة من اسم إلى اسم[5] . . .

ويقول أحمد الصاوي المالكي الخلوتي[6] :

. . . وإنما العارفون تنافسوا في محبة الله ورسوله، فمنهم من طلب الوصال بالتغزل في الوسيلة، كالبرعي والبوصيري، ومنهم من طلبه بالتغزل في المقصد كابن الفارض وأمثاله، ومنهم من تغزل في المقامين كسيدي علي وفا، ومقصد الجميع واحد[7] . . . (يعني بقوله «الوسيلة» محمداً ﷺ) .

ويقول سيدي محمد كنسوس[8] (تيجاني)

---

(١) أحمد بن محمد بن عجيبة الدوريس الفاسي مات سنة ١٢٢٤هـ.
(٢) ليستقيم البيت يجب أن يكون «الطرق شتى ودرب الحق »
(٣) الفتوحات الإلهية، ص١٠١ وما بعدها.
(٤) الفاضل الكامل مات بعد سنة ٧٣٠هـ.
(٥) ص١٥٥ .
(٦) مصري مات سنة ١٢٤١هـ.
(٧) الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية، ص٤٥ .
(٨) أبو عبد الله محمد بن أحمد مات في مراكش سنة ١٢٩٤هـ.

. . . فاعلموا أيدكم الله أن طرق المشايخ رضوان الله عليهم كلها أبواب مفتوحة إلى حضرة مولانا الكريم، وهي بمنزلة الطرق المحسوسة المؤدية إلى محل واحد، وهي مع ذلك مختلفة في القرب والبعد والسهولة والصعوبة والأمن والخوف[1]. . .

وقال شاعرهم:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير [2]

ويقول محمود أبو الفيض المنوفي [3]:

. . . وإذا فني العبد عن الأغيار، كملت معرفته لبقائه مع الحق. . . وإذا وصل من المعرفة إلى هذا الحد من التمكن شارف عين الجمع، أي الحقيقة، وصار الجمع له حالاً. . . وهذا المعنى هو مرمى نظر الصوفية، وكل ما صنفوه ودونوه وأمروا به ونهوا عنه في أقوال وأفعال وأحوال، إنما هي وسائل إلى هذا المقصد الشريف، والمقام المنيف[4]. . .

ويقول عبد القادر عيسى [5]:

. . . وإن الطريق واحدة في حقيقتها، وإن تعددت المناهج العملية، وتنوعت أساليب السير والسلوك، تبعاً للاجتهاد وتبدل المكان والزمان، ولهذا تعددت الطرق الصوفية، وهي في ذاتها وحقيقتها وجوهرها واحدة[6]. . .

ويقول عبد الحليم محمود (الشيخ الأكبر) شيخ الجامع الأزهر:

. . . وفي الناس من يرى أن التصوف مذاهب وفرق وطوائف، ولكن هذا التفكير المنحرف تأتى إلى القائلين به من نظرتهم إلى علم الكلام وإلى الفلسفة؛ ففي علم الكلام: أشاعرة ومعتزلة ومشبهة؛ وفي الفلسفة: أرسطيون وإفلاطونيون

---

(1) كشف الحجاب، ص٣٢٩.

(2) غاية القرب، ص٨٦.

(3) محمود أبو الفيض بن علي بن عمر من منوف في مصر ولد عام ١٣١٢هـ، أسس الكلية الصوفية في القاهرة ولعله لا يزال حيًّا حتى كتابة هذه الكلمات.

(4) معالم الطريق إلى الله، ص٢٦٢.

(5) من حلب، شاذلي الطريقة، هاجر من حلب في أواخر السبعينات، متمتع بصحته حتى كتابة هذه الكلمات.

(6) حقائق عن التصوف، ص٢٧٢.

وديكارتيون . . .

والنفـوس مهيـأة لقبول فكرة الطوائف في جميع العلوم النظرية ؛ ولقد خلط الكاتبون بين هذه الدراسات والتصوف ، فزعموا أن في التصوف مذاهب وفرقاً وطوائف .

ولـو أنعمـوا النظـر ، لعـرفوا أن التصوف تجربة روحية ، وليس نظراً عقليًّا ، وإذا كان النظر العقلي يفرق الناظرين إلى طوائف وفرق ، فإن التجربة لا يختلف فيها اثنان ؛ وإذا كانت الفلسفـة ، لأنهـا نظر عقلي ، مذاهب متعددة ، فإن التصوف ، وهو تجربة ، مذهب واحد لا تعدد فيه ولا خلاف .

وكما أنه لا يستسـاغ الخلطة بين الوسائل والغايات في أي ميدان من الميادين ، فإنه لا يستسـاغ الخلط بين طرق التصـوف ، وهي وسـائل ، وبين الغاية ، وهي التصوف نفسه ، فطـرق التصـوف متعـددة مختلفـة ، وبعضهـا أوفق من بعض ، وبعضهـا أسـرع من بعض ، ولكنها على اختلافها وتعددها ، تؤدي إلى هدف واحد وغاية واحدة .

التصوف إذن مذهب «بصيغة المفرد» لا مذاهب «بصيغة الجمع»[1] .

●

هذه أقوال لبعض كبار القوم ، نخلص منها إلى أن للصوفية عقيدة واحدة يدين بها كل المتصـوفـة قديمهم وحـديثهم ، رأن الطـرق الصـوفية «كالشاذلية والرفاعية والقادرية والخلوتيـة والنقشبنـديـة واليشـرطية والمولوية والبكطاشية والتيجانية وغيرها وغيرها» وإن اختلفت أسماؤها ، فهي كلها تؤدي إلى هدف واحد هو العقيدة الصوفية الواحدة .

فما هي هذه العقيدة؟

سيظن الكثيرون ، بناء على ما تقدم ، أنه يكفي لدراسة الصوفية أن ندرس عقيد صوفي واحـد ، كالغـزالي مثـلاً ، أو ابن عربي ، أو ابن عجيبة ، أو غيره ، ثم نطلق حكما بكل ثقة واطمئنان على جميع المتصوفة ، وأن حكمنا سيكون علميًّا صحيحاً .

فنقـول : هذا صحيـح كل الصحـة من الناحية العلمية . ولكننا أمام جماعة باطنية

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص١٢ و١٣ .

لهم عقيدة سرية، استهوت عقولهم ونفوسهم واستحوذت عليها، فلا يهتدون سبيلاً إلا سبيلها؛ وهم يدافعون عنها بكل ما لديهم من إمكانيات وبالمراوغات والمغالطات واللف والدوران وجميع الأساليب اللاعلمية واللاأخلاقية!

وكمثل على ذلك: إنهم يعلمون يقيناً، وخاصةً الواصلون منهم، أن الصوفية هي كفر وزندقة بالنسبة للشريعة الإسلامية، ومع ذلك، فهم يكتمون هذه الحقيقة ويشيعون بين الناس أن الصوفية هي قمة الإسلام والإيمان وهي منتهى التقى والورع، وهي مقام الإحسان!

وقد انطلت هذه الخدعة على الناس وصدقوها، حتى لو قلت لأحدهم إن الصوفية زندقة، لثار عليك واتهمك الاتهامات التي لا تخطر لك على بال، رغم أنه ليس صوفيًا، ولكنه اقتنع بالخدعة وانجرت عليه ذيولها.

ومثل من مراوغاتهم المعتادة: لوجئتهم بدراسة عن صوفية ابن عربي مثلاً، لسمعت من يقول لك: هذا مدسوس عليه، أولسمعت من يقول: هذا شيء لا يدين به الباقون، أولسمعت: هذا كان فيما مضى من الزمان، ولم يبق له أثر، أوتسمع من يقول: الصوفية الآن لا يعرفون هذه الأمور ولا يفهمونها، فأكثرهم بسطاء وسذج، أو هذا يعرفه بعضهم ويجهله الآخرون. وإن كانت الدراسة حول صوفي غير مشهور، فسيكون الجواب: هذا مندس على الصوفية، مدع لها، والصوفية الحقة بريئة منه ومن أمثاله، والصوفية الحقة هي قمة الإسلام والإيمان...

ولو أتيتهم بنصوص صوفية للغزالي مثلاً، وبرهنت لهم على صحتها وصحة نسبتها إلى قائلها وأريتهم مواضع الضلال فيها، فالجواب الذي ستسمعه: هذا كلام له تأويل! أو يجب أن نؤوله! أو هذا كلام لا نفهمه! أو... أو... إلخ.

ومثل هذه الأجوبة، نسمعها أيضاً من غير المتصوفة، من كثير من الناس، لأنهم سمعوها سابقاً من المتصوفة، وسمعوها وسمعوها كثيراً حتى اقتنعوا بها!

ومن الأجوبة التي نسمعها من غير المتصوفة أكثر الأحيان، ومن المتصوفة في بعضها، قولهم: الصوفية على وشك الانتهاء، أوهي في طريقها إلى الزوال، أوإن الصوفيين قليلون لا تأثير لهم في المجتمع، أوإن الكلام عنهم فيه مبالغة.. إلخ.. مع العلم أن

تسعين بالمائة من الأمة الإسلامية لهم صلة بالتصوف وأهله بشكل من الأشكال ـ كما يقول سعيد حوى ـ أما الحقيقة فنسبة المتأثرين بالتصوف تزيد على ذلك، بل والمدافعون أنفسهم الذين يدعون أن التصوف انتهى، هم في أفكارهم ودفاعهم متأثرون بالصوفية إلى حد بعيد.

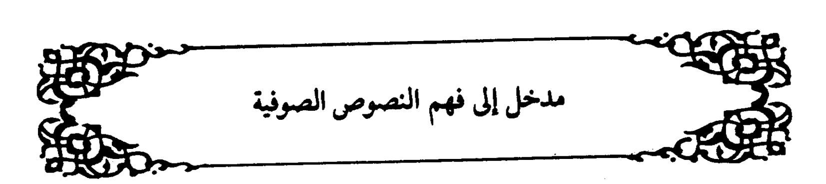
ومن أعجب ما نسمع من دفاع، قول القائل الغافل: إن فضح الصوفية هو دعاية لها، وعندما تصل السذاجة بصاحبها إلى مثل هذا المستوى، فلا يبقى مجال لمناقشتها.

أمام هذا الوضع الغريب عن الإسلام، وعن قرآن الإسلام وعن سنة رسول الإسلام. أمام هذا الوضع الشاذ الذي تتخبط به المجتمعات الإسلامية. أمام هذا الوضع، لا يكفي تقديم دراسة عن صوفي واحد أو اثنين أو ثلاثة أو عشرة! لذلك ستكون الفصول الآتية أقوالاً لأكبر عدد يمكن للكتاب أن يستوعبه من أئمتهم وكبرائهم، منذ الجنيد وأقرانه حتى أصحاب الطرق في أيامنا الحاضرة، بحيث لا يبقى مجال لأولئك المدافعين ولا يبقى مكان لحججهم.

ويجب أن نتذكر دائماً، وأن لا ننسى أبداً أن التصوف مذهب واحد، كما يقرره أصحاب هذا المذهب العارفون الواصلون.

وكل ما هو آت من الفصول إنما هو براهين على ذلك، ولنتذكر دائماً أن أصحاب البيت أدرى بما فيه.





مدخل إلى فهم النصوص الصوفية

يا رب جوهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسناً

قبل الولوج في منابت النصوص الصوفية، ودهاليزها الملتوية المتعرجة، وزحاليقها المتقنة الصنع، قبل ذلك يجب أن نأخذ فكرة واضحة عن الأساليب التي يتبعونها في بسط أفكارهم وعقائدهم، في أقوالهم وكتاباتهم، في تواليفهم ودعاياتهم، لنستطيع فهم كلامهم بوضوح تام، وأن نعرف أغراضه وأهدافه، وبدون ذلك لا نستطيع دراسة الصوفية دراسة صحيحة. وستكون دراستنا لأساليبهم من أساليبهم، ومن أقوالهم وتواصيهم فيما بينهم.

سنرى - في هذه الدراسة - بوضوح تام ما يلي:

١ - هناك سر غريب يتواصون بكتمانه عن غير أهله.
٢ - أهل هذا السر هم الصوفية.
٣ - هذا السر هو كفر وزندقة، يُقتل من يبوح به على أنه مرتد عن الإسلام.
٤ - يقسّمون المجتمع الإسلامي إلى صنفين:

أ - أهل الشريعة، ويسمونهم أهل الظاهر، أو أهل الرسوم، أو أهل الأوراق، أو العامة.

ب ـ أهل الحقيقة، وهم الصوفية، ويسمونهم أيضاً أهل الباطن، وأهل الأذواق، أو الخاصة، وخاصة الخاصة هم كبارهم.

٥ ـ يتواصون دائماً وفي كل زمان ومكان، أن يظهروا لأهل الشريعة ما يوافقهم من الأحكام الإسلامية، وأن يكتموا عنهم ذلك السر لئلا تباح دماؤهم، إلا في حالات معينة (ستمر بين ثنايا النصوص) حيث يعبرون عنه باللغز والرمز والإشارة والعبارة المنمقة.

٦ ـ لا يعرف هذا السر إلا بالذوق، أي أن يذوقه الإنسان بنفسه، وضربوا لذلك مثلاً اللذة الجنسية التي لا يعرفها إلا من يذوقها.

٧ ـ في العادة، يرمزون إلى الذات الإلهية بأسماء مؤنثة مثل ليلى وبثينة وغيرها..

وهذه نصوص لأئمتهم وأقطابهم وعارفيهم أوردها حسب التسلسل التاريخي (بدون دقة):

مما ينسبونه لزين العابدين (وهو في الواقع لكلثوم بن عمرو العتّابي توفي عام ٢٢٠):

يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسناً[1]

فما هو هذا العلم الذي لو باح به لرمي بالوثنية ولقتل على الردة؟

ويقول أبو بكر الكلاباذي (تاج الإسلام)[2]:

قال الجنيد[3] للشبلي[4]: نحن حبرنا هذا العلم تحبيراً، ثم خبأناه في السراديب، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملإ! فقال: أنا أقول، وأنا أسمع، فهل في الدارين غيري؟

يهمنا في هذا النص قول الجنيد فقط. إنه يخبر عن علم حبره هو تحبيراً، (أي وضع

---

(١) الأنوار القدسية في بيان الآداب للشعراني، هامش الطبقات: ١ / ١٣٤، والمناظر الإلهية، ص٤٤، والفتوحات الإلهية، ص٤٤ وغيرها.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، باب ٦٥ ص١٤٥.

(٣) الجنيد، إمام الطائفة، مات في بغداد عام ٢٩٧هـ ويعرف أيضاً بالقواريري.

(٤) الشبلي من أصحاب الجنيد وأقرانه مات في بغداد عام ٣٣٤هـ.

قواعده وأصوله)، ثم خبأه في السراديب! فما هو هذا العلم المخبأ؟! ولِمَ خبأه في السراديب؟!

أما قول الشبلي فسنراه فيما بعد.

ويقول الجنيد أيضاً، مجيباً على رسالة أرسلها له أبو بكر الشبلي:

يا أبا بكر، الله الله في الخلق، كنا نأخذ الكلمة فننشقها، ونقرظها، ونتكلم بها في السراديب، وقد جئت أنت فخلعت العذار! بينك وبين أكابر الخلق ألف طبقة، في أول طبقة يذهب ما وصفت[1].

عندما يتمرس القارىء بالأساليب الصوفية سيعرف أن معنى قوله «يذهب ما وصفت»، هو: تُقتل.

ويقول الجنيد أيضاً:

لا يكون الصدِّيق صدِّيقاً حتى يشهد له في حقه سبعون صدِّيقاً أنه زنديق، فهم يشهدون على ظاهر، مما ظهر من حاله، لأن الصديق يعطي الظاهر حكم الظاهر، ويعطي الباطن حكم الباطن، فلا يلبسون بالباطن على الظاهر ولا بالظاهر على الباطن، فهم يشهدون أنه زنديق ظاهراً، كما يعلمون أنه صديق باطناً، لتحققهم بذلك الحال في نفوسهم[2].

يا للعجب! ظاهراً ـ أي حسب الشريعة ـ زنديق، وباطناً صديق!! فهل الشريعة تخدعنا؟؟

وقال أيضاً (وقد أورده الغزالي في إحياء علوم الدين):

.. أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة[3]. وقال مرة: لو سمعها العموم لكفروهم، وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك، وذلك يحتمل منهم ويليق بهم[3].

---

(١) اللمع، ص٣٠٦.

(٢) المناظر الإلهية، ص٤٤، وكشف الحجاب، ص٣٧٣ وغيرها.

(٣) إحياء علوم الدين: ٤/ ٢٩٢، ولعل الفقرة «وهم يجدون المزيد .. الخ» هي من تعليق الغزالي.

وقد كان الجنيد ينشد أبياتاً يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين، وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره، وهي هذه الأبيات[1]:

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم ... فحلّوا بقرب الماجد المتفضّل[2]
عراصاً بقرب الله في ظل قدسه ... تجول بها أرواحهم وتنقّل
مواردهم فيها على العز والنهى ... ومصدرهم فيها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته ... وما كتمه أولى لدين وأعدل
سأكتم من علمي به ما يصونه ... وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطي عباد الله منه حقوقهم ... وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرًّا يصونه ... إلى أهله في السر والصون أجمل

وقال سهل التستري[3]:

«للعالم ثلاثة علوم، علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد»[4].

ـ أما العلم الظاهر، فقد عرفناه، إنه علم الشريعة. فما هو علم الباطن؟! ولم هو باطن؟!

ويقول الحلاّج[5]:

«المنكر في دائرة البراني، وأنكر حالي حين لم يراني، وبالزندقة سماني، وبالسوء رماني»[6].

ـ يعني بدائرة البراني: ما هو خارج دائرة الصوفية.

ـ فلم يسميه المنكرُ زنديقاً؟ ويرميه بالسوء؟! ما هو السر؟!

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤ / ٢٨٨.
(٢) في البيت إقواء.
(٣) سهل التستري، من تستر، بلدة من الأهواز، من أئمة القوم، توفي عام ٢٨٣هـ أو ٢٧٣هـ.
(٤) إحياء علوم الدين: ١ / ٨٩.
(٥) قتل صلباً عام ٣٠٩هـ.
(٦) الطواسين، طاسين النقطة.

وقال (يخاطب الناس في المسجد)، ويروي القصة عبد الودود بن سعيد الزاهد:

. . . اسمعوا، إن الله أباح لكم دمي فاقتلوني، فبكى بعض القوم، فتقدمت من بين الجماعة، وقلت: يا شيخ، كيف نقتل رجلاً يصلي ويصوم ويقرأ القرآن؟ فقال: يا شيخ، المعنى الذي به تحقن الدماء خارج عن الصلاة والصوم وقراءة القرآن، فاقتلوني تؤجروا وأستريح، فبكى القوم، وذهب، وتبعته إلى داره، وقلت: يا شيخ، ما معنى هذا؟ قال: ليس في الدنيا للمسلمين شغل أهم من قتلي. فقلت له: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ قال: الطريق بين اثنين، وليس مع الله أحد. فقلت: بيّن. قال: من لم يقف على إشارتنا لم ترشده عبارتنا[1].

- إنه يقرر أن الشريعة تبيح قتله! فلِمَ؟

- ويقرر أن المعنى الذي يباح قتله من أجله خارج عن الصلاة والصوم وقراءة القرآن! فما هو هذا المعنى؟

لنتنبه إلى قوله: «ليس مع الله أحد»، وقوله: «من لم يقف على إشارتنا لم ترشده عبارتنا»؟

ويقول:

كفرت بدين الله والكفر واجب   عليّ وعند المسلمين قبيح[2]

- يعني بقوله: «كفرت» أي سترت. والكفر هو الستر، فهو يقول: سترت بالإسلام، والستر واجب عليّ.

- فما هو هذا الأمر الذي يستره بدين الله؟! ما هو؟!

- من الممكن أن نعرف هذا السر من بعض أقواله وفلتات شعره، يقول:

رأيت ربي بعين قلب   فقلت: من أنت؟ قال: أنت[3]

---

(١) أخبار الحلاج، ص٥٧.

(٢) ديوان الحلاج، ص٢٨.

(٣) الطواسين «طاسين النقطة».

فالحقيقة، والحقيقة خليقة، دع الخليقة، لتكون أنت هو، أو هو أنت من حيث الحقيقة[1].

- ولا أعلق على هذا القول بشيء، فهو واضح، وهو هو السر الذي يكتمونه.

وقال أبو الحسين النوري[2] مخاطباً الجنيد:

يا أبا القاسم، غششتَهم فأجلسوك على المنابر، ونصحتُهم فرموني على المزابل[3].

- وسنرى فيما يأتي من النصوص كيف غشهم الجنيد؟ إنه كان يتكلم عليهم بالفقه.

ومما يورده الغزالي:

... قال بعضهم: للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام[4].

- أسرار! تبطل بها النبوة، ويبطل بها العلم، وتبطل بها الأحكام!؟ فما هي هذه الأسرار؟

وقال ابن عطاء[5]، في قوله تعالى: ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾، قال: على مقدار فهومهم ومبلغ عقولهم[6].

- واضح أنه يعني: على مقدار فهوم أهل الظاهر «أهل الشريعة»، ومبلغ عقولهم.

وقال بعض المتكلمين لأبي العباس بن عطاء: ما لكم أيها المتصوفة قد اشتققتم ألفاظاً أغربتم بها على السامعين؟ وخرجتم على اللسان المعتاد! هل هذا إلا طلب للتمويه؟ أو ستر لعوار المذهب؟

---

(١) الطواسين «طاسين الصفاء».

(٢) أحمد بن محمد النوري، بغدادي من أقران الجنيد مات سنة ٢٩٥هـ، وترد كنيته في كتبهم أحياناً «أبو الحسن» وأحياناً «أبو الحسين»، وقد اعتمدت الثانية «أبو الحسين» دون تحقق، إذ لا يهمنا ذلك في هذا الكتاب.

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف، ص١٤٦.

(٤) إحياء علوم الدين: ١ / ٨٨.

(٥) أبو العباس بن محمد بن عطاء الأدمي البغدادي، من أقران الجنيد، مات سنة ٣٠٩هـ.

(٦) التعرف، باب ٦٥ ص١٤٦.

فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه، لعزته علينا، كيلا يشربها غير طائفتنا. ثم اندفع يقول:

أحسن ما أظهره ونظهره ... بادىء حق للقلوب نَشعره
يخبره عني وعنه أُخبره ... أكسوه من رونقه ما يستره
عن جاهل لا يستطيع ينشره ... يفسد معناه إذا ما يعبره
فلا يطيق اللفظ بل لا يعشره ... ثم يوافي غيره فيخبره
فيظهر الجهل وتبدو زمره ... ويدرس العلم ويعفو أثره[1]

وأنشدونا أيضاً له[2]:

إذا أهل العبارة ساءلونا ... أجبناهم بأعلام الإشارة
نشير بها فنجعلها غموضاً ... تقصر عنه ترجمة العبارة
ونَشْهَدها وتُشْهِدُنا سروراً ... له في كل جارحة إنارة
ترى الأقوال في الأحوال أسرى ... كأسر العارفين ذوي الخسارة

- البادي: ويقال: بادي الحق، والباده[3]، وهو بداية الوارد[4]، والوارد: كل ما يرد على القلب من المعاني من غير تعمد من العبد[5].

- وقوله: أكسوه من رونقه ما يستره عن جاهل... أي يكسو الكلام الذي يظهره للناس من الرونق الذي يعجب السامع ما يستر حقيقة السر، لأنه لو لم يفعل ذلك، لأخبر الجاهل (أي: غير الصوفي) به غيره، فكان ذلك سبباً لقتل صاحب هذا السر.. وبقتله، وقتلهم، يزول هذا العلم (الصوفي) ويظهر الجهل به.

- وفي الأبيات التي بعدها.

- أهل العبارة: يعني بها الناس غير الصوفيين الذين يحتاج في خطابهم إلى العبارة

(١) التعرف، باب ٣١ ص٨٩.
(٢) عبارة «وأنشدونا أيضاً له» هي لأبي بكر الكلاباذي مؤلف «التعرف».
(٣) الباده وردت في الرسالة القشيرية، حاشية العروسي ج٢ ص٨٤.
(٤) تعريف البادي من معجم مصطلحات الصوفية مادة (وارد).
(٥) تعريف الوارد من معالم الطريق إلى الله ص٤٢٨.

ذات الرونق.

- الأحـوال: جمع حال، وهـو ما يرد على القلب من طرب وحزن أو بسط وقبض (وغيرها)، وتسمى أيضاً: الوارد[1].

- في البيت الأول والثاني، يخبرنا أنه يجيب على السؤال بالإشارة، ويجعل هذه الإشارة غامضة! فلِمَ؟!

- في البيت الثالث يخبر عن تلك التي يَشْهدها هو، وتُشهده هي سروراً تستنير له كل جارحة من جوارحه، فما هي هذه التي يَشْهدها، وتُشْهده كل هذا السرور؟؟

- في البيت الرابع، يبين أنه عندما ترد عليه الأحوال - وعلى غيره - تكون الأقوال والكلمات لديهم أسيرة لا يطلقونها بحرية، ويشبهها بالعارفين (أي الذين بلغوا الغاية من الصوفية) الذين خسروا حريتهم لأنهم باحوا بالسر، فأصبحوا أسرى مكبلين، وكذلك الأقوال.

- فلم كل هذا؟!

ويورد أبو بكر الكلاباذي في «التعرف» ما يلي[2]:

.. وقال غيره في قوله تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين﴾[3]، أي لو نطق بالمواجيد على أهل الرسوم. يدل عليه قوله: ﴿بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾[4]، ولم يقل بلغ ما تعرفنا به إليك.

- المواجيد: جمع وجد على غير قياس، وهي ثمرات الأوراد[5]، أو الوجد هو غلبة ما كان يبعثه (المتواجد) ويتواجد له على قلبه[6]. وهو يشبه الحال والوارد.

---

(1) تعريف الأحوال من معجم مصطلحات الصوفية، مادة «حال».

(2) التعرف، باب ٦٥.

(3) سورة الحاقة.

(4) المائدة ٦٧.

(5) حاشية العروسي: ٢ / ٤٦، الهامش.

(6) حاشية العروسي: ٢ / ٤٣، ويعرف ابن عربي في «كتاب اصطلاح الصوفية» الوجد بأنه ما يصادف القلب من الأحوال المغيِّبة له عن شهوده.

- إنه يفسر الآية كما يلي: «لو نطق بما يجده عندما يرد عليه الحال، على أهل الرسوم، أي أهل الشريعة، أو أهل الظاهر، لأخذنا منه باليمين..».

- وطبعاً هذا تفسير ما أنزل الله به من سلطان، ولا عرفه محمد ﷺ ولا أصحابه، وهو هنا يفتري على الله سبحانه أنه يأمر محمداً ﷺ أن يكتم سر المواجيد! فما هو هذا السر؟

ويقول الطوسي (صاحب اللمع):

... ولهم في حقيقة التوحيد لسان آخر، وهو لسان الواجدين، وإشاراتهم في ذلك تبعد عن الفهم، ونحن نذكر من ذلك طرفاً كما يمكن شرحه، وهذا العلم أكثره إشارة لا تخفى على من يكون أهله[1]...

ويقول الطوسي نفسه في تعريف «التقية»:

قال قوم: استعمال الأمر والنهي، وقال قوم: ترك الشبهات، وقال قوم: التقية حرم المؤمن كما أن الكعبة حرم مكة، وقال قوم: التقية نور في القلب يفرق بها بين الحق والباطل[2]...

- هكذا جعلوا التقية مقدسة يتسترون بها. إذن فنحن أمام فرقة باطنية.

ويقول أبو طالب المكي[3]:

... فتفصيل معاني التوحيد من شواهد الناظرين أضيق الضيق، وشهادة الجمع في التفرقة، والبقاء في الفناء، أخفى الخفي، وشرح غريب عن الأسماع يُنكر أكثرَه أكثرُ من سمعه؛ غير أن من له نصيب منه يشهد ما رمزناه، فينكشف له ما غطيناه[4].

- شواهد: جمع شاهد، وهو ما تعطيه المشاهدة[5] من الأثر في قلب المشاهد[6].

---

(١) اللمع، ص٥١.

(٢) اللمع، ص٣٠٣.

(٣) محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، نشأ في مكة ومات في بغداد سنة ٣٨٦هـ.

(٤) قوت القلوب: ٢/ ٨١.

(٥) أي مشاهدة الحق «الله».

(٦) رسائل ابن عربي «اصطلاح الصوفية».

ـ الجمع : إشارة إلى حق بلا خلق[1]. (لننتبه جيداً إلى معنى «حق بلا خلق»).

ـ التفرقة (أو الفرق) : وهو إشارة إلى خلق بلا حق، وقيل : مشاهدة العبودية[2]. (هناك الفرق الأول، والفرق الثاني، ولها عندهم تعابير كثيرة، ولننتبه إلى عبارة «خلق بلا حق»).

ـ الفناء على ثلاث درجات : فناء الظاهر، وهو مسلوبية العبد عن إرادته واختياره بتجلي الحق عليه بصفة الفعالية، وتسمى «فناء الأفعال». وفناء الباطن، وهو مغلوبية صفاته في سلطنة أنوار الصفات القديمة الأزلية، وتسمى «فناء الصفات». وفناء سر الباطن، الذي هو ذات العبد، فإن الأفعال هي حجاب الصفات، فالصفات باطنها ؛ والصفات هي حجاب الذات، فالذات باطنها وسرها، ولذا يسمى «فناء الذات»، وهو كناية عن مغلوبية ذات العبد في إشراق أنوار عظمة الذات وأحديتها[3].

ـ البقاء : لا بد لصحة العبودية من التنزل عن عالم الجمع إلى عالم التفرقة، ويقال لهذا «البقاء»[4].

● الملاحظة : يلاحظ القارىء هنا، أن الألغار تفسر بالألغاز، ويُشرح الغموض بالغموض!؟ وذلك لأننا الآن وجهاً لوجه أمام السر الذي يكتمونه.

ويقول أيضاً (أبو طالب المكي) :

. . . وقال الجنيد : «وهؤلاء (أي الصوفية) هم المدلون على الله تبارك وتعالى، والمستأنسون بالله تعالى، هم جلساء الله تعالى، قد رفع الحشمة بينه وبينهم، وزالت الوحشة بينهم وبينه، فهم يتكلمون أشياء هي عند العامة كفر بالله تعالى، لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم، وأن لهم عند الله جاهاً ومنزلة. ثم قال عن بعض العلماء : أما أهل الأنس بالله تعالى فليس إلى معرفتهم سبيل». . هذا من كلام الجنيد ونحو معناه، حدثني به الخاقاني المقري، ولولا أنا روينا عنه ما ذكرناه، ما كنا نشرح حال هؤلاء إشفاقاً على

(١) رسائل ابن عربي.
(٢) رسائل ابن عربي.
(٣) حاشية العروسي : ٢ / ٦١.
(٤) حاشية العروسي : ٢ / ٦١.

الألباب[1]. . .

- يوهم أبـو طالب المكي القـارىء أنـه لا يشـرح حال هؤلاء القـوم الذين يتكلمون بأشيـاء هي الكفـر عنـد العامة - أي عند أهل الشريعة - إشفاقاً على الألباب. وهذا غير صحيح، فهو لا يشرح خوفاً من السيف، وليس شيئاً آخر.

نعـود إلى ما مر من مصطلحـاتهم وألغـازهم، ولا بأس من وضـع بعض الصوى الصغيرة التي قد تساعد على فهم هذه الألغاز، على أن توضيحها الكامل سيأتي في ما يأتي إن شاء الله.

فالفنـاء: ويسمى أيضـاً: المحـو، والسكـر، والغيبـة، والطي، والحضـور بالحق، والجلوة، والإحسـان، والجمـع. . وكلهـا أسماء لمسمى واحد، وهو مقام الجمع. (وهناك بعض الاختلاف بين مدلول الكلمات)، فالجمع هو الفناء، وضم تعريفيهما إلى بعضهما يساعد - بعض الشيء - على فهم السر والألغاز.

أما البقاء: ويسمى أيضاً: الفرق الثاني، أو الجمع في التفرقة، أو الفرق في الجمع، أو صحـو الجمـع، أو الإطـلاق. . فهـو مقام أعلى من مقام الجمع، يجتمع فيه الفناء مع الصحـو، أو الجمـع مع الفـرق. والاستغراق في مقام البقاء يسمى «جمع الجمع»، وبيت من تائية ابن الفارض قد يلقي أمام القارىء بعض النور، يقول:

ومن «أنـا إيـاهـا» إلى «حيث لا إلى» عرجـت وعطـرت الـوجـود برجـعتي

في هذا البيت، يخبرنـا ابن الفـارض أنـه بدأ عروجـه إلى الله «سبحانه وتعالى علوًّا كبيراً» من «أنا إياها» الذي هو مقام الفناء، أو الجمع. . إلخ، حتى وصل إلى «حيث لا إلى» ويكني بذلك عن مقام جمع الجمع.

- الرجاء من القارىء أن ينتبه إلى كل عبارة، وخاصة «أنا إياها»، وماذا يعني بـ «إياها».

ويقول أبو حيان التوحيدي[2] في (رسالة ١):

---

(١) قوت القلوب: ٢ / ٧٧.

(٢) علي بن محمد بن العباس، نزيل فارس، بقي إلى سنة ٤٠٠هـ ويمكن أن تكون وفاته سنة ٤٠٧هـ.

يا هذا، إن كنت ثاكــلاً فنح على ما أُصبت به، وإن كنت مكـروبـاً بالسـر فبح، فلعلك تشفي غليلك فيه[1].

● **الملاحظة**: في هذه الفقرة، يذكر التوحيدي أحد الأسباب التي تدفع العارف بالسر إلى إفشائه.

ويقول أيضاً (رسالة كد):

. . . يا هذا، تجمع عن تفرقك، وتفرق في تجمعك! أتدري ما تفسير هذا اللغز؟ أي: احضر عن غيبتك، وتغيب عن حضورك؛ هذا أيضاً لغز آخر! أنا أكشف لك بما هو أبين، فتحل منه بما هو أزين؛ معنى ذلك: انف عن سرك الهموم كلها، حتى تنقى من كل دنس يكون في الإنس، ثم اخطب مجلسك من حضرة الحق بقبول ما يجود به لك[2].

- أنبـه إلى ما يلي: إنـه يستعمل حرف الجر «عن» في العبارة الأولى «تجمع عن تفرقك» بينما يستعمل «في» في العبارة الثانية «تفرق في تجمعك» وذلك لأن كلمة «تفرُّق» تعني «الفرق الأول» الذي هو حالة المحجوبية التي نتخبط فيها نحن المحجوبين؛ فنحن نرى أن الخلق غير الحق! وهـذا هو ما يسمـونـه «الفرق الأول» فهو يطلب الانخلاع عنه بالترقي إلى مقام الجمع، فيقول «تجمع عن تفرقك»، بينما في العبارة الثانية: «تفرق في تجمعك» يطلب من الواصل إلى «الجمع» أن يتحقق بالتفرقة في جمعه، أي يجمع التفرقة والجمع، وهذا، كما مر معنا، هو مقام «البقاء» أو «الفرق الثاني».

- والفرق الأول هو ما عبر عنه بعد ذلك بـ (الهموم كلها)، وبـ (كل دنس يكون في الإنس). فالهموم كلها، وكل دنس يكون في الإنس: يعني بهما «الفرق الأول»، أو حالة المحجوبية التي نحن المحجوبين فيها.

- السـر: في قولـه: «انف عن سرك . .»، هو حسب اصطلاحهم، لطيفة مودعة في القلب، كالروح في البدن، وهو محل المشاهدة[3] (أي مشاهدة الألوهية).

- لاحظنـا أنـه عبر هنـا عن «الفـرق الأول» أو حالـة المحجوبية التي هي عدم رؤ ية

---

(1) الإشارات الإلهية، ص٤٨.

(2) الإشارات الإلهية، ص١٩٥.

(3) معجم مصطلحات الصوفية باختصار.

الحق في الخلق، عبر عنها بـ «الهموم والدنس». وقد يعبرون عنها أيضاً بـ «الصفات الذميمة، أو الردية»، و «الأفعال الذميمة، أو الردية»، وما شابه هذه التعابير.

كما يعبرون عن «الجمع» بـ «الصفات الحميدة» أو «الأفعال الحميدة» أو «الإحسان» وما شابه ذلك.

ويقول أبو بكر الكلاباذي[1]:

إن للقوم عبارات تفردوا بها، واصطلاحات فيما بينهم، لا يكاد يستعملها غيرهم، نخبر ببعض ما يحضر، ونكشف معانيها بقول وجيز.

وإنما نقصد في ذلك إلى معنى العبارة دون ما تتضمنه العبارة، فإن مضمونها لا يدخل تحت الإشارة فضلاً عن الكشف، وأمّا كنه أحوالهم، فإن العبارة عنها مقصورة، وهي لأربابها مشهورة[2].

- يعني بكلمة «الكشف» هنا: المعنى اللغوي المعروف، لا معناهم الاصطلاحي، أما عبارة «العبارة عنها مقصورة» فسنرى بعد التمرس بأسلوب القوم، أنها مغالطة للإيهام، وأن المانع عن كشفها هو الخوف من عقوبة الردّة.

ويقول القشيري[3] (صاحب الرسالة):

... وهذه الطائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم، أن يشيع استعمالها في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم[4].

- عبارة «غيرة منهم على أسرارهم» هي أيضاً مغالطة، وسنرى أمثالها كثيراً، إنها

---

(١) محمد بن إبراهيم، فارسي، مات سنة ٣٨٠هـ أو ٣٩٠.
(٢) التعرف، ص١١١.
(٣) أبو القاسم، عبد الكريم بن هوازن مات سنة ٤٦٥هـ في نيسابور.
(٤) الرسالة القشيرية، ص٣١.

ليست الغيرة، وإنما هو الخوف من السيف؟ سيف الردة.

ويقول أبو حامد الغزالي «الذي يسمونه حجة الإسلام»[1]:

... ليس كل سر يكشف ويفشى، ولا كل حقيقة تعرض وتجلى، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، ولقد قال بعض العارفين: «إفشاء سر الربوبية كفر»، بل قال سيد الأولين والآخرين: «إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرَّة بالله. ومهما كثر أهل ألاغترار، وجب حفظ الأسرار على وجه الإسرار، لكني أراك[2] مشروح الصدر بالله بالنور، منزه السر عن ظلمات الغرور، فلا أشح عليك في هذا الفن بالإشارة إلى لوامع ولوائح، والرمز إلى حقائق ودقائق، فليس الخوف في كف العلم عن أهله بأقل منه في بثه إلى غير أهله.

فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فاقنع بإشارات مختصرة، وتلويحات موجزة[3].

● الملاحظات:

أ - يبين «حجة الإسلام» متى يكتم هذا العلم المكنون؟ ومتى ينشر؟ ولمن؟

ب - يذكر «أهل الغرة بالله»، وأهل «الاغترار الذين يجب حفظ الأسرار عنهم»، و «الجهال...» فمن هم هؤلاء؟ من هم؟

ج - يقول لسائله: «أراك مشروح الصدر بالله بالنور» فما هو هذا النور؟

د - بالعودة إلى ما سبق من نصوص، نعرف أن الجهال هم أهل الظاهر، أهل الشريعة، وهم هم أهل الغرة بالله!؟

هـ - يشير «حجة الإسلام» إلى أن ما سيذكره هو إشارات إلى لوامع ولوائح، هو رمز إلى حقائق يخفيها، هو إشارات مختصرة وتلويحات موجزة!؟ فما هي؟

---

(1) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي مات في طوس سنة ٥٠٥هـ.

(2) هذا الكلام، بل الكتاب «مشكاة الأنوار» كله هو جواب لسائل سأله.

(3) مقدمة كتاب مشكاة الأنوار.

ويقول:

. . . نعم، قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقلتها، فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك، فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها، وحكم طريق النضال عنها وحفظها (يعني بذلك علم الكلام)، فأما إزالة أشبهة وكشف الحقائق، ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة، فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات، والإقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المحاولات، وهي رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق، وبحسب التعرض، وبحسب قبول المحل، وطهارة القلب، وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يُبلغ ساحله. فإن قلت: هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار، وبعضها جلي يبدو أولاً وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب، وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع، إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن، بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه، فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة، وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه، فلم يكن لهم ترقٍّ إلى شأو العلاء، ومقامات العلماء والأولياء[1] . . .

● **الملاحظات:**

أ ـ يقول: إن معرفة حقائق الأمور وكشفها، ومعرفة الأشياء على ما هي عليه (لا كما يعرفها الناس) وإدراك الأسرار، كل هذا لا يعرف إلا بالمجاهدة وقمع الشهوات و. . !

فهل يجيز لنا «حجة الإسلام» هنا أن نتساءل: ما هو دور الرسل؟ وما هو دور الشريعة؟ وما هو دور العلم؟! بل ما هي الفائدة من إرسال الرسل؟!

ب ـ ما الذي كان يمنع محمداً ﷺ من أن يعلمنا أن الحقيقة لا تعرف إلا بالمجاهدة وقمع الشهوات و. . ، وما هو الخطر الذي كان يخشاه ﷺ من ذلك؟ حتى جاء هؤلاء العارفون ليعرفونا بهذا السر؟!

---

(1) إحياء علوم الدين: ١ / ٨٨.

ج ـ تقريره وتأكيده على وجود الظاهر والباطن، والسر والعلن، وأن هذا لا ينكره إلا من عميت بصيرته! فهل كان رسول الله ﷺ أعمى البصيرة عندما قال لنا: «قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك...»[1].

د ـ ما هي غاية «حجة الإسلام» من تعريضه بـ «الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه..»، وماذا يعني بكلمة «شيئاً» التي تفيد التعميم بكونها اسماً نكرة؟! طبعاً إن من هذا الشيء الذي تلقفوه هو علوم القرآن والسنة (الشريعة).

ويقول أيضاً:

.. فإن قلت: .. فإن الباطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال الشرع، وهو قول من قال: إن الحقيقة خلاف الشريعة، وهو كفر، لأن الشريعة عبارة عن الظاهر، والحقيقة عبارة عن الباطن، وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو، فيزول به الانقسام، ولا يكون للشرع سر لا يفشى، بل يكون الخفي والجلي واحداً؟ فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطباً عظيماً، وينجر إلى علوم المكاشفة، ويخرج عن مقصود علم المعاملة، وهو غرض هذه الكتب، فإن العقائد التي ذكرناها من أعمال القلب، وقد تعبدنا بتلقينها[2] بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها، لا بأن يُتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها، فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق... وإنما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه، ولكن إذا أبحر الكلام إلى تحريك خيال في مناقضة الظاهر الباطن، فلا بد من كلام وجيز في حله. فمن قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يناقض الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان! بل الأسرار التي يختص بها المقربون بدركها ولا يشاركهم الأكثرون في علمها، ويمتنعون عن إفشائها إليهم، ترجع إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكل أكثر الأفهام عن دركه! فيختص بدركه الخواص، وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله، فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك، وإخفاء سر الروح[3] وكفُّ رسول الله ﷺ عن بيانه من هذا

(١) سنن ابن ماجة، المقدمة، حديث ٤٣.
(٢) بتلقينها، هكذا في الإحياء، ولعلها غلطة في النسخ أو الطباعة، ولعل الصحيح هو «بتلقيها».
(٣) إشارة إلى حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم حتى نزلت الآية، واستعماله في هذا الموضوع هو مغالطة صريحة.

القسم، فإن حقيقته تكل الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصور كنهه.. بل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه، ولم يذكر رسول الله ﷺ منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما، حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم، إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علماً وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة، ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء، لم يفهموه، بل لذة الجماع إذا ذكرت للصبي أو العنين لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذي يدركه، ولا يكون ذلك فهماً على التحقيق[1].

● **الملاحظات:**

أ ـ تقرير «حجة الإسلام» أن القول بأن «لا يكون للشرع سر لا يفشى، بل يكون الخفي والجلي واحداً»، يحرك خطباً عظيماً! وينجر إلى علوم المكاشفة.

ـ وقد عرفنا ما هو الخطب! وسنعرف أيضاً.

ب ـ تقريره أنهم «أي الصوفية» تعبدوا الله بتلقيها بالقبول المباشر، قبل أن ينكشف لهم! لأن الكشف لم يكلف به كافة الخلق. وهذا الكلام هو عرض فيه إيحاء للقارىء أن يتلقى هو أيضاً هذه العلوم الكشفية بالقبول المباشر، لا بأن يتوصل إلى أن تنكشف له!

ج ـ هذه الجملة (الأسرار التي يختص بها المقربون) وما فيها من إيهام وإيحاء مغري!

د ـ تقريره أن السر لا يمكن فهمه فهماً صحيحاً بالشرح، ولا يفهم إلا بالذوق، ويشبهه بلذة الجماع.

ويقول: ... زاد الفلاسفة فأولوا كل ما ورد في الآخرة، وردوه إلى آلام عقلية وروحانية، ولذات عقلية، وأنكروا حشر الأجساد، وقالوا ببقاء النفوس، وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس؛ وهؤلاء هم المسرفون. وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي، لا بالسماع، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي

---

(١) الإحياء: ١ / ٨٩.

عليه، نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة، فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه، وما خالف أولوه. فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد، فلا يستقر له فيها قدم، ولا يتعين موقف . . . والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد في هذه الأمور داخل في علم المكاشفة، والقول فيه يطول، فلا نخوض فيه؛ والغرض بيان موافقة الباطن الظاهر، وأنه غير مخالف له[1].

● الملاحظات:

١ - ماذا يعني بعبارة «جمود الحنابلة»؟ في حدود معرفتي، كان علماء الحنابلة يطلبون دائماً الدليل من القرآن والسنة ويتمسكون به، فهل هذا هو الجمود الذي يعنيه «حجة الإسلام»؟!

٢ - تقرير «حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام» أن الحق الذي يسميه «حد الاقتصاد» لا يعرف بالسماع، والسماع، بدهيًا، يكون من عالم بالقرآن أو عالم بالحديث أو عالم بالفلسفة . . . وغيرها. وهؤلاء - طبعاً - أخذوا علومهم بالسماع من علماء قبلهم، وهؤلاء - حسب قول الغزالي - لا يطلعون على حد الاقتصاد، ولا يمكن أن يعرفوه! إذن، فكيف يمكن معرفته؟!

الجواب يقدمه «حجة الإسلام»: لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون سر الأمور بنور إلهي (أي: بالكشف)، لا بالسماع!

فنسأله: ما هو دور القرآن والحديث؟ ولم أنزلا؟ ونسأل غيره: أليس هذا الكلام هو كفر من جهة، ومحاربة للعلم من جهة ثانية؟!

٣ - يقرر «حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام» أن علم الكشف هو الحق، هو واقع الوجود وحقيقته، بقوله: «إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه»، وقوله: «ما شاهدوه بنور اليقين»! وسنرى فيما يأتي أنه مخدوع، وأن كشفه لا يمت إلى اليقين بأي صلة.

٤ - اعترافه بوضوح كامل وصراحة تامة أنهم لا يأخذون بغير الكشف، وأنهم لا

---

(١) إحياء علوم الدين: ١ / ٩٢.

يعترفون بشيء من الشريعة إلا إن وافق كشفهم! وما يخالف كشفهم يؤولونه! وهذا يعني بكل جلاء، أنهم يعتبرون الشريعة غير صحيحة، وأنها ليست هي الحق، وأنها - على الأقل - فيها أخطاء يجب أن تؤوَّل لتتفق مع كشفهم!

والسؤال: إذا لم يكن هذا ضلالاً وزندقة . . ! فما هو الضلال والزندقة . . ؟

وقد يقول قائل - وما أكثرهم -: إنه لا يعني الشريعة بقوله: «السمع والألفاظ الواردة»، فنجيبه:

أ - الفلسفة، لا يحتاجون تأويل نصوصها، لأن من أسهل الأمور أن يقولوا عنها: إنها كذب وخطأ وضلال وكفر وأي شيء يريدون، دون أن يخافوا أحداً أو يخشوا شيئاً. أما الشريعة فهي التي لا يستطيعون أن يقولوا عنها: إنها كذب أو خطأ، أو يقولوا: فيها شيء من ذلك، لأن وراء هذا القول حد الردة، لذلك يستعملون الإشارة والرمز واللغز ليموّهوا علينا، فيقول قائلهم: «السمع والألفاظ الواردة» بدلاً من «الشريعة»!

ب - الغزالي نفسه يوضح لنا مراده من مثل هذا التعبير في مكان آخر من إحيائه، يقول: « . . أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد، وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة، فهذا شخص قيده معتقده . . فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق على بعد وبدا له من المعاني التي تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة[1] . . .

إذن فالغزالي يعني بـ «السمع والألفاظ الواردة» الشريعة الإسلامية.

٥ - وقد يأتي متحمس، وقد يحمل شارة علمية ذات اسم أو ذات شكل، ليفور ويثور، ويأتي بنصوص من هنا وهناك، يحاول أن يثبت له بها الإمامة والاستقامة! فنجيبه:

أ - هذا أسلوب معروف من أساليب المغالطة.

ب - الجواب عليه ورده واضح في هذه النصوص المنقولة عنهم.

ج - نحن هنا أمام نصوص محددة نناقشها، وموضوع معين ندرسه.

---

(١) إحياء علوم الدين: ١ / ٢٥٥.

٦ ـ بما أن سيف التأويل «السحري» مصلت على رقاب النصوص (من قرآن وحديث)، إذن، فلا مخالفة بين الشريعة والكشف! (هذا ما يقرره الحجة)!

ـ هنا نتقدم، بخشوع صوفي، لنسأل «الإمام، حجة الإسلام، ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام!» لنسأله: ما معنى قوله سبحانه: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾.

ـ وهل، يا إمام! عبارة ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾، تعني: ردوه إلى الكشف!

ـ جوابنا لهذا الإمام، ولأتباع هذا الإمام، هو: إن من يؤمن أن محمداً رسول الله، يقول: إذا خالف القرآن الكشف، ندوس الكشف تحت أقدامنا، ونتبع القرآن الكريم، هذا هو سبيل المسلم.

ويقول أيضاً:

. . . علم المكاشفة، وهو علم الباطن، وذلك غاية العلوم، فقد قال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى نصيب منه التصديق به والتسليم لأهله . . . وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئاً . . . وهو علم الصديقين والمقربين، أعني علم المكاشفة، فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة[1]، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها، فيتوهم لها معاني مجملة، غير متضحة، فتتضح إذ ذاك، حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه، وبصفاته الباقيات التامات، وبأفعاله، وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي، ومعنى الوحي، ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السماوات والأرض، ومعرفة القلب، وكيف تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة والجنة والنار، وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب، ومعنى قوله تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم

---

(١) مر معنا قبل صفحات معنى عبارة «صفاته المذمومة».

عليـك حسيبـاً﴾ . . ومعنى لقـاء الله عز وجل، والنظر إلى وجهه الكريم، ومعنى القرب منـه والنـزول في جواره . . . إذ للنـاس في معـاني هذه الأمـور بعـد التصديق بها مقامات شتى، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة . . وبعضهم يدعي أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجـل . . . فنعني بعلم المكـاشفـة أن يرتفـع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور إيضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا، وإنما نعني بعلم طريق الآخرة العلم بكيفيـة تصقيـل هذه المرآة عن هذه الخبـائث التي هي الحجـاب عن الله سبحـانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله . . ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التي يأتي تفصيلها[1] . . .

● الملاحظات :

أ ـ علم المكاشفة هو علم الباطن، وهو غاية العلوم .

ب ـ يجب التصديق به والتسليم لأهله .

ج ـ هو علم الصديقين والمقربين .

وعلينا أن نلاحظ ما في الفقرتين ب ، ج من إيحاء براق وجذاب! كما علينا أن ننتبه إلى تزكيتهم أنفسهم (صـديقـون ومقـربـون) بالـرغم من الآيات الكريمة : ﴿ألم تر إلى الـذين يزكـون أنفسهم، بل الله يزكي من يشـاء ولا يظلمـون فتيلاً . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً﴾ و﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ و﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ .

د ـ يلقي الغزالي هنا بصيص نور على السر الذي يكتمونه (نور يظهر في القلب، تتضح به المعرفة بذات الله وبصفاته التامات، حتى إن «بعضهم يدعي أموراً عظيمة»، وتتضح أيضاً معرفة معنى النظر إلى وجهه الكريم) . . .

وعلينـا أن ننتبـه بشكـل خاص إلى قولـه : «المعرفة بذات الله»، وهي وبقية العبارات جزء يسير من السر سمح لنفسه أن يسطره في هذه الفقرات، فهذا الخيط إذا أمسكناه

---

(١) الإحياء : ١ / ١٨ .

فستصل إلى السر.

هـ ـ تسميته للحجاب عن الله سبحانه بـ «قاذورات الدنيا والخبائث»، ومر معنا في نص سابق تسميته له بـ «الصفات المذمومة»، وعرفنا من قول أبي حيان التوحيدي، أن هذه إشارات ورموز يعنون بها «الفرق الأول» وسنعرف فيما بعد ما هو «الفرق الأول».

ويقول: . . . وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق، حيث قرأ قوله تعالى: ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾، فقال: لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتموني، وفي لفظ آخر: لقلتم إنه كافر[1].

ـ وطبعاً ابن عباس بريء من هذه الضلالات والهذيانات.

ويقول أيضاً:

. . . فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف، وهي أعلى من علوم المعاملة، ولكنا نشير منها إلى ملامح، ونقول: هاهنا نظران، نظر بعين التوحيد المحض، وهذا النظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور، وأنه المحب وأنه المحبوب، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، وأن ذلك صدق في كل حال أزلاً وأبداً، لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام، ومثل هذا الغير لا وجود له، بل هو محال أن يوجد، إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه، وما ليس له بنفسه قوام، فليس له بنفسه وجود، بل هو قائم بغيره، فهو موجود بغيره، فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة، وإنما الموجود هو القائم بنفسه، والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجوداً، فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره، فهو قيوم، ولا قيوم إلا واحد، ولا يتصور أن يكون غير ذلك. فإذا ليس في الوجود غير الحي القيوم، وهو الواحد الصمد، فإذا نظرت من هذا المقام، عرفت أن الكل منه مصدره، وإليه مرجعه، فهو الشاكر وهو المشكور، وهو المحب وهو المحبوب[2]. . .

---

(١) الإحياء: ٤ / ٨٥.

(٢) الإحياء: ٤ / ٧٤.

● ما يجب أن نلاحظه :

أ ـ في هذا النص، كشف الغزالي حجاباً آخر عن السر المصون، ومع ذلك فهو يشير إلى ملامح منه، وقد سمى السر هنا «التوحيد المحض» (وهذا النظر بعين التوحيد المحض يعرفك أنه الشاكر وأنه المشكور، وأنه المحب، وأنه المحبوب، بل وأنه ليس في الوجود غيره)، (وأخيراً صرح بالسر المصون، فغدا السر غير مصون)، ومع هذا التصريح فقد لا يكون القارىء قد عرف هذا السر بعد.

ب ـ بعد التصريح بالسر (ليس في الوجود غيره)، هذا التصريح الذي قد يجرد عليه السيوف، بدأ الغزالي يلوك كلاماً بأسلوب علم الكلام، ليبعد به شبح ما بعد التكفير، ثم يعود ليقرر من جديد: «فإذاً ليس في الوجود غير الحي القيوم... الكل منه مصدره، وإليه مرجعه..».

ـ وهكذا نكون الآن قاب قوسين أو أدنى من معرفة نور اليقين.

ويقول: ... الفريق الثاني ليس بهم عمى، ولكن بهم عور، لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه، والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق، فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى، وهذا مشرك تحقيقاً... فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين، فأثبت عبداً وربًّا، فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد. ثم إن كحل بصره بما يزيد في أنواره، فيقل عمشه، وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى، فإن بقي في سلوكه كذلك، فلا يزال يفضي به النقصان إلى المحو، فينمحي عن رؤية ما سوى الله، فلا يرى إلا الله، فيكون قد بلغ كمال التوحيد، وحيث أدرك نقصاً في وجود ما سوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد... وترجمته قول «لا إله إلا الله»، ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون... إذ عبدة الأوثان ﴿قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾، فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً[1].

---

(١) الإحياء: ٤ / ٧٥.

● الملاحظات:

أكتفي مؤقتاً بوضع خط تحت الجمل التي يجب أن نلاحظها ونتنبه أليها، ففيها من الوضوح ما يكفي.

ولا بأس الآن من إضافة فقرة متممة للنص، أفردتها عنه لأن لها قيمة خاصة، يقول:

«... وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال، فتلوح له حقائق التوحيد، ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم، والدوام فيه عزيز».

- هذه صورة مما يحدث عندما يبلغ السالك إلى ما يسمونه: «الفناء في الله أو الجمع...»، ستفيدنا فيما بعد.

ويقول: ... فإن قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحداً، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة، وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات، وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن، وهو أن الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار، وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد، إذ نقول إنه إنسان واحد، فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه، وتفصيل روحه وجسده وأعضائه. والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس ميه تفريق، وكأنه في عين الجمع، والملتفت إلى الكثرة في تفرقة. فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار واحدٍ من الاعتبارات واحدٌ، وباعتبارات أخر سواه كثيرٌ، وبعضها أشد كثرة من بعض، ومثاله الإنسان، وإن كان لا يطابق الغرض، ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحداً. ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه، وتؤمن به إيمان تصديق، فيكون

لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك، كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيًّا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك، وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق، تارة تدوم، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر، والدوام نادر عزيز، وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار، فقال: في ماذا أنت؟ فقال: أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل، وقد كان من المتوكلين، فقال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فكأن الخوّاص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال... أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه، وليس التوكل أيضاً مبنيًّا عليه[1]...

● الملاحظات على النصين الأخيرين:

أ ـ في النص الأول، قوله: «فأثبت موجوداً مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقاً»، يقرر فيه بأسلوب فيه رونق، أن من يرى أن هذه المخلوقات هي شيء غير الله تعالى فهو مشرك تحقيقاً.

ـ أي إنه، آخر الأمر، شرح لنا ما هو السر، ولكن بأسلوب فيه شيء من الزحلقة للقارىء.

ـ وفي النص الثاني، يرد على شبهة من يقول: كيف لا يشاهد إلا واحداً مع وجود السماوات والأرض؟.. ويقرر أن هذا هو علم الكشف، وبالتالي هو السر الذي لا يجوز أن يسطر في كتاب».

ـ ومع ذلك فقد سطر ما يفشي هذا السر إلى غير أهله! ثم يقدم مثلاً يعين على فهم هذا الأمر «أي رؤية الواحد في الكثرة».

ب ـ قوله: «فلا يرى إلا الله، أي لا يرى في هذا الكون في كل ما يراه من المرئيات إلا الله. فيكون قد بلغ كمال التوحيد.

ـ وفي النص الثاني، يوضح أكثر فأكثر، فيقول: «وكذلك كل ما في الوجود من الخالق

---

(١) الإحياء: ٤ / ٢١٣.

والمخلوق له اعتبارات . . . فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد . . » .

ـ إذن : فالخـالق والمخلوق هما واحـد ، أو هما وحدة . وهكذا ، وضح لنا السر أخيراً ، إنه «وحدة الوجود» ، وما أدراك ما وحدة الوجود؟ !

ج ـ في النص الأول يقرر أن عبدة الأوثان داخلون في أوائل التوحيد دخولاً ضعيفاً .

ـ فأسأل : إن لم يكن هذا هو الكفر والزندقة ، فما هو الكفر والزندقة؟

ـ وأنبه إلى أن القارىء الكريم عندما يمتلك ناصية العبارة الصوفية سيعرف أن معنى جملة الغـزالي هو أن عبـدة الأوثـان دخلوا في التوحيد عندما عبدوا الوثن (لأنه جزء من الله) وكـان دخـولهم ضعيفـاً عندما قالوا : ﴿ . . . ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ، لأن هذا القـول هو تفـريق بين الخـالق والمخلوق ، وهـو عكس التـوحيد ، ولو كانوا داخلين في التوحيد دخولاً كاملاً لقالوا ـ عن إيمان وعقيدة ـ إنهم يعبدون الله بعبادتهم للصنم لأنه جزء من الله .

د ـ أطلب من القـارىء الكـريم أن يقـرأ النصـين الأخـيرين بتعمق ويكرر قراءتها حتى يستوعبهما جيّداً ، ففي هذا تسهيل كبير لفهم كل نصوصهم ، وفهم سرهم .

وهذه نصوص إضافية لـ «حجة الإسلام» أوردها دون تعليق :

يقـول : . . . والـرابعـة أن لا يرى في الوجود إلا واحداً ، وهي مشاهدة الصديقين ، وتسميـه الصـوفيـة الفنـاء في التـوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً ، فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً في التوحيد ، كان فانياً عن نفسه في توحيده ، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق[1] .

ويقـول : من هنـا ترقى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة ، واستكملوا معـراجهم ، فرأوا بالمشـاهـدة العيـانية أن ليس في الوجود إلا الله تعالى ، وأن ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ ، لا أنه يصير هالكاً في وقت من الأوقات ، بل هو هالك أزلاً وأبداً ، ولا يتصـور إلا كذلـك . . . فإذن لا موجـود إلا الله تعالى ووجهه ، فإذن كل شيء هالك إلا

---

(١) الإحياء : ٤ / ٢١٢ .

وجهه أزلاً وأبداً . . . ولم يفهموا من معنى قوله : «الله أكبر» أنه أكبر من غيره ، حاش لله ، إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون أكبر منه[1] . . .

ويقول : العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة ، اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق[2] . . .

- وأختم هذه الجرعة الضئيلة من بحر أقوال الغزالي في هذا الموضوع بنتف من تائيته ؛ يقول :

إذا كان قد صح الخلاف فواجب	على كل ذي عقل لزوم التقية[3]

* * *

وهل أنا إلا أنت ذاتاً ووحدة	وهل أنت إلا نفسي عين هويتي
كأني لم أحجب بها وكأنما	هي احتجبت بي فازدهى الناس عشقتي
فدنتُ بأمر حرمته شريعتي	وأحييتُ حكماً قد أماتته سنتي[4]

* * *

تسترتُ جهدي في هواك وطاقتي	فلما مُنِعْتُ الصبر أبديت صفحتي
فأعلنتُ ما أسررتَ فيّ فلم يكن	بقول ولا فعلٍ سواك فضيحتي
وقد كان لي في الصبر ستر على الهوى	بهتكك ستر الصبر أبديت عورتي[5]

* * *

يكِلُّ لساني عن صفاتي وإنما	يُعبر عني أنني ذاتُ وحدة[6]

* * *

---

(١) مشكاة الأنوار «حقيقة الحقائق» ، ص٥٥ .

(٢) مشكاة الأنوار «إشارة» ص٥٧ .

(٣) النفحات الغزالية ، ص١٤٩ .

(٤) النفحات الغزالية ، ص١٧٣ ، والأبيات ليست متتابعة في القصيدة .

(٥) النفحات الغزالية ، ص١٦٩ .

(٦) النفحات الغزالية ، ص١٧٠

- لا بأس من التنبيه إلى فكرة «لزوم التقية» في البيت الأول، حيث نعرف أننا أمام «فرقة باطنية» ترى لزوم التقية، وقد مر هذا، وهي ملاحظة هامة جدًّا جدًّا.

ويجب أن أعود فأنبه في أقوال الغزالي إلى ما يلي:

١ - اعتبار الغزالي أن كشفهم ومشاهدتهم هو الحق والحقيقة والصدق، وإليه يجب أن يرجع في كل الأمور، حتى القرآن الكريم والسنة يجب أن يعرضا عليه ليحكم في صحتهما. فهذا إن لم يكن كفراً وزندقة، فما هو الكفر والزندقة؟!

٢ - نفهم من هذا أنه - وأنهم - لا يرون القرآن حقًّا لأنهم يؤولون منه ما خالف الكشف. مع العلم أن الإيمان بالقرآن يقتضي نبذ كل ما يخالفه لأنه كفر وزندقة. وهذا واضح.

٣ - علم المكاشفة عنده هو علم الصديقين والمقربين!! فأين ذهب القرآن وصحيح السنة؟!

٤ - ليس في الوجود غير الله، وكما يعلم كل من في بصيرته ذرة من عقل أو إيمان أن الكون موجود، أوجده الله، ولكن عند الغزالي، وعندهم، الكون هو الله، «ما الكون إلا القيوم الحي». وهي وحدة الوجود.

٥ - يقرر «حجة الإسلام» أن من يثبت موجوداً آخر مع الله، أي (من يقول: إن المخلوقات هي غير الله) هو مشرك تحقيقاً!!

- سبحان الله! ما هو هذا الكشف الغريب العجيب!!! إننا نقرأ في كتاب الله، مثلاً: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾، وواضح حتى للأغبياء أن عبارة «غير الله» تعني الأوثان والقبور والأولياء وغيرهم، وكل هؤلاء مخلوقات. إذن فالقرآن يقرر بوضوح كامل، أن المخلوق غير الخالق. فنسأل «الحجة»، وأتباع الحجة، والمخدوعين بالحجة: هل القرآن شرك؟ أم الذين يخالفون القرآن هم المشركون؟ والضالون المضلون؟ والزنادقة الكفرة المارقون؟

٦ - كلمة «التوحيد» يعني - ويعنون - بها «وحدة الوجود» وحيثما وردت في كلامهم فهذا هو معناها.

٧ - يقرر أن عابد الأصنام داخل في أوائل التوحيد.

٨ ـ تقريره أن وحدة الوجود هي مشاهدة الصديقين «والرابعة أن لا يرى في الوجود إلا واحداً وهي مشاهدة الصديقين»!!

٩ ـ تقريره لزوم التقية! فلِمَ؟؟ وعلامَ؟؟ وفيم؟؟

١٠ ـ حكم وحدة الوجود في القرآن الكريم سنراه فيما يأتي.

١١ ـ هذه الأقوال للغزالي، وهي جزء صغير جدًّا من فيضه، هي من كتابه المشهور، بل المقدس، والمسمى «إحياء علوم الدين»، كلها منه إلا نصين، ومع ذلك فيسمى صاحبه «حجة الإسلام»، ويتخذ الكتاب مرجعاً رئيسيًّا عند غالبية المسلمين؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

١٢ ـ للغزالي كتب كثيرة يذكر فيها العلم «المضنون به على غير أهله» لم أتطرق إليها؟ لأن كتاب الإحياء فيه الكفاية والشهرة، وهو ثقة عند القوم، وعند غير القوم.

١٣ ـ أنبه بشكل خاص إلى قوله في تائيته: «فدنت بأمر حرمته شريعتي وأحييت حكماً قد أماتته سنتي»، التي نفهم منها أنهم يعرفون تماماً أن الصوفية تناقض الإسلام، كما يعترف بالشطر الثاني أن الإسلام أماتها، فجاء هو وأحياها؟! كما يُفهم من هذا الكلام أنها كانت موجودة قبل الإسلام.

ـ وننتقل إلى غيره، لنعود إلى التواصي بالكتمان، ونرى صوراً من العبارة التي يستعملونها:

يقول عبد القادر الجيلاني[1] «قطب الأولياء الكرام»:

... هم (أي: الواصلون) أبداً في سرادق القرب، فإذا جاءت نوبة الحكم كانوا في صحن الحكم. إذا جاءت نوبة الخروج كانوا على الباب يأخذون القَصصَ مَن الخلق يصيرون وسائط بينهم وبين الحق عز وجل. هذه أحوالهم، ولكن من الحال ما يكتم[2].

---

(١) أبو محمد محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست، ولد في جيلان عام ٤٧٠، وعاش في بغداد، وتوفي فيها عام ٥٦١هـ.

(٢) الفتح الرباني، ص٢٠٠.

● ما يجب الانتباه إليه :

١ - الـواصلون «في سرادق القـرب» : واضـح أنـه القـرب من الله ، و«كـانـوا في صحن الحكم» : واضـح أنـه الحكم في الكـون ، أو التصرف ! وهذا هومقام الغوثية وهو - كما يعرف كل من قرأ القرآن وفهمه - أنه (أي القول بالتصرف) من الشرك الأعظم ، لأنه سبحانه يقول : ﴿ . . ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ .

٢ - في نوبة الخروج ، يكونون على الباب وسائط بين الخلق والحق . وهذا أسلوب آخر في التعبير عن مقام «الفرق الثاني» أترك تحليله للقارىء .

٣ - مع ما في قوله من الشرك العظيم ، فهو يقول : «ولكن من الحال ما يكتم» ، فما هو هذا الحال الذي يكتم؟! وهل هناك ما هو أعظم من الشرك «كانوا في صحن الحكم»؟!

- في الواقع ، نحن الآن نعرف الجواب ، ومع ذلك نكرر السؤال! ما هو؟

- كما يحق لنا ، منذ الآن ، أن نعرف أن سيف التأويل صقيل صقيل ، طويل طويل ، لفاف دوار!

ويقول أيضاً «سلطان الأولياء» :

. . . فهكـذا العـارف ، الخلق جميعهم كالأولاد ، يخاطب الخلق بلسان الحكم ، ثم يرحمهم لاطـلاعهم على العلم ، فيرى أفعـال الحق عزوجـل فيهم ، ينظـر إلى خروج الأقضية والأقدار من باب الحكم والعلم ، ولكنه يكتم ذلك ويخاطب الخلق بالحكم الذي هو الأمر والنهي ، ولا يخاطبهم بالعلم الذي هو السر[1] .

ويقـول : . . . حتى إذا رأيت موارد الحق إلى قلبـك ، غمض عينيـك وأخبت ، لا تفش إلى الغـير سره ، وارد الحق يأتي قلوبهم . على اختـلاف أحـوالهم ومقـاماتهم تتغير ظواهـرهـم لتغـير بواطنهم ، ويحتـاج المـريـد المطلع على أسـرارهم أن يكون أعمى أصم سكران ، حتى إذا ظهرت نجابته عنده ، وتحقق أدبه ، يكتم سره ، لعله يكسو قلبه ببعض ثيابه ، يدعو الله بظاهره[2] .

---

(١) الفتح الرباني ، ص٢٢٥ .

(٢) الفتح الرباني ، ص٣٦٢ .

- نكرر السؤال رغم معرفة الجواب: ما هو السر الذي يكتمه؟؟

ويقول: . . . ليس الخبر كالمعاينة، فحينئذ تكون من أمرك على بيضاء نقية لا غبار عليها ولا تلبيس ولا تخليط ولا شك ولا ارتياب، فالصبر الصبر، والرضا الرضا، حفظ الحال حفظ الحال، الخمول الخمول، الخمود الخمود، السكوت السكوت، الصموت الصموت، الحذر الحذر، النجا النجا، الوحا الوحا، الله الله ثم الله، الإطراق الإطراق، الإغماض الإغماض، الحياء الحياء، إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فيؤخذ بيدك، فتقدَّم وينزع عنك ما عليك، ثم تغوص في بحار الفضائل والمنن والرحمة، ثم تخرج منها فتخلع عليك خلع الأنوار والأسرار والعلوم والغرائب اللدنية، ثم تقرب وتحدث فيه بإعلام وإلهام وتكلم وتعطى[1] . . .

● ملاحظة: نحن - مع عبد القادر الجيلاني - أمام القمة في الأسلوب الإشاري الرمزي. ففي هذا النص الأخير مثلاً، يريد أن يقول: الكشف هو الحقيقة التي لا شك فيها، ويحتاج إلى الصبر على المجاهدة مع الرضا وحفظ السر حتى إذا وصل السالك تخلع عليه الأنوار ويعطى العلوم اللدنية، ويرى أشياء كثيرة ويسمع.

وللقارىء أن يحلل النص بنفسه.

ومما ينسب إليه (وهي في الحقيقة لابن عربي):

أنا القرآنُ والسبعُ المثاني ... وروحُ الروحِ لا روحُ الأواني

* * *

وغُصْ في بحر ذات الذات تنظرْ ... معانيَ ما تبدَّتْ للعيانِ
وأسراري قراءةُ مبهماتٍ ... مسترةٌ بأرواح المعاني
فمَنْ فهِمَ الإشارةَ فلْيَصُنْها ... وإلا سوف يُقتل بالسِّنانِ
كحلاجِ المحبة إذ تبدَّت ... له شمسُ الحقيقة بالتَّداني
وقال أنا هو الحقُّ الذي لا ... يُغير ذاتَه مرُّ الزمانِ[2]

---

(١) فتوح الغيب، ص٦٣ و ٦٤.

(٢) فتوح الغيب، ص٢٣٠، وقد أورد ابن عربي هذه القصيدة في «كتاب الإسرا» في «باب سفر القلب» كما أورد =

ـ ما أُنبه إليه هو قوله: «كحلاج المحبة» الذي يدل على أن قائل القصيدة يؤمن بعقيدة الحلاج، وكذلك أهل الطريقة القادرية لأنهم يتبنون هذه القصيدة. وكذلك توضيحه لسبب الكتمان «وإلا سوف يقتل بالسنان».

ويقول أحمد الرفاعي الغوث[1]:

. . . أي علي، كل القوم شربوها فحكمت عليهم، فعربدوا وباحوا، وخالك شربها فحكم عليها، فكتم حبه، وأخفى وجده، فظهر بكتمانه على أقرانه، وارتفع بكتمان حُبه عند حِبه على صحبه، أي علي، عليك بكتمان الأسرار، تنال الفخار[2].

ـ يريد بقوله: «شربوها»، أي شربوا الخمرة الإلهية، وهي إشارة إلى التحقق بالألوهية وما يصاحبه من لذة.

ويقول: أي سادة، من أراد أن يتكلم بلسان أهل المعرفة، فينبغي أن يحفظ أدب كلامه، فلا يكشف وثائقه إلا عند أهله، وأن لا يحمِّل المريد فوق طاقته، ولا يمنع كلامه من كان من أهله، ويكون كلامه مع أهل المعرفة بلسان المعرفة، ومع أهل الصفاء بلسان المحبة، ومع أهل الزهد بلسانهم، ومع كل صنف على قدر مراتبهم ومنازلهم وقدر عقولهم، فإن الله تعالى جعل للعارف هذه الألسن، نعم كلها تتلاشى عند ظهور سلطان الحق، وينبغي ألا يتحدث بحديث لا يبلغ عقل المستمع إليه، فيكون ذلك فتنة، فإن أكثر الناس جاهلون، اشتغلوا بعلوم الظواهر، وتركوا علم تصحيح الضمائر، فلا يحتملون دقائق كلام العارفين، لأن كلماتهم لاهوتية، وإشاراتهم قدسية، وعباراتهم أزلية . . . وأي دهشة أشد من دهشة العارف، إن تكلم عن حاله هلك، وإن سكت احترق[3] . . .

= أبياتاً منها في مقدمة الفتوحات المكية مع التصريح بأنها له، وقد أورد البيت «وأسراراً تراءت مبهمات» بدلاً من «وأسراري قراءة مبهمات».

(1) أحمد محيي الدين أبو العباس الرفاعي ولد وعاش في أم عبيدة (كسفينة) من أعمال واسط بالعراق، وتوفي فيها عام ٥٧٨هـ.

(2) قلادة الجواهر ص٨٣، وعلي هذا هو علي بن عثمان ابن أخت الشيخ أحمد، وهو صاحب كتاب «السر الجلالي والمقامات والمعالي».

(3) أعلام التصوف الإسلامي لأحمد أبوكف ص٢٦ و٢٧.

ـ أقول: الكلام واضح جدًا، لا يحتاج إلى شرح (الكتمان عن غير أهله، والبوح به لأهله.. مع وصف إشاري للسر).

ويقول:

ومستخبرٍ عن سر ليلى تركتُه	بعمياءَ من ليلى بغير يقين
يقولون خبِّرنا فأنت أمينُها	وما أنا إن أخبرتُهم بأمينِ[1]

ـ نلاحظ أنه يشير إلى ما يكتمه بالاسم المؤنث «ليلى».

ويقول:

ولما شربناها ودبَّ دبيبُها	إلى معدنِ الأسرارِ قلت لها قفي
مخافةَ أن يسطو عليَّ مدامُها	فتظهرَ جُلاسي على سرِّيَ الخفي[2]

ـ إذن هناك سر خفي يكتمه، ويتحدث بكتمانه تعليماً لمريديه، ويرمز بالمدامة التي شربها إلى الجذبة ولذتها.

ويقول:

يسقي ويشربُ لا تلهيه سكرتُه	عن النديم ولا يلهو عن الكاسِ
أطاعهُ سكرُه حتى تمكَّنَ من	حال الصُّحاة وهذا أعظمُ الناس[3]

ونعرف طبعاً أن السكر هو مقام الفناء، أو هو لذة الشعور بالألوهية.

ويقول: . . . فإذا أتقن السالك معرفة هذه الآداب اللازمة المطلوبة منه في حق مرشده علماً وعملاً، فحينئذ يلزم عليه أن يدخل باب القوم رضي الله عنهم بفناء النفس والإعراض عن الدنيا بالكلية، والإعراض عن الخلق... وعدم التفاخر وترك الدعوى وستر الأحوال وكتمان الأسرار[4]...

---

(١) قلادة الجواهر ص٢٢٦.

(٢) و (٣) قلادة الجواهر ص٢٢٧.

(٣) في كتاب «بهجة الأسرار ومعدن الأنوار»، ص١١٧ يعزى البيتان للشيخ سيف الدين قاضي القضاة أبي صالح؟؟

(٤) قلادة الجواهر، ص٢٧٩.

وطبعاً، نعرف الآن ماذا يعني بقوله: «بفناء النفس والإعراض عن الدنيا...».

ويقول: ... اعلم أن المدّاح الذي يمدح بمجلس الفقراء بغير طمع... يكون له من الفقر سبعة قراريط، بشرط أن يكون مداحاً بالحقيقة... ولهذا الشرط في المعنى شروطاً: الأول: أن يكون فقيراً... السادس: أن يكون أمين الخزائن السرية، أي أميناً على الأسرار فلا يكون مبيحاً بالسر[1].

- ولا أظننا، منذ الآن، بحاجة للتعليق على النصوص، فقد أصبحت واضحة المعاني لمن درس النصوص السابقة بإمعان.

- ويقول أبو مدين المغربي[2] «الغوث»:

وفي الســر أســرار دِقــاق لطيـفــةٌ   تُراقُ دِمــانــا جَهْــرة لو بها بُحــنــا[3]

ويورد عبد الحليم محمود (الدكتور، شيخ الجامع الأزهر)[4]:

قيل له (أي لأبي مدين) مرة في المنام: حقيقة سرك في توحيدك؟

فقال: سري مسرور بأسرار تستمد من البحار الإلهية التي لا ينبغي بثها لغير أهلها، إذ الإشارة تعجز عن وصفها، وأبت الغيرة الإلهية إلا أن تسترها، وهي أسرار محيطة بالوجود لا يدركها إلا من كان وطنه مفقوداً، وكان في عالم الحقيقة بسره موجوداً، يتقلب في الحياة الأبدية، وهو بسره طائر في فضاء الملكوت، ويسرح في سرادقات الجبروت، وقد تخلق بالأسماء والصفات، وفني عنها بمشاهدة الذات... وكشف لي عن مكنون التحقيق، فحياتي قائمة بالوحدانية، وإشاراتي إلى الفردانية[5]...

- يلاحظ هنا أن الكلام منامي! رؤيا رآها أحدهم!! ولكن نحن، ماذا علينا؟ فقد

---

(١) قلادة الجواهر، ص٢٧٩.

(٢) أبو مدين شعيب بن حسين الانصاري، أصله من «حصن قطنيانة» قرية تابعة لإشبيلية في الأندلس، هاجر إلى بجاية صغيراً، وعاش فيها، وتوفي في «العباد» خارج تلمسان عام ٥٩٤هـ وقيل قبل ذلك.

(٣) الفتوحات الإلهية، ص٤٥، وهي من قصيدة أولها: تضيق بنا الدنيا إذا غبتم عنا وتزهق بالأشواق أرواحنا منا، أوردها عبد الحليم محمود في كتابه «أبو مدين الغوث» حاذفاً منها هذا البيت؟؟!!.

(٤) من أكبر مشايخ الصوفية في مصر، توفي منذ سنوات قليلة.

(٥) كتاب «أبو مدين الغوث»، ص١٣٠.

رواه في كتابه الشيخ الأكبر شيخ الجامع الأزهر!! كما يجب أن ننتبه إلى عبارة: «وإشاراتي إلى الفردانية».

ويورد أيضاً أن ابن عربي يقول:

شيخنا أبومدين، من الثمانية عشر نفساً الظاهرين بأمر الله عن أمر الله، لا يرون سوى الله في الأكوان[1].

ويورد أيضاً ما يلي (على لسان ابن عربي أيضاً):

ذهبت (المتكلم هو ابن عربي) أنا وبعض الأبدال إلى جبل قاف، فمررنا بالحية المحدقة به، فقال لي البدل: سلم عليها فإنها سترد عليك السلام، فسلمنا عليها فردت، ثم قالت: من أي البلاد؟

فقلنا من بجاية[2].

فقالت: ما حال أبي مدين مع أهلها؟

فقلنا لها: يرمونه بالزندقة.

فقالت: عجباً والله لبني آدم[3]!..

ـ ويقول عمر بن الفارض[4]:

فلاحٍ وواشٍ ذاك يُهدي لعـزةٍ ضلالاً وذا بي ظل يَهذي لِغـرةِ
أُخـالـف ذا في لومـه عن تقـىً كما أُخـالـف ذا في لؤمـه عن تقيـة[5]

ـ يجب أن ننتبه في البيت الثاني إلى فكرة «التقية» ومع من يستعملها؟

ويقول:

(١) أبو مدين الغوث، ص١٢٤.
(٢) مدينة جزائرية على ساحل البحر الأبيض.
(٣) أبو مدين الغوث، ص١٢٣.
(٤) ولد وعاش في القاهرة ثم هاجر إلى مكة وبقي فيها ١٥ عاماً ثم عاد إلى القاهرة وتوفي فيها عام٦٣٢هـ.
(٥) التائية الكبرى، الديوان ص٢٣.

ولي في الهوى علم تجل صفاته … ومن لم يفقّهْهُ الهوى فهو في جهلِ
ومَن لم يكن في عزة النفس تائهاً … بحبِّ الذي يهوى فبَشِّرْهُ بالذُّلِّ
إذا جادَ أقوامٌ بمال رأيتَهم … يجودون بالأرواح منهم بلا بخل
وإن أُودعوا سراً رأيت صدورهم … قبوراً لأسرار تُنزه عن نقل[1]

ويقول:

وثَم أمورٌ تمّ لي كشفُ سترها … بصحو مفيقٍ عن سواي تغطّتِ
وعنّيَ بالتلويح يفهم ذائقٌ … غنيٌّ عن التصريحِ للمتعنت
بها لم يَبح من لم يُبح دمه وفي ال … إشارة معنى ما العبارة حدت[2]

ـ ما يجب أن ننتبه إليه في أقوال ابن الفارض هنا، هو كلمة «الهوى» في قوله: ولي في الهوى علم تجل صفاته . . . وإلى ماذا تشير؟

إن تحليلاً لهذه العبارة «الإشارية» يقدم مساعدة جديدة في فهم إشاراتهم ورموزهم.

نحن نعلم أن الهوى، أو العشق، كائناً ما كان، ليس فيه علم ولا فقه، فما هو هذا الهوى الذي يعلّم ويفقّه؟!

من البدهي أنه يعني بالهوى هنا، هوى الذات الإلهية. ونريد أن نقفز فوق فصول الكتاب، لنوضح هذه الإشارة، رغم أن مكان التوضيح هو في ما يأتي من الفصول.

في الحقيقة والواقع، إن هذا الهوى، هو هوىً لتلك اللذة العارمة التي يذوقونها في «الجلوة» أو «الجذبة»، ففي الجذبة يغدون في حالة لا يرون فيها الأجسام كما هي، فقد يرونها أشباحاً شاحبة يتخللها نور قد يكون باهتاً وقد يكون قويًا طاغياً، وقد تضمحل هذه الأشباح والرؤى فلا يرى أمامه إلا أبعاداً شفافة، وقد يرى مناظر مختلفة، وقد يرى نفسه شفافاً مندمجاً في وجود شفاف، ويفسر هذا حسب الإيحاءات الشيخية أنه فناء في الله (جل وعلا) وما شابه ذلك.

وهم يظنون أن هذا النور الذي يشاهدونه في كل شيء، وفي ذواتهم، هو الله

---

(1) ديوان ابن الفارض، ص٩١.

(2) التائية الكبرى.

«سبحانه وتعالى عما يشركون»، والحق أن هذه الحالة تشبه بدقة حالة التحشيش والأفينة!

وفي هذه المشاهدة قد يسمعون كلاماً، أو يرون أشياء، يظنونها علماً، وهو ما يسمونه «العلم اللدني». وسنرى فيما بعد أمثلة من هذا العلم «اللدني».

إن الهوى، أو العشق، للخمرة الإلهية - كما يسمونها - هو الذي يدفعهم إلى الرياضة والمجاهدة من أجل (الوصول إلى الجذبة)، ويسمون ذلك «الوصول إلى الله، أو العروج إلى الله» حيث يتلقون العلم اللدني.

- إذن، فهذا الهوى هو الذي قادهم إلى الجذبة فالعلم. ومن هنا كانت إشارة ابن الفارض.

فهو يرمز بكلمة «الهوى» إلى ما يقود إليه الهوى، وهو الجذبة، أو الفناء في الله (بل الصحيح هو اللذة التي يجدونها والتي تستغرقهم حتى الإمناء).

ويقول السُّهرَوَردي المقتول[1]:

بالسرِّ إنْ باحوا تُباح دماؤهم ... وكذا دماء البائحين تُباح[2]

ويقول شهاب الدين السهروردي البغدادي[3]:

.. فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها وإشارات يتعاهدونها، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها وتعرب عن أحوال يجدونها، فأخذ ذلك الخلف عن السلف، حتى صار ذلك رسماً مستمرًّا وخبراً مستقرًّا في كل عصر وزمان[4]

ويقول: .. وربما يتراءى له أنه بالله يصول وبالله يقول، وبالله يتحرك، فقد ابتلي بنهضة النفس ووثوبها، ولا يقع هذا الاشتباه إلا لأرباب القلوب وأرباب الأحوال، وغير أرباب القلب والحال عن هذا بمعزل، وهذه مزلة قدم مختصة بالخواص دون العوام

(١) شهاب الدين، يحيى بن حبش، قتل بحلب عام ٥٨٧هـ.
(٢) التصوف في الإسلام لعمر فروخ، ص١١٥.
(٣) أبو حفص، شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه، صحب عمه أبا النجيب السهروردي والشيخ عبد القارد الجيلاني، من سهرورد، توفي في بغداد عام ٦٣٢هـ.
(٤) عوارف المعارف، هامش إحياء علوم الدين: ١ / ٣٠٣.

فاعلم ذلك[1].

● **الملاحظة :**

ـ الأسلوب الإشاري في القمة، يشبه أسلوب عبد القادر الجيلاني، أو يفوقه، ولا غرو فقد تخرج في مدرسته، انظر إلى قوله : «بالله يصول، وبالله يقول، وبالله يتحرك» حيث يمكن تفسيره بتفسير ظاهر لا غبار عليه، وآخر باطن هو ما يريده ويرمز إليه، ومن السهل معرفته بشيء من التأمل، كما يمكن التعرف أيضاً بشيء من التأمل إلى ماذا ترمز العبارة : «ابتلي بنهضة النفس ووثوبها». والجملة : «وهذه مزلة قدم مختصة بالخواص..»، توضح الإشارة وتشرح العبارة وتحل الرمز.

ويقول محيي الدين بن عربي[2] :

وهذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن أكثر الخلق لما فيه من العلو، فغوره بعيد، والتلف فيه قريب، فإن من لا معرفة له بالحقائق ولا بامتداد الرقائق، ويقف على هذا المشهد من لسان صاحبه المتحقق به، وهو لم يذقه، ربما قال : أنا من أهوى، ومن أهوى أنا، فلهذا نستره ونكتمه.

وقد كان الحسن البصري رحمه الله، إذا أراد أن يتكلم في مثل هذه الأسرار التي لا ينبغي لمن ليس من طريقها أن يقف عليها، دعا بفرقد السبخي، ومالك بن دينار، ومن حضر من أهل هذا الذوق، وأغلق بابه دون الناس، وقعد يتحدث معهم في مثل هذا الفن، فلولا وجوب كتمه ما فعل هذا[3]!..

ويقول : فالساترون لهذه الأسرار في ألفاظ اصطلحوا عليها غيرة من الأجانب، والقائلون بوجود الآثار بالهمم، لا يزالون مقيمين على مناهجهم حتى يلوح لهم أعلام بأيدي الروحانيات العلى، القائمين بالمرتبة الزلفى من مقام الفهوانية، فيها كتب مرقومة

---

(١) عوارف المعارف، هامش الإحياء : ٢ / ٩٩.

(٢) ولد في مرسية في الأندلس، ثم انتقل منها إلى إشبيلية حيث اتصل بابن برجان وأخذ عنه الطريقة العريفية (وفي إمكانية هذا الاتصال نظر)، ثم ذهب إلى المغرب واتصل بأبي مدين، وكثر تنقله في المشرق حتى استقر في دمشق ومات فيها عام ٦٣٨.

(٣) رسائل ابن العربي، كتاب الفناء، ص٣.

مقدسة، تقوم لهم شواهد على تحقيق ما هم عليه وتعظيم الانتقال عن هذا الوصف إلى وصف آخر ميزها، فينهتك ستر الساتر، فيكشف ما سُتر ويفك معماه، ويحل قفله، ويفتح مغالقه، ويتحد همم ذلك الآخر بمطالعة الحقيقة الأحدية، فلا يرى إلا همًّا واحداً لا غير، عنه تكون الآثار على الحقيقة، فتارة تكون عنه تحويراً، وتارة تكون عنه عند تكون هذه الهمم عنه[1]. . .

الفهوانية: خطاب الحق بطريق المكافحة في عالم المثال[2].

- رجعنا إلى تفسير الألغاز بالألغاز! ولكن سنعرف معناها بالضبط فيما يأتي.

● ما يجب ملاحظته:

في النص الأول، يقدم سببين للستر:

١ - علو هذا الفن، وبعد غوره وأظن الإشارة فيه مفهومة.
٢ - التلف (أي الموت أو القتل) القريب لمن لا يستر.

والعبارة «امتداد الرقائق» فيها بعض الوضوح لمن قرأ النصوص السابقة، وفي نص لاحق في هذا الكتاب، سيرى القارىء كلمة «رقيقة» بمعناها الواضح تماماً.

وفي النص الثاني، قوله: «بوجود الآثار بالهمم» يعني الهمم على المجاهدات والرياضات، وآثارها مشروحة فيما سبق. كما أن لها معنى آخر؛ فالآثار، أو سرائر الآثار: يعنون بها الأسماء الإلهية[3]، ومنها نعرف معنى الآثار. والهمم: الرسول ﷺ. وقد ورد هذا التفسير في كتاب «معالم الطريق إلى الله» في فصل «معجم مصطلحات الصوفية». مع الملاحظة أنها وردت في «باب الميم» بعد كلمة «مالك الملك» وقبل «المناصفة»، ومع العلم أن محلها يجب أن يكون «باب الهاء». والمعنيان مدلولهما واحد.

وهناك العبارة: «. . بمطالعة الحقيقة الأحدية. فلا يرى إلا همًّا واحداً لا غير، عنه تكون الآثار على الحقيقة. . .». وما أظن إلا أن القارىء أصبح الآن يدرك معناها بسهولة، أو لا، ففي النصوص المقبلة المعين اللازم الكافي.

---

(١) رسائل ابن عربي، كتاب الفناء، ص٤.
(٢) معجم المصطلحات الصوفية. (عبارة «عالم المثال» هي مصطلح إسماعيلي).
(٣) معجم مصطلحات الصوفية.

ويقول: أما تهمته في دينه، فهو أن يكون من أهل الكشف والوجود، فيلحق بأهل السحر والزندقة، وربما يكفر، فهو يتكلم على الأسرار التي أودعها الله في موجوداته وجعلها أمناء عليها، والناس ينسبونه إلى أنه يقول بنسبة الأفعال إليها، فيكفرونه بذلك[1]..

- الوجود: وجدان الحق ذاته بذاته، ولهذا تسمى حضرة الجمع حضرة الوجود[2].
أو: وجدان الحق في الوجد[3].

ألغاز تفسر بألغاز، ولكن ابن سبعين يوضح فيقول: ومن اسمه «الوجود» كيف يخصص بأسماء[4]..

ويقول: ... وكنت أريد أن أذكر الخلوة وشروطها وما يتجلى فيها على الترتيب، شيئاً بعد شيء، لكن منعني من ذلك الوقت، وأعني بالوقت علماء السوء الذين أنكروا ما جهلوا، وقيدهم التعصب وحب الظهور والرياسة عن الإذعان للحق، والتسليم له إن لم يكن الإيمان[5].

● ما يلاحظ:

١ - الخلوة.. وما يتجلى فيها، هو ما يجب كتمانه (ونعرف الآن ما الذي يتجلى فيها).
٢ - تسميته علماء الشريعة بـ «علماء السوء»!؟
٣ - أسلوبه في مهاجمة الشريعة والدعاية للتصوف.

ويقول: إشارة - لا راحة مع الخلق - فارجع إلى الحق، فهو أولى بك، إن عاشرتهم على ما هم عليه بعدت عن الحق، وإن عاشرتهم على ما أنت عليه قتلوك، فالستر أولى، وأيسره أن تكون كائناً بائناً[6].

---

(١) رسائل ابن عربي «الميم والواو والنون»، ص٧.
(٢) معالم الطريق إلى الله «معجم مصطلحات الصوفية».
(٣) رسائل ابن عربي «اصطلاح الصوفية»، ص٥.
(٤) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص٤٣٠.
(٥) رسالة الشيخ إلى الإمام الرازي ص٧.
(٦) رسائل ابن عربي «كتاب التراجم»، ص٤٧.

الملاحظة الهامة جدًا: «إن عاشرتهم على ما هم عليه بعدتَ من الحق»!! فما هو هذا الذي هم عليه والذي يبعده من الحق؟! إنه الشريعة الإسلامية بلا ريب!

ويقول: . . . وامتطيت متون الرفارف، وطرت في جو المعارف.

فعـايَنْتُ من علمِ الغيـوبِ عَجائبـاً ... تُصانُ عن التذكار في رأيِ من وعى
ومن واصلٍ سرَّ الحقيقةِ صامتٍ ... ولو نطقَ المسكينُ عجَّزه الورى
ومن كاتمٍ للسر يُظهر ضدَّه ... عليه لطلابِ المشاهد للبقا[1]

- لنتنبه إلى قوله: «يظهر ضده».

ويقول:

وغُصْ في بحر ذات الذات تبصرْ ... عجائبَ ما تبدَّتْ للعيانِ
وأسراراً تراءت مبهماتٍ ... مسترة بأرواح المعاني
فمَنْ فَهِمَ الإشارةَ فلْيَصُنْها ... وإلا سوف يُقتل بالسِّنان
كحلاجِ المحبة إذ تبدَّت ... له شمسُ الحقيقة بالتَّداني
فقال: أنا هو الحقُّ الذي لا ... يُغير ذاتَه مرُّ الزمان[2]

- مرت معنا هذه الأبيات قبل صفحات على أنها لعبد القادر الجيلاني، وأوردها هاهنا على أنها لمحيي الدين بن عربي! وهي له في الحقيقة.

وللقارىء أن يتساءل: إذن لماذا أوردتها باسم الجيلاني مادامت في حقيقتها لابن عربي؟!

الجواب: إن جميع السالكين والواصلين والعارفين والكمل من أصحاب الطريقة الجيلانية، يقرؤونها في كتبهم، وفي خلواتهم ومناجاتهم، يتقربون بها إلى الله، على أنها من قول شيخهم الجيلاني، ولا بد أن العارفين الكمل عرفوا ذلك - إخباراً أو إقراراً - عن طريق الكشف الذي هو «نور اليقين وحق اليقين وعين اليقين»؟

لذلك، وتأدباً مع الكشف والكاشفين والعارفين، ولئلا أتهم هؤلاء الأشياخ

---

(١) رسائل ابن عربي «كتاب الإسراء»، ص٤٧.
(٢) رسائل ابن عربي «كتاب الإسراء»، ص٤.

الكمل، فقد أوردتُها هناك على أنها للجيلاني.

والتزاماً بالبحث العلمي، وبالحقيقة الحقيقة، أُوردها هنا على أنها لابن عربي، لأنها له.

ويقول ابن عربي أيضاً:

. . . إلا أنه تعالى وصف نفسه بالغيرة؛ ومن غيرته حرم الفواحش، وليس الفحش إلا ما ظهر، وأما فحش ما بطن فهو لمن ظهر له، فلما حرم الفواحش، أي منع أن تعرف حقيقة ما ذكرناه، وهي أنه عين الأشياء، فسترها بالغيرة، وهو أنت من الغير، فالغير يقول: السمع سمع زيد، والعارف يقول: السمع عين الحق[1]. .

ويشرح الشيخ عبد الرزاق القاشاني هذا القول، فيقول:

«إلا أنه تعالى قد وصف نفسه بالغيرة، ومن غيرته حرم الفواحش، وليس الفحش إلا ما ظهر» مما يجب ستره، ومن جملته سر الربوبية، فقد قيل: إفشاؤه كفر، «وأما فحش ما بطن فهو لمن ظهر له» وهو الحق ومن أظهره الله عليه، وذلك أن الحق هو الظاهر والباطن، «فلما حرم الفواحش: أي منع أن تعرف حقيقة ما ذكرناه، وهي أنه عين الأشياء، «فسترها بالغيرة» أي ستر هذه الحقيقة بالتعينات المختلفة التي يطلق عليها اسم الغير، فحدث السوى والغير، حيث يقال: أنت غيري وأنا غيرك، فاعتبرها، وأوجب الغيرة من الغير، فلهذا قال: «وهو أنت» أي إلى الغيرة أنت، يعني أنانيتك إذا اعتبرتها، إذ لو لم تعتبرها ونظرت إليها بعين الفناء كما هي عليه في نفس الأمر[2]. . .

نرى أن المتن مفهوم أكثر من الشرح، ونستطيع بكل ثقة واطمئنان أن نسمي الشروح الصوفية بـ «الشروح الباطنية»، أو «شروح المتاقاة»، لأن أكثرها من هذا النوع!

ولكن يهمنا أن نلاحظ أنه قد باح بالسر، حيث يقول: «حرم الفواحش، أي منع أن تعرف حقيقة ما ذكرناه، وهي أنه عين الأشياء».

---

(١) فصوص الحكم «عفيفي» حكمة أحدية في كلمة هودية، ص١١٠.

(٢) شرح القاشاني على الفصوص، ص١٥٧.

إذن فالحقيقة هي أن الله هو الكون (جل الله وعلا) وهذا ما يُسمى «وحدة الوجود»، وهو السر الذي يجب ستره، والفحشاء المحرمة هي إفشاؤه.

ويقول ابن هود[1]:

علمُ قومـي بيَ جَهْـلُ ... إنَّ شأني لاَجَـلُّ
أنـا عبـدٌ أنـا ربٌّ ... أنـا عزٌّ أنـا ذُل
أنـا دُنـيـا أنـا أُخـرى ... أنـا بعضٌ أنـا كُلُّ
أنـا معـشـوقٌ لِذاتـي ... لسـتُ عنه الـدهـرَ أسلو[2]

- ولا حاجة للتعليق فالكلام واضح.

ويقول أبو الحسن الشاذلي[3]:

ليكن الفرق في لسانك موجوداً، والجمع في جنانك مشهوداً[4].

- التصريح هنا جيد الوضوح، إنه يقول: خاطب الناس بالفرق، واكتم الجمع في قلبك. والفرق والجمع معروفان، عرفناهما في نص سابق.

ويقول ابن سبعين[5] مخاطباً أحد تلامذته:

. . . وشـرطي عليـك ألا يقف عليـه (أي على الكلام في الحقيقة الموجه في الرسالة إلى التلميـذ) إلا من هو من خواص الخـواص، وأن تكف عن السـؤال فيه على أمر هو من الأمور التي ليست من جنس ما يكتسب، وهو من الغرابة بحيث لا يفهمه إلا

---

(١) الحسن بن عضد الدولة علي، أخي المتوكل على الله ملك الأندلس، ابن يوسف بن هود الجذامي المرسي، مات في دمشق سنة ٦٩٩هـ.

(٢) أعلام الزركلي، ج٢.

(٣) علي بن عبد الله بن عبد الجبار الضرير الزاهد، ولد في قرية «غمارة» قرب سبتة في المغرب واتصل بابن مشيش وأخذ عنه الطريقة، وبناء على توجيهاته، ذهب إلى شاذلة في تونس، حيث نسب إليها، أقام في الإسكندرية، توفي وهو في طريقه إلى الحج في صحراء عيذاب سنة ٦٥٦هـ.

(٤) بداية الطريق إلى مناهج التحقيق، ص٦٥.

(٥) قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد . . . ابن سبعين من بلدة رقوطة تابعة لمرسية في الأندلس، ويعرف أيضاً بابن دارة، مؤسس الطريقة السبعينية، تنقل في المغرب ومصر وأقام في مكة وفيها مات سنة ٦٦٩.

السعداء والأخيار، والكلام بما ليس من شأنه أن يلفظ به خبر، وكأني بمن يقف عليه من الجهلة الخفافيش الذين تظلم الشمس والكواكب والأنوار الطبيعية وغير الطبيعية في أعينهم داخل الذهن وخارج الذهن[١].

- العبارة «الجهلة الخفافيش. . .» استعملها قبله الغزالي في «إحياء علوم الدين».

ويقول: (بد العارف): كتمانه بد سعادتك، وإفشاؤه فسادها[٢].

بد العارف: البد في اللغة هو الصنم. ويفسر أبو الوفا التفتازاني «بد العارف» بـ «المعبود الذي يتوجه إليه العارف»[٣].

ويقول: وفي ذلك «أي في التوحيد» يقول الحلاج رضي الله عنه: «أنا الحق» بمعنى لا آنية إلا واحدة، فإذا وقع الاتصاف ونطق بها، وقع في ذلك معنى متشابه عند العامة، وقتل القائل له، والذي حمله على ذلك محض الإفراد والإخلاص، حتى إن بعض الصوفية رضي الله عنهم أنشدوا له في ذلك.

بذِكرِ الله تنفتحُ القلوبُ وتتَّضحُ المعارفُ والغُيوبُ
وتركُ الذِّكرِ أفضلُ كلِّ شيءٍ فإنَّ الحقَّ ليس لهُ مغيب

وهذه هي «الدقيقة» عند القوم تارة، وهي «الحقيقة» أخرى، والذي يتكلم بها على حقيقتها من حيث هي، يقطع رأسه في عالم الشهادة، ويقتل في عالم الكون[٤].

ويقول: اعلم أن الحروف خزانة الله، وفيها أسراره وأسماؤه وعلمه وأمره وصفاته وقدرته ومراده، فإذا اطلعت على شيء منها، فأنت من خزانة الله، فلا تخبر أحداً بما فيها من المستودعات، فمن هتك الأسرار عذب بالنار[٥].

● **الملاحظة**: قوله: «الحروف خزانة الله، وفيها أسراره . . .»، نرى مثل هذا الكلام تماماً في كتب السحر وأقوال علمائه!

---

(١) رسائل ابن سبعين «الرسالة الفقيرية».
(٢) رسائل ابن سبعين «ملاحظات على بد العارفين».
(٣) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص١٠٠.
(٤) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص٧٩.
(٥) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص٨٥.

ويقول أبو العباس المرسي[1]:

قد يكون الولي مشحوناً بالعلوم والمعارف، والحقائق لديه مشهورة، حتى إذا أُعطي العبارة، كان كالإذن من الله تعالى في الكلام، ويجب أن نفهم أن من أُذن له في التعبير، جلت في مسامع الخلق إشاراته[2].

وكان يقول أيضاً:

كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار[2].

ـ في كلامه هذا يبين ـ شأنه شأن غيره ـ أن هناك أُسلوباً معيناً يسميه «العبارة» ـ وقد رأينا هذا سابقاً ـ لا يجوز للولي أن يتكلم إن لم يتقن هذا الأسلوب.

وقد مر معنا صورٌ كثيرة منه، في قمتها أُسلوب الجيلاني ثم تلميذه السهروردي البغدادي «شهاب الدين» الذي سبق أُستاذه.

وقال ابن عطاء الله السكندري[3]، من قصيدة:

فالله أعنيه اسم الذات منفرداً ... فاعرفْ حقيقته يا خيرَ مؤتمَنِ
وارفع به حُجباً واشفِ به عللاً ... واكشِفْ به كُرَباً عن كل ممتحنِ
وابذل له نفساً في كل موهنةٍ ... واحفظ سرائرَه من كل مفْتَتِنِ[4]

ويقول عبد الله اليافعي (الغوث)[5]:

وروي أنه لما سعي بالصوفية إلى بعض الخلفاء، أمر بضرب رقابهم، فأما الجنيد

---

(١) أحمد أبو العباس المرسي، من أكابر العارفين، ومن السلسلة الشاذلية، صحب أبا الحسن الشاذلي، مات عام ٦٨٦هـ.

(٢) طبقات الشعراني: ٢ / ١٢.

(٣) تاج الدين بن عطاء الله السكندري، صحب ياقوت العرشي وأبا العباس المرسي، مات في القاهرة سنة ٧٠٧هـ.

(٤) القصد المجرد، ص٦٦ و٦٧، والأبيات ليست متتابعة.

(٥) أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي، من عدن، انتقل منها حتى استقرّ في مكة ومات فيها عام ٧٦٨هـ.

فتستر بالفقه، وكان يفتي على مذهب أبي ثور[1]. . .

- يفهمنا اليافعي في هذا النص أن الصوفية كان يحكم عليهم بالقتل على الزندقة، وأن الجنيد كان يتستر بالفقه.

ويقول: . . . وكشف لهم (أي للواصلين) الغطاء، فانكشف لهم من العالم العلوي والسفلي ما أطلعهم عليه من علم الحال والماضي والمآل، فأخبروا بما جاز لهم كشفه من علم الغيوب، ونطقوا بما جاز النطق به مما في ضمائر القلوب. . . وعرفوا العلم الأعظم المقصود الأهم، وهو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته علم مشاهدة وعيان، لا علم نظر واستدلال. . . وأودع قلوبهم أسراراً من كل مصونٍ لديهم مستور[2]. . .

ويقول:

بما هام بعض في البراري وبعضهم ... به وله ظنوا جنوناً فقيِّدا
وبعض عن الأكوان بان وبعضهم ... به جاوز الإسكارُ حدًّا فعربدا
فسلَّ عليه الشرع سيفاً حمى به ... حدوداً فرى الحلاجَ ماض محدداً
فمات شهيداً عندكَم مِن مُحقق ... ولَمْ عندهم يخرج عن القوم ملحداً[3]

ويقول لسان الدين بن الخطيب[4]:

. . . وثالثها خاصة الخاصة، ويختص به من علوم الشريعة علم الحد. . . وهو علم الإلهام، والعلم اللدني، والموهبي، والإلهي. ويحتوي على معان لا يقدر أن يعبر عنها من اطلع عليها، إنما هو استشراف واطلاع على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهو بحر لا يوصف بطول ولا عمق ولا عرض ولا نقطة ولا خط، إنما هو ذوق تتلون لذاته في الطعمة الواحدة إلى ما لا ينحصر عدده ولا ينتهي أمده، وهو علم النبوة. . . وهذا العلم هو الذي لا يجوز كشفه ولا إذاعته ولا ادعاؤه، ومن كشفه وأذاعه

---

(١) نشر المحاسن الغالية، ص٤٢٢.

(٢) نشر المحاسن، ص٩٠.

(٣) نشر المحاسن، ٢٨٣.

(٤) لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد . . . السلماني، وزير الأندلس، وهو المخصوص في «نفح الطيب»، مات قتلاً بسبب كتابه «روضة التعريف» الصوفي سنة ٧٧٦هـ.

وجب قتله واستحل دمه . . . وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[1] . . .

- كلام ابن الخطيب واضح، ونرى كيف يفسرون الآية الكريمة حسب التفسير الإشاري .

ويقول عبد الكريم الجيلي[2]، (وهو غوث أيضاً) :

أنا الموجود والمعدو م والمنفي والباقي

* * *

ولا تثبت وجوداً لي ولا تنفيه يا باقي
ولا تجعلك غيراً لي ولا عيناً لأماقي

* * *

وقل أنا ذا ولست بذا بأوصافي وأخلاقي[3]

إنه يقول : لا تثبت وجوداً لي «في نفسك باعتباري مخلوقاً»، ولا تنفيه «بلسانك» . وقوله : «يا باقي» أي : «يا من وصل إلى مقام البقاء» . ومثل هذا ما يريده في البيتين الآخرين .

ويقول :

رمزي الذي لي في الهوى أعيا قراءة كل كاتب
أظهرته بعبارة دقت فلم تفهم لصائب
عرضته لوحته صرحته بين الحبائب
فزويت عنه عينهم ورويت منه كل شارب
أبديته وكتمته والله عن كل الحبائب

(١) روضة التعريف في الحب الشريف، ص٤٣١ و٤٣٢ .
(٢) عبد الكريم بن إبراهيم ابن سبط عبد القادر الجيلاني، غوث، مات سنة ٨٣٢هـ .
(٣) الأنسان الكامل، ص١١ .

عذل العذول فعندما ظهروا فشا بين الأجانب[1]

يقول: إنه رمز إلى السر ثم أظهره بعبارة دقيقة . . . ولكن عندما عذل العذول أظهره ففشا بين الأجانب، وعذل العذول هو سبب جديد لإفشاء السر يُعرِّفنا به.

ويقول:

واشرب من الشغر المدا م فخمر فيها فيها
وأدر كؤوسك راشداً رغم الذي يطويها
أبدت محاسنها سعا د فلا تكن مخفيها
ودع اغترارك بالسوى ليس السوى يدريها[2]

أظن أن القارىء أضحى الآن يعرف أنه يرمز بـ «سعاد» للذات الإلٰهية. كما يرمز إلى اللذة العارمة التي يشعر بها عندما يتحقق بالألوهية في خلوته، بـ «مدام الثغر، وخمر فيها، والكؤوس، والمحاسن». كما أظن أن كلمة «السوى» أضحت مفهومة، أو سهلاً فهمها.

والملاحظة هي أنه يدعو إلى إعلان السر وعدم إخفائه «فلا تكن مخفيها» وإلى عدم الالتفات إلى السوى «ودع اغترارك بالسوى». وهذا يعني أننا سنرى عنده كل التصريح بالسر، رغم استعماله الرموز في كثير من الأحيان. فنراه يقول مثلاً:

وما الخلق في التمثال إلا كثلجة وأنت بها الماء الذي هو نابع
وما الثلج في تحقيقنا غير مائه وغيران في حكم دعته الشرائع
ولكن يذوب الثلج يرفع حكمه ويوضع حكم الماء والأمر واقع[3]

في هذه الأبيات تصريح ومغالطة:

فهو يصرح أن الخلق من الخالق كالثلجة من الماء، فكما أن الثلجة هي جزء من ماء

---

(1) الإنسان الكامل، من قصيدة مطلعها ولي في الغرام عجائب وأنا وربك ذو العجائب»، ص١٦.
(2) الإنسان الكامل، ص٤٥.
(3) الإنسان الكامل، ص٤٦. والأبيات من قصيدته المسماة «البوادر الغيبية في النوادر العينية»، وهي طويلة ومشهورة.

تغير مظهره فقط، كذلك الخلق هو جزء من الحق، تغير مظهره فقط.

والمغالطة، هي تقريره أن الثلج هو الماء في تحقيقهم، بينما هو في حكم الشرائع غير الماء. ونتيجة هذه المغالطة هي انطباع لدى القارىء أن الشرائع مخطئة، وتحقيقهم هو الصحيح.

ـ ولا أدري! هل لم يجد من يقول له: إن حكمه خطأ وقياسه فاسد؟

ويقول من نفس القصيدة:

وهـا أنـا ذا أخـفـي وأظـهـر تارة ... رمـوز الهـوى ما السـر عنـدي ذائع
وإيـاك أعـني واسـمـعي جارتي ومـا ... يصـرح إلا جاهـل أو مخادع
ولـكـنـني آتيـك بالبـدر أبـلجـاً ... وأخفيـه أخـرى كي تصـان الـودائع[1]

فلننظر إليه كيف يأتينا بالبدر أبلجاً، يقول:

خبـتـني فكـانـت فيّ عني نيـابـة ... أجـل عوضـاً بل عين ما أنـا واقـع
فكـنت أنـا هي وهي كانت أنـا ومـا ... لها في وجـودٍ مفـردٍ مَن ينـازع
بقـيـتُ بها فيـهـا ولا تاء بيـنـنـا ... وحـالي بها ماض كذا ومـضـارع
ولـكـن رفعتُ النفس فارتفـع الحجـا ... ونُـبِّـهـتُ من نومـي فما أنـا ضاجـع
وشـاهـدتُني حقّـاً بعـين حقـيـقتي ... فلي في جبـين الحسن تلك الطـلائـع
جلوتُ جمالي فاجـتـليـت مرائـيـاً ... ليطـبـع فيـهـا للكـمال مطـابـع
فأوصـافـهـا وصـفـي وذاتي ذاتهـا ... وأخـلاقـهـا لي في الجـمال مطـالـع
واسـمـي حقّـاً اسمهـا، واسم ذاتهـا ... لي اسـم ولي تلك الـنعـوت توابـع[2]

قوله: «ولا تاء بيننا» يعني بها تاء المخاطب، أي: إنهما صارا ذاتاً واحدة. ولننتبه إلى أنه يشير إلى الذات الإلهية بضمير المؤنث، حيث يظهر للغافل وكأنه يتغزل بمحبوبته.

ويقول في مكان آخر:

... لأن الكـلام عن الحقـائق بالإشـارة، ولا يفهم إشـارتنا ويعرف آفة ما فيها من

---

(١) فتوح الغيب، ص٢٠٢.

(٢) الإنسان الكامل، ص٦١.

عباراتنا إلا من هو نحن ونحن هو، فافهم. وإليه الإشارة، نقول شعراً:

وغنى لي منى قلبي ... فغنيت كما غنى
وكنا حيث ما كانوا ... وكانوا حيث ما كنا

وقد أردف سيدنا الشيخ العالم الرباني، شهاب الدين أحمد بن أبي بكر الرداد هذه الأبيات ثالثاً، فقال:

فحاسبنا وما بانوا ... ولا بانوا ولا بنّا

ولعمري أشار إلى معنى غريب، لولا المقام، مقام الإشارة، لأنعمنا عنه العبارة[1].

● الملاحظة: منى قلبي يعني به الله سبحانه. والضمير في كانوا عائد على الله سبحانه وتعالى، وعلى القارىء التحليل.

ويقول ابن البنا السرقسطي[2]:

وهذه مسألة معتاصة ... لم يجد الحبر لها خلاصة
لأنها مسألة غريبة ... حقيقة الجواب عنها ريبة
وقلّ ما تلقى لها مساعداً ... بل منكراً أو ناقداً أو جاحداً[3]

ويقول:

وهذه حقيقة الإنسان ... حيث لها أنموذج رباني
متى ارتقيت عن قبيل الحس ... أدركت في نفسك معنى النفس
يا من على القشر غدا يحوم ... حتى عن اللب متى تصوم
ووضعه في الكتب لا يجوز ... بل هو كنز في النهى مكنوز[4]

ويقول منها:

---

(١) المناظر الإلهية، ص٧٠.

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي المعروف بابن البنا السرقسطي، من سرقسطة في الأندلس، انتقل إلى فاس ومات فيها في النصف الأول من القرن التاسع الهجري.

(٣) الفتوحات الإلهية ص٢٧، والأبيات من قصيدته المشهورة «المباحث الأصلية».

(٤) الفتوحات الإلهية، ص٤٣ وما قبلها.

واستشعروا شيئاً سوى الأبدان ... يدعونه بالعالم الروحاني
ثم أمام العالم المعقول ... معارف تُلغز في المنقول[1]

ويقول منها:

ثم امتحى في غيبة الشهود ... فأطلق القول أنا معبودي
حتى إذا رُدَّ عليه منه ... أثبت فرقاً حيث لم يكنه
فَرُدَّ نحو عالم التحويل ... وعبَّروا عن ذاك بالنزول
ورده بالحق نحو الخلق ... كي ما يؤدي واجبات الرق
فكلم الناس بكل رمز ... وألغز التعبير أي لغز[2]

وقال ابن خلدون[3]:

قُتل الحلاج بفتوى أهل الظاهر وأهل الباطن، أهل الشريعة وأهل الحقيقة، لأنه باح بالسر فوجبت عقوبته[4].

ويقول عبد الوهاب الشعراني[5]:

. . . ونور بصائرهم بفضله، وطهر سرائرهم، وأطلعهم على السر المصون، وصانهم عن الأغيار، وسترهم عن أعين الفجار، لأنهم عرائس، ولا يرى العرائس المجرمون، فإذا مر عليهم ولي من أولياء الله ينسبونه إلى الزندقة والجنون، وتراهم ينظرون أليك وهم لا يبصرون، فمنهم المنكر لكراماتهم، ومنهم المنقص لمقاماتهم، ومنهم الثالب لأعراضهم، ومنهم المعترضون يعترضون على أحوالهم[6]. . .

ويقول: ومن الأولياء من سد باب الكلام في دقائق كلام القوم حتى مات، وأحال

---

(١) الفتوحات الإلهية، ص١١٢.
(٢) الفتوحات الإلهية، ص٣٥١ وما قبلها.
(٣) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ولد في تونس عام ١٣٣٤م، تقلب في البلاد، وتوفي في القاهرة عام ١٤٠٦م، الموافق لسنة ٨٠٨هـ.
(٤) الفتوحات الإلهية، ص٣٤٧.
(٥) أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري المعروف بالشعراني، توفي في القاهرة سنة ٩٧٣هـ.
(٦) الطبقات الكبرى: ١ / ٢.

ذلـك على السلوك، وقـال: من سلك طريقهم اطلع على ما اطلعـوا عليـه، وذاق كما ذاقـوا، واستغنى عن كلام النـاس، وسيـأتي في ترجمة عبد الله القرشي رضي الله عنه أن أصحـابـه طلبوا منه أن يسمعهم شيئاً من علم الحقائق، فقال لهم: كم أصحابي اليوم؟ قالوا: ست مئة رجل. فقال الشيخ: اختاروا لكم منهم مئة. فاختاروا، فقال: اختاروا من المئـة عشـرين. فاختـاروا، فقال: اختاروا من العشرين أربعة. فاختاروا، «قلت»: وكـان هؤلاء الأربعـة أصحـاب كشـوفات ومعارف. فقال الشيخ: لو تكلمت عليكم في علم الحقائق والأسرار، لكان أول من يفتي بكفري هؤلاء الأربعة[1].

ـ ما يجب أن ننتبه إليه بشدة في هذا النص، هو قوله: «لكان أول من يفتي بكفري هؤلاء الأربعـة»، مع العلم أنهم أصحـاب كشـوف ومعـارف، فهم متحققـون بمثل ما تحقق به شيخهم، مما لو نطق به لكفـروه! إذن فلم يكفـرونـه وهم على مثـل عقيدته؟! الجواب فيما مر معنا من نصوص، وخاصة قول الجنيد في أوائل هذا الفصل؛ أي يكفرونه لأنه يبوح بالسر.

ويقول الشعراني أيضاً:

قال سيـدي يوسف العجمي رحمه الله: «وإنـما أمر النبي ﷺ بغلق الباب لما أراد أن يلقن جماعة من أصحابه، كما تقدم، وقال: هل فيكم غريب...؟ لينبه على أن طريق القوم مبنية على الستر، بخلاف الشريعة المطهرة، فلا ينبغي لأحد من أهل الطريق أن يتكلم بالحقيقة عند من لا يؤمن بها خوفاً أن ينكرها فيمقت[2].

وكان يقول:

إياك أيها المريد أن تجادل أصحاب الطروس بما تجده في نفسك من الأمور الذوقيات، فربما شنوا عليك الغارات ولم يرجعوا عما هم عليه، وربما سبّوا الطريق وأهلها[3].

ويقول شيخ الشيوخ عبد الرحمن المجذوب[4] زجلاً:

---

(١) الطبقات الكبرى: ١ / ١٢.

(٢) الأنوار القدسية: ١ / ٢٩.

(٣) الأنوار القدسية: ١٦٣.

(٤) سيدي عبد الرحمن المجذوب من الأولياء الأكابر! كان مقطوع الذكر، قطعه بنفسه في أوائل جذبته. مات في =

احفر لسرّك ودكّو في الأرض سبعين قامة
وخلّ الخلائق يشكّو إلى يوم القيامة[1]

ويقول أحمد بن عبد الأحد السرهندي[2] (مجدد الألف الثاني):

. . . والمنع من إظهار حقائق عالم الأمر إنما هو بسبب دقة تلك المعاني المكنونة . . .

وليس في بثي الأسرار مصلحة وإن ظهرن لنا كالشمس في فلك

. . . وبقية الجواهر العليا التي فوق الصفات الحقيقية داخلة في دائرة حضرة الذات تعالت وتقدست، ولهذا يقال لتجليات هذه المراتب الثلاثة تجليات ذاتية، ولا مصلحة في التكلم وراء ذلك. بلغ اليراع إلى هنا فتكسرا[3]. اهـ.

أظن أن القارىء يعرف الآن أن عبارة «بسبب دقة تلك المعاني المكنونة» هي للمغالطة، وأن السبب الحقيقي هو خوف التكفير.

- ويقول ابن عجيبة[4]:

. . . فإذا انفرد القلب بالله، وتخلص مما سواه، فهمَ دقائق التوحيد وغوامضه التي لا يمكن التعبير عنها، وإنما هي رموز وإشارات لا يفهمها إلا أهلها، ولا تفشى إلا لهم، وقليل ما هم. ومن أفشى شيئاً من أسرارها مع غير أهلها فقد أباح دمه، وتعرض لقتل نفسه، كما قال أبو مدين رضي الله عنه:

وفي السر أسرار دقاق لطيفة تراق دمانا جهرة لو بها بحنا

وهذه الأسرار هي أسرار الذات وأنوار الصفات التي تجلّى الحق بها في مظهر الأكوان، وإلى ذلك أشار (ابن عطاء الله السكندري) بقوله: «الكون كله ظلمة، وإنما

= القاهرة عام ٩٤٤هـ.

(١) إيقاظ الهمم، ص١١٢.

(٢) مؤسس الطريقة المجددية، مات في الهند سنة ١٠٣٤هـ / ١٦٢٥م.

(٣) المنتخبات من المكتوبات، ص٧.

(٤) العارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني مغربي من كبار صوفية القرن الثالث عشر الهجري، مات سنة ١٢٢٤هـ.

أناره ظهور الحق فيه»[1].

ـ هنـا، يصـرح ابن عجيبـة بالسـر، فيقول: «وهذه الأسرار هي أسرار الذات. . . . التي تجلّى الحق بها في مظهر الأكوان»، وأظن أن الجملة واضحة.

ويقـول: . . . فلأن هذه الأمـور أذواق باطنيـة، وأسـرار ربـانيـة. . . وأيضـاً هي أمانات وسر من أسرار الملك، وسر الملك لا يحل إفشاؤه، فمن أفشاه كان خائناً واستحق الطـرد والعقـوبـة، ولا يصلح أن يكون أميناً بعد ذلك، فكتْم الأسرار من شأن الأخيار، وهتْك الأسرار من شأن الأشرار. وقد قالوا: قلوب الأحرار قبور الأسرار. وقال الشاعر:

لا يكـتُـمُ الســـر إلا كلُّ ذي ثقـة ... فالسـر عنـد خيـار النـاس مكتـوم[2]

ويقول أيضاً:

«وقال الحلاج رضي الله عنه:

أنـا أنـت بلا شك ... فسـبحـانـك سبحـاني
وتـوحـيـدك توحـيـدي ... وعـصـيـانـك عصـيـاني

وقال أيضاً (أي الحلاج):

سبـحـان من أظـهـر ناسـوتُـه ... سرَّ سنـا لاهـوتـه الـشـاقـب
ثم بدا في خلقـه ظاهـراً ... في صورة الآكـل والـشـارب
حتـى لقـد عايـنـه خلقـه ... كلحظـة الحـاجـب بالحـاجـب

وبإظهار هذا وأمثاله قُتل رضي الله عنه. فمن لطف الله تعالى ورحمته أن ستر ذلك السر بظهور نقائضه، صوناً لذلك السر أن يظهر لغير أهله. ومن أفشاه لغير أهله قُتل كما فُعل بالحلاج. . .»[3].

● ملاحظـة: هم يكتمـون السـر خوفـاً من السيف. وتجـرؤ وا على الله سبحانه فجعلوه

---

(١) إيقاظ الهمم، ص٣٩، وجملة «الكون كله. . .» من الحكم العطائية.

(٢) إيقاظ الهمم، ص١١٢.

(٣) إيقاظ الهمم، ص١٥٦.

مثلهم! فهل يخاف سبحانه من السيف؟؟!

ويقول: . . . قد يرخص للعارف الماهر إلقاء الحقائق مع من لا يعرفها، بعبارة رقيقة وإشارة لطيفة، وغزل رقيق، بحيث لا يأخذ السامع منها شيئاً. فقد كان الجنيد رضي الله عنه يلقي الحقائق على رؤوس الأشهاد، فقيل له في ذلك، فقال: جانب العلم (أي علم الحقائق الصوفية) أحمى من أن يأخذه غير أهله[1].

ويقول ابن عجيبة أيضاً في شرح قول ابن البنا السرقسطي:

ثم امتحى في غيبة الشهود فأطلق القول أنا معبودي
حتى إذا رد عليه منه أثبت فرقاً حيث لم يكنه

يقول: العبد في حال غفلته يكون مبتلى برؤية نفسه، واقفاً مع شهود حسّه، مسجوناً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته. فإذا أراد الله تعالى أن يرفع عنه الحجاب ويدخله في حضرة الأحباب، ألقاه إلى ولي من أوليائه، وعرفه سر خصوصيته واصطفائه، فلا يزال يسير به ويحاذيه ويخرق عليه عوائد نفسه ويغيّبه عنها، ويزهده في فلسه وجنسه، فإذا رآه الشيخ قد رق في حقه الحجاب، واستحق الانخراط في سلك الأحباب، فتح له الباب وقال له: ها أنت وربك، فإذا زج في حضرة النور، ورفعت عنه الستور، أنكر الوجود بأسره، وأنكر وجود نفسه، فامتحق وجودُه في محبوبه، وانطوى شهوده في شهود معبوده، فأنشأ يقول: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا، أنا المحب والحبيب، ليس ثم ثان»، فإذا تمكن في الشهود وتحقق برؤية نور الملك المعبود، رُدَّ عليه صحوه ورجع إليه سلوكه، فأثبت فرقاً في عين الجمع، قياماً بوظائف الحكمة في عين شهود القدرة، فيكون الجمع في باطنه مشهوداً، والفرق على ظاهره موجوداً، فرقاً لفظيًا لا حقيقيًا؛ أدباً مع الربوبية وقياماً بوظائف العبودية . . . (إلى أن يقول): . . . وقوله: «فأطلق القول أنا معبودي». إطلاق هذا القول لا يسلم له إلا في حالة القوة والجذب، وإلا فقد علمت ما وقع للحلاج وهو ولي الله حقًّا، وفي معنى ذلك قيل:

ومن شهد الحقيقة فليصنها وإلا سوف يقتل بالسنان

---

(1) إيقاظ الهمم، ص١١٣.

كحلاج المحبة إذ تبدت | له شمس الحقيقة بالتداني

وقال آخر:

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم | وكذا دماء البائحين تباح

وقال ابن خلدون: «قتل الحلاج بفتوى أهل الظاهر وأهل الباطن، أهل الشريعة وأهل الحقيقة، لأنه باح بالسر، فوجبت عقوبته». وممن أفتى بقتله الجنيد والشبلي، غيرة على السر أن يفشى لغير أهله. فالواجب كتم الأسرار، وإظهار شريعة النبي المختار[1]...

● ملاحظة: قوله: «.. كتم الأسرار وإظهار شريعة النبي...» واضح الدلالة على أن الأسرار تناقض شريعة المختار.

ويقول أيضاً:

... ثم هؤلاء الجهال (أي أهل الشريعة) لم يقنعوا بالإنكار، حتى كفّروا من قال بشيء من ذلك (أي من ذلك السر). كما قال (أي ابن البنا السرقسطي):

وكفّروا وزندقوا وبدّعوا | إذا دعاهم اللبيب الأورع

قلت: هذا من الحرمان، وعلامة الخذلان، إذا دعاهم أحد إلى التحقيق، قالوا: إنه زنديق. وإذا خرق عوائد نفسه في دواء قلبه، قالوا: إنه صاحب بدعة. وهذا كله حجاب وستر لأوليائه، فإذا سمع المريد شيئاً من ذلك فليطب نفساً، فتلك عناية به، نعم، ينبغي أن يجزم نفسه في ستر السر الذي عنده، فإن أفشى شيئاً من ذلك فسيف الحلاج فوق رأسه[2].

ويقول: إذا قال الفقير: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا» قبل تحقق فنائه، فما أبعده عن الصواب، وإذا تحقق فناؤه، فلا يقول ذلك إلا مع من يصدّقه في حاله، وإلا تعرض لقتله[3]...

---

(1) الفتوحات الإلهية، حاشية الإيقاظ، ص٣٤٦ و٣٤٧.
(2) الفتوحات الإلهية، ص٤٢٧.
(3) الفتوحات الإلهية، ص٤٥٦.

ـ نرى أن ابن عجيبة واضح، ونصوصه واضحة، إنه ـ في الواقع ـ يفشي السر رغم دعوته إلى كتمانه، ثم يشرح لنا بوضوح سبب الدعوة إلى الكتمان.

وفي النص الأخير، يبين لنا معنى كلمة «الفناء» بحيث لا نحتاج معه إلى الرجوع إلى غيره. ومن الواضح جدًّا أنه يعني بقوله: «أنا من أهوى» أي: أنا الله! وقد مر في نص قبله، قوله: «أنا معبودي»، ومتى تسلم لقائلها.

ويقول أيضاً:

إياك أن تقول أناه، واحذر أن تكون سواه[1].

واضح أن عبارة «أناه» تعني «أنا هو» أو «أنا الله». وهذه الجملة لابن عجيبة، هي الموضوع الذي دارت حوله كل ما مر معنا من نصوص حول هذا الموضوع. فهو يقول: إياك أن تقول (بلسانك للناس): أنا الله، ولكن احذر أن تكون (عقيدةً) سواه، أي أن تعتقد أنك سواه (أي سوى الله!) ـ وهو نفس قول الشاذلي: «ليكن الفرق في لسانك...».

ويقول محمد مهدي الرواس[2]:

وبويعت في الحضرة على كتم أسرار الحضرة إلا عن أهلها. وقد قال إمامنا الشافعي رضي الله عنه:

ومَن منَحَ الجهّال علماً أضاعه ... ومَن مَنَعَ المستوجبين فقد ظلمْ[3]

وبويعت في الحضرة، على خفاء في ظهور، وظهور في خفاء، وطلسمية في مجلى، ومجلى في طلسمية، وانقباض في انبساط، وانبساط في انقباض، وتعين في استتار، واستتار في تعين[4]...

---

(1) الفتوحات الإلٰهية، ص٣٤٧.

(2) القطب الغوث الفرد المتمكن... السيد بهاء الدين محمد مهدي الشيوخي الشهير بالرواس، بن علي الرفاعي الصيادي الحسيني الحسني، من بلدة سوق الشيوخ من أعمال البصرة، تجول كثيراً ومات في بغداد عام ١٢٨٧هـ.

(3) بوارق الحقائق، ص٢٩٢.

(4) بوارق الحقائق، ص٢٧٣.

ويقول: وبويعت في الحضرة، على الوقوف على قدم الاهتمام، مع حكم الطي في الـزمـان، بإعـلاء أحكـام شريعة سيد الأكوان - عليه صلوات الرحمن - وها أنا والحمد لله على العهـد، تجردت لإعـلاء أحكامها، برقائق يفهمها من فهمه الله بنوره المبين، وفقهه في الدين، مع طي في منشور الزمان، على منوال قول القائل:

تسـترتُ من دهـري بظـل جنـاحـه فصـرتُ أرى دهـري ولـيس يراني
فإن تسـألِ الأيـام عنيَ ما درت وأيـن مكـاني ما عرفـن مكـاني[1]

ويقول «من قصيدة»:

طريـقـتُـنـا أنّـا نمـرُّ زمـانـنـا ونـحـن على مهـدِ الـتَّـكـتُّـم قُوّم
طريـقـتُـنـا أن نجعـلَ الـسـرَّ رقعـةً وفـيـهـا سطـورُ الـصـدقِ لله نَرْقُمُ[2]

ومنها:

طريقتُنـا أن نحفـظَ الشـرعَ ظاهـراً وهـذا هو الـسـرُّ الخـفـيُّ المطـلسمُ[3]

ويقول محمود أبو الفيض المنوفي[4] «من قصيدة»:

وأبـصـرتُ أسـراراً تسـامت بذاتهـا وإني أرى شرحـي لها فوق طاقـتي
فإني إذا ما بُحْـتُ يومـاً بسـرِّهـا لقيـتُ حِمامي بعـد تمزيـق مُهـجـتي
ولـسـتُ على سرٍّ أمـيـنـاً إذن ولا حظيـتُ بقـرب عنـد أهـل مودتي[5]

* * *

وكـن كاتمـاً للسـر عن غير أهـله ولا تفـشـه إلا لأهـل الـبـصـيرة[6]

---

(١) بوارق الحقائق، ص٢٧٤.

(٢) المجموعة النادرة، ص٢٨٧.

(٣) المجموعة النادرة، ص٢٨٨.

(٤) محمود أبو الفيض بن علي بن عمر بن إبراهيم أبو ماضي... ولد في مدينة منوف من مديريات مصر عام ١٣١٢هـ، وهو مؤسس الطريقة الفيضية، وصاحب مجلة العالم الإسلامي، ورئيس تحريرها، ولعله يكون متمتعاً بالصحة أثناء كتابة هذه الكلمات.

(٥) بداية الطريق إلى مناهج التحقيق، ص٦٦.

(٦) معالم الطريق إلى الله، ص٤٤٤.

ويقول أيضاً:

ومن أعظم مواهب الله لأوليائه وجود العبارة، وهي (الفتوح بالتعبير عن المقاصد).
قال[1]: وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: (يكون الولي مشحوناً بالعلوم والمعارف، والحقائق لديه مشهودة، حتى إذا أُعطي العبارة، كانت كالإذن من الله له في الكلام).
وقال: من أُذن له في التعبير حسنت في مسامع الخلق عباراته، وحليت لديهم إشاراته.
وقال: سمعت شيخنا أبا العباس يقول: (كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة من نور قلبه، وكلام الذي لم يؤذن له يكون مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة، فيقبل من أحدهما ويرد على الآخر). واعلم أن من أراد الله أن يكون داعياً إليه من أوليائه فلا بد من إظهاره إلى العباد ولو لخاصتهم، إذ لا تكون الدعوة إلى الله إلا كذلك[1].

- لقد مرت أقوال أبي العباس المرسي في صفحات سابقة، وأُكررها هنا، لأن السيد المنوفي يتبناها.

- وعن الشيخ محمد أمين الكردي[2] يقول الشيخ سلامة العزامي[3]:

. . . وكان يرى أن القول بوحدة الوجود من سكْر الوقت وغلبة الحال، يعذر صاحبه إذا كان مغلوباً، ولا يصح تقليد غيره له، وكان يرى الخوض فيه حراماً إلا لمن ثبتت قدمه في عقيدة أهل السنة والجماعة، وعرف ذلك من بقايا السكر ولم يتأثر بما يسمعه من الشطحات[4]. . .

- الوقت: ما هو غالب على العبد[5]. أو ما كان هو الغالب على الإنسان[6]، فيقال: «وقتك الحزن، أو وقتك السرور، أو وقتك الجذبة، أو وقتك الغيبة. . .» وهذا

(١) معالم الطريق إلى الله، ص٢٥٧.
(٢) شيخ شيوخ العصر . . . القطب الكبير محمد أمين الكردي الإربلي ابن الشيخ فتح الله زاده، أخذ الطريقة النقشبندية عن الشيخ عمر النقشبندي، رحل إلى الحجاز ثم إلى القاهرة ومات فيها عام ١٣٣٢هـ.
(٣) الشيخ سلامة العزامي، أحد أكابر علماء الأزهر وتلميذ الشيخ الكردي.
(٤) ترجمة الشيخ الكردي في مقدمة كتاب تنوير القلوب، ص٤٢.
(٥) معجم المصطلحات الصوفية.
(٦) شرح حاشية العروسي: ٢ / ٢٢.

النص أكثر وضوحاً من أن يحتاج إلى تعليق، ولكنه مع ذلك بحاجة إلى تأمل.

ويقول الشيخ عبد القادر الحمصي[1]:

احـذر نفس الله في كل آن واكـتـم سر الله ضمـن الجـنـان
واعـلـم أن الله عين الـعـيـان واجمـع خلق الله في الـوحـدة[2]

ومن قوله:

اكـتـم الأسـرار عن ذوي الأغـيـار واهـدم الأسـوار واهـجـر بيعـك[3]

ـ ذوو الأغيار، أو أصحاب الأغيار: أي الذين يتوهمون أن في الوجود غير الله، أو الذين يتوهمون أن المخلوق غير الخالق.

ويقول ابن أُنبوجة[4]:

. . . والغيرة عبارة عن التلبس بالرسوم، والكتم عن السر، والإشارة دون تصريح صيانةً للأسرار، واتساعاً لمحل الأمانة، فيرقى عن ضيق الحمل، ومطاوعة البوح[5].

ـ الرسوم: جمع رسم، وهو الخلق وصفاته، لأن الرسوم هي الآثار، وكل ما سوى الله هي آثاره الناشئة من أفعاله[6]. ومعنى هذا الكلام هو أن الرسوم هي المخلوقات إذا توهمناها غير الخالق. ويكون معنى قوله: «التلبس بالرسوم» هو: التظاهر بأن الخلق غير الخالق!

ـ يبين ابن أُنبوجة لِمَ يستعملون الإشارة في العبارة، دون التصريح، إنها من أجل أن ترقى بهم عن ضيق الحمـل «أي حمل السـر» وعن مطـاوعـة البـوح به. فيفـرّجـون عن

---

(1) الشيخ عبد القادر الحمصي، أخذ الطريقة عن الشيخ علي اليشرطي وهو قريب العهد.

(2) اللطائف الروحية، ص٤٢.

(3) اللطائف الروحية، ص٨٢.

(4) الشيخ العلامة العارف بالله سيدي عبيدة بن محمد الصغير بن أنبوجة الشنقيطي التيشيتي، من أفراد أعلام الطريقة التجانية . . . توفي عام ١٢٨٤هـ.

(5) ميزاب الرحمة الربانية، ص١١٣.

(6) معجم مصطلحات الصوفية.

صدورهم بعبارات مموهة على أهل الرسوم.

ولعل في هذا القدر من أقوال الكبار من أئمة الصوفية في كتمان السر عن غير أهله، والتلبيس على أهل الشريعة بالشريعة، وتنبيه السالكين أن التصريح بالسر يقودهم إلى السيف، لأن السر كفر وزندقة!! لعل في هذا القدر كفاية.

بل فيه أكثر من الكفاية، بل وأكثر بكثير! فقد كانت الكفاية في نص أو نصين من «إحياء علوم الدين» الكتاب العظيم الشأن! عظيم الوقع! كثير النفع! جليل المقدار! ليس له نظير في بابه! ولم ينسج على منواله! ولا سمحت قريحة بمثاله! كاشفاً عن الغوامض الخفية... إلخ، لمؤلفه «حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام! الإمام! بل أكثر من عشرين ألف إمام! جامع أشتات العلوم! الضرغام! والبدر التمام! كاشف غياهب الشبهات... إلخ» أبي حامد الغزالي.

لقد كان في نص أو نصين منه كفاية. إذ لا كلام في هذا الكلام مع كلام حجة الإسلام؛ لأن حجة الكلام، كلام حجة الإسلام! وليس بعد كلامه كلام! وإلا فما معنى كونه «حجة الإسلام»؟!!

- هذه الفقرة هي من عدوى الكشف والعلوم اللدنية فالمعذرة!!

قد يقول قائل: ما دام نص أو نصان يكفيان! فلِمَ كل هذا الركام؟!

الجواب: هو محاولة - قد تكون فاشلة وقد تكون ناجحة - للوقوف أمام الثعلبيات الزئبقية التي نسمعها دائماً وأبداً من الصوفية وأنصارهم، ومن السذج الذين خدعوا بالعبارات المنمقة التي تسمي الليل ظهراً والجهل علماً!

فلو أتيناهم مثلاً بمثل من «الإحياء» لسمعنا أقوالاً مختلفة، فقد يقول قائل منهم: «هذا كلام مدسوس على الكتاب»، وهي الجملة الظالمة التي كررت وتكرر دون حياء، وقد يقول آخر: «هذا قول انْتُهِيَ منه، ولم يبق له رصيد الآن. هذا كان عند بعضهم فقط». وقد يقول آخر: «التعميم لا يجوز»، وقد يقولون: هذا له تأويل (وما أدراك ما التأويل، له ذنب طويل، وخرطوم طويل، وناب طويل، وظفر طويل، وشعر طويل...).

من أجل هذا أوردت هذا الركام . ولولا الخوف من الإطالة ، وأن يبلغ الكتاب حجماً أكبر من حجمه ، لأوردت من أقوال من أوردت أسماءهم ، ومن أقوال غيرهم في هذا الموضوع ما قد يحتاج إلى مئات الصفحات ، إن لم يكن أُلوفها ! !

واستكمالاً للفائدة ، أُعيد عرض بعض النصوص السابقة ذات الأهمية الخاصة الواضحة ، مع بعض الإضافات .

يقول الجنيد :

لا يكون الصدِّيق صدِّيقاً حتى يشهد له في حقه سبعون صديقاً أنه زنديق ! ! وفي رواية : «ألف صديق أنه زنديق» .

ويقول ابن عجيبة :

. . . وإلا فقد علمت ما وقع للحلاج ، وهو ولي الله حقًّا . . . وممن أفتى بقتله الجنيد والشبلي . . . (طبعاً لأنه باح بالسر) .

ويقول ابن عربي :

ومـنْ كاتـمٍ للسـر يظـهـر ضده   عليـه لطـلاب المـشـاهـد للبـقـا

ويقول اليافعي :

. . . لما سعي بالصوفية إلى بعض الخلفاء ، أمر بضرب رقابهم ، فأما الجنيد فتستر بالفقه ، وكان يفتي على مذهب أبي ثور .

ويقول أبو الحسن الشاذلي :

ليكن الفرق في لسانك موجوداً ، والجمع في جنانك مشهوداً .

ويقول ابن عجيبة أيضاً :

إياك أن تقول أناه ، واحذر أن تكون سواه .

وهو نفس المعنى تماماً الذي يقوله أبو الحسن الشاذلي .

«الفرق : هو أن تفرق بين الخالق والمخلوق ، والجمع أن تجمعهما في ذات واحدة» ،

وقد مر هذا الشرح سابقاً، وأعيده هنا.

وأعيد قول الحلاج لأهميته الخاصة الخاصة، يقول:

المعنى الذي به تُحقن الدماء، خارج عن الصلاة والصوم وقراءة القرآن.

ولا أُعلق بشيء، فهي واضحة جدًا، ولذلك أعدت كتابتها. ولكني أُورد قولاً آخر له أهميته الخاصة جدًا.

يقول الشعراني:

.. قال عبد الله القرشي: .. لو تكلمت عليكم في علم الحقائق والأسرار، كان أول من يفتي بكفري هؤلاء الأربعة[1]!

- وطبعاً، يفتون بكفره ظاهراً بألسنتهم، أما في الباطن فهم يعتقدون عقيدة جازمة أنه صدِّيق ولي لله، وأن إفتاءهم - في الظاهر - بكفره هو للتمويه والنجاة من السيف! أو لكتمان السر!! أو لإعطاء الظاهر حكم الظاهر، ويبقى للباطن حكم الباطن!

ويقول أحمد الشرباصي، معلقاً على قول للغزالي:

فأنت ترى معي، من غير شك، أن الغزالي بعد أن أبان الصعوبة في وضع تعريف جامع مانع للتصوف بسبب سريته وباطنيته... إلى أن يقول: ولعل هذه السرية، أو الباطنية المستكنة في حقيقة التصوف، كانت المدخل لادعاء الكثيرين التصوف[2].

ومما يورده أحمد زيني الدحلان:

«وسئل والد الشيخ محمد الرملي عن القائل بوحده الوجود، فقال: يقتل هذا المرتد وترمى جيفته للكلاب، لأن قوله هذا لا يقبل تأويلاً، وكفره أشد من كفر اليهود والنصارى، واستحسن الشيخ ابن حجر منه هذه الفتوى... فمن زعم أن وحدة الوجود غير وحدة الشهود لم يشم رائحة معنى الوحدة، فوحدة الوجود ترجع إلى وحدة الشهود من غير حلول ولا اتصال، هذا هو القول الحق[3]. انتهى».

---

(١) طبقات الشعراني: ١ / ١٢

(٢) التصوف عند المستشرقين، ص١٤.

(٣) تقريب الأصول لتسهيل الوصول، ص٥١.

ـ لنلاحظ أن الكفر عندهم هو التصريح بوحدة الوجود بعبارة لا تقبل التأويل «لأن قوله هذا لا يقبل تأويلاً» كما يجب أن نلاحظ أن وحدة الشهود هي وحدة الوجود.

ويقول عبد القادر الجيلاني:

أشد الأشياء على من عرف الله عز وجل، النطق مع الخلق والقعود معهم، ولهذا يكون ألف عارف والمتكلم فيهم واحد، إلا أنه يحتاج إلى قوة الأنبياء عليهم السلام، وكيف لا يحتاج إلى قوتهم وهو يريد أن يقعد بين أجناس الخلق، يخالط من يعقل ومن لا يعقل، يقعد مع منافق ومؤمن، فهو على مقاساة عظيمة صابر على ما يكره، ومع ذلك فهو محفوظ فيما هو فيه، معان عليه، لأنه ممتثل لأمر الحق عز وجل في كلامه على الخلق، لم يتكلم بنفسه وهواه واختياره وإرادته، إنما أجبر على الكلام، فلا جرم يحفظ فيه[1].

ـ والآن..

نختم هذا الفصل، بفصل من كتاب «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» للإمام العارف الرباني سيدي عبد الوهاب الشعراني..

يقول: (الفصل الثالث) في بيان إقامة العذر لأهل الطريق في تكلمهم في العبارات المغلقة على غيرهم رضي الله عنهم[2]:

اعلم رحمك الله، أن أصل دليل القوم في رمزهم الأمور، ما روي في بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأبي بكر الصديق: أتدري يومَ يوم؟ فقال أبو بكر: نعم يا رسول الله، لقد سألتني عن يوم المقادير. وروي أيضاً أنه قال له يوماً: يا أبا بكر، أتدري ما أريد أن أقول؟ فقال: نعم، هو ذاك هو ذاك، حكاه الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في بعض كتبه.

* نقف قليلاً لنورد قوله ﷺ: «إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[3] جواباً على هذه الأحاديث المكذوبة.

وذكر الشيخ محيي الدين في الباب الرابع والخمسين من الفتوحات ما نصه: اعلم أن

---

(١) الفتح الرباني، ص٢١٦.

(٢) اليواقيت والجواهر: ١ / ١٤.

(٣) صحيح مسلم «كتاب العلم».

أهـل الله لم يضعـوا الإشـارات التي اصطلحـوا عليها فيما بينهم لأنفسهـم، فإنهم يعلمون الحق الصـَّريـح في ذلـك، وإنما وضعوها منعاً للدخيل بينهم، حتى لا يعرف ما هم فيه، شفقة عليه أن يسمع شيئاً لم يصل إليه، فينكره على أهل الله، فيعاقب على حرمانه، فلا ينـالـه بعـد ذلك أبداً، قال: ومن أعجب الأشياء في هذه الطريق، بل لا يوجد إلا فيها، أنـه ما من طائفـة تحمـل علماً من المنطقيـين والنحـاة وأهـل الهندسة والحساب والمتكلمين والفلاسفة، إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلا بتوقيف منهم، لا بد من ذلك، إلا أهـل هذه الطـريق خاصـة، فإن المـريد الصادق إذا دخل طريقهم، وما عنده خبر بما اصطلحـوه، وجلس معهم، وسمـع منهم ما يتكلمـون به من الإشـارات، فهم جميـع ما تكلموا به، حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح، ويشاركهم في الخوض في ذلك العلم، ولا يستغرب هو ذلك من نفسه، بل يجد علم ذلك ضروريًّا لا يقدر على دفعه، فكأنه ما زال يعلمه، ولا يدري كيف حصل له ذلك، هذا شأن المريد الصادق، وأما الكاذب فلا يعرف ذلك إلا بتوقيف، ولا يسمح له قبل إخلاصه في الإرادة وطلبه لها أحد من القوم؛ ولم يزل علماء الظـاهـر في كل عصر يتوقفون في فهم كلام القوم، وناهيك بالإمام أحمد بن سريـج، حضـر يومـاً مجلس الجنيـد، فقيـل له: ما فهمت من كلامه؟ فقال: لا أدري ما يقـول، ولكن أجـد لكـلامه صولة . . . ثم إن القوم لا يتكلمون بالإشارة إلا عند حضور من ليس منهم، أو في تأليفهم لا غير. ثم قال: ولا يخفى أن أصـــل الإنكـار من الأعـداء المبطلين إنما ينشأ من الحسد، ولو أن أولئك المنكرين تركوا الحسد وسلكوا طريق أهل الله لم يظهـر منهم إنكـار ولا حسـد، وازدادوا علماً إلى علمهـم. ولكن هكـذا كان الأمر، فلا حول ولا قوة إلا بالله العـلي العظيم. . . وأشـد النـاس عداوة لأصحـاب علوم الـوهب الإلهي، في كل زمـان، أهـل الجـدال بلا أدب، فهم لهم من أشـد المنكـرين؛ ولما علم العـارفـون ذلـك عدلـوا إلى الإشـارات، كما عدلت مريم عليها السلام، من أجل أهل الإفـك والإلحـاد، إلى الإشـارة، فلكـل آيـة أو حديث عنـدهـم وجهـان: وجه يرونه في نفـوسهـم، ووجـه يرونـه فيـما خرج عنهم، قال تعـالى: ﴿سنُـريهِمْ آيـاتِنـا في الآفاقِ وفي أنفُسِهـم﴾ فيسمون ما يرونه في نفوسهم إشارة ليأنس المنكرون عليهم، ولا يقولوا إن ذلك تفسـير لتلك الآيـة أو الحـديث، وقـايـة لشرهم ورميهم لهم بالكفر، جهلاً من الراميـن معرفة مواقع خطاب الحق تعالى، واقتدوا في ذلك بسنن من قبلهم، وإن الله تعالى كان قادراً أن ينص ما تأوله أهل الله وغيرهم في كتابه، كالآيات المتشابهات، والحروف أوائل

السور، ومع ذلك فما فعل، بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية والحروف أوائل السور، علوماً اختصاصية لا يعلمها إلا عباده الخُلَّص. . . ومع هذا التفاضل المشهور فيما بينهم ينكرون على أهل الله تعالى. . . فإن القوم لما عملوا بما علموا، أعطاهم الله تعالى علماً من لدنه، بإعلام رباني أنزله في قلوبهم مطابقاً لما جاءت به الشريعة لا يخرج عنها ذرة!!

* وقفة قصيرة ثانية: بما أننا الآن نعيش لحظات في التفسير الإشاري، فنريد أن نفهم النصوص فهماً «إشاريًّا». وعليه يكون المعنى «الإشاري» لعبارة «مطابقاً لما جاءت به الشريعة» هو: مطابق «أي يشكل طبقة مقابلة» لما جاءت به الشريعة؛ وواضح أن هذا يعني أنهما منفصلان عن بعضهما. أما قوله: «لا يخرج عنها ذرة» فتحتمل معنيين «إشاريين»:

المعنى الأول: لا يخرج عنها، أي عن الشريعة، ذرة، أي واحدة، لتلتحق بالعلم اللدنّي. فلا يوجد في العلم اللدني ذرة واحدة خرجت إليه من الشريعة، فهما مختلفان جملة وتفصيلاً.

المعنى الثاني: «بالكشف» نشاهد أن كلمة «ذرة» تعني في لغة «الحقيقة» المسافة بين الجنة وجهنم. فيكون المعنى: لا يخرج عنها ذرة، أي لا يخرج عنها المسافة بين الجنة وجهنم. فالمسافة بين الجنة وجهنم موجودة بين الشريعة وبين حقيقتهم.

نعود لمتابعة النص، بعد القفز عن تفسيرات إشارية:

. . . ولكن هؤلاء المنكرون، لما تركوا الزهد في الدنيا، وآثروها على الآخرة، وعلى ما يقرب إلى الله تعالى. . .

* وقفة قصيرة ثالثة: أين قوله هنا: «وآثروها على الآخرة» من أقوالهم: «إلى متى الدنيا؟ إلى متى الآخرة؟»، و«اخلع نعليك»، و«اخرج من الكونين». . إلخ؟! والتي سنراها في نصوص مقبلة. . . تتابع.

. . . وتعوّدوا أخذ العلم من الكتب، ومن أفواه الرجال، حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عباداً تولى تعليمهم في سرائرهم، إذ هو المعلم الحقيقي للوجود كله، وعلمه هو العلم الصحيح الذي لا يشك مؤمن ولا غير مؤمن في كماله. . . فعُلم أن من كان معلمه الله تعالى، كان أحق بالاتباع ممن كان معلمه فكره، ولكن أين الإنصاف؟ . .

فصان الله نفوسهم بتسميتهم الحقائق إشارات، لكون المنكرين لا يردون الإشارات. وأين تكذيب هؤلاء المنكرين لأهل الله في دعواهم العلم، من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لو تكلمت لكم في تفسير سورة الفاتحة لحمّلت لكم منها سبعين وقراً»، فهل ذلك إلا من العلم اللدني الذي آتاه الله تعالى له. . .

* وقفة قصيرة رابعة: الكذب على علي بن أبي طالب أهون من الكذب على الله أو على رسوله. ونتابع.

. . وقد كان الشيخ أبو يزيد البسطامي يقول لعلماء زمانه: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علومنا عن الحي الذي لا يموت. وكان الشيخ أبو مدين إذا سمع أحداً من أصحابه يقول في حكاية: «أخبرني بها فلان عن فلان» يقول: لا تطعمونا القديد. يريد بذلك رفع همة أصحابه، يعني: لا تحدثوا إلا بفتوحكم الجديد الذي فتح الله تعالى به على قلوبكم في كلام الله تعالى أو كلام رسوله ﷺ، فإن الواهب للعلم الإلهي حي لا يموت، وليس له محل في كل عصر إلا قلوب الرجال.

* وقفة قصيرة أيضاً: يقول: «الذي فتح الله تعالى به. . في كلام الله تعالى أو كلام رسوله»!! فهل قول أبي يزيد، وقول أبي مدين يوافق كلام الله أو كلام رسوله من قريب أو من بعيد؟! أو من أبعد من بعيد؟! إلا عن طريق التأويل، فسيفه صقيل، ومفعوله سحري، بل يعجز السحر والسحرة والفجرة عن تحقيق ما يحققه التأويل! . . نتابع.

. . وسئل الأستاذ علي بن وفا رضي الله عنه من بعض العارفين، على لسان بعض المعترضين: لَمَ دوّن هؤلاء العارفون معارفهم وأسرارهم التي تضر بالقاصرين من الفقهاء وغيرهم؟ أما كان عندهم من الحكمة وحسن الظن والنظر والرحمة بالخلق ما يمنعهم عن تدوينها؟ فإن كان عندهم ذلك فمخالفتهم له نقص! وإن لم يكن عندهم حكمة ولا حسن ظن فكفاهم ذلك نقصاً؟! فأجاب بقوله: يقال لهذا السائل: أليس الذي أطلع شمس الظهيرة، ونشر ناصع شعاعها مع إضراره بأبصار الخفافيش ونحوها من أصحاب الأمزجة الضعيفة، عليم حكيم؟ فلا يسعه إلا أن يقول: نعم هو تعالى عليم حكيم، فإن قال: صحيح ذلك، ولكن عارض ذلك مصالح أُخر تربو على هذه المفاسد، قلت: وكذلك الجواب عن مسألتك، فكما أن الحق تعالى لم يترك إظهار أنوار شمس الظهيرة

مراعـاة لأبصـار من ضعف بصره! فكذلك العارفون لا ينبغي لهم أن يراعوا أفهام هؤلاء المحجـوبـين عن طريقهم، بل الـزاهدين فيها، بل المنكرين عليها. . وحسبك جواباً أن من دوَّن المعـارف والأسـرار، لم يدونهـا للجمهـور، بل لو رأى من يطالع فيها ممن ليس هو بأهلها لنهاه عنها.

● ملاحظة:

هذا سبب من أسباب تدوين هذياناتهم التي يسمونها «علماً» ظلماً للعلم، ويسمونها «حقيقة» ظلماً للحقيقة! ونتابع:

. . وكـان بعض العـارفـين يقول: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهـل طريقتنـا، وكـذلـك لا يجوز أن ينقـل كلامنا إلا لمن يؤمن به، فمن نقله إلى من لا يؤمن به، دخـل هو والمنقـول إليـه جهنم الإنكار، وقد صرح بذلك أهل الله تعالى على رؤوس الأشهاد، وقالوا: من باح بالسر استحق القتل، ومع ذلك فلم يسمع أهل الغفلة والحجاب، بل تعدوا حدود القوم، وأظهروا كلامهم لغير أهله. . .

* وقفة قصيرة: هذا الكلام كله مغالطات، سيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى بين ثنايا النصوص. . نتابع.

. . فكما أوجب المجتهدون وحرّموا وكرهوا واستحبوا أموراً لم تصرح بها الشريعة في دولـة الظـاهـر، فكـذلـك العـارفـون أوجبوا أموراً وحرموا وكرهوا واستحبوا أموراً في دولة الأعمال الباطنة، فالاجتهاد واقع في الدولتين. . .

* وقفـة يجب أن تكـون ـ هنـا ـ طويلة جدًا، ولكن لا منـاص من تقصيـرهـا: فالمجتهـدون استنبطـوا أحكـامـاً من النصـوص، وهي موافقـة لها ولكليـات الشـريعـة الإسـلاميـة، بينما هؤلاء «العارفون!» أوجدوا ـ عن طريق الكشف ـ عقائد لا تمت إلى الإسـلام بصلة، بل جاء الإسـلام وكـل الأنبياء لمكافحة هذه العقائد. أكرر القول: إن هؤلاء «العارفين» جاؤوا بعقائد غريبة، وبنوا عليها أحكاماً غريبة!! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. نتابع.

. . فإن قيـل: فلمَ رمَـز القـوم كلامهم في طريقهم بالاصطـلاح الـذي لا يعـرفـه

غيرهم، إلا بتـوقيف منهم كما مر؟ ولم لم يظهـروا معـارفهم للنـاس ـ إن كانت حقًـا كما يزعمون ـ ويتكلموا بها على رؤوس الأشهاد كما يفعل علماء الشريعة في دروسهم فإن في إخفـاء العـارفـين معارفهم عن كل الناس رائحة ريبة، وفتحاً لباب رمي الناس لهم بسوء العقيدة وخبث الطوية؟ فالجواب: إنما رمَّزوا ذلك رفقاً بالخلق ورحمة بهم، وشفقة عليهم ـ (كـذب ومغـالطـة، بل رمَّـزوا خوفـاً من سيف الحـلاج) ـ وقـد كان الحسن البصري! وكذلك الجنيد والشبلي وغيرهم، لا يقررون علم التوحيد إلا في قعور بيوتهم، بعد غلق أبـوابهم، وجعـل مفاتيحها تحت وركهم! ويقولون: أتحبون أن تُرمى الصحابة والتابعون الذين أخذنا عنهم هذا العلم بالزندقة بهتاناً وظلماً.

* وقفة: هذا الكلام ـ أي اتهام الحسن البصري والصحابة والتابعين بهذا الاتهام ـ هو البهتـان والظلم، فقـد كان الصحـابـة والتـابعـون والحسن البصـري بريئين من هذه الـزنـدقة. وفي كلامهم واتهامهم هذا مغالطة جريئة جدًّا جدًّا جدًّا. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. نتابع.

.. ومـا ذلـك إلا لدقـة مداركهم «أي الصـوفيـة» حين صفت قلوبهم وخلصت من شوائب الكدورات الحاصلة بارتكاب الشهوات والآثام! ولا يجوز لأحد أن يعتقد في هذه السادة! أنهم ما يخفون كلامهم إلا لكونهم فيه على ضلال، حاشاهم من ذلك!! فهذا سبب رمز من جاء بعدهم للعبارات التي دونت، وكان من حقها أن لا تذكر إلا مشافهة، ولا توضع في الطروس، ولكن لما كان العلم يموت بموت أهله إن لم يدوّن، دوّنوا علمهم ورمزوه مصلحة للناس، وغيرة على أسرار الله أن تذاع بين المحجوبين. وأنشدوا في ذلك:

ألا إن الـرمـوزَ دلـيـلُ صدقٍ	على المـعـنـى المُغَيَّب في الـفؤادِ
وكـلُّ الـعـارفـينَ لها رمـوزٌ	وألـغـازٌ تدِقُّ على الأعـادي
ولـولا الـلغـزُ كان الـقـولُ كفـراً	وأدّى الـعـالمـينَ إلـى الـفـسـادِ

* والآن.. ليست وقفـة، بل مشيـة! إذا قال الشـاعـر: «الـرموز دليل صدق» فقد كذب الشاعر وكذب شعره، لأن الرموز عكاكيز الدجاجلة، والشعراء يتبعهم الغاوون، أمـا اصطـلاحهم فقـد غدا معروفاً لدى الباحث، ولنتنبه بشكل خاص إلى قوله: «ولولا

اللغز كان القول كفراً». نتابع.

.. فقد بان لك أنه ليس للإنسان مقابلة الوحوش والسباع الكواسر والظهور لهم، إلا إن علم قدرته على دفع أذيتهم له بتهيؤ أسباب القهر لهم بالقوة والمكنة والأنصار. فإن قيل: فلمَ لم يترك هذا العارف إظهار معارفه وأسراره بالكلية ويدخل فيما فيه الجمهور حتى يتمكن ويقوى فيكون ذلك أسلم له؟..

* نعود إلى الوقفة، هنا أراد بقوله: «بتهيؤ أسباب القهر لهم بالقوة..» أن تكون «عبارة إشارية» فكانت أقرب إلى الإفصاح! لقد أشارت هذه العبارة إلى الكيد الذي يكيدونه للإسلام، وأفصحت عن الخطة التي وضعوها لذلك! أو بأصح، الخطة الذي وضعها الشيطان ليكيد للإسلام باستخدامهم واستغلالهم! وفي قوله: «ويدخل فيما فيه الجمهور حتى يتمكن..» إفصاح كامل عن أن ما هم فيه يختلف كل الاختلاف عما فيه الجمهور، أي عن الإسلام. نتابع.

... ونقل الإمام الغزالي في «الإحياء» وغيره عن الإمام زين العابدين بن علي بن الحسين رضي الله عنه أنه كان يقول:

يا رُبَّ جوهر علمٍ لو أبوحُ به	لقيل لي أنت ممَّن يعبدُ الوثنا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمونَ دمي	يرَوْن أقبحَ ما يأْتونَهُ حسناً

قال الغزالي: والمراد بهذا العلم الذي يستحلون به دمه: هو العلم اللدني، الذي هو علم الأسرار، لا من يتولى من الخلفاء ومن يعزل، كما قاله بعضهم، لأن ذلك لا يستحل علماء الشريعة دم صاحبه، ولا يقولون له: أنت ممن يعبد الوثن[1]... اهـ.

● **تعليق**: هذا الشعر مفترى على زين العابدين، من قِبَل العارفين الصادقين الصديقين الأولياء..

ويقول محمد العربي السائح التجاني[2]:

---

(١) اليواقيت والجواهر، ص١٤ ـ ١٩، وقد حذفت منه كثيراً مما لا فائدة منه للبحث.

(٢) محمد العربي بن السائح الشرقي العمري نسبةً، التجاني مشرباً، مغربي توفي سنة ١٣٠٩هـ، وهو تلميذ أحمد التجاني وأحد خلفائه.

. . قال الشيخ علي الروذباري: (علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي). ومن هنا احتاج أهل الله تعالى إلى وضع الإشارات المصطلح عليها فيما بينهم، فيتكلمون بها عند حضور الغير وفي تآليفهم ومصنفاتهم لا غير، ولم يضعوها لأنفسهم لأنهم يعرفون الحق الصريح في ذلك، والحامل لهم على وضعها الشفقة على الدخيل بينهم، خشية أن يسمع منهم أو يرى في تآليفهم شيئاً لا يصل إليه فهمه، فينكره، فيعاقب بحرمان علمه، فلا يعلمه بعد، والعياذ بالله تعالى . . . وكان بعض العارفين يقول: «نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقتنا. وكذلك لا يجوز أن يُنقل كلامنا إلا لمن يؤمن به، فمن نقله لمن لا يؤمن به دخل هو والمنقول إليه إلى جهنم، وقد صرح بذلك أهل الله تعالى على رؤوس الأشهاد، وقالوا: من باح بالسر استحق القتل». فإن قيل: هلاّ طوى العلماء من أهل الطريق بساط التأليف والتصنيف في مثل هذه العلوم وأمسكوا عن الخوض في رقائق الإشارات ودقائق السر المكتوم؟ لأن الكلام في ذلك ربما ضر بالقاصرين من الفقهاء، فضلاً عمن عداهم، وربما خفيت وجوه المخرج فيه عن بعض النبلاء فضلاً عمن سواهم! أما كان عندهم من الحكمة والنظر للخلق بعين الشفقة والرحمة ما يمنعهم من الخوض في ذلك والتقحم لمضايق هاتيك المسالك؟! قلنا: قد ذُكر في «اليواقيت والجواهر» عن العارف بالله تعالى سيدي علي بن وفا رضي الله عنه، أنه قيل له مثل هذا فأجاب بقوله رضي الله عنه: يقال لهذا القائل: أليس الذي أطلع شمس الظهيرة ونشر ناصع شعاعها مع إضراره بأبصار الخفافيش ونحوها من أصحاب الأمزجة الضعيفة عليماً حكيماً؟ فإن قال: صحيح ذلك، ولكن عارض ذلك مصالح تربو على هذه المفاسد. قلنا له: وكذلك الجواب عن مسألتك! فكما أن الحق سبحانه وتعالى لم يترك إظهار أنوار شمس الظهر مراعاة لأبصار من ضعف بصره، فكذلك العارفون، لا ينبغي لهم أن يراعوا أفهام هؤلاء المحجوبين عن طريقهم، بل الزاهدين فيها، بل المنكرين عليها . . وكان تدوين معارفهم وأسرارهم من أحق الحقوق عليهم، لكون غيرهم لا يقوم مقامهم في تدوين أدوية أمراض القلوب وآداب حضرات الحق تعالى في جميع الأمور المشروعة، فإن لكل مقام حضوراً وآداباً تخصه . . .»[1].

---

(١) بغية المستفيد، ص١٨ و١٩ و٢٠.

ـ ولتلخيص ما مضى وتثبيتـه، يجب أن نتـذكر دائماً وألا ننسى أبداً أن غاية الصوفية واحدة وهدفها الذي يسعون إليه واحد، رغم اختلاف عباراتهم وأسماء طرقهم، وكل ما مضى براهين، ونزيده قولاً آخر لعبد الحليم محمود، يقول:

إن لكـل صوفي طابعـاً معينـاً، ولكـلامـه مذاقـاً خاصًـا. والصوفية وإن كانوا جميعاً يسـيرون إلى هدف واحـد، وغـايـة لا مذاهب فيهـا، هي التـوحيد ـ فإنهم يختلفون في الشكـل، ويتفـاوتـون في الطـريق، ومن هنـا كانت الكلمـة المـأثـورة: «التوحيد واحد ـ والتوحيد هو الغاية ـ والطريق إلى الله كنفوس بني آدم.. إنها تتعدد وتتفاوت»[1].

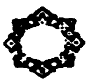
ـ وهكذا عرفنا أن الغـايـة هي «وحـدة الـوجـود». وأنهـا غاية الصوفية وهدف جميع طرقها، ولا هدف ولا غاية لهم غيرها، والوصول إلى ذوقها هو ما يسمونه «الإحسان».

وإن التقية واجبة، وهي التظاهر بالإسلام وشرعه، وإخفاء العقيدة الصوفية إلا لأهلها.

كما عرفنا متى يصرحون بعقيدتهم ولمن..

لكننـا، وكـما قلنـا سابقـاً، أمام مراوغات زئبقية لا تعرف معنى للخجل، فأحدهم يكذب عليك أمامك دون أي شعور بالحياء، كما حدث ويحدث دائماً.

ووقوفاً أمام مراوغاتهم ومكرهم نورد أيضاً أقوالاً لعدد كبير من أئمتهم، تثبت كلها أنهم كلهم يؤمنون بوحدة الوجود. لكن بعد أخذ فكرة عن معاجمهم، وما يسمونه شروحاً لمصطلحاتهم.



(١) أبو بكر الشبلي حياته وآراؤه، ص٥.

◻ المعاجم الصوفية :

ألف بعض علماء التصوف معاجم للمصطلحات الصوفية، واكتفى بعضهم بإدراج بعض المصطلحات، أو جملة منها، في ثنايا تواليفهم مع ما يسمونه «شروحها».

وفي الواقع، ليست معاجمهم معاجم شروح وتفاسير، فالقارىء العادي لا يرى فيها إلا تفسير الألغاز بالألغاز، ولا يخرج منها بأي طائل، وذلك لأنها في حقيقة الأمر، معاجم عبارات، فهي مصنوعة من أجل هدف واحد، هو أن تقدم للسالك عبارات إشارية مرموزة جاهزة ليستعملها في كتاباته وفي حواره مع أهل الشريعة، وكذلك ما يقدمونه في ثنايا تواليفهم مما يسمونه «شروحاً» لمصطلحاتهم.

وفيما يلي مجموعة من مصطلحاتهم، مع شيء من العبارات التي تشير إلى معانيها الحقيقية بأسلوب رمزي، مأخوذة من معاجمهم ومن كتبهم، وسوف لن أذكر اسم المرجع الذي آخذ منه العبارة، لئلا أزيد في حجم الكتاب من جهة، ولأن ذلك لا ضرورة له من جهة ثانية، إلا في حالات خاصة.

وأترك للقارىء الكريم أن يتسلى باستخراج معانيها الحقيقية ليتمرس باللغة الصوفية، وقد أوضح بعض المعاني عندما أظن ذلك ضرورياً، وأضع التوضيح بين قوسين، إن كان في درج كلامهم، أو أجعله بعد كلامهم بشكل تعليق أو ملاحظة..

* الجمع والفرق:

الجمع شهود الأغيار بالله، والفرق شهود الأغيار لله. الجمع إشارة إلى حق بلا خلق، والفرق إشارة إلى خلق بلا حق، وقيل: مشاهدة العبودية. الجمع شهود الحق بلا خلق، والفرق (الأول) هو الاحتجاب بالخلق عن الحق، وبقاء الرسوم الخلقية بحالها. الجمع إزالة الشعث والتفرقة بين القدم والحدث، (أي بين الخالق والمخلوق) لأنه لما

انجذبت بصيرة الروح إلى مشاهدة جمال الذات، استتر نور العقل الفارق بين الأشياء في غلبة نور الذات القديمة، وارتفع التمييز بين القدم والحدث لزهوق الباطل عند مجيء الحق. . . والجمع الصرف يورث الزندقة والإلحاد، ويحكم برفع الأحكام الظاهرية (أي: الشريعة). . ولصاحب الجمع أن يضيف إلى نفسه كل أثر ظهر في الوجود (أي يقول: أنا الخالق، أنا البارىء، أنا العرش) وكل فعل وصفة وأثر، لانحصار الكل عنده في ذات واحدة. . . والفرق: ما نسب إليك. . ومعناه أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق. فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع. وشهود الحكمة والنظر إلى الأسباب فرق.

ومن العبارات المرموزة التي يقدمها الطوسي في «اللمع»:

. . . الجمع والتفرقة اسمان، فالجمع جمع المتفرقات، والتفرقة تفرقة المجموعات، فإذا جمعت قلت: الله ولا سواه؛ وإذا فرقت قلت: الدنيا والآخرة والكون؛ وهو قوله: ﴿شهد الله أنَّه لا إلـه إلا هو﴾ فقد جمع، ثم فرق فقال: ﴿والملائكةُ وأُولو العلمِ قائماً بالقسطِ﴾. كذلك قوله: ﴿قولوا آمنَّا بالله﴾، وقد جمع؛ ثم فرق فقال: ﴿وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزل إلى إبراهيمَ﴾.

● **الملاحظة:**

من الواضح جيداً أن في الكلام كثيراً من الوضوح، بل ومن التصريح، ولنلاحظ كيف يفسرون الآيات الكريمة تفسيراً ما أنزل الله به من سلطان.

ومنها:

قال قوم: الجمع ما جمع البشرية في شهود الربوبية، والتفرقة ما فرقها عن تقسيم الرسوم. وقد ذهب الجنيد إلى أن قربه بالوجد جمع، وغيبته في البشرية تفرقة (أي قرب الله في الوجد، وغيبة الله في البشرية). وقال أبو بكر الواسطي: إذا نظرت إلى نفسك فرقت، وإذا نظرت إلى ربك جمعت. . يضيف الطوسي قوله: وهذه أحرف مختصرة في معنى الجمع والتفرقة ولمن يتدبر في فهمه إن شاء الله.

ومن شروح ابن عجيبة في «الفتوحات»: . . . قال شيخ شيوخنا علي العمراني رضي

الله عنـه في كتـابـه: اعلم أن الكلف (أي القيـام بالتكـاليف) صفة من أوصاف الفرق، وعدم الكلف صفة من أوصاف الجمع. والفرق عبودية، وهوحق؛ والجمع ربوبية، وهو حق أيضـاً، صار الحق هو القـائـل وهـو المستمـع لما قال. لأجـل هذا المعنى تجد هؤلاء المتوجهين إلى الله تعالى، من غلب عليه شهود الجمع، تجده في غاية البسط والراحة من الكلف؛ ومن غلب عليه شهود الفرق تجده في غاية القبض والتعب والكلف. . اهـ.

● المعنى الصريح:

الجمـع: هوجمع الخـالق والمخلوق في وحدة، وشهود أن الله سبحانه هو كل الأشياء والموجودات، (ما الكون إلا القيوم الحي)، أو أنها جزء منه.

والفرق: هو التفريق بين الخالق والمخلوق، والظن أن المخلوق غير الخالق، والمؤمن بهذا سماه الغزالي في إحيائه «مشرك تحقيقاً» لأنه يجعل مع الله شريكاً له في الوجود.

* الحق بالحق للحق:

يقول الطوسي: وأما معنى قولهم: «الحق بالحق للحق» فالحق هو الله عز وجل. قال أبـو سعيـد الخـراز: عبـد موقـوف مع الحق بالحق للحق، يعني: موقوف مع الله بالله لله، وكذلك: «منه له به» يعني: من الله بالله لله[1]. . .

أقول: يتوضح معنى العبارة إذا عرفنا أنها تشير إلى وحدة الوجود وإلى تحقق المغنيِّ بها بالألوهية.

* التوحيد:

محو آثـار البشـريـة وتجـريـد الألوهية (والمعنى الصريح هو: توحيد كل الموجودات في وجـود واحـد، اي لا موجـود إلا الله، وقـد خانتهم العبـارة في هذا القـول الذي يجب أن يكون «محو آثار الخلقية وتجريد الألوهية».

* الإحسان:

أن تعبد الله كأنك تراه. . وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم

(١) اللمع، ص٤١١.

وقطعهم النظر إلى الأغيار ورؤ يتهم النعم من المنعم (معجم مصطلحات الصوفية).

وهو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة، أي رؤ ية الحق موصوفاً بصفاته بعين صفته... لأنه تعالى هو الرائي وصفه، وهو دون مقام المشاهدة في مقام الروح (اصطلاحات الصوفية للكاشاني).

* **الفناء:**

الطوسي في «اللمع» عن جعفر الخلدي: سمعت الجنيد يقول: وسئل عن الفناء فقال: إذا فني الفناءَ عن أوصافه وأدرك البقاء بتمامه.

قال: وسمعت الجنيد يقول وقد سئل عن الفناء، فقال: استعجام كلك عن أوصافه، واستعمال الكل منك بكليتك.

وقال ابن عطاء: من لم يفن عن شاهد نفسه بشاهد الحق، ولم يفن عن الحق بالحق، ولم يغب في حضوره عن حضوره، لم يقع بشاهد الحق.

وقال الشبلي: من فني عن الحق بالحق لقيام الحق بالحق، فني عن الربوبية فضلاً عن العبودية.

الخلاصة: الفناء هو الجذبة، أوما يحصل أثناء الجذبة من غيبوبة عن الخلق وهذا هو الفناء عن الخلق، أوما يحصل من غيبوبة يتوهمونها أنها في الحق، ويسمونها: الفناء في الله. وهي شعور المجذوب بالألوهية.

● **ملاحظة:**

بدأت بالمصطلحات السابقة لأهميتها، والباقية ستكون حسب الترتيب الأبجدي.

* **الاتحاد:** هو شهود وجود الحق الواحد المطلق، الذي الكل به موجود بالحق، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجوداً به معدوماً بنفسه، لا من حيث إن له وجوداً خاصًا اتحد به، فإنه محال. (أي إنهم يعنون بالاتحاد «وحدة الوجود». ولننتبه إلى الجملة «لا من حيث إن له وجوداً خاصًا اتحد به، فإنه محال»).

* **الأحد:** هو اسم الذات، باعتبار انتفاء تعدد الصفات والأسماء والنسب والتعينات

عنها.

* انصداع الجمع: هو الفرق بعد الجمع، بظهور الكثرة في الوحدة، واعتبارها فيها. (ويسمى أيضاً: الفرق الثاني، وصحو الجمع، . .).

* البارقة: هي لائحة ترد من الجناب الأقدس (هكذا يتوهمون) وتنطفىء سريعاً، وهو من أوائل الكشف ومبادئه.

* الباطل: ما سوى الحق، وهو العدم، إذ لا وجود في الحقيقة إلا للحق لقوله عليه السلام: أصدق بيت قاله العرب قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

* البرزخ: هو الحائل بين الشكين، ويعبر به عندنا «عالم المثال» أعني الحاجز بين الأجساد الكثيفة وعالم الأرواح المجرد، أعني الدنيا والآخرة، ومنه الكشف الصوري. (المعنى الصريح: البرزخ هو عالم الجذبة، ويسمونها «البرزخ الأول» والبرزخ الثاني هو البرزخ بالمعنى الشرعي المعروف).

* البواده: جمع بادهة، وهي ما يفجأُ القلب من الغيب، فيوجب بسطاً أو قبضاً.

* الجلاء: هو ظهور الذات المقدسة لذاتها في ذاتها. والاستجلاء: ظهورها لذاته في تعيناته.

- لننتبه جيداً إلى الجملة الأخيرة: «ظهورها لذاته في تعيناته».

* الهواجم: ما يرد على العبد بقوة الوقت من غير تعمق من العبد، وهي البواده المذكورة.

* الواحدية: اعتبار الذات (أي الإلهية) من حيث انتشاء الأسماء منها، وأحديتها بها، مع تكثرها بالصفات.

* الوارد: كل ما يرد على القلب من المعاني من فحص مواهبه، من غير تعمل من العبد.

* واسطة الفيض وواسطة المد: وهو الإنسان الكامل الذي هو الرابطة بين الحق والخلق،

بمناسبة للطرفين، كما قال تعالى: لولاك لما خلقت الأفلاك.

● **ملاحظة:**

هذا كذب على الله سبحانه، إذ لا أصل لهذا القول إلا في اختراعاتهم.

* **الوجود**: وجدان الحق ذاته بذاته، ولهذا تسمى حضرة الجمع حضرة الوجود، وجهان لعناية، هما: الجذبة والسكون، اللذان هما جهتا الهداية، وجهان للإطلاق والتقييد، وهما جهتا اعتبار الذات بحسب سقوط جميع الاعتبارات، وبحسب إثباتها. .

● **الملاحظة:**

ليس الفرق كبيراً بين قراءة هذا الهراء وبين علك اللباد. والمعنى بدون ثرثرة هو: الوجود هو الحالة التي يجد بها المجذوب أنه هو الله، وأن كل شيء هو الله (جل الله)، أو أنه يجد أن الله موجود به، أو أنه هو موجود في الله (تعالى الله)، ولذلك يطلقون على الله سبحانه اسم «الوجود»، وللهراء تتمة حذفناها رحمة بأعصاب القارىء.

* **الحال**: ما يرد على القلب بمحض الموهبة، من غير تعمل أو اجتناب كحزن أو خوف أو بسط أو قبض أو شوق أو ذوق (يجب الانتباه إلى معنى كلمة ذوق). ويزول بظهور صفات النفس، سواء يعقبه الميل أو لا، فإذا قام وصار ملكاً سمي مقاماً.

* **الحجاب**: انطباع الصور الكونية في القلب، المانعة لقبول تجلي الحقائق.

* **حقيقة الحقائق**: هي الذات الأحدية الجامعة، بجميع الحقائق، ونسمى حضرة الجمع، وحضرة الوجود.

* **الحقيقة المحمدية**: هي الذات (أي الإلهية) مع التعين الأول، فله (أي لمحمد) الأسماء الحسنى كلها، وهو الاسم الأعظم.

* **الطالع**: أول ما يبدو من تجليات الأسماء الإلهية على باطن العبد، فيحسن أخلاقه وصفاته بتنوير باطنه.

- لعل القارىء يذكر ما هو معنى «يحسن أخلاقه وصفاته» وإن كان قد نسي فليرجع إلى صفحات سابقة.

* **الطمس**: هو ذهاب رسوم السيار (أي السالك) بالكلية في صفاء نور الأنوار.

* **يوم الجمعة**: وقت اللقاء والوصول إلى عين الجمع (أي: وقت التحقق بالألوهية).

* **الكل**: اسم للحق تعالى، باعتبار الحضرة الواحدية الإلهية الجامعة للأسماء كلها، ولهذا يقال: أحد بالذات كلٌّ بالأسماء (وواضح أن «الكل» تعني كل شيء في الوجود).

* **اللائحة**: هي ما يلوح من نور التجلي، ثم يروح، وتسمى أيضاً بارقة وحضرة.

* **اللطيفة**: كل إشارة رقيقة المعنى، يلوح منها في الفهم معنى لا تسعه العبارة.

* **اللوامع**: أنوار ساطعة تلمع لأهل البدايات من أرباب النفوس الصافية الطاهرة، فتنعكس من الخيال إلى الحس المشترك، فتصير مشاهدة بالحواس الظاهرة، فتتراءى لهم كأنوار الشهب والقمر والشمس فتضيء ما حولهم. وهي إما من غلبة أنوار القهر والوعيد على النفس، فتضرب إلى الحمرة. وإما من غلبة أنوار اللطف والوعد، فتضرب إلى الخضرة والفقوع.

* **المحو**: رفع أوصاف العادة، بحيث يغيب العبد عندها عن عقله (أي الجذبة) ويحصل منه أفعال وأقوال لا مدخل لعقله فيها كالسكر من الخمر.

* **محو الجمع والمحو الحقيقي**: هو فناء الكثرة في الوحدة (أي: استشعار وحدة الوجود).

* **المفتاح الأول**: هو اندراج الأشياء كلها على ما هي عليه في غيب الغيوب، الذي هو أحدية الذات: كالشجرة في النواة. ويسمى بالحروف الأصيلة.

* **ممد الهمم**: هو الرسول ﷺ، لأنه الواسطة في إفاضة الحق والهداية على من يشاء من عباده.

* **المنقطع الوحداني**: هو حضرة الجمع التي ليس للغير فيها عين ولا أثر، فهي محل انقطاع الأغيار وعين الجمع الأحدية، ويسمى منقطع الإشارة، وحضرة الوجود، وحضرة الجمع.

* **نهاية السفر الأول**: هو رفع حجاب الكثرة عن وجه الوحدة.

* **نهاية السفر الثاني**: رفع حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة العلية الباطنية.

* **نهاية السفر الثالث**: هو زوال التقيد بالضدين (أي الجمع والفرق) ظاهراً وباطناً، بالحصول في أحدية عين الجمع.

* **نهاية السفر الرابع**: شهود اضمحلال الخلق في الحق، واندراج الحق في الخلق، حتى يرى العين الواحدة (أي الله سبحانه) في الصور الكثيرة، والصور الكثيرة في عين الوحدة.

* **السالك**: هو السائر إلى الله (بل إلى الجذبة) المتوسط بين المريد والمنتهي، مادام في السير (أي يقوم بالذكر والخلوة).

* **الستائر**: صور الأكوان، لأنها مظاهر الأسماء الإلهية، تعرف من خلقها.

* **سر التجليات**: هو شهود كل شيء في كل شيء، وذلك بانكشاف التجلي الأول للقلب، فيشهد الأحدية الجمعية بين الأسماء كلها، لاتصاف كل اسم بجميع الأسماء، لاتحادها بالذات الأحدية، وامتيازها بالتعينات التي تظهر في الأكوان التي هي صورها، فيشهد كل شيء.

* **سر الربوبية**: هو ظهور الرب بصور الأعيان، فهي من حيث مظهريتها للرب القائم بذاته الظاهر بتعيناته قائمة به موجودة بوجوده . .

* **العالم**: هو الظل الثاني، وليس إلا وجود الحق الظاهر بصور الممكنات كلها، فلظهوره بتعيناتها سمي باسم السوى والغير . . . وإلا فالوجود عين الحق . . فالعالم صورة الحق، والحق هوية العالم وروحه، وهذه التعينات في الوجود الواحد أحكام اسم الظاهر الذي هو مجلى لاسمه الباطن.

* **العارف**: من أشهده الله تعالى ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله. فالمعرفة حال تحدث عن شهود. (انظر معنى كلمة شهود فيما بعد).

* عين الجمع: اسم من أسماء التوحيد (أي توحيد الخالق والمخلوق في وحدة واحدة).

* عين الحياة: مظهر الحقيقة الذاتية من هذا الوجود. أو: هو باطن الاسم الحي الذي من تحقق به شرب من ماء عين الحياة الذي من شرب منه لا يموت أبداً لكونه حيًّا بحياة الحق، وكل حي في العالم يحيا بحياة هذا الإنسان لكونه حياتُه حياةُ الحق.

* **الـري**: مزج الأوصـاف بالأوصـاف والأخـلاق بالأخـلاق والأنـوار بالأنـوار والأسـماء بالأسـماء والنعـوت بالنعـوت والأفعـال بالأفعال (هذا التعريف لأبي الحسن الشاذلي من طبقات الشعراني).

* **العيد**: ما يعود على القلب من التجلي، أو وقت التجلي كيف كان.

* **الفـرق الأول**: هو الاحتجـاب بالخلق عن الحق، وبقـاء الرسوم الخلقية بحالها. (أي هي حالة المحجوبين ـ مثلنا ـ الذين يظنون أن الخلق هم غير الحق).

* **الفـرق الثـاني**: هو شهـود قيـام الخلق بالحق، ورؤيـة الـوحـدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة، من غير احتجاب صاحبه بإحداهما عن الأخرى.

(أي هو كما يقول ابن عجيبة: إياك أن تقول أنـا الله، واحذر أن تكون سواه).

* **الفرقان**: فرق.

* **القرآن**: جمع.

* **فرق الجمع**: هو الفرق الثاني، ومثله: صحو الجمع، والفرق في الجمع.

* **الفهـوانيـة**: خطاب الحق بطريق المكافحة في عالم المثال. (كلمات كلها غموض ولكن عرفنا ما هو عالم المثال. إنه في الواقع عالم الجذبة عندما يكون المجذوب غائباً عن شعوره بالمخلوقيـة، وعنـدمـا يشعـر أنـه الله. ويكون معنى «الفهوانية» هو الكلام الذي يسمعه المجذوب من نفسه باعتباره هو الله، أثناء الجذبة).

* **صاحب الـزمـان، وصاحب الوقت، وصاحب الحال**: هو المتحقق بجمعية البرزخية الأولى، المطلع على حقـائق الأشيـاء، الخـارج عن حكم الـزمـان وتصـرفـات ماضيـة ومستقبلة، إلى «الآن» الـدائم، فهـو ظرف لأحواله وصفاته وأفعاله، فلذلك يتصرف في الـزمـان بالطي والنشـر، وفي المكـان بالقبض والبسط، لأنه المتحقق بالحقائق والطبائع، والحقـائقُ في القليـل والكثيـر، والطـويل والقصير، والعظيم والصغير سواء، إذ الوحدة والكثرة والمقادير كلها عوارض، فكما يتصرف في الوهم فيها، كذلك في العقل. فصدّق، وافهم تصرفه فيها في الشهود والكشف الصريح، فإن المتحقق بالحق المتصرف بالحقائق، يفعل ما يفعل في طور وراء أطوار الحس والوهم والعقل، ويتسلط على العوارض بالتغيير

والتبديل.

* **الصعق**: هو الفناء في الحق بالتجلي الذاتي (أي التحقق بالألوهية وذوقها).

* **صورة الحق**: هو محمد ﷺ، لتحققه بالحقيقة الأحدية والواحدية، ويعبر عنه بـ «صاد» كما لوح إليه ابن عباس رضي الله عنه، حين سئل عن معنى «ص» فقال: جبل بمكة كان عليه عرش الرحمن.

* **الرداء**: هو ظهور صفات الرب على العبد.

* **الرسم**: هو الخلق وصفاته.

* **الرعونة**: الوقوف مع حظوظ النفس ومقتضى طباعها. (أي هي الركون إلى الشعور بالمخلوقية، أو هي الركون إلى الفرق الأول).

* **الشاهد**: ما يحضر القلب من آثار المشاهدة (أي مشاهدة الألوهية) وهو الذي يشهد له بصحة كونه محتظياً من مشاهدة شهوده، إما بعلم لدني لم يكن له فكان، أو وجد، أو حال، أو تجل وشهود.

* **شعب الصدع**: هو جمع الفرق بالترقي عن حضرة الواحدية إلى حضرة الأحدية، ويقابله صدع الشعب، هو النزول عن الأحدية إلى الواحدية.

* **الشهود**: رؤية الحق بالخلق (أي رؤية الله في المخلوقات، يعني رؤية أن كل شيء هو الله).

* **شهود المفصل في المجمل**: رؤية الكثرة في الذات.

* **شهود المجمل في المفصل**: رؤية الأحدية في الكثرة.

* **شواهد الحق**: هي حقائق الأكوان، فإنها تشهد بالمكون.

* **الشؤون الذاتية**: اعتبار النفوس والأعيان والحقائق في الذات الأحدية، كالشجرة وأغصانها وأوراقها وأزهارها وأثمارها في النواة.

* **التحقيق**: شهود الحق في صور أسمائه التي هي الأكوان، فلا يحتجب بالحق عن الخلق ولا بالخلق عن الحق (أي هو مقام البقاء).

* الذوق: هو أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية، عن أدنى لبثة من التجلي البرقي، فإذا زاد وبلغ أوسط مقام الشهود، سمي شرباً، فإذا بلغ النهاية سمي ريّا.

* ذو العقل والعين: هو الذي يرى الحق في الخلق، والخلق في الحق، ولا يحتجب بأحدهما عن الآخر، بل يرى الوجود الواحد بعينه حقًّا من وجه، وخلقاً من وجه، فلا يحتجب بالكثرة عن شهود الوجه الواحد الأحد، ولا يزاحم في شهود كثرة المظاهر أحدية الذات، التي يتجلى فيها، ولا يحتجب بأحدية وجه الحق عن شهود الكثرة الخلقية..

* ظاهر الممكنات: هو تجلي الحق بصور أعيانها وصفاتها، وهو المسمى بالوجود الإضافي، وقد يطلق عليه «ظاهر الوجود».

* ظل الإله: هو الإنسان الكامل المتحقق بالحضرة الواحدية.

* الغوث: هو القطب حينما يلتجأ إليه.

* غيب الهوية: هو الذات (الإلهية) باعتبار اللاتعيّن.

* العبارة والإشارة والرمز: الإشارة أرق وأدق من العبارة، والرمز أدق من الإشارة، فالأمور ثلاثة: عبارات وإشارات ورموز، وكل واحدة أدق مما قبلها، فالعبارة توضح، والإشارة تلوح، والرمز يفرح، أي يفرح القلوب بإقبال المحبوب.

- أقول: هكذا يعرف ابن عجيبة العبارة والإشارة والرمز في كتابه «إيقاظ الهمم» ص ١١٨، لكن أقوال القوم واستعمالاتهم تجعل المعنى خلاف ذلك.

فالعبارة: هي الجملة التي يستعملها المتصوفة فيتفاهمون بها فيما بينهم، ولا يفهم الآخرون من حقيقة معانيها شيئاً، إلا معاني يتوهمونها لجهلهم. والعبارة تكون إشارة أو رمزاً أو لغزاً. وهذه الثلاثة متقاربة المعاني، ولا فائدة من تفصيلها هنا[١].

* عالم المثال: الجذبة ورؤاها.

---

(١) من يريد التفصيل بمكنه الرجوع إلى كتبهم، مثل: «إيقاظ الهمم» لابن عجيبة، ص١١٨ و١١٩، وغيره من كتبهم.

* طريق المكافحة: هو معاملة السالك (أي مشاهدته ومخاطبته وسمعه) لله بالله (أي لله الكائن في السالك، بالله الذي استشعره السالك. فهو، مثلاً: يسمع من الله بالله، أي يسمع من الله الباطن فيه بالله الذي هو نفسه حين استشعار الألوهية. أو يسمع من نفسه بنفسه، أي من نفسه التي هي الله الباطن فيه، بنفسه التي وصلت إلى الشعور بالألوهية وذوقها وذوق معانيها).

* الحضور: النفس حين تتحد بالواحد في حال الجذب (هذا التعريف هو لأفلوطين، من المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية)، وإذا أردنا أن نصيغ هذه الجملة بالعبارة الصوفية، نقول: الحضور هو الفناء في الذات.

- قبل الانتقال إلى الفصل الثاني، نورد هذا النص للتذكير والتوكيد.

- يقول الدكتور سيد حسين نصر (صوفي شديد التحمس للصوفية):

.. والأدب الصوفي الضخم الوارد في جميع اللغات الإسلامية.. هذا الأدب أشبه بمحيط يزخر بأمواج تندفع في جهات مختلفة، وتتخذ صوراً متباينة لكنها تعود دوماً إلى المنشأ الذي انطلقت منه.. لقد كان أقطاب التصوف على اتفاق في لباب ما قالوه عبر العصور وإن تباينت تعابيرهم[1]..

- يفهمنا هذا النص أن كل العبارات الصوفية المختلفة التي مرت والتي ستمر والتي لن تمر معنا، كلها تشير إلى معنى واحد، (وقد عرفناه، إنه وحدة الوجود).

يقول سيد حسين نصر مؤكداً:

.. وكل ما نستطيعه هو التشديد على أن التعاليم الصوفية تدور حول عقيدتين أساسيتين هما «وحدة الوجود»، و«الإنسان الكامل». إن جميع الأشياء تجليات للأسماء الحسنى والصفات الإلهية، فالإنسان الكامل يتصور الله بذاته، ويتأمل جميع الأشياء التي جاء بها إلى حيز الوجود[2].

- لننتبه إلى تعريفه للإنسان الكامل، وقد عرفنا مما سبق أن الإنسان الكامل عندهم

---

(١) الصوفية بين الأمس واليوم، ص٢٢. (٢) الصوفية بين الأمس واليوم، ص٤٢.

هو الـذي وصـل إلى مقام الفرق الثاني، وقد يضيفون المقدرة على كسب ثقة الآخرين، ويجعلون محمـداً ﷺ هو المثـل الأعلى للإنسـان الكـامل، ولذلك، كثيراً ما يطلقون هذه العبارة «الإنسان الكامل» وهم يعنونه بها.

في ختام هذا الفصل، أعود فأذكر أن كتّاب الصوفية وشعراءها ومتكلميها يتفاوتون فيما بينهم بالمقدرة الفنية على سبك العبارة الصوفية بإشاراتها ورموزها وألغازها التي تطوي دائماً في ثنـايـاهـا معنى وحـدة الوجود. ويأتي في مقدمتهم الجنيد وعبد القادر الجيلاني، وأحمد الرفاعي، وشهاب الدين السهروردي البغدادي... وآخرون.

وكان من الممكن أن يكون محيي الدين بن عربي منهم، لولا كثرة تواليفه مع كثرة ما يورد فيها من عبارات شعرية ونثرية، جعلت قسماً منها يخونه بوضوحه، لأن من كثر لغطه كثر غلطه.

وللزيادة في التبيين والمساعدة على التمرس باللغة الصوفية، أورد مثلاً من عبارات الجنيد:

جاء في كتاب «دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية» قول ابن تيمية رحمه الله:

«.. وبين لهم الجنيد الفرق الثاني، وهو أنهم مع مشاهدة المشيئة العامة، لا بد لهم من مشـاهـدة الفـرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه، وهو الفرق بين ما يحبه وما يبغضه، وبين ذلك لهم الجنيد، كما قال في التوحيد: هو إفراد الحدوث عن القدم»[1]. . إلخ.

أقول: رحم الله ابن تيمية، لم يكلف نفسه دراسة اللغة الصوفية وعباراتها، فانزلق مثل هذا الانزلاق.

وأظن أن عبـارة الجنيـد «مشـاهـدة المشيئـة العـامة» هي الآن واضحة المدلول. أما العبـارتـان «مـا يأمـر الله به، وما ينهى عنه» فقد تغيب الإشارة فيهما عن القارىء الذي لم يتمرس بعد باللغة الصوفية، فإلى ماذا تشيران؟

---

(١) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، جمع وتحقيق د. محمد السيد الجليد: ١ / ٤٢٦.

مر معنا في صفحات سابقة، وسيمر فيما يأتي من فصول أنهم يقولون بالإسلام والإيمان والإحسان الذي جاء في الحديث الشريف، وأنهم يفسرون «الإحسان» أنه الفناء في الذات، أو استشعار الألوهية وتذوقها، وبالتالي معرفة وحدة الوجود استشعاراً وذوقاً وتحققاً.

ومر معنا ـ وسيمر ـ أنهم يجعلون معنى كلمة «الفاحشة، أو الفواحش» الواردة في القرآن الكريم هو البوح بالسر. ولنتذكر أيضاً تفسيرهم للآية الكريمة: ﴿ولو تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل . . ﴾، وغيرها.

من هنا تتوضح الإشارة في قول الجنيد «ما يأمر الله به» التي تشير إلى الآية الكريمة: ﴿إنَّ الله يأمُر بالعدلِ والإحسانِ . . ﴾ وكذلك الإشارة في قوله: «وما ينهى عنه» التي تشير إلى الآية الكريمة: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكرِ . . ﴾.

أي إن عبارة الجنيد: «ما أمر الله به» تشير إلى «الإحسان» الذي يأمر الله به والذي هو عندهم معرفة وحدة الوجود؛ وعبارته: «وما ينهى عنه» تشير إلى «الفحشاء» التي ينهى الله سبحانه عنها، والتي هي عندهم البوح بالسر.

وبذلك تكون العبارة: «لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه» لها نفس معنى عبارة الشاذلي: «اجعل الفرق في لسانك موجوداً، والجمع في جنانك مشهوداً» ونفس معنى عبارة الجيلاني «فبظاهره ينظر إلى ما في السوق، وبقلبه ينظر إلى ربه عز وجل، إلى جلاله تارة وإلى جماله تارة أخرى»، ونفس معنى عبارة ابن عجيبة: «إياك أن تقول أناه واحذر أن تكون سواه». .

وكذلك العبارة: «الفرق بين ما يحبه وما يبغضه» تشير إلى نفس المعنى.

أما عبارة: «إفراد الحدوث عن القدم» فتحمل نفس معنى «اجعل الفرق في لسانك موجوداً».

ـ ومثلٌ آخر من عبارات أحمد الفاروقي السرهندي[1]، يقول:

---

(1) أحمد بن عبد الأحد، يلقبونه بـ «مجدد الألف الثاني»، وهو مؤسس الطريقة المجددية، مات سنة ١٠٣٤هـ / ١٦٢٥م في الهند.

. . . مثلاً، قالت طائفة، من السُّكْر، بالإحاطة الذاتية، ورأوا أن الحق محيط بالعالم بالذات تعالى وتقدس، وهذا الحكم مخالف لآراء علماء أهل الحق، فإنهم قائلون بإحاطة علمية، وآراء العلماء أقرب إلى الصواب في الحقيقة[1]. . . اهـ.

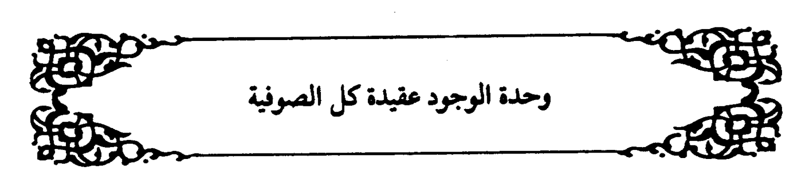
إنه يقول: إن القائلين إن الله سبحانه محيط بالعالم إحاطة علمية (أي بعلمه سبحانه)، هم أقرب إلى الصواب من القائلين بأنه محيط بالعالم بذاته. ولعل القارىء انتبه إلى أن القول بالإحاطة الذاتية يقتضي الاثنينية: محيط ومحاط به، بينما القول بالإحاطة العلمية لا يقتضي لا الوحدة ولا الاثنينية، أي إن القول بأن الله سبحانه محيط بالعالم بعلمه لا يتنافى مع وحدة الوجود، كما أنه لا يتنافى مع التفريق بين الخالق والمخلوق، ولذلك كان هذا القول أقرب إلى الصواب. (ولننتبه إلى عبارة «أقرب إلى الصواب» التي تعني أنه ليس الصواب بعينه، وإنما هو أقرب إليه من ذلك القول).
وبعبارة أوضح: إن مقولة «الإحاطة الذاتية» يمكن أن تحمل معنى الاثنينية أكثر من مقولة «الإحاطة العلمية»، ولذلك كانت مقولة «الإحاطة العلمية» أقرب إلى الصواب الذي هو وحدة الوجود.



(١) المنتخبات من المكتوبات، ص١٠.



الفصل الثالث :



وحدة الوجود عقيدة كل الصوفية

إن كنت لم تقطع بـ «لا» عنق السّوى   في قصر «إلا الله» لستَ بواصل

عن أحمد الفاروقي السرهندي

قبل البدء بقراءة هذا الفصل يجب استيعاب الفصلين السابقين، وهضمهما وتمثلهما، ليصبح القارىء ممتلكاً ناصية العبارة الصوفية، يفهمها كما يفهمها أصحابها وواضعوها، لا كما يحلو له أن يتوهم، أو كما يوهمونه.

إن الصوفيين كلهم، من أولهم إلى آخرهم، (إلا المبتدئين)، يؤمنون بوحدة الوجود. وما مضى، ومئات النصوص التالية هي أدلة وبراهين.

يقول أبو بكر الكلاباذي في التعرف :

قال الجنيد : المعرفة وُجودُ جهلك عند قيام علمه. قيل له : زدنا. قال : هو العارف وهو المعروف.

يفسر أبو بكر الكلاباذي هذا الكلام فيقول :

«معناه : أنك جاهل به من حيث أنت، وإنما عرفته من حيث هو»[1].

- قوله : «العارف هو المعروف»، واضح تماماً، فالعارف (وهو مخلوق) هو نفس المعروف (الذي هو الله).

---

(1) التعرف لمذهب أهل التصوف، باب ٢٢، ص٦٦.

ـ وقول الكلاباذي: «أنك جاهل به من حيث أنت. .»، فضمير المخاطب «أنت» يرمز به إلى «الفرق»، فهو يريد أن يقول: «إنك جاهل به» (أي بالحق) من حيث تعتقد أنك «أنت» ولست «هو». وإنما عرفته من حيث أنك «هو».

وبيت لابن الفارض قد يساعد على توضيح المعنى، يقول:

فقد رُفعت تاء المخاطب بيننا ... وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي

ـ هذا هو نفس المعنى الذي أراده الجنيد بقوله: «المعرفة وجود جهلك. .».

وقال أيضاً (أي الجنيد):

حقيقة التوكل: أن يكون لله تعالى كما لم يكن، فيكون الله له كما لم يزل[1].

ـ قوله: أن يكون (أي المتوكل الذي هو خلق)، كما لم يكن (أي كأنه غير موجود كما كان سابقاً)، وهذا ما يسمونه «الفناء عن الخلق»، فيكون الله له كما لم يزل (أي هو الموجود الوحيد ولا موجود غيره).

ويقول سهل بن عبد الله التُّستَري:

يا مسكين، كان ولم تكن، ويكون ولا تكون. فلما كنتَ اليوم صرت تقول: أنا وأنا! كن الآن كما لم تكن، فإنه اليوم كما كان[2]. . .

ـ قول سهل هذا، هو نفس قول الجنيد، لكنه أكثر وضوحاً منه. وهو في الواقع لا يريد من جملته كلها إلا قوله: «كان ولم تكن، وإنه اليوم كما كان». وليس في باقي كلامه معنى يزيد على هذا.

ـ في هذه الأقوال وضوح قد يغيب عن بعض القراء. لكن بالرجوع إلى ما سبق من نصوص، وبملاحقة ما يأتي، يتبين المعنى تماماً؟ إنه «لا موجود إلا الله»، و«الكون هو الله».

ويقول أبو نصر الطوسي[3] في «اللمع»:

---

(١) التعرف، باب ٤٤، ص١٠١. (٢) إحياء علوم الدين: ٤ / ٢٢٢.

(٣) أبو نصر الطوسي مؤلف «اللمع»، الكتاب الأم في التصوف، مات سنة ٣٧٨هـ.

وبلغني عن أبي حمزة (الصوفي)[1] أنه دخل دار حارث المحاسبي، وكان لحارث دار حسنة وثياب نظاف، وفي داره شاة مُرغية، فصاحت الشاة مرغية، فشهق أبو حمزة شهقة، وقال: «لبيك يا سيدي»، قال: فغضب الحارث وعمد إلى سكين، فقال: إن لم تتب من هذا الذي أنت فيه أذبحك. قال: فقال له أبو حمزة: أنت إذا لم تحسن أن تسمع هذا الذي أنت فيه فلِمَ لا تأكل النخالة بالرماد.

يعلق الطوسي على هذا الكلام فيقول: يريد (أبو حمزة) بذلك أن إنكارك عليّ يشبه أحوال المريدين والمبتدئين[2]!

- أي إن الشاة هي الله (أو جزء منه) وإن صوتها صوته (!) تعالى الله علوًّا كبيراً.

وتكلم أبو حمزة في جامع طرسوس فقبلوه، فبينا هو ذات يوم يتكلم، إذ صاح غراب على سطح الجامع، فزعق أبو حمزة وقال: لبيك لبيك. فنسبوه إلى الزندقة، وقالوا: حُلولي زنديق. وبيع فرسه بالمناداة على باب الجامع: «هذا فرس الزنديق»[3].

وأبو الحسين النوري[4]: سمع أذان المؤذن فقال: طعنة وسُم الموت، وسمع نباح الكلاب فقال: لبيك وسعديك[5].

- وهذا يعني أن الله هو كل ما نرى (وما لا نرى) بما في ذلك(!؟) تعالى الله.

وقد مر معنا قول الشبلي، وهو يجيب الجنيد: «أنا أرى وأنا أسمع، فهل في الدارين غيري».

- وهذا قول بعيد الإشارة بعض الشيء، على أن الشبلي يكون أكثر وضوحاً عندما يقول لبعض زواره عند خروجهم من عنده:

---

(1) قتل على الزندقة ولم أقف على تاريخ قتله، وهو من أقران الجنيد.
(2) اللمع، ص٤٩٥، وقد أورد القصة أيضاً عبد الفتاح أبو غدة في ترجمته للحارث المحاسبي في «رسالة المسترشدين»، ص٢٣.
(3) تلبيس إبليس، ص١٦٩.
(4) أحمد بن محمد النوري، بغدادي من أقران الجنيد، مات سنة ٢٩٥هـ.
(5) اللمع، ص٤٩٢.

أنا معكم حيثما كنتم، أنتم في رعايتي وكلاءتي[١].

يقول الطوسي شارحاً: «أراد بقوله ذلك: إن الله تعالى معكم حيث ما كنتم وهو يرعاكم..».

ويقول الشبلي أيضاً:

كنت أنا والحسين بن منصور شيئاً واحداً، إلا أنه أظهر وكتمت[٢].

- وسنرى بعد قليل ما هي عقيدة الحلاج هذه التي كتمها الشبلي وأظهرها الحلاج فقُتل.

وعندما صُلب الحلاج ليُقتل، أرسل الشبلي امرأة متصوفة وأمرها أن تقول للحلاج: إن الله ائتمنك على سرٍّ من أسراره فأذعته؛ فأذاقك طعم الحديد[٣].

- ونحن نعرف الآن ما هو هذا السر، ومع ذلك فسنراه من أقوال الحلاج الصريحة.

ويقول إبراهيم بن محمد النصراباذي[٤]:

إن كان بعد النبيين والصديقين موحدٌ فهو الحلاج[٥].

- نفهم مما سبق أن الشبلي والنصراباذي يوافقان الحلاج في عقيدته كل الموافقة، فعقيدته التي سنراها هي عقيدتهما.

ويقول أبو سعيد الخراز[٦]:

معنى الجمع: أنه أوجدهم نفسه في أنفسهم، بل أعدمهم وجودهم لأنفسهم عند وجودهم له[٧].

---

(١) اللمع، ص٤٧٨.

(٢) من كتاب «الحلاج» لطه عبد الباقي سرور، «وهو شيخ الصوفية في مصر»، معاصر، ص١٠٤.

(٣) الفكر الصوفي، ص٦٢.

(٤) أبو بكر النصراباذي من نيسابور، صحب الشبلي، وخرج في آخر حياته إلى مكة، ومات فيها عام ٣٦٧هـ.

(٥) تلبيس إبليس، ص١٧٢.

(٦) أحمد بن عيسى الخراز «لسان التصوف» من أهل بغداد، صحب ذا النون المصري وغيره، مات سنة ٢٧٧هـ.

(٧) التعرف، ص١٢١.

يفسر الكلاباذي هذا الكلام بقوله:

معناه قوله: «كنت له سمعاً وبصراً ويداً، فبي يسمع وبي يبصر..» الخبر.

- كلام الخراز أوضح من تفسير الكلاباذي، وفي الحقيقة، إن الكلاباذي لا يريد تفسير كلام الخراز، بل يريد دعمه بالحديث الشريف، الذي أورده مشوهاً. مع العلم أن هذا المعنى الذي يعتمده الصوفية لهذا الحديث هو معنى فاسد. وسيأتي تفصيله.
وقوله: «أوجدهم نفسه في أنفسهم» واضح جدًّا.

وقال فارس[1]:

سألت أبا عبد الله المعروف بشكثل[1]: «ما الذي منعك عن الكلام؟»، فقال:

يا هذا، الكون توهمٌ في الحقيقة، ولا تصح العبارة عما لا حقيقة له، والحق تقصُرُ عنه الأقوالُ دونه! فما وجه الكلام؟ وتركني ومر[2].

- إنه يصرح بكل وضوح، أن الكون توهم لا حقيقة له باعتباره كوناً «أو خلقاً» وليس إلا الحق الذي تقصر عنه الأقوال دونه.

● ملاحظة:

كان يكفيه أن يقول: تقصر عنه الأقوال. أو: تقصر الأقوال دونه. ولكنه استعمل الكلمتين «عنه» و«دونه» للتعمية بالتعقيد.

ويقول أبو يزيد البسطامي:

غبتُ في الجبروت، وخضت بحار الملكوت، وحُجُبَ اللاهوت، حتى وصلتُ إلى العرش، فإذا هو خالٍ، فألقيت نفسي عليه، وقلت: سيدي أين أطلبك؟ فكشف، فرأيت أني أنا، فأنا أنا، أوّلي فيما أطلب، وأنا لا غيري فيما أسير[3].

وقال عندما تجلى له هذا النور (أي نور وحدة الوجود):

---

(١) لم أقف على ترجمتهما، ويفهم من أقوال الكلاباذي أنهما معاصران له.
(٢) التعرف، ص١٤٨.
(٣) شطحات الصوفية، ص١٦٤.

«سبحاني ما أعظم شأني»[1]!!

ويقول الحلاج:

وأي الأرض تخلو منك حتى	تعالَوْا يطلبونك في السماء
تراهم ينظرون إليك جهراً	وهم لا يبصرون من العماء[2]

- يريد بقوله: «ينظرون إليك جهراً»، أي أن كل ما يرونه هو أنت.

ويقول:

يا عينَ عينِ وجودي يا مدى هممي	يا منطقي وعباراتي وإيمائي
يا كلَّ كلي ويا سمعي ويا بصري	يا جملتي وتباعيضي وأجزائي[3]

ويقول:

سبحان من أظهر ناسوته	سرَّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً	في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقُه	كلحظة الحاجب بالحاجب[4]

ويقول:

رأيتُ ربي بعين قلبي	فقلتُ من أنت قال أنت
فليس للأين منك أينٌ	وليس أينٌ بحيث أنت
في محو اسمي ورسم جسمي	سألتُ عني فقلتُ: أنت
أشار سري إليك حتى	فنيتُ عني ودمتَ أنت[5]

ويقول:

---

(١) إيقاظ الهمم، ص١٥٦.

(٢) أخبار الحلاج، ص١٢٥، وفي ديوانه.

(٣) أخبار الحلاج، ص١١٥، وفي الديوان أيضاً.

(٤) الديوان وأخبار الحلاج، ص١٢٧.

(٥) الديوان، ص١٦، والأبيات هنا غير متتابعة، وأوائلها موجود في «طاسين النقطة».

عقـد الخـلائـقُ في الإلـه عقـائـداً   وأنـا اعتقـدت جميـع ما عقـدوه[1]

ويقول:

يا سرُّ سرٌّ يدقُّ حتى   يجلُّ عن وصف كل حيٍّ
وظاهراً باطناً تبدَّى   من كل شيء لكل شيٍّ
إن اعتذاري إليك جهلٌ   وعظم شك وفرط عيٍّ
يا جملة الكل لستَ غيري   فما اعتذاري إذاً إليّ[2]

ويقـول: فالحقيقـة، والحقيقـة خليقـة، دع الخليقة لتكون أنت هو، أوهو أنت من حيث الحقيقة[3].

ويقول: وما كان في أهل السماء موحد مثل إبليس، حيث إبليس تغيرٌ عليه العين، وهجر الألحاظ في السير وعبد المعبود على التجريد[4].

ـ وكتب كتاباً هذه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم، المتجلي عن كل شيء لمن يشاء. السلام عليك يا ولدي، ستر الله عنك ظاهر الشريعة، وكشف لك حقيقة الكفر، فإن ظاهر الشريعة كفر خفي، وحقيقة الكفر معرفة جلية.

أما بعـد، حمداً لله الـذي يتجلى على رأس إبـرة لمن يشـاء، ويستـتر في السماوات والأرضـين عمن يشـاء، حتى يشهـد هذا بأن لا هو، ويشهـد ذلـك بأن لا غيره، فلا الشـاهـد على نفيـه مردود، ولا الشـاهـد بإثبـاتـه محمود، والمقصود من هذا الكتاب أني أوصيك أن لا تغتر بالله ولا تيأس منه.. وإياك والتوحيد، والسلام[5].

ويقـول: ... إن بعض النـاس يشهـدون عليَّ بالكفـر، وبعضهم يشهـدون لي

---

(١) الديوان، ص٧٦، وينسب أيضاً لابن عربي، وهو الأصح.
(٢) أخبار الحلاج، ص٧٨.
(٣) طاسين الصفاء.
(٤) طاسين الأزل والالتباس.
(٥) أخبار الحلاج، ص٥٠.

بالولاية، والذين يشهدون علي بالكفر أحب إلي وإلى الله من الذين يقرون لي بالولاية . . لأن الذين يشهدون لي بالولاية من حسن ظنهم بي، والذي يشهدون علي بالكفر تعصباً لدينهم، ومن تعصب لدينه أحبُّ إلي ممن أحسن الظن بأحد[1] . . .

وقال: . . . يا إلـه الآلهـة، ويارب الأرباب، ويا من لا تأخذه سنة ولا نوم، رُدَّ إليَّ نفسي لئلا يفتتن بي عبادك، يا من هو أنا وأنا هو، لا فرق بين أنّيتي وهويتك إلا الحدث والقدم[2] . . .

ـ هذه عقيدة الحلاج، عقيدة وحدة الوجود «الكون هو الله»، أو هو جزء من الله (!) سبحانك اللهم عما يصفون.

وسنرى أن هذا القسم المتعين «أي المتشكل في أعيان» من اللاهوت، يسمى بلسان العارفين «الملكوت»، ويسميه المحجوبون أمثالنا «الملك»، أما القسم اللطيف من اللاهوت، الذي لم يتعين، فهو «الجبروت». وناقل الكفر ليس بكافر.

بمعرفتنا عقيدة الحلاج نعرف عقائد كثيرين من كبار الطائفة الذين يصرحون بولايته وصدِّيقيته. ومرت معنا أمثلة منها.

وقد درج كثير من كتابهم على ألا يذكروا اسمه صراحة، لئلا يفضحوا عقيدتهم، وإنما يقولون: «أحد الكبراء» أو «أحد كبار العارفين» أو ما شابه ذلك. وكمثل نورده: الكلاباذي في «التعرف» الذي يستعمل عبارة «بعض الكبار» بدلاً من اسمه الصريح.

وقبل الانتقال إلى غير الحلاج، نورد له أمثلة، تجري عباراتها على ألسنتهم وفي كتبهم.

يقول:

كن لي كما كنت لي في حين لم أكن[3]

إنه يسأل الله مقام «الفناء» أو «الجمع».

---

(1) أخبار الحلاج، ص٢٦.
(2) أخبار الحلاج، ص٣٠.
(3) ديوان الحلاج، ص٩٠.

ويقول:

وأقبـل الـوجـد يُفني الكـلَّ من صفتي وأقبـل الحـق يُخفيني وأُبـديـه[1]

من هذا البيت نفهم معنى «الوجد» ومعنى «فناء الصفات».

ويقـول: صفـات البشـريـة لسـان الحجـة على ثبـوت صفـات الصمد، وصفات الصمدية لسان الإشارة إلى فناء صفات البشرية، وهما طريقان إلى معرفة الأصل الذي هو قوام التوحيد[2].

ويقول: نزول الجمع ورطة وغبطة، وحلول الفرق فكاك وهلاك[2]...

- مصطلحا «الجمع والفـرق» معروفان الآن. وأترك للقارىء أن يفسر لِمَ كان الجمع ورطة والفرق فكاكها؟ ولِمَ كان الجمع غبطة والفرق هلاكا؟

وللتوضيح: الجمع كفر بالنسبة للشريعة، والفرق كفر بالنسبة لعقيدة الصوفية.

*** فقرة معترضة:**

مع أني أتـدرج بإيـراد النصـوص حسب التسلسل التاريخي، بدون دقة، مع ذلك، أرى من المفيـد إيـراد نص كان مكـانـه بعـد صفحـات. أورده لأن فيـه توضيحاً لبعض المصطلحات الصوفية الأساسية.

يقول شيخ مشايخ الإسلام، مظهر الفيض القدوسي، الأستاذ السيد مصطفى العروسي:

... والعلم بكيفيتـه (أي الفنـاء، أو الجمـع، أو ما يرادفـه من ألفاظ) مختص بالله تعالى لا يمكن أن يطلع عليه إلا من يشاء من عباده الكمَّل الذين حصل لهم هذا المشهد الشـريف والتجـلي الـذاتي المفني للأعيـان بالأصـالـة، كما قال تعـالى: ﴿فلمّا تجلّى ربُّه للجبـلِ جعلَه دكّـا وخـرَّ موسى صَعِقاً﴾، فإذا علمتَ ما قدمتُه لك علمتَ معنى الاتحاد الـذي اشتهـر، وعلمت اتحـاد كل اسم من الأسماء مع مظهره وصورته، أو اسم مع اسم

---

(1) ديوان الحلاج، ص٩٤.

(2) أخبار الحلاج، ص٤٤.

آخر، أو مظهر مع مظهر آخر؛ وشهودُك اتحادَ قطرات الأمطار بعد تعددها، واتحادَ الأنوار مع تكثرهـا، كالنـور الحـاصل من الشمس والكواكب على وجه الأرض، أومن السرج المتعددة في بيت واحد، وتبدُّل صور عالم الكون والفساد على هيولى واحدة، دليلٌ واضح على حقيقة ما قلنا، هذا مع أن الجسم كثيف، فما ظنك بالخبير اللطيف الظاهر في كل المـراتب، الخسيس منهـا والشريف. والحاصلُ أن الاتحاد والحلول بين الشيئين المتغايرين من كل الـوجـوه شركٌ عنـد أهـل الله؛ وذلـك لفنـاء الأغيـار عندهم بسطوع نور الواحد القهـار، بل المـراد أن الحق تعـالى باعتبار أنه مصدر الكائنات جميعها، علويها وسفليها، مركبـات أو بسـائـط أو مجردات، جواهـر وأعـراضـاً، كليات أم جزئيات، واعتبار انفراده بالـوجـود الـذاتي، وأن جميـع المـوجـودات مستمدة من وجوده، فهو هي وهي هو، على معنى: لا هو إلا هو، كان الله ولا شيء معـه ويبقى الله ولا شيء معـه، وإنـما الكـائنات تعينـات له مخصـوصـة في أزمنة مخصوصة، محكوم عليها بأحكام مخصوصة، ثم إليه يرجع الأمر كما بدا، لِحِكَم عليَّة، وأسرارٍ إلهية، عَلِمها مَن علمها وجهلها من جهلها، بتدبيره تعالى وتقديره، لا يُسأل عما يفعل، فافهم ولا تك أسير النقل والتقليد[1]. . .

ـ وردت في هذا النص عدة عبارات، نراها مبثوثة في كتبهم، وهم يستعملونها دائماً، مع غيرها طبعاً، وقد شرحت هذه العبارات بوضوح، لذلك، كان من المفيد جدًّا إعادة قراءة هذا النص مراراً حتى تنطبع عبـاراتـه في الـذهن، مما يجعـل النصـوص الصـوفيـة واضحة المدلول.

وأهمها العبارات التالية:

ـ التجـلي الـذاتي المفني للأعيـان ـ الظاهر في كل المراتب ـ فناء الأغيار ـ سطوع نور الـواحـد القهـار ـ انفـراده بالـوجود الذاتي ـ فهو هي وهي هو ـ لا هو إلا هو ـ كان الله ولا شيء معه ويبقى الله ولا شيء معه ـ الكائنات تعينات ـ إليه يرجع الأمر كما بدأ.

وهي كلها تعني «وحدة الوجود» أو تشير إليها وإلى سطوعها.

لكن يجب أن ننتبه بشكل خاص إلى قوله: «. . ولا تك أسير النقل والتقليد»! ما

---

(1) حاشية العروسي: ٢ / ٢٠.

معناها؟

- وقال أبو الحسين النوري :

كان الله ولا أين، والمخلوقات في عدم، فكان حيث هو، وهو الآن حيث كان، إذ لا أين ولا مكان[1]. . .

وقال أيضاً :

عِزٌّ ظاهر، وملك قاهر، ومخلوقات ظاهرة به وصادرة عنه، لا هي متصلة به ولا منفصلة عنه[1].

إ نه في قوله : «لا هي متّصلة به» ينفي الاتصال لأن كلمة «الاتصال وما اشتق منها» تعني وجود اثنين متصلين ببعضهما، لذلك فهو ينفي الاتصال نفياً لتوهم الاثنينية، ثم ينفي الانفصال لإثبات الوحدة.

- وقال أبو سليمان الداراني :

. . . إنك لا تكون مخلصاً في عملك حتى لا ترى في الدارين أحداً غير ربك[2].

- ويقول أبو طالب المكي[3] «مفسراً» :

. . . يعني أنه رجع إلى العبد في أوله، أي يكون كما كان قبل أن يكون لقوله : ﴿ألست بربكم؟ قالوا بلى﴾، إذ كان ذلك قبل أن يكون. وهل أجابت إلا الأرواح الطاهرة المقدسة؟ بإقامة القدرة النافذة والمشيئة السابقة؟ فيكون العبد كما كان، وأيًّا كان، ولماذا كان، وكيف كان. وهذا غايته تحقيق توحيد الموحِّد للواحد، وهو أن يذهب كما لو لم يكن، ويتلاشى وتنمحي أوصافه وتبقى أوصاف الحق كما لم يزل، على معنى قوله : صرت سمعه وبصره ويده ورجله وقلبه يسمع به ويبصر به ويأخذ به ويعقل به[4].

---

(١) إيقاظ الهمم، ص٤٦.

(٢) علم القلوب، ص١٥٧.

(٣) محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، من كبار القوم، مات سنة ٣٥٨هـ.

(٤) علم القلوب ص٩٥.

وقال أيضاً :

ظاهر التوحيد هو توحيد الله في كل شيء، وتوحيده بكل شيء، ومشاهدة إيجاده قبل كل شيء، ولا نهاية لعلم التوحيد[1] . . .

- بشيء من التمعن ينكشف المعنى واضحاً في النصين.

ويقول أبو حيان التوحيدي في رسالة (كط) :

. . . بل أنت الموجود في كل شيء، لا كما يوجد ما دام بك وافتقر إليك، ولكن كما توجد أنت وليس واجدُك سواك؛ واجدٌ لك وواجدٌ بك وواجد منك؛ فأما واجد بك فلأنه وجد عينه بك، وأما واجد لك فلأنه وجد وجده من أجلك، وأما واجد منك فلأنه وَجَدَ ما به وَجَدَ ما وَجَدَ مِن جهتك. فأنت المحيط وأنت المشتمِل، إلا أن إحاطتك بالقدرة، واشتمالك بالمعونة، وكل ما خلقك بالمجاز؛ فَلَكَ الحقيقة، وكل ما لسواك بالأثر؛ فَلَكَ بالعين، والإشارة التي هي إليك هي منك، والذاكر الذي هُولك هُو بك، والوجد الذي هو منك هو بك، والوجد الذي هو بك هو منك. ولم تختلف هذه الحروف إلا لحاجة الخلق إليها في التكور، وإلا فالمعنى واحد مؤتلف متفق، لا يرنّق عليه لبس، ولا يمر به جن ولا إنس[2] . . .

ويقول أيضاً، رسالة (يه) :

أشرقت الأكوان بالأشباح، وشرفت الأعيان بالأرواح، وتجلت أسرار الحق فيها بين الافتراح والارتياح، وتناجت النفوس على بُعد الديار بها تتخافت فيه الأفواه على قرب المزار، ورُدَّت على الناظرين خوائن الأبصار، والتقت في الغيب سوانح الإقرار والإنكار. . . فعندها لَحَظَ اللاحظون بعين الصدق، ولفظ اللافظون بلسان الحق شنآن الحال، واضمحلال المقال، والتواء المنال، فناجوا في السرائر، وباحوا بالضمائر، ورفعوا رقوم البواطن والظواهر، وافترقوا عن الألفة، وتكثروا بالوحدة، وخيموا بين سواحل التجني وبلاغ التمني[3] . . . ومنها :

---

(1) علم القلوب، ص١٠٤.

(2) الإشارات الإلهية: ١ / ٢٢٤.

(3) الإشارات الإلهية: ١ / ١٣٩.

. . . فالأسماء مطروحة بالتوقيف، والمعاني مأخوذة بالتعريف. الأسماء مختلفة بكَدَر الخلق، والمعاني مؤتلفة بصفو الحق. الأسماء مجموعة بلسان التفرقة، والمعاني مسموعة بلسان الجمع. الأسماء متنافية باللغات، والمعاني متصافية بحكم الصفات. أما تعلم أن الأنس بالمعاني على إيثار الحق، مقدم على الاستيحاش في الأسماء لتنافيها على إيثار الخلق. الأسماء محدودة بالأفهام، والمعاني معدودة بالإلهام. فإياك أن تلحظ المعاني بعين الاسم فتعطب، وإياك أن تعطي الاسم ذات المعنى فتتعب، وإياك أن تعطي المعنى رسم الاسم فتكذب، وإياك أن تفرق بينهما فتُتهم، وإياك أن تجمع بينهما فتُوهَّم. هاهنا زلقت أقدام المتكلمين، وانتكست أعلام المتحذلقين، لأنهم «سعوا في آياته معاجزين»، ونظروا في الآية مستهزئين، وركنوا إلى عقولهم مفتخرين متعززين، فنكصوا على أعقابهم خائبين خاسرين[1].

ويقول: رسالة (لد):

. . . وتحصَّن من نفسك في نفسك، وتبرأ من جنسك في بني جنسك، واشهد الغيب وغب عن الشهادة، واحفظها عند بروز الحق الذي إذا بدا لك أباد، وإذا أحب أعاد وأفاد؛ وإياك وملابسة الكون فإنها تؤديك إلى الفرقة والبين، وعليك بالتجريد والتفريد، وعليك بهجران كل شيطان مريد[2].

ويقول: رسالة (لح هـ):

تباركت خطراتي في تعالائي ... فلا إله إذا فكرت إلائي[3]

- نلاحظ أن أسلوب التوحيدي فيه جزالة ألفاظ وغموض يشعر أن هناك سرًّا تحاك حوله هذه الألفاظ، والهلع من ظهور السر متهائل بين السطور، وهو يستعمل عبارات قليلًا ما يستعملها غيره، ولكنها مستعملة على كل حال. وبشيء من التأني في القراءة والتكرار تتوضح الأسرار. وكلمة «تعالائي» من فعل الثناء «تعالى».

ويقول القشيري:

---

(١) الإشارات الإلهية: ١ / ١٤٠.

(٢) الإشارات الإلهية: ١ / ٢٥٩.

(٣) الإشارات الإلهية: ١ / ٣٨٨.

. . . فإذا فني عن توهم الآثار من الأغيار، بقي بصفات الحق، ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار ولا أثراً ولا رسماً ولا طللاً، يقال: إنه فني عن الخلق وبقي بالحق[1].

ويقول: . . . ومن محاه الحق سبحانه عن مشاهدته (أي مشاهدته لنفسه وأفعاله)[2]، أثبته بحق حقه، ومن محاه الحق عن إثباته به، ردّه إلى شهود الأغيار وأثبته في أودية التفرقة[3]. .

* **فقرة معترضة:**

مر معنا ويمر هنا وفي كتبهم مصطلح «المشاهدة» والفعل منه «شاهد، يشاهد»، فماذا يعنون به؟

يقول القشيري:

«. . . وتوهم قوم أن المشاهدة تشير إلى طرف من التفرقة، لأن باب المفاعلة في العربية بين اثنين، وهذا وهم من صاحبه، فإن في ظهور الحق سبحانه ثبور الخلق، وباب المفاعلة جلتُها لا تقضي مشاركة الاثنين، نحو: سافر، وطارق النعل، وأمثاله[4]. . .

ـ يفهمنا القشيري أن المشاهدة لا تكون بأن تشاهد الله سبحانه خارجاً عنك، فتكونا اثنين، لا، بل تشاهده في ذاتك، تشاهده أنك هو، إذن، منذ الآن، يجب أن نفهم مصطلح «المشاهدة ومشتقاتها» في كلام القوم حسب هذا المعنى. (مشاهدة الله تعني الاستشعار بالألوهية أو ذوق معنى الألوهية).

ويقول أبو حامد الغزالي «حجة الإسلام، الإمام»:

. . . فمن عرف الحق رآه في كل شيء، إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله، فهو الكل على التحقيق، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه عرفه؟ ومن عرفه عرف أن كل شيء

---

(١) الرسالة القشيرية، ص٣٧.
(٢) الجملة بين القوسين من شرح الرسالة في هامش حاشية العروسي: ٢ / ٧٦.
(٣) الرسالة القشيرية، ص٣٩.
(٤) الرسالة القشيرية، ص٤٠.

ما خلا الله باطل، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، لا أنه سيبطل في ثاني الحال، بل هو الآن باطل[1]. . .

- يبين لنا الغزالي هنا كيف يفهمون الجملة «كل شيء ما خلا الله باطل»، والآية ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾، ومنذ الآن يجب أن نعرف كيف يفهمونها، ولا نحاول التأويل واللف والدوران مثلهم.

ويقول: . . . واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية، وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر، وهي عالم الملكوت[2]. . .

- يبين الغزالي هنا أن حضرة الربوبية هي عالم الملكوت! فما هو عالم الملكوت؟

يشرحه ابن عجيبة بقوله: «مراتب الوجود هي العوالم الثلاثة: الملك والملكوت والجبروت. وذلك أن الوجود له ثلاثة اعتبارات: وجود أصلي أزلي، وهو الذي لم يدخل عالم التكوين، ويسمى عالم الأمر، وعالم الغيب، وهو المسمى بعالم الجبروت. ووجود فرعي، وهو النور المتدفق من بحر الجبروت، وهو كل ما دخل عالم التكوين لطيفاً كان أو كثيفاً، ويسمى عالم الشهادة، وعالم الخلق، وهو المسمى بعالم الملكوت[3]. .

- إذن فحضرة الربوبية يعني بها «الكون»، وسنرى هذا في نص آت، وقول ابن عجيبة: «وهو النور المتدفق من بحر الجبروت»، هو نفس نظرية «الفيض» اليونانية، والعريقة في تاريخ الوثنيات.

ويقول الغزالي أيضاً:

. . . نعلم أن للقلب ميلاً إلى صفات بهيمية. . وإلى صفات سبعية. . وإلى صفات شيطانية. . وإلى صفات ربوبية. . فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع!؟ ومعنى الربوبية التوحد بالكمال، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال؛ فصار

---

(١) إحياء علوم الدين: ١ / ٢٥٤.

(٢) إحياء علوم الدين: ١ / ٢٤٢.

(٣) الفتوحات الإلهية حاشية إيقاظ الهمم، ص١٠٩.

الكمال من صفات الإلهية، فصار محبوباً بالطبع للإنسان. والكمال بالتفرد بالوجود، فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة؛ فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصاً في حقها إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية. والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته، بل هو قائم به... وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس بل هو من جملة كمالها، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى.. فكذلك وجود كل ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة.. فإذاً معنى الربوبية التفرد بالوجود، وهو الكمال... ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية: ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾، ولكنه ليس يجد له مجالاً. و هو كما قال[1]...

ـ هذا النص مشحون، لكن أهم ما فيه هو:

١ ـ استعمال الغزالي أساليب علم الكلام لإثبات أمر غيبي تتعذر معرفته إلا عن طريق الوحي.

٢ ـ قوله: «المنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه» يعني أن الله جلت قدرته، لم يخلق شيئاً من العدم، إذ لو خلق شيئاً من العدم لكان هذا الشيء غير الله، ولكان مع الله موجود آخر غيره، لكن الحجة يقرر أن ليس مع الله موجود سواه، وهذه هي وحدة الوجود.

٣ ـ إعطاؤه لكلمة «الربوبية» معنى لم يرد عن خير البشر ولا عن خير القرون ولا عن تابعيهم.

٤ ـ إيراده القول الذي يعزوه إلى بعض مشايخ الصوفية والذي يفيد:
أ ـ إن فرعون رب في الباطن، وقد صرح بهذه الربوبية. لنتنبه إلى كلمة «صرّح».
ب ـ هذه الربوبية هي في باطن كل إنسان، أي إن كل إنسان هو رب في الباطن، لكنه لا يجد مجالاً لاستشعار هذه الربوبية أو للتصريح بها مثل فرعون.

٥ ـ تقرير الغزالي صحة هذا القول بقوله: «وهو كما قال».

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣ / ٢٤٣.

ويقول الغزالي أيضاً:

. . . ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه، فيرى جنةً عرض بعضها السماوات والأرض، أما جملتها فأكثر سعة من السماوات والأرض، لأن السماوات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة. . وأما عالم الملكوت، وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار، المخصوصة بإدراك البصائر، فلا نهاية له. نعم، الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه. . وجملة عالم الملك والملكوت إذا أُخذ دفعة واحدة تسمى «الحضرة الربوبية»، لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات، إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله؛ ومملكتُه وعبيدُه من أفعاله[1]. . .

- نحن الآن نعرف مما سبق ومما سيأتي من نصوص، أنه وأنهم يعنون بقوله وقولهم: «أفعال الله» أي حركاته (سبحانه عما يصفون).

ويقول: . . . والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار. والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصديقين، وتسمّيه الصوفية «الفناء في التوحيد» . . . والثالث: موحد، بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه، ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه، لا أنه كلّف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين. . والرابع: موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير، بل من حيث إنه واحد. وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد[2]. . .

ويقول: . . . فإن قلت: كيف يُتصوَّر أن لا يشاهد إلا واحداً، وهو يشاهد السماء والأرض، وسائر الأجسام المحسوسة، وهي كثيرة؟ فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات. . وهو أن الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدةٍ واعتبار، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار. وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفتَّ إلى

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣ / ١٣.

(٢) إحياء علوم الدين: ٤ / ٢١٢.

روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبارٍ آخر ومشاهدةٍ أخرى واحدٌ، إذ نقول: إنه إنسان واحد.. والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرقٌ بواحد ليس فيه تفريق، وكأنه في عين «الجمع»؛ والملتفتُ إلى الكثرة في «تفرقة». فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار واحدٍ من الاعتبارات واحدٌ، وباعتبارات أخر سواه كثيرٌ... وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق، تارة تدوم، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف، وهو الأكثر، والدوام نادر عزيز[1]...

● **الملاحظة**: أرجو الانتباه إلى كلمتي: «الجمع والتفرقة» اللتين يشرح معناهما بوضوح.

ويقول: ... فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه. فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره، ولا يُتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإن الأشياء تُستبان بأضدادها، وما عمّ وجوده حتى إنه لا ضدّ له، عسر إدراكه[2]...

ويقول بعد أن يذكر ـ إشارةً ورمزاً ـ صفة الذي لا يرى إلا الله:

... فهذا الذي يقال فيه: «إنه فني في التوحيد وفني عن نفسه»، وإليه الإشارة بقول من قال: «كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن... ولذلك قيل:

لقد ظهرتَ فلا تخفى على أحدٍ ... إلا على أكمهٍ لا يعرف القمرا
لكن بطنتَ بما أظهرتَ محتجباً ... فكيف يُعرف من بالعرف قد سُترا[3]

ويقول: «حقيقة الحقائق»:

.. من هنا ترقى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة، واستكملوا معراجهم، فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله تعالى، وأن «كل شيء

---

(١) الإحياء: ٤ / ٢١٣.
(٢) الإحياء: ٤ / ٢٧٦.
(٣) الإحياء: ٤ / ٢٧٦ و٢٧٧.

هالـك إلا وجهـه» لا أنـه يصـير هالكاً في وقت من الأوقات، بل هو هالك أزلاً وأبداً، لا يُتصـور إلا كذلـك. فإذن لا موجـود إلا الله تعـالى ووجهـه، فإذن كل شيء هناك إلا وجهه أزلاً وأبداً... ولم يفهموا من معنى قوله «الله أكبر» أنه أكبر من غيره، حاش لله، إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون أكبر منه، بل ليس لغيره رتبة المعية. بل رتبة التبعية[1]...

ويقول: «إشارة»

العـارفـون بعـد العـروج إلى سماء الحقيقـة، اتفقـوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق[2].

- نلاحظ أن أسلوب الغزالي فيه وضوح وصراحة، ونرى أنه عندما يريد التعمية، لا تسـاعـده العبـارة الإشـاريـة، لذلـك فهو يضيف جملاً موهمة. فمثلاً يقول: «إذ ليس في الـوجـود معـه غيره...»، ثم يقـول بعـدهـا مباشرة: «بل ليس لغيره رتبة المعية...»! فكيف ينفي وجود الغير في الجملة الأولى ثم يثبته في الثانية؟!

في الـواقـع، الغـزالي غير متناقض مع نفسه وعقيدته في هذا النص - أو غيره - فهذا أسلوبه في العبارة الملغزة، الذي يحاول به، مثل غيره من الصوفية، التعمية على من هم غير أهله، وقد نجح في هذا الأسلوب.

والنصـــان الأخـــيران يوضحـــان معنى قولهم (أو قول بعضهم) أحيـانـاً: «وحـدة الشهود»، حيث نفهم منهما أن عبارة «وحدة الشهود» تعني بكل بساطة «مشاهدة وحدة الوجود».

ويقول: ... لكن ينبغي أن يُعلم أن الحضرة الإلهية محيطة بكل ما في الوجود، إذ ليس في الوجود إلا الله وأفعاله، فالكل من الحضرة الإلهية، كما أن جميع أرباب الولايات في المعسكـر، حتى الحـراس، هم من المعسكـر... فاعلم أن كل ما في الـوجود داخل في الحضرة الإلهية[3]... (أفعال الله تعني حركاته سبحانه وتعالى).

---

(1) مشكاة الأنوار، ص٥٥.
(2) مشكاة الأنوار، ص٥٧.
(3) إلجام العوام عن علم الكلام، ص٣٢.

ويقول في تائيته التي مطلعها:

بنور تجلي وجه قدسك دهشتي — وفيك على أن لا خفيّ بك حيرتي

منها:

وهل أنا إلا أنت ذاتاً ووحدةً — وهل أنت إلا نفس عين هويتي[1]

ومنها:

فكيف بشكري كل عضو وقوة — جعلت لنفعي عند تأليف بنيتي
وشكر التي قد حُجبت بي وإنها — لأظهرُ لي من نور شمس تبدت[2]

ومنها:

ملأت جهاتي الست منك فأنت لي — محيط وأيضاً أنت مُركز نقطتي
فصرتُ إذا وجهت وجهي مصلياً — فرايض أوقاتي فنفسي كعبتي
فصار صيامي لي ونسكي وطاعتي — ونحري وتعريفي وحجي وعمرتي
وحولي طوافي واجبٌ وخلاله — استلامي لركني من مناسك حجتي
وذكري وتسبيحي وحمدي وقربتي — لنفسي وتقديسي وصفو سريرتي
ولو همّ مني خاطر بالتفاتة — لما كان لي إلا إليّ تلفُّتي
ولو لم أُؤدِّ الفرض مني إليّ لم — يضح بوجه لي ولم تَبْرَ ذمتي[3]

ويقول: . . . فإن الفاعل بالحقيقة واحد، فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد، ولم نقدر أن نذكر من مجاز التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد . . . وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله، وما أخف مؤنته على اللسان، وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب، وما أعز حقيقته ولُبّه عند العلماء الراسخين في العلم، فكيف عند غيرهم . . فإن قلت: فكيف الجمع بين التوحيد والشرع؟ ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى، ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد، فإن كان العبد

---

(١) النفحات الغزالية، ص١٧٣، ومعارج القدس، ص١٩٥.
(٢) النفحات الغزالية، ص١٨٣، ومعارج القدس، ص١٩٩.
(٣) معارج القدس، ص٢٠٢ و٢٠٣.

فاعـلاً فكيف يكـون الله تعـالى فاعـلاً؟ وإن كان الله تعـالى فاعـلاً فكيف يكـون العبد فاعـلاً؟ . . . ولأجـل توافق ذلـك وتطـابقـه نسب الله تعـالى الأفعـال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه! فقال تعالى في الموت: ﴿قل يتـوفّـاكم ملكُ المـوتِ﴾، ثم قال عز وجـل: ﴿الله يتـوفّى الأنفسَ حين موتِهـا﴾، وقـال تعالى: ﴿أفرأيتُم ما تحرثونَ﴾، أضاف إلينا، ثم قال تعالى: ﴿أنّا صببْنا الماء صبًّا، ثم شققْنا الأرض شقًّا، فأنْبَتنا فيها حبًّا، وعِنباً . .﴾، وقال عز وجل: ﴿فأرْسَلْنا إليها روحَنا فتَمَثَّلَ لها بشراً سويًّا﴾، ثم قال تعالى: ﴿فنَفَخْنا فيها من روحِنا﴾ وكان النافخُ جبريل عليـه السـلام، وكـما قال تعالى: ﴿قاتِلوهم يعذِّبْهم الله بأيديكُم﴾ فأضاف القتل إليهم والتعـذيب إلى نفسـه! والتعـذيبُ هوعين القتل! بل صرح وقال تعالى: ﴿فلم تَقْتُلوهم ولكنَّ الله قتَلَهم﴾ وقال تعالى: ﴿وما رميْتَ إذْ رميْتَ ولكنَّ الله رَمى﴾ وهوجمع بين النفي والإثبات ظاهراً، ولكن معناه: وما رميت، بالمعنى الذي يكون الرب به رامياً، إذ رميت، بالمعنى الذي يكون العبد به رامياً؛ إذ هما معنيان مختلفان. وقال الله تعالى: ﴿الذي علَّم بالقلمِ، علَّم الإنســانَ ما لم يعلم﴾ ثم قال: ﴿الـرحمنُ علَّم القـرآنَ﴾ وقـال: ﴿علَّمَـهُ البيانَ﴾ وقال: ﴿إنَّ علَيْنا بيانَهُ﴾ وقال: ﴿أفرأيتُم ما تُمْنون أأنْتُم تخلقونَهُ أم نحنُ الخالقونَ﴾[1] . . . اهـ.

ـ أمثال هذا النص تتكرر كثيراً في كتب الغزالي، وخاصة في كتاب «إحياء علوم الدين».

ولقـد رأينـا، في النصـوص السـابقـة، تصريح الغزالي بوحدة الوجود، التي يسميها «التوحيد». وهذا النص واضح، لكن بالنسبة لمن قرأ نصوص الغزالي السابقة واستوعبها معنى وألفاظاً وجملاً.

أمـا من يقـرأ هذا النص لأول مرة، وهـوخالي الفكر، فقد لا يستطيع ملاحظة فكرة «وحدة الوجود» الماثلة في كل جملة من جمله. لذلك كان من اللازم لمن يريد فهمه أن يرجع إلى نصـوص الغـزالي السابقة، خاصة، وإلى نصوص الصوفية عامة، ثم يعود إلى هذا النص ليرى «وحدة الوجود» واضحة كل الوضوح في ثنايا الكلام.

---

(١) الإحياء: ٤ / ٢٢١.

ولهذا النص فائدة كبيرة، لمعرفة كيفية فهمهم للنصوص القرآنية. ولنصوص الحديث، وكيف يضعونها في سياق موهم، بحيث تظهر لأهل الأذواق وكأنها تحمل المعاني التي يريدونها! وكيف يلوون أعناقها ببراعة وانسياب تظهر وكأنها تتفق مع كشفهم وعقيدتهم!؟.

إنه يقدم ما أورد من آيات في سياق الكلام عن «التوحيد» الذي يعني به توحيد الخالق والمخلوق في وحدة واحدة!. يقدم هذه الآيات ليجعلها دليلاً على نظريته!.

وهرباً من الإطالة، نقدم توضيحاً لثلاث آيات منها فقط:

١ ـ الآية ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ يريد الغزالي أن يقول: «إن الله سبحانه أرسل (روحه)؛ وروحه كما يتبادر إلى أذهاننا، هي جزء منه، وهذا الروح هو ملك كما تخبرنا آية ثانية، إذن فالملك هو روح الله، وهو بالتالي جزء منه! أو هو هو حسب تعابيرهم».

٢ ـ الآية: ﴿فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه﴾ التي يتبعها بتفسيره حيث يقول: «معناه: إذا قرأه عليك جبريل . . .». فالله سبحانه يقول: ﴿قرأناه﴾ بصيغة المتكلمين، بينما القارىء هو جبريل، إذن فجبريل هو الله، أو هو جزء منه!!. سبحانه وتعالى علوًا كبيراً عما يصفون.

٣ ـ الآية ﴿وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ الله رمى﴾ التي يفسرها بقوله: «. . . وما رميت، بالمعنى الذي يكون الرب به رامياً، إذ رميت، بالمعنى الذي يكون العبد به رامياً . . .»، وهو كلام واضح جدًّا! إنه يقول: «معناه: وما رميت (يا محمد الرب) إذ رميت (يا محمد العبد) ولكن الله رمى»، إذن محمد هو الله، تعالى الله علوًّا كبيراً.

ولو نظرنا إلى بقية الآيات التي أوردها في هذا النص ـ وفي غيره في كتبه ـ لرأيناه يريد بها نفس المعنى الذي بيّنّاه في هذه الآيات الثلاث.

يورد الغزالي بعد كلامه الذي سجلناه، حديثين، يوجههما لأداء نفس المعنى الذي يحاول تقريره. يقول العراقي عن أولهما: «. . . في سنده جهالة، وقال ابن عدي: إنه منكر . . .». ويقول عن ثانيهما: «لم أجد له أصلاً». (ولم أوردهما تجنباً للإطالة). ويورد

أيضاً بعدها آيات أخرى، وأقوالاً لبعضهم، وشعراً، نوردها دون تعليق الغزالي، ودون أي تعليق غيره. ليستطيع القارىء أن يفهم مرادهم من الآية حيثما مرت معه. يقول:

. . . وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسماوات ثم قال: ﴿أوَلم يكفِ بربِّك أنَّه على كلِّ شيء شهيدٌ﴾ وقال: ﴿شهِدَ الله أنَّه لا إله إلا هو﴾، فبين أنه الدليل على نفسه . . . قال بعضهم: «عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي»، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أوَلم يكْفِ بربِّك أنَّه على كلِّ شيء شهيدٌ﴾، وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ثم فوَّض الموت والحياة إلى ملكين، ففي الخبر «أن ملكي الموت والحياة تناظرا . . .»[1]. لذلك قال ﷺ للذي ناوله التمرة: «خذها: لو لم تأتها لأتتك»، أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة. . . وأصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد: «ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل» . . . فإذاً لا حقَّ بالحقيقة إلا الحي القيوم . . . فهو الحق وما سواه باطل. فإنه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته . .»[2].

هذه عبارات، أو بعض العبارات، التي يستعملونها يشيرون بها إلى وحدة الوجود، أوردها الغزالي متتابعة، وقد أورد غيرها الكثير في أماكن أخرى من «الإحياء» وغير «الإحياء»، مع التكرار لها في مواضع كثيرة.

وهذه صورة أخرى من صور العبارة الإشارية:

يقول ابن عطاء الله في حِكَمه:

متى جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره، ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره فقد أعظم عليك المنة[3].

وقد أوردها محمود أبو الفيض المنوفي (القطب) على أنها تحمل نفس معنى قول أبي الحسن الشاذلي، الذي رأيناه: «ليكن الفرق بلسانك موجوداً . . . » وهي إشارة إلى مقام «الفرق الثاني». ويقول ابن عطاء الله أيضاً في حِكَمه:

«كن بأوصاف ربوبيتي متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متخلقاً، فإن تحققتَ بأوصافك

---

(١) الحديث مكذوب.

(٢) الإحياء: ٤ / ٢٢٢.

(٣) جمهرة الأولياء، ص٧٨.

أيّدك بأوصافه»[1]، وهي كما يقرر المنوفي تحمل نفس معنى سابقتها، أي: «الفرق الثاني».

ويقول عبد القادر الجيلاني «قطب الأولياء الكرام»:

الحمد لله الذي كيّف الكيف وتنزه عن الكيفية، وأيّن الأين وتعزز عن الأينية، ووُجد في كل شيء وتقدس عن الظرفية، وحضر عند كل شيء وتعالى عن العندية[2] . . .

ويقول:

. . . ثم قال لي: يا غوث الأعظم، ما أكل الإنسان شيئاً وما شرب وما قام ولا قعد وما نطق وما صمت وما فعل فعلاً وما توجه لشيء وما غاب عن شيء إلا وأنا فيه، ساكنه ومتحركه. ثم قال لي: يا غوث الأعظم، جسم الإنسان ونفسه وقلبه وروحه وسمعه وبصره ويده ورجله ولسانه وكل ذلك طهرت له نفس بنفس لا هو إلا أنا ولا أنا غيره[3].

ويقول: . . . فإذا تحقق عندكم العمل، رأيتم القدرة، فحينئذ يُجْعَلُ التكوينَ في أيدي قلوبكم وأسراركم، إذا لم يبق بينك وبين الله حجاب من حيث قلبك، قدّرك على التكوين وأطلعك على خزائن سره، وأطعمك طعام فضله، وسقاك شراب الأنس، وأقعدك على مائدة القرب منه، وكل هذا ثمرة العلم بالكتاب والسنة اعمل بهما ولا تخرج عنهما، حتى يأتيك صاحب العلم، الله عز وجل. فيأخذك إليه، إذا شهد لك معلم الحكم بالحذق في كتابه، نقلك إلى كتاب العلم، فإذا تحققت فيه أقيم قلبك ومعناك، والنبي في صحبتهما آخذ بأيديهما، ويدخلهما إلى الملك، ويقول لهما: ها أنتما ربكما[4]. اهـ (أرجو الانتباه إلى حدود العمل بالكتاب والسنة «حتى يأتيك صاحب العلم»).

ويقول: . . . إذا قال لك القلب «لا» فهو حرام، وإن قال «نعم» فهو حلال، وإن

---

(1) جمهرة الأولياء، ص٨٠.

(2) الفيوضات الربانية، ص٤١.

(3) الفيوضات الربانية، ص٥. وتبرز هنا ملاحظة هامة، هي أنه لا يهمنا إن كان كل ما في كتاب «الفيوضات الربانية» صحيح النسبة للجيلاني أم لا، لأن الذي يهمنا هو أن هذا الكتاب هو عقيدة عشرات الملايين من الذين ساروا على نهج الطريقة القادرية طيلة قرون طويلة.

(4) الفتح الرباني، ص٢١٧.

سكت فلم يقل «نعم» ولا «لا» فهو شبهة، إن عدمت المألوفات وصبرت نفسك فهو القناعة، تدري كم عنده من الطاعات، والصوم والصلاة لا يعبأ بها، إنما مراده منك قلب صاف من الأقدار والأغيار[1].

ويقول: . . . بقي أبويزيد البسطامي سبع مرات، لما سُمع منه من الكلام العجيب، يفتح إلى قلوبهم أبواب القرب، لا يجمعهم مع الخلق سوى الصلوات الخمس ولقب الآدمية البشرية؛ وصورتهم صورة الإنس، وقلوبهم مع القدر، وأسرارهم مع الملك[2].

- يخبر عبد القادر الجيلاني عن أبي يزيد البسطامي، أنه كان يفتح أبواب القرب (من الله وبه وإليه وفيه) إلى قلوبهم، أي إلى قلوب المريدين. إذن فعبد القادر الجيلاني، في هذا النص، يزكي أبا يزيد، وبالتالي فهو يوافقه على أقواله التي مرت معنا آنفاً.

ويقول: قيل للحلاج حين صلب: «أوصني»، قال: نفسك إن لم تشغلها وإلا شغلتك[3].

- يُظهر الحلاجَ هنا بمظهر المعلم الحكيم، المقصود، حتى عند الصلب، إذن فالحلاج مزكىٌّ عند الجيلاني، وهذا يعني أن الجيلاني يتلقى أقوال الحلاج بالقبول. فهو يؤمن بأقواله وعقيدته. ونستطيع أن نرجع إليها حالاً، لتكون: تذكرة وتعيها أذن واعية.

ويقول: . . . وإذا كان القطب اطّلع على أعمال أهل الدنيا وأقسامهم وما تؤول أمورهم إليه، ويطّلع على خزائن الأسرار، ولا يخفى عليه شيء في الدنيا من خير أو شر، لأنه مفرد الملك، بطانته، نائب أنبيائه ورسله، أمين المملكة، فهذا هو العين القطب في زمانه[4] . . .

ويقول: . . . يا عبدَ الهوى والطبع، يا عبدَ الثناء والحمد، ما جفّ به القلم وسبق به العلم من الأقسام، لا بد من استيفائها، لكن الشأن هل يأخذها بك، أو به يوجدك، ويقعدك مع التوحيد . . . أطلب القرب من باب فنائك . . . ويكون «أي العارف أو

---

(1) الفتح الرباني، ص٣٥٧.
(2) الفتح الرباني، ص٣٦٧.
(3) الفتح الرباني، ص٣٦٠.
(4) الفتح الرباني، ص٣٥٤.

الـواصـل» نائب الـرسـول في المتـابعة، يُترك ثم يؤخذ، ثم يُؤخذ، يَترُك المتروك ويأخذ المأخوذ، يضيء لك الأمر كفلق الصبح، يجدد على العبد ثوبَي الوجود تارة والفناء تارة، يُفْتقد، فيُقبل الحقّ عليه، وتارة يوجد، فيخبر عن الحق «روى قلبي عن ربي»[1] . . .

ـ قبـل الانتقـال إلى كتـاب آخـر من كتب الشيـخ، يجدر الانتبـاه إلى قوله: «يجعل التكـوين في أيـدي قلوبكم وأسراركم»، و«قدّرك على التكوين»، وقوله في نص سابق: «فـإذا جاءت نوبـة الحكم كانـوا في صحن الحكم»، ثم عرض هذه الأقـوال على الآيـة القـرآنيـة الكـريمة: ﴿. . . مالهم من دونه من وليٍّ ولا يشرِكُ في حكمِهِ أحداً﴾، وقوله: «ها أنتما ربكما».

طبعاً، الأمر واضح، إن الذي يعتقد أن مخلوقاً ما، سواء كان إنساناً أوملكاً، يمكن له «التكوين»، وأن يتصرف في الكون، إنما هو كافر، لأنه يناقض نص الآية الصريح.

ـ لكن! همسـة أهمسهـا في أذن القـارىء: إنهم يؤ ولـون ـ كما يقول الإمام الغزالي ـ النصوص المخالفة للكشف لتتفق مع كشفهم!! . وعليه فهم يؤ ولون هذه الآية، ليصبح معناها: «إن كل من يحكم فهو الله»، لأن الله لا يشرك في حكمه أحداً، وبما أن هناك من يحكم ولو في أمر واحد، إذن فهو الله، لأن الحاكم هو الله وحده، ولأنه لا يشرك في حكمه أحداً؛ وطبعاً، هذه هي وحدة الوجود. نعود إلى الشيخ.

يقول الجيلاني:

. . . ثم إذا لم يجد عنـد الخـالق نصـرَةً، استطـرح بين يديه مديماً للسؤ ال أو الدعاء والتضرع والثناء والافتقار مع الخوف والرجاء، ثم يعجزه الخالق عز وجل عن الدعاء، ولم يجبه حتى ينقطع عن جميع الأسباب، فحينئذ يَنْفذ فيه القدر، ويفعل فيه الفعل، فيفنى العبد عن جميع الأسباب والحركات، فيبقى روحاً فقط، فلا يرى إلا فعل الحق، فيصير موقناً موحداً ضرورة، يقطع أن لا فاعل في الحقيقة إلا الله، لا محرك ولا مسكن إلا الله، ولا خير ولا شر ولا ضر ولا نفع ولا عطاء ولا منع، ولا فتح ولا غلق، ولا موت ولا حياة، ولا عز ولا ذل إلا بيد الله . . . ويكون ولا حراك به في نفسه ولا في غيره، فهو غائب عن

---

(١) الفتح الرباني، ص٣٥٥.

نفسه في فعل مولاه، فلا يرى غير مولاه وفعله، ولا يسمع ولا يعقل من غيره، إن بَصُر وسمع[1] . . . اهـ.

- كل العبارات الدالة على وحدة الوجود في هذا النص، مرت معنا فيما سبق، مثل: «يفنى العبد عن جميع الأسباب . .»، و«يصير موحداً»، و«لا فاعل إلا الله»، و«غائب عن نفسه في فعل مولاه».

لكن أمامنا الآن عبارة جديدة هي: «فيبقى روحاً فقط»، وكذلك المفردات المتلاحقة: «لا خير ولا شر ولا ضر . . .»، والتي يفهم الصوفي والمتمرس بعباراتهم إلى ماذا ترمز وتشير، وكذلك قوله: «فلا يرى غير مولاه وفعله».

ويقول: . . . والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله، لما رأى رب العزة في المنام فقال: كيف الطريق إليك؟ قال: اترك نفسك وتعال، فقال: فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها[2] . . .

- في هذا النص تزكية واضحة لأبي يزيد البسطامي ولمكاشفته، وهذا يعني أنه يؤمن بعقيدة أبي يزيد، وبالتالي يمكننا أن نكون موقنين أنه يتبنى أقواله التي مرت فيما سبق. كما يتبنى قوله في هذا النص، الذي هو: «فانسلخت من نفسي . . . .»، والذي نعرف، بعد قراءتنا لهذا الركام من أقوالهم وإشاراتهم، أنه يعني به الانسلاخ من فكرة تفريق الخلق عن الحق ومن الشعور بها.

ويقول: . . . فحينئذ يصير مُحقّقاً من أهل الحقيقة . . . وإن كنتَ في حالة «حق الحق»، وهي حالة «المحو والفناء»، وهي حالة الأبدال المنكسري القلوب لأجله، الموحدين العارفين، أرباب العلوم والعقل، السادة الأمراء خفراء الخلق خلفاء الرحمن وأخلائه وأعيانه وأحبائه عليهم السلام[3] . .

- ما يجب الانتباه إليه: قوله: «حق الحق، المحو، الفناء، الموحدين، العارفين، خفراء الخلق وما بعدها . .»، ومن لم يعرف معناها ومرماها فعليه البدء بقراءة الكتاب من

---

(١) فتوح الغيب، ص٨ و ٩.
(٢) فتوح الغيب، ص٢٥.
(٣) فتوح الغيب، ص٢٨.

أوله بوعي وحفظ.

ويقول: . . . فحينئذ يسمع نداءً من قبل الحق عز وجل من باطنه: اترك نفسك وتعـال، اتـرك الحظوظ والخلق إن أردت الخالق، واخلع نعليك «دنياك وآخرتك»، وتجرد عن الأكوان والموجودات وما سيوجد والأماني بأسرها، وتَعرَّ عن الجميع وأفْنَ عن الكل، وتطيَّب بالتوحيد، واترك الشرك، وصدِّق الإرادة[1]. . .

ويقـول: إلى متى المعـاد؟ إلى متى الحق؟ إلى متى الهوى؟ إلى متى الرعونة؟ إلى متى الدنيا؟ إلى متى الآخرة؟!!! إلى متى سوى المولى؟ أين أنت من خالقك والأشياء؟ المكوّن الأول الآخر الظاهر الباطن، والمرجع والمصدر إليه[2].

● الملاحظات:

قولـه: اخلع نعليـك: «دنيـاك وآخـرتـك»، وقـوله: إلى متى الآخرة؟! إذا خلعنا الآخرة! فماذا بقي لنا؟ وماذا نفعل بعشرات الآيات التي تأمرنا بالإيمان بالله واليوم الآخر؟!

وما معنى قوله سبحانه: ﴿. . . لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر. .﴾؟!

وما معنى قوله: ﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾؟!

وما معنى قوله: ﴿وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾.

وما معنى قوله سبحانه: ﴿. . . والله يريد الآخرة﴾؟!

وما معنى قوله سبحانه: ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

وما معنى قوله سبحانه: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾، وقوله: ﴿ولـدار الآخـرة خير للذين اتقـوا أفلا تعقلون﴾، وقوله: ﴿ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾، وقوله: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾، وقوله: ﴿وإن الدار الآخـرة لهي الحيـوان لوكانـوا يعلمـون﴾، وقـولـه: ﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخـرة﴾، وقـولـه: ﴿ومن كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾. . . وغيرها وغيرها

---

(1) فتوح الغيب، ص١٢٧.

(2) فتوح الغيب، ص١٤٤.

من الآيات.

فهل حكمة الشيخ «الكشفية» تنسخ آيات الله؟!

وماذا في الأمر؟! فهؤلاء القوم هم المحبون المحبوبون العارفون المقربون الصديقون الواصلون الموحدون الذائقون المدللون الأولياء الصالحون الخلّص أصحاب الأسرار الذين أشرفوا على عتبة أحوال الأنبياء المتحققون بالأسماء والصفات والذات المتصرفون في الكون الأقطاب الغيوث الطيبون الراضون المرضيون المقدسون القديسون المتقون الذاكرون المحفوظون السائرون السالكون العارجون الأوتاد الأبدال الأخيار الصفوة المخلصون المختارون المصطفون المختصون بالعلوم اللدنية الداخلون في بحار الأنوار الذائقون من معاني اسمه الصمد والقيوم والعزيز والجبار والمتكبر أي المتصفون بها والمتحققون بها والعارجون بها منها فيها إليها عليها حتى يصبحوا في الغاية ﴿وأنَّ إلى ربِّك المنتهى﴾..

والأوصاف كثيرة تعجز عنها العبارات والإشارات والكلمات والحروف والجمل والسطور والمقاطع والصفحات والملازم والفصول والأبواب والكتب والمجلدات والمكتبات..

- فلا جرم، من كانت هذه نعوتهم وصفاتهم، فهم يستطيعون - ولهم الحق - التصرف والحكم بنسخ القرآن كله، وحديث رسول الله ﷺ كله، ووجود الأنبياء كلهم، وأحكام الشرائع كلها، ورسالات النبيين كلهم، بجرة قلم، أوبقولة: «كن فيكون»!! ولهم المنة والفضل والشكر والإحسان والحمد والثناء والنعمة والكرم والجود والحكم والتصرف والحكمة والعلم والكشف وما بعد الكشف وما قبل الكشف وما فوق الكشف وما تحت الكشف، وكشف الكشف، وكشف كشف الكشف، والعلم اللدني، وما فوقه وتحته وأمامه وخلفه وحوله وقبله وبعده... إلخ.

- (هذا من عدوى العلوم اللدنية).

ويقول الشيخ:

... فبظاهره ينظر إلى ما في السوق، وبقلبه ينظر إلى ربه عز وجل، إلى جلاله

تارة وإلى جماله تارة أخرى[1].

ـ عرفنا فيما سبق، أن عبد القادر الجيلاني له أسلوب هو في القمة من حيث التعمية والإلغاز. وهذا نص يحمل نفس معنى الجملة التي مرت قبل صفحات: «إياك أن تقول أناه، واحذر أن تكون سواه». وأترك للقارىء تحليلها مع العلم أن أسلوب عبد القادر الجيلاني في الرمز واللغز لا يفوقه إلا أسلوب تلميذه عمر السهروردي.

ويقول: . . . ما ذُكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾، فقال: في كل شيء اسم من أسمائه، واسم كل شيء من اسمه، فإنما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله، باطنٌ بقدرته وظاهرٌ بحكمته، ظهر بصفاته وبطن بذاته، حَجَبَ الذات بالصفات وحَجَبَ الصفات بالأفعال، وكشف العلم بالإرادة وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع والصنيعة، وأظهر الصنعة بالإرادة، فهو باطن في غيبه وظاهر في حكمته وقدرته، ليس كمثله شيء وهو السميع والبصير.

ولقد أظهر في هذا الكلام من أسرار المعرفة ما لا يظهر إلا من مشكاة فيها مصباح أمرِه برفع يد العصمة: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[2]. . . اه.

١ ـ نسبة هذا التفسير لابن عباس غير صحيحة.

٢ ـ يريد الشيخ أن يجعل ابن عباس يفسر قوله سبحانه: ﴿. . ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾، أن السماوات والأرض جميعاً هي من الله، بمعنى هي جزء منه! لذلك جعله (ناقلاً) يقول: «في كل شيء اسم من أسمائه، واسم كل شيء من أسمائه»، ومعنى هذا واضح، فاسم «الشمس» مثلاً هو من أسماء الله! والقمر هو من أسمائه سبحانه، وكذلك كل ما في السماوات والأرض، مثل: المريخ، المشتري، الثريا، الهواء، التراب . . . ومنها الدنسيات (جل الله وعلا علوًّا كبيراً).

وهنا نرى بوضوح أن هذه العبارات «في كل شيء اسم من أسمائه واسم كل شيء من أسمائه . . .» تحمل نفس معنى قول قائلهم: «وما الكلب والخنزير إلا إلهنا»، وقول

---

(١) فتوح الغيب، ١٦٢.

(٢) فتوح الغيب، ص١٦٥.

الآخـر: «ولا يهولنـك صدور الكـائنـات الدنسية من سنخ القدسية» وما ماثلها مما ورد في هذا الكتاب ومما لم يرد.

ثم جعله يقـول: «فـإنـما أنت بين أسـمائه وصفاته وأفعاله». وهذا واضح أيضاً. إنه يعني: إنـك، يا مخاطب، بما أنـك موجـود بين الأشيـاء التي في الأرض، من هواء ومـاء وتراب وأحجار وغيرها، وفي السماوات، وبما أنها كلها أسماء الله وصفاته وأفعاله، إذن، فأنت بين أسـمائـه وصفـاتـه وأفعاله!! (ولا ننسى أن عبارة «أفعال الله» يعنون بها حركاته جل وعلا).

وقوله: «ظاهر بصفاته...»، يعني أن كل ما يظهر لنا ونراه ونلمسه هو صفات الله! فهـو ظاهـر بها، فالحجـر - مثـلاً - يحمـل صفـة الحجرية التي نراها وهذه الصفة الحجرية تحجب عنا حقيقة كونه من الذات!؟

ويقـول: يا هذا، الفنـاء إعـدام الخـلائق، وانقلاب طبعك عن طبع الملائكة، ثم الفنـاء عن طبـع المـلائكـة، ثم لحوقك بالمنهاج الأول، وحينئذ يسقيك ربك ما يسقيك، ويزرع فيك ما يزرع[1]؟!

- يفسـر كلمـة «الفنـاء»، إنها إعدام الخلائق... ثم لحوقك بالمنهاج الأول، فما هو المنهـاج الأول؟ إنـه القـول الذي يكررونه «كان الله ولا شيء معه» هذا هو المنهاج الأول! وسنراه فيما يأتي، وقد مر معنا فيما سبق.

وقـال: ثم قال لي: يا غوث الأعظم، نم عنـدي لا كنـوم العوام ترني! فقلت يا رب كيف أنـام عنـدك؟ قال: بخمـود الجسم عن اللذات.. في فنـاء ذاتك بالذات. ثم قال لي: يا غوث الأعظم، قل لأصحـابـك وأحبـابـك، من أراد منكم جنـابي فعليه باختيار الفقر، ثم فقر الفقر، فإذا تم الفقر فلا ثَمَّ إلا أنا[2].

- ما يُنتبه له هو: «في فناء ذاتك بالذات»، و«فلا ثَمَّ إلا أنا» وهما واضحتان، فقد مرا فيما سبق بلفظهما أو بمعناهما.

---

(١) فتوح الغيب، ص١٧٠.

(٢) الفيوضات الربانية، ص٨.

ولكن معنـا الآن عبـارة جديـدة، هي «فقر الفقر» التي يعني بها «إعدام فكرة الخلق» وكذلك عبارة «فإذا تم الفقر» أي فإذا تمت الغيبة عن مشاهدة الخلق على أنهم خلق.

. ومما ينسب له، من قصيدة (والعارفون كلهم ينسبونها له):

وسِـرِّي سِرُّ الله سارٍ بخـلقـه ... فلذ بجـنـابـي إن أردتَ مودتـي
وأمـري أمـرُ الله إن قلتُ كن يكـن ... وكـلٌّ بأمـر الله فاحـكـم بقـدرتـي
وشـاهـدتُ ما فوق السـمـاوات كلهـا ... كذا العـرشُ والكـرسيُّ في طي قبضتي
وجـودي سَرى في سِرِّ سِرِّ الحـقـيـقـة ... ومـرتـبـتي فاقـت على كل رتـبـة
ومطـلع شمس الأفـق ثُم مغـيـبـهـا ... وأقطـار أرض الله في حال خطـوتـي
أقـلِّبـهـا في راحـتيَّ ككـورة ... أطـوف بها جمعـاً على طول لمحـتي[1]

ويقول أحمد الرفاعي (الغوث):

. . . وراقبـه في الخلوات والجلوات، واحمـده واشكـره على الفقـر والغنى، واتـرك الأغيار، فما في الدار غيره ديار، وكن صوفيًّا صافياً[2] . . .

ويقول: الذكر حِفْظُ القلب من الوسواس، وتركُ الميل إلى الناس، والتخلي عن كل قياس، وإدراك الوحدة بالكثرة، وحسنُ ملاحظة المعنى[3] . . .

ويقول: . . . إن لله تعالى بعدد كل شيء خلقه أسماء[4] . . .

ـ علينا هنا أن نتذكر قول الجيلاني الذي مر آنفاً في هذا المعنى.

ويقول:

طلبـتُ في الـكـون باقي كي أهـيـم به ... غير الحـبـيـب، فسـرُّ الحب وافـاني
وقـال لي: خل عنـك الـغـيـر منخلعـاً ... عن الـسـوى، فسـوى من تَذْره فاني
فصـرتُ منـه لديـه فيـه عنـه به ... والـغـيـر راح بلا تَرْكي ونـسـيـاني[5]

---

(١) الفيوضات الربانية، ص٤٨ و٤٩ و٥٠.
(٢) قلادة الجواهر، ص١٥١.
(٣) قلادة الجواهر، ص١٤٨.
(٤) قلادة الجواهر، ص١٩١.
(٥) قلادة الجواهر، ص٢٣٢.

ويقــول: . . . إذا أراد الله تعــالى لعبـد أن يؤهله لهذه المنـزلـة (الغـوثيـة) وهـذه الأحـوال، أول ما يكلِّفه نفسه، فإذا داراها وأدبها وساسها واستقامت معه، كلِّفه أهله، فإذا داراهم وأحسن عشـرتهم، كلِّفـه جيرانـه ومحلتـه، فإذا داراهـم وأحسن إليهم وأقـام بحقـوقهم كلفـه أمـر بلده، فإذا أحسن إليهم وداراهم كلِّفـه جهةً من الأرض، فإذا أقام بحقوقهم وأحسن إليهم كلفه جميع الأرض، وإذا سبقت له العناية الأزلية وأحسن إليهم وداراهم وأحسن سريرته مع الله تعالى فيهم، كلفه أمور الدنيا كلها، فإذا أقام بها كلِّفه ما بين السـماء والأرض، فإن بينهـما خلقـاً كثـيراً لا يعلمهم إلا الله تعـالى، فإن هو داراهم وأحسن إليهم كلفـه ما عدا بني آدم من المخلوقـات، فإن هو داراهم وأحسن إليهم كلفـه سماء بعد سماء إلى جميع السماوات، حتى ينتهي إلى مقام الغوثية، ثم يرفع منزلته حتى تصـير صفتـه من صفـات الحق سبحانه . . . فإذا صح لهذه الأمور، صار عينَ سرِّ الله في أرضه، فيه ينزل الغيث، وبه يرفع البلاء، وبه تنزل البركات، حتى لا تنبت شجرة، ولا تخضر ورقةٌ، ولا يَطَّلِعُ الله على خلقه إلا بنظره، ولا تقطر قطرة إلا بإذنه[1] . . .

ويقول أبو يعزى المغربي[2]:

من طلب الحق من جهة الفضل وصل إليه، ومن لم يكن بالأحد لم يكن بأحد[3].

ويقـول: لا يكـون الـولي وليًّـا حقًّـا حتى يكـون له قَدَمٌ ومقـام وحال ومنازلة وسرٌّ، فالقدم ما سلكتَه من طريقك إلى الحق، والمقام ما أقرتك عليه سابقتُك في العلم الأزلي، والحال ما بعثك في فوائد الأصول لا من نتائج السلوك، والمنازلة ما خُصِّصتَ به من تحف الحضـور بنعت المشـاهـدة لا بوصف الاستتـار، والسـر ما أُودعتَه من لطائف الأزل عند هجوم الجمع، ومحق السوى، وتلاشي ذاتك، فحفظ حكم المقام يفيد الفقه في الطريق، ويفيد الاطلاع على خبايا معانيه، وحفظ حكم الحال يفيد بسطة في التصريف لله بالله[3].

● ملاحظـة: حبـذا لو استظهـر القارىء هذا النص، فكل جملة منه هي «عبارة» صوفية

---

(1) قلادة الجواهر، ص195.

(2) يلنُّور بن ميمون الهزميري، أستاذ أبي مدين، مات بالطاعون سنة 572هـ.

(3) طبقات الشعراني. 1 / 137.

تحمل إشارة ورمزاً.

ويقول أبو مدين المغربي (الغوث):

من لم يصلُح لخدمته شَغَلَهُ بالدنيا، ومن لم يصلُح لمعرفته شَغَلَه بالآخرة[1]!!

ـ رأينا مثل هذا الكلام قبل صفحات: (إلى متى الدنيا، إلى متى الآخرة) والجواب عليه هناك.

ويقول: إذا ظهر الحق لم يبق معه غيره[1].

ـ المعنى واضح، فالعارف الذي يظهر له الحق، يظهر له في كل شيء، فيرى كل شيء هو الحق، ولا شيء غيره؛ وما كان يظنه غيره يظهر على حقيقته أنه الحق، حيث تزول عنه الغيرية.

ويقول: علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق[2].

ويقول: الفقر أمارةٌ على التوحيد، ودلالةٌ على التفريد، وحقيقة الفقر ألا تشاهد سواه[2].

عبارتا أبي مدين، الثانية والثالثة، يحملان نفس المعنى وبدقة:

ـ مصطلح «التوحيد» شرحه لنا الغزالي بوضوح تام؛ إنه وحدة الوجود.

ـ والتفريد هو تفريد الله بالوجود، فليس معه غيره..

ويقول: الجمع ما أسقط تفرقتك، ومحا إشارتك، والوصول استغراقُ أوصافك، وتلاشي نعوتك[3].

ـ المعنى واضح، إذ معنى «الجمع والتفرقة» أصبح معروفاً، وما بقي يمكن فهمه بسهولة.

ويقول:

---

(١) من كتاب «أبو مدين الغوث»، ص٥٩.

(٢) أبو مدين الغوث، ص٦٠.

(٣) أبو مدين الغوث، ص٨٤.

فلا تلم السكران في حال سكره فقد رُفع التكليف في سكرنا عنا
ويا عاذلي كرِّرْ عليَّ حديثهم فأعيننا منهم وأعينُهم [1]

- وواضح ما يعني بضمير الغائبين في «حديثهم ، منهم ، أعينهم» إنها اشارة إلى الحق سبحانه .

ويقول :

فالكل دون الله إن حققته عدمٌ على التفصيل والإجمال
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا شيئاً سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً في الحال والماضي والاستقبال[2]

- هذه الأبيات تذكرنا بأقوال الغزالي ، فهي هي بحروفها وكلماتها ، كما نفهم منها معنى «وحدة الشهود» .

ويقول شهاب الدين السهروردي البغدادي :

. . . فقلب الصوفي مجرد عن الأكوان ، ألقى سمعَه ، وشهد بصرُه ، فسمع المسموعات وأبصر المبصرات ، وشاهد المشهودات ، بتخلّصِه إلى الله تعالى ، واجتماعه بين يدي الله ؛ والأشياء كلُّها عند الله ، وهو عنده ، فسمع ، وشاهد فأبصر ، وسمع جملها ، ولم يسمع ويشاهد تفاصيلها ، لأن الجمل تدرك لسعة عين الشهود ، والتفاصيل لا تدرك لضيق وعاء الوجود ، والله تعالى هو العالم بالجمل والتفاصيل[3] .

ويقول : . . . قال الله تعالى : ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ ، قال : . . . قال بعضهم : لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض . قال الحسين بن منصور : «لمن كان له قلب لا يخطر فيه إلا شهود الرب»[4] . . .

- إنه يستشهد بالحلاج ، وبتفسير الحلاج ، وحكمة الحلاج ، إذن ، فهو يؤمن

---

(١) أبو مدين الغوث ، ص١١١ .
(٢) أبو مدين الغوث ، ص١١٢ .
(٣) عوارف المعارف هامش الإحياء : ١ / ٢١٧ .
(٤) العوارف : ١ / ٢١٣ .

بالحلاج وعقيدته وأقواله، وهذا واضح.

ويقول (في دعاء):

. . . يا دهر يا ديهور يا ديهار، يا أبد يا أزل، يا من لم يزل ولا يزال ولا يزول، هو يا هو، لا إله إلا هو، يا من لا هو إلا هو، يا من لا يعلم ما هو إلا هو، يا كان يا كينان، يا روح، يا كائن قبل كل كون، يا مكوناً لكل كون، أهيا، أشراهيا، أدوناي، أصبؤت، يا مجلى عظائم الأمور[1] . . .

ـ الكلمات: «أهيا، أشراهيا . . .» هي كلمات عبرية، وفيها إشارة إلى أثر اليهودية في الصوفية.

وقال: . . . وقال بعضهم: الروح (وهي غير الروح التي في الجسد) لطيفة تسري من الله إلى أماكن معروفة، لا يعبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره . . .»[2]

ـ ما هي هذه الأماكن المعروفة، سنعرفها فيما بعد!

وقال: . . . والصوفي صفا عن هذه البقية (رؤية الخلق) في طرفي العمل، والتركِ للخلق، وعَـزْلِهم بالكلية، ورآهم بعين الفناء والزوال، ولاح له ناصية التوحيد، وعاين سرَّ قولـه: ﴿كـلُّ شيء هالـكٌ إلا وجهـه﴾ كما قال بعضهم في بعض غلباتـه: ليس في الدارين غير الله . . .»[3]. اه.

ـ بالرغم من أن الأسلوب الإشاري عند عمر السهروردي هو في القمة العليا من حيث الرمز واللغز، ولكن العبارة خانته في هذه الفقرة، فكانت وحدة الوجود فيها واضحة تماماً، كما أنها، في الفقرات السابقة، واضحة لمن عرف لغة القوم.

ويقول عبد السلام بن مشيش[4] (الغوث) في صلاته:

---

(١) العوارف: ٤ / ١٩.

(٢) العوارف: ٤ / ١٨٢.

(٣) العوارف: ١ / ٣٢٤.

(٤) أبو محمد عبد السلام بن مشيش، أو بشيش، أحد الأئمة العارفين، كان يسكن مغارة في رأس جبل في المغرب، مات عام ٦٢٢هـ، ومن تلامذته أبو الحسن الشاذلي.

اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار وتنزلت علوم آدم . . . ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط . . . اللهم إنه سرُّك الجامع الدالّ عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك . . . وزُجَّ بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أحس إلا بها[1] . . .

● الملاحظة :

يلاحظ هنا أنه يستعمل كلمة «التوحيد» بمعناها الإسلامي، أي توحيد الله، ويجعلها أوحالاً، وهو يصرح بالوحدة.

وقال مخاطباً تلميذه أبا الحسن الشاذلي :

يا أبا الحسن، حدّدْ بصر الإيمان، تجد الله في كل شيء، وعند كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وتحت كل شيء، وقريباً من كل شيء، ومحيطاً بكل شيء، بقربٍ هو وصفه، وبحيطةٍ هي نعته، وعَدِّ عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب في المسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو هو هو، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان[2].

ويقول تاج العارفين أبو الوفا[3] :

. . . الذكر ما غَيّبك عنك بوجوده، وأَخذك منك بشهوده، فإن الذكر شهود الحقيقة وخمود الخليقة[4] . . اه.

- يعني أبو الوفا بكلامه أن الذكر لا يكون ذكراً إلا إذا أنتج ما بيّنه لك (. . . ما غيبك . . وأخذك . . .).

---

(1) النفحة العلية في أوراد الشاذلية، ص١٦ .

(2) إيقاظ الهمم، ص٤٠ و ٢٠١ .

(3) كردي عراقي من أهل النصف الأول من القرن السادس الهجري .

(4) طبقات الشعراني: ١ / ١٣٥ .

ويقول الشيخ عقيل المنبجي[1]:

. . . فإذا جاء الفضـل ، قل إلهي فَضْلُك لصنعـك بلا أنـا ، فإذا شئتَ فقد حصل لك عنـد الخشـوع عبودية ، وعند الدلال توحيد ، فعبوديتك بفقرك إليه ، ودلاله أنه ما ثم غيره ، فإذا جاءت الإلٰهيـة «قـل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبـون» ، فبمجـاهـدة الهوى تعرفه ، وبخروجك عن الخلق توحده[2] . اه . (لاحظ عبارة «فإذا جاءت الإلٰهية») .

ويقول الشيخ علي بن الهيتي[3] :

كل من كوشف بالحقيقة ، أو شاهد الحق ، أو اختُطِف عن مَشاهِدِه بوجود الحق ، أو استُهلك في عين الجمع ، أو لم يشهد سوى الحق تعالى ، أو لم يحس سوى الحق ، إلى آخر ما يعبرٌ عنه معبرٌ ، أو يشير إليه مشير ، أو ينتهي إليه علم ، فإنما هي شواهد الحق ، وحق مَن الحق له ، وكلُّ ما بدا على الخلق فذاك مما يليق بالخلق[4] . . .

ـ وحدة الوجود واضحة في قول أبي يعزى «عند هجوم الجمع ومحق السوى وتلاشي ذاتك» ، وفي قول المنبجي : « . . إنه ما ثَم غيره ، فإذا جاءت الإلٰهية . . . » .

أمـا الهيتي فيـورد عدةً من العبـارات المـرمـوزة التي تشير إلى وحدة الوجود ، يقدمها للسالك الواصل ليستعملها في أحاديثه وكتاباته ، وليتدرب على إنشاء العبارات المماثلة ، ويجدر بالقارىء الكريم أن يستظهرها ليزداد تمرساً باللغة الصوفية .

ويقول عبد الرحمن الطفسونجي[5] :

---

(١) شيخ شيوخ الشام في وقته ، ولد في قرية في الشرق ، وانتقل منها «طيراناً» إلى منبج ، ومات فيها ، ولم أقف على تاريخ وفاته ، لكن من الذين تخرجوا بصحبته عدي بن مسافر ، فيكون من أهل النصف الأول من القرن السادس .

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني : ١ / ١٣٦ .

(٣) نسبة إلى هيت على الفرات ، من أكابر مشايخ العراق ، ينسب إلى القطبية العظمى ، سكن رزيران ومات بها عام ٥٦٤هـ .

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني : ١ / ١٤٥ .

(٥) نسبة إلى طفسـونـج ، بلدة بأرض العـراق ، من أكـابـر مشايخ العراق وأعيان العارفين وصدور المقربين ، مات بطفسـونج مُسناً ، ولم أقف على تاريخ وفاته ، ولكنه معاصر لعبد القادر الجيلاني .

. . . وينسى باستيلاء ذكر ربه عليه جميعَ الإحساس، فيقال: انْدَرجَ في رؤية مذكوره، ويقال: فني عن نفسه، ويقال: فني بربه، ويقال: فني عن فنائه أي غفل عن ذكر غفلته عن نفسه باستيلاء ذكر ربه عليه، وصار ليس يشهد غيره، وههنا يكون مصطلماً عن مَشَاهِدِه، مختطَفاً عن نفسه، ممحوًّا عن جملته، فانياً عن كله، وما دام هذا الوصف باقياً فلا تمييز ولا إخلاص ولا صدق، وهذا جمع الجمع، وعين الوجود، وهذا هو الوصول الذي يرد على أحوال التمييز والتكليف[1]. . .

ـ أقول: هذه عبارات أخرى مرموزة وملغزة تشير إلى وحدة الوجود، وتساعد على التمرس بلغة الصوفية.

ويقول الشيخ مطر الباذرائي[2]:

. . . ولذة الأرواح الشربُ بكأس المحبة من أيدي عرائس الفتح اللدني، في خلوة الوصل، على بساط المشاهدة والهيام، بين عالَم الكون، في نور العزة وقراءة ما كُتب على صفحات ألواح نسمات ذرات الوجود، بقلم التوحيد «كلا بل هو الله العزيز الحكيم»[3] اه. (أي إن ذرات الوجود هي الله العزيز الحكيم).

ويقول محيي الدين بن عربي (الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر):

. . . فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عينَ كل شيء[4].

ويقول: . . . والعارف المكمَّل من رأى كلَّ معبود مجلى للحق يُعبد فيه، ولذلك سموه كلهم إلهاً مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك[5]. . .

---

(١) طبقات الشعراني: ١ / ١٤٦.

(٢) من أجل مشايخ العراق وسادات العارفين، من الأكراد، سكن «باذراء» قرية من أعمال النجف، وبها مات، ولم أقف على تاريخ وفاته، ولعله في الربع الأخير من القرن السادس الهجري.

(٣) طبقات الشعراني: ١ / ١٤٨.

(٤) فصوص الحكم «فص حكمة إمامية في كلمة هارونية»، ص١٩٢.

(٥) الفصوص، ص١٩٥.

ويقــول: . . . ولا يُشهَــد، ولا تدركـه الأبصــار، بل هو يدرك الأبصــار، للطفـه وسريانه في أعيان الأشياء[1].

ويقول (الشيخ الأكبر نفسه):

فإن الإلـه المطلق لا يسعـه شيء، لأنـه عين الأشيـاء وعين نفسه، والشيء لا يقال فيه: يسع نفسه ولا لا يسعها، فافهم[2].

ويقول: . . . ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾، وما خص إنسـاناً من إنسـان، فالقـرب الإلٰهي من العبـد لا خفـاء به في الإخبـار الإلٰهي، فلا قربَ أقـربُ من أن تكون هويَّته (أي هوية الله) عينَ أعضاء العبد وقواه، وليس العبد سوى هذه الأعضاء والقوى، فهـو حقٌّ مشهـود في خلقٍ متـوهَّم، فالخلق معقـول، والحق محسوس مشهود عند المؤمنين وأهل الكشف والوجود، وما عدا هاذين الصنفين، فالحق عندهم معقول والخلق مشهود[3]. . .

في هذا النص، يفسر لنا الشيخ الأكبر معنى كلمة «القرب» عند الصوفية، وهذا يجعلنا نفهم بوضوح كل العبارات السابقة واللاحقة، والتي تمر معنا، والتي فيها كلمة «القرب». ونستطيع من هذا النص، فهم كلمة «الوجود» الاصطلاحية.

ويقول: . . . فمن عَرَف أن الحق عينُ الطريق، عَرَف الأمر على ما هو عليه، فإن فيه، جل وعلا، تسلُكُ وتسافر، إذ لا معلوم إلا هو، وهو عينُ الوجود، والسالكُ والمسافر[4]. . .

ويقول الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر أيضاً:

. . . وبالإخبار الصحيح أنه عين الأشياء، والأشياء محدودة وإن اختلفت حدودها، فهـو محدودٌ بحـدِّ كل محدود، فما يُحَدُّ شيء إلا وهـو حد الحق، فهـو السـاري في مسمّى

---

(١) الفصوص، ص١٩٦.

(٢) الفصوص، «فص حكمة فردية في كلمة محمدية»، ص٢٢٦.

(٣) الفصوص، «فص حكمة أحدية في كلمة هودية»، ص١٠٨.

(٤) الفصوص، ص١٠٩.

المخلوقات والمبدعات، ولو لم يكن الأمر كذلك ما صح الوجود، فهو عينُ الوجود، فهو على كل شيء حفيظ، بذاته، ولا يؤوده حفظ شيء، فحفظه تعالى للأشياء كلها حفظه لصورته أن يكون الشيء غير صورته، ولا يصح إلا هذا، فهو الشاهد من الشاهد، والمشهود من المشهود، فالعالم صورته، وهو روح العالم المدبِّر له، فهو الإنسان الكبير.

فهو الكون كله وهو الواحد الذي قام كوني بكونه ولذا قلت يغتذي
فوجودي غذاؤه وبه نحن نحتذي فبه منه إن نظرتَ بوجه تعوُّذي[1]

ـ في النصين الأخيرين، يستعمل كلمة «الوجود» بمعناها اللغوي، وليس بمعناها الاصطلاحي، كما في النص الذي قبلهما.

ويقول: . . . وإذا كان الحق وقايةً للحق بوجه، والعبدُ وقايةً بوجه، فقل في الكون ما شئت: إن شئت قلت هو الخلق، وإن شئت قلت هو الحق، وإن شئت قلت هو الحق الخلق، وإن شئت قلت لا حقَّ من كل وجه، ولا خلق من كل وجه، وإن شئت قلت بالحيرة في ذلك[2]. . .

ـ هذا النص يساعدنا كثيراً على فهم عبارات مرت معنا، وستمر، مثل: «أفنِ الخلق، أو أفن من لم يكن يبق من لم يزل. أو الفناء عن الصفات، أو الفناء عن الأفعال الرديئة، أو الفناء عن الكون . . .» إذ بها أن الكون هو الحق في الحقيقة، وهو خلق، أو كون بالتوهم، فإذا أفنينا الخلق، أو الكون، أو الصفات «التي تعني الخلق» بقيت الصفة التي تعني «الحق» وهذا هو معنى «الفناء في الحق».

ويقول:

فلا تنظر العينُ إلا إليه ولا يقعُ الحكم إلا عليه
فنحن له وبه في يديه وفي كل حالٍ فإنا لديه

لهذا يُنكَر ويُعرف ويُنزَّه ويوصف، فمن رأى الحق منه فيه بعينه فذلك العارف، ومن رأى الحق منه فيه بعين نفسه فذلك غير العارف، ومن لم ير الحق منه ولا فيه وانتظر أن يراه

---

(١) الفصوص، ص١١١.
(٢) الفصوص، ص١١٢.

بعين نفسه فذلك الجاهل[1]. . .

ـ هذا النص يعيننا على فهم العبارات التي تمر معنا مثل: «له وبة وفي يديه ولديه»، و «منه فيه بعينه»، وما شابهها، كما يدلنا على معنى المعرفة (منه فيه بعينه «أي بعين الله»).

ويقول: . . . إن لله تجلِّيَيْن: تجلِّ غيب، وتجلي شهادة. فمن تجلي الغيب يُعطي الاستعداد الذي يكون عليه القلب، وهو التجلي الذاتي الذي الغيبُ حقيقتُه، وهو «الهوية» التي يستحقها بقوله عن نفسه «هو». فلا يزال «هو» له دائماً أبداً[2]. . .

ـ في هذا النص يشرح لنا بصراحة معنى مصطلح «الهوية»، ومصطلح «هو»، حيث نستطيع أن نفهم بوضوح تام ماذا يعنون بكلمة «هو» حيثما وردت، مثل قولهم: «لا هو إلا هو».

ويقول: . . . التجلي الشهودي في الشهادة. . . ثم رَفَعَ الحجابَ بينه وبين عبده، فرآه في صورة مُعْتَقَدِه، فهو عين اعتقاده، فلا يشهدُ القلب ولا العينُ أبداً إلا صورةَ معتقده في الحق. فالحق الذي في المعتقد هو الذي وسع القلبُ صورتَه، وهو الذي يتجلى له فيعرفه. فلا ترى العين إلا الحق الاعتقادي. ولا خفاء بتنوع الاعتقادات. فمن قيَّدَه (أي في عقيدة واحدة) أنكره في غير ما قَيَّدَه به، وأقرَّ به فيما قيَّده به إذا تجلى. ومن أطلقه عن التقييد لم ينكره وأقرَّ به في كل صورة يتحول فيها، ويعطيه من نفسه قدر صورة ما تجلَّى له. إلى ما لا يتناهى، فإن صور التجلي ما لها نهاية نقف عندها[3].

ـ يقول «الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر» في هذا النص: إن كل الاعتقادات صحيحة، وكل المعبودات حق. . . كما يفهمنا أن الكشف تابع للقناعات الفكرية المسبقة.

ويقول: . . . فإذا نظرتَ في قوله: «كنتُ رجله التي يسعى بها، ويده التي يبطش

(١) الفصوص، ص١١٣.
(٢) الفصوص، «فص حكمة قلبية في كلمة شعيبية»، ص١٢٠.
(٣) الفصوص، ص١٢١.

بها، ولسانه الذي يتكلم به»[1]، إلى غير ذلك من القوى ومحلّها الذي هو الأعضاء، لم تفرق، فقلتَ: الأمر حقٌّ كله، أو خلقٌ كله، فهو خلقٌ بنسبةٍ، وهو حقٌّ بنسبة، والعينُ واحدة. فعينُ صورةٍ ما تجلّى عينُ صورة من قَبِل ذلك التجلّي. فهو المتجلي والمتجلّى له. فانظر ما أعجب أمر الله من حيث هويته، ومن حيث نِسبتُه إلى العالَم في حقائق أسمائه الحسنى[2].

ويقول:

فلولاه ولولانا لما كان الذي كانا	فإنا أعبدٌ حقّاً وإن الله مولانا
وإنا عينُه فاعلم إذا ما قلت إنساناً	فلا تُحجب بإنسان فقد أعطاك برهانا
فكن حقّاً وكن خلقاً تكن بالله رحمانا	وغذّ خلقَه منه تكن رَوْحاً وريحانا
فأعطيناه ما يبدو به فينا وأعطانا	فصار الأمر مقسوماً بإياه وإيانا

فكنا فيه أكواناً وأعياناً وأزماناً[3]

ويقول: . . . ﴿ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾، وإن اتفقا. فنحن نعلم أنهما لو اختلفا تقديراً لنفذ حكم أحدهما، فالنافذُ الحُكْمِ هو الإله على الحقيقة، والذي لم ينفذ حكمه ليس بإله، ومن هنا نعلم أن كل حكم يَنْفُذ اليوم في العالم أنه حكم الله عز وجل، وإن خالف الحكْمَ المقرر في الظاهر المسمى شرعاً، إذ لا ينفذ حكم إلا لله في نفس الأمر، لأن الأمر والواقع في العالَم إنما هو على حكم المشيئة الإلهية، لا على حكم الشرع المقرَّر، وإن كان تقريره من المشيئة، ولذلك نفذ تقريره خاصة، فإن المشيئة ليست لها فيه إلا التقرير، لا العمل بما جاء به. فالمشيئة سلطانها عظيم . . . فلا يقع في الوجود شيء ولا يرتفع خارجاً عن المشيئة، فإن الأمر الإلهي إذا خولف هنا بالمسمى «معصية» فليس إلا الأمْرَ بالواسطة، لا الأمر التكويني. فما خالف الله أحدٌ قط في جميع ما يفعله من حيث أمر المشيئة، فَوَقعت المخالفة من حيث أمر الواسطة، فافهم. وعلى الحقيقة، فأمر المشيئة إنما

---

(١) جزء من حديث مشهور يستغله الصوفية في غير معناه الحقيقي.

(٢) الفصوص، «فص حكمة قلبية في كلمة شعيبية»، ص١٢١.

(٣) الفصوص، «فص حكمة نبوية في كلمة عيسوية»، ص١٤٣.

يتوجه على إيجاد عين الفعل، لا على من ظهر على يديه، فيستحيل ألا يكون[1]. . .

ـ أرجو من القارىء أن يتسلى بتحليل النص بهدوء.

ويقول: . . . فإن العقل إذا تجرد لنفسه . . . وإذا أعطاه الله المعرفة بالتجلي، كملت معرفته بالله، فنزَّه في موضع وشبَّه في موضع، ورأى سريان الحق في الصور الطبيعية والعنصرية، وما بقيت له صورة إلا ويرى عينَ الحق عينَها. وهذه المعرفة التامة التي جاءت بها الشرائع المنزلة من عند الله، وحكمت بهذه المعرفة الأوهام كلها. ولذلك كانت الأوهام أقوى سلطاناً في هذه النشأة من العقول[2]. . . وبه جاءت الشرائع الإلٰهية فشبهت ونزهت، شبهت في التنزيه بالوهم، ونزهت في التشبيه بالعقل، فارتبط الكل بالكل[2]. . .

ـ في هذا النص، نتبين ماذا يعني الصوفية عندما يقولون: إن طريقهتم، أو طرقهم، مقيدة بالشريعة، فهم يفهمون الشريعة على هذا المنوال. كذلك، يتبين لنا بوضوح ما معنى عبارتهم «الكل بالكل» عندما نسمعها في مثل قولهم: «فناء الكل بالكل، أو بقاء الكل بالكل، أو وجود الكل بالكل، أو ارتباط الكل بالكل. . .».

وبتوضيح: يقولون: إن طرقهم مقيدة بالشريعة على أساس المنهج التأويلي المبيَّن بعضه في هذا النص. وأرجو من القارىء أن يحلله بنفسه بهدوء، لأن تحليل بضعة نصوص تحليلاً صحيحاً يفيد في التمكن من العبارة الصوفية أكثر من قراءة بضعة كتب.

ويقول: . . . ولما كان الاستواء الإلٰهي على القلب من باب «وسعني»[3]، صارت الألوهية غيباً في الإنسان، فشهادتُه إنسان، وغيبُه إله، ولسريان الألوهية الغيبية في هذا الشخص الإنساني، ادَّعى الألوهية بالاسم الإله، فقال فرعون: ﴿ما علمت لكم من إلٰه غيري﴾. . وصرح بالربوبية لكونها لا تقوى قوة الألوهية، فقال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾، بخلاف من قالها عن الحال، من طريق الأمر، بمساعدة المشيئة، فكان

---

(1) الفصوص، «فص حكمة وجودية في كلمة داودية»، ص١٦٥.

(2) الفصوص، «فص حكمة إيناسية في كلمة إلياسية»، ص١٨١.

(3) إشارة إلى الحديث القدسي الذي يقول فيه: «. . . ووسعني قلب عبدي المؤمن».

جمعاً، مثل أبي يزيد حين قال: «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني»، وقال مرة: «أنا الله»، فلم يكن للألوهية فيه موضع فراغ ترمي سهمها فيه لكمال السريان[1]. . .

- في هذا النص ردٌّ ملجم للذين حاولوا، ويحاولون، خداعاً، تأويل أقوال أبي يزيد البسطامي؛ وتصريحٌ بعقيدة سريان الإلهية في المخلوقات.

ويقول: . . . ونحن من جانب الحقيقة، في عين ﴿ولقد خلقتك من قبلِ ولم تك شيئاً﴾، و﴿ولم يكن شيئاً مذكوراً﴾، فكأنا لم تكن، فلا أولية إذن ولا آخرية، إذ لا نحن، فبقي هو خاصة وهو المطلوب[1].

- هذه الفقرة تساعدنا وتوضح لنا معنى عبارتهم: «إذا كان كما كان قبل أن يكون»، و«كان ولم تكن وهو اليوم كما كان» و«أفن من لم يكن يبق من لم يزل» وما شابهها.

ويقول: لما كان مرتبة الإمكان بما تحويه الممكنات غيباً، ولها الظلمة، وكانت الممكنات هي التي تتعينُ في النور الوجودي، ويظهر أحكام بعضها للبعض بالحق وفيه، وهو سبحانه لا قيدَ له ولا تميز، كان المثال بالواقع في الوجود مطابقاً للأصل، فالمداد مع الدواة نظير مرتبة الإمكان وما حوته من الممكنات، من حيث إحاطة الحق بها وجوداً وعلماً، وحقائقُ الممكنات كالحروف الكامنة في الدواة، وإليه الإشارة بقوله: «كان الله ولا شيء معه»[2]، ونحوه قولي.

وليس في الغيب الذاتي الإلهي تعدد ولا تعين وجودي، والورق وما يُكتَب فيه كانبساط النور الوجودي العام الذي يَتعينُ فيه صور الموجودات، والكتابة سر الإيجاد والإظهار، والواسطة والآلة القلمُ الإلهي، والكاتب الحقُّ، من حيث كونه موجداً وخالقاً وبارئاً ومصوراً[2]. . .

- في هذا النص، يتبين لنا مرادهم باستعمال الأسماء الحسنى «موجد، خالق، بارىء، مصور. . . وغيرها».

ويقول:

---

(١) رسائل ابن عربي، «كتاب الجلالة»، ص٥.

(٢) رسائل ابن عربي، «رسالة الشيخ إلى الإمام الرازي»، ص١٢.

أنْض الركابَ إلى رب السماوات وانبذْ عن القلب أطوارَ الكرامات
واعكف بشاطىء وادي القدس مرتقباً واخلعْ نعاليك تحظى بالمناجاة
وغب عن الكون بالأسماء متصفاً حتى تغيبَ عن الأوصاف بالذات[1]

ـ بعد أن وضح لنا ابن عربي كل السر، وأكثرَ الأساليب التي يستعملونها، نستطيع أن نعرف، بوضوح أيضاً، في هذه الأبيات، معاني العبارات الواردة فيها «أنض الركاب إلى رب السماوات» المرادفة لـ «السير إلى الله» و «العكوف بشاطىء وادي القدس» وقد عرفنا آنفاً معنى «خلع النعلين»، ونعرف الآن ما معنى «الغياب عن الكون» و «الاتصاف بالأسماء» و «الغياب عن الأوصاف بالذات»، وعلينا أن نحفظها لأنها تستعمل كثيراً كثيراً، وكلها تعني «التحقق بالألوهية»، أو بوضوح أكثر: «العمل للوصول إلى الجذبة التي تجعلك تذوق شيئاً فشيئاً معاني الألوهية، حيث تعرف، بالذوق، أن الخالق هو نفس المخلوق» وهو ما يُسمَّى «وحدة الوجود».

ويقول ابن عربي أيضاً:

رأيتُ الحق في الأعيان حقًّا وفي الأسما فلم أره سوائي
ولستُ بحاكم في ذاك وحدي فهذا حكمه في كل رائي
وعند المثبتين خلافُ هذا هو الرائي ونحن له المرائي[2]

ويقول:

الخلق تقديرٌ وليس بكائن والمبْدَعاتُ هي التي تتكون
الروح والكلمات شيء واحد والحق فيه هو الذي يتعينُ[3]

ويقول:

تجسدتُ أسمائي فكنتُ كثيراً ولم يرني غيري فكنت بصيرا
فيا قائلاً بالغير أين وجودُه؟ وأين يكون الغير؟ كنتَ غيورا[4]

---

(١) رسائل ابن عربي، «كتاب الإسراء»، ص٣٦.
(٢) الفتوحات المكية: ٣ / ٥٤٩.
(٣) الفتوحات: ٣ / ٥٥٣.
(٤) الفتوحات: ٣ / ٣٦١.

ويقول:

مَن ستر الحقَّ ولم يُفشه فذلك الشخص الذي قد كَفَر

* * *

تبارك الله الذي لم يزل يَظْهر فيما قد بدا مِن صور
فإنه منشئها دائماً في كل ما يَظْهر أو قد ظَهَر[1]

ويقول:

فليس إلا عينه بالخبر وليس إلا غيره بالبصر

* * *

إن قيل هُوْ قيل لهم ليس هُوْ لأنه مطلوبكم بالفِكَر
أو قيل ما هوْ. قيل هُوْ إنه عين الذي تشهده في البصر[2]

ويقول أيضاً:

وقد أتى في الصلاة حُكْم منه بتقسيمه المثاني

* * *

فقال بيني وبين عبدي فمن رآه فقد رآني
فلست غيراً له ولا هُوْ لوحدتي في الوجود ثاني[3]

ويقول:

عِنْديَّة الحق عينُ ذاته فهي لأشيائه خزائن
ينزل منها الذي يراه فهي لما يحتويه صائن
إنزاله لم يُزِله عنها لأنه أعينُ الكوائن[4]

وكل هذه الأبيات واضحة كل الوضوح فيما يخص عقيدة وحدة الوجود. ومعها

(١) الفتوحات: ٣ / ٣٧٥.
(٢) الفتوحات: ٣ / ٣٧٦.
(٣) الفتوحات: ٣ / ٥٣٥.
(٤) الفتوحات: ٣ / ١٩٣.

أبيات أترك تحليلها للقارىء ليدرب نفسه على فهم نصوصهم أينما وردت .

ويقول أيضاً :

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورة ... فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان
وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائف ... وألواحُ توراةٍ ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني[1]

ـ وبدهي أن هذه العقيدة تنبثق من «وحدة الوجود»، ولنعلم أنه كان ينشر هذا الكلام في زحمة الحروب الصليبية .

ويقول جلال الدين الرومي[2]، مؤسس الطريقة المولوية :

نَفْسي، أيها النور المشرق، لا تَنْءَ عني لا تَنْءَ عني
حبي، أيها المشهد المتألّق، لا تَنْءَ عني لا تَنْءَ عني
انظرْ إلى العمامة أحكمتُها فوق رأسي
بل انظر إلى زنار زرادشت حول خصري
أحملُ الزنار، وأحملُ المخلاة[3]
لا بل أحمل النور، فلا تَنْءَ عني، لا تَنْءَ عني .
مسلمٌ أنا، ولكني نصراني وبرهمي وزرادشتي
توكلتُ عليك أيها الحق الأعلى، فلا تَنْءَ عني لا تَنْءَ عني
ليس لي سوى معبدٍ واحد، مسجداً كان أو كنيسة أو بيت أصنام
ووجهك الكريم فيه غاية نعمتي، فلا تَنْءَ عني لا تَنْءَ عني[4].

● **الملاحظات :**

ـ التشابه واضح بين هذا الكلام وكلام ابن عربي السابق، وعقيدة وحدة الوجود،

---

(١) ديوان ترجمان الأشواق، ومحاضرة الأبرار، ص٤٠٢ .
(٢) مؤسس الطريقة المولوية، بلخي انتقل إلى سيواس، ثم إلى تركيا، ومات في قونية سنة ٦٧٢هـ .
(٣) جملة «وأحمل المخلاة» يشير بها إلى الهندوسية، لأن البراهمة منهم يحملون المخلاة للاستجداء .
(٤) في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص٩٤ .

هي التي ترى كل الأديان صحيحة، لأن كل المعبودات هي الله وكل شيء هو الله.

- ولنا أن ننتبه إلى قوله: «نفسي أيها النور المشرق لا تنء عني»، ثم سيره بخطابه لنفسه حتى يقول: «أيها الحق الأعلى لا تنء عني»، حيث نلاحظ أسلوباً جديداً في العبارة وتدرجها، ولننتبه إلى العبارة «لا تنء عني».

ويقول جلال الدين الرومي أيضاً:

مجهول أنا عند نفسي، بربك خبرْني ما العمل

* * *

ولا بهذا الكون ولا ذاك، ولا في الجنة ولا النار موطني
ولا طردت من عدن ولا يزدان، ولا من آدم أخذت نسبتي
بل من مقام ما أبعده من مقام، وطريق خفي المعالم
تجردت عن بدني وروحي، فمن جديد أحيا في روح محبوبي[1].

- ما يجب ملاحظته قوله: «من مقام ما أبعده من مقام، وطريق خفي المعالم»، وقوله: «فمن جديد أحيا في روح محبوبي».

ويقول أيضاً:

يظهر الجمال الخاطف كل لحظة في صورة، فيَخْمِلُ القلبَ ويختفي، في كل نفس يظهر ذلك الصديق في ثوب جديد، فشيخاً تراه تارة وشاباً تارة أخرى... انظر إليه وقد خرج من طينة الفخار، وانتشر في الوجود، ظهر بصورة نوح وأغرق الدنيا بدعاء منه... وفي نهاية المطاف ظهر بصورة عربي، ودان له ملك العالم... ذلك الجميل فتان القلوب قد ظهر بصورة سيفٍ في كف علي، وأصبح البتَّار في زمانه، لا لا! بل هو الذي ظهر في صورة إنسان، وصاح أنا الحق، ليس (منصور) هو الذي صُلِبَ على الدار، ولو ظن الجاهلون خلاف ذلك[2]... اهـ. (منصور هو الحلاج).

ويقول: أنا سَرِقَة اللصوص، أنا أَلَمُ العصا، أنا السحاب وأنت الغيث، أنا الذي

---

(1) في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص٩٥.
(2) في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص١٠٥ و١٠٦.

أمطرتُ في المروج[1]. . .

ويقول على لسان قطبٍ يخاطب البسطامي :

إن الله هو ما تراه فيَّ بعين قلبك ، لأنه اختارني بيتاً له ، فإذا رأيتَني فقد رأيته ، وطفْتَ حول الكعبة الحنفية ، وإذا عبدتَني فقد عبدتَه وسبَّحت له ، فلا تظنَّ أنني شيء غيره[2] .

● الملاحظة : الكلام ، وخاصة النص الأخير ، هو واضح جدًّا .

ويقول الشيخ أرسلان الدمشقي[3] :

كلّك شركٌ خفي ، ولا يبين توحيدك إلا إذا خرجتَ عنك ، فكلما أخلصتَ يُكْشَفُ لك أنه هو ، لا أنت ، فتستغفر منك ، وكلما وحّدْتَ بان لك الشرك ، فتجدّد في كل ساعة ووقتٍ توحيداً وإيماناً ، وكلما خرجتَ عنهم زاد إيمانك ، وكلما خرجتَ عنك قوي يقينك . . . اليقين الأقوم في غيبتك عنك ووجودك به ، فكم بين ما يكون بأمره وبين ما يكون به ، إن كنت قائماً بأمره خَضَعت لك الأسباب ، وإن كنتَ قائماً به تضعضعت لك الأكوان . . . ما صلُحتَ لنا وفيك بقية لسوانا ، فإذا حوّلتَ السِّوى عنك ، أفنيناك عنك ، فصلُحْت لنا وأودعناك سرَّنا . إذا لم يبق عليك حركةٌ لنفسك كمل يقينك ، وإذا لم يبق لك وجودٌ عندك كمل توحيدُك . . . إذا أفناك عن هواك بالحكمة وعن إرادتك بالعلم صرتَ عبداً صرفاً لا هوى لك ولا إرادة ، فحينئذ يكشف لك ، فتضمحلُّ العبودية في الوحدانية ، فيفنى العبد ويبقى الرب تعالى ، الشريعة كلها قبض ، والعلم كله بسط ، والمعرفة كلها دلال . . . إذا زال هواك يكشف لك عن باب الحقيقة ، فتفنى إرادتك ، فيكشف لك عن الوحدانية ، فتحققتَ به أنه هو ، بلا «أنت معه» . . . إن جئت بلا «أنت» قَبِلَك ، وإن جئت بك حجبك . . . الخلق حجاب ، وأنت حجاب ، والحق ليس بمحجوب ، وهو محتجب عنك بك ، وأنت محجوب عنك بهم ، فانفَصِلْ عنك تشهده ، والسلام[4] . اهـ .

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ص١٥٢ .
(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ص١٥٧ .
(٣) مات في دمشق سنة ٥٤١هـ .
(٤) مقتطفات من رسالة الشيخ أرسلان من كتاب «شروح رسالة الشيخ أرسلان» .

- في هذا النص، يبيِّن الشيخ أرسلان أن التحقق بالألوهية لا يكون إلا بنسيان كل شيء على الإطلاق، حتى الإحساس بالذات، وهذا مثل قولهم: «اخلع نعليك»، وسيأتي شرح لبعض عباراته.

ويقول عمر بن الفارض:

فلم تَهْوَني ما لم تكن فيَّ فانياً ولم تفن ما لم تجتلي فيك صورتي

- إنه يشرح معنى «الفناء» بقوله: «تجتلي فيك صورتي»، أي: تصير صورتك صورة الله!

أممتُ إمامي في الحقيقة فالورى ورائي وكانت حيث وجّهتُ وجهتي
يراها أمامي في صلاتيَ ناظري ويشهدُ في قلبي أمامَ أئمتي
ولا غرو أن صلّى الإمامُ إليَّ أن ثوت في فؤادي وهي قِبلةُ قِبلتي
وكل الجهات الست نحوي توجهت بما تمَّ من نسكٍ وحجٍّ وعمرة
لها صلواتي بالمقام أقيمها وأشهدُ فيها أنها لِيَ صلَّتِ
كلانا مصلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلّىٰ سواي ولم يكن صلاتي لغيري في أدا كل ركعة[1]
فأفنى الهوى ما لم يكن ثَم باقياً هنا مِن صفاتٍ بيننا فاضمحلَّت
فألفيتُ ما ألقيتُ عني صادراً إليَّ ومني وارداً بمزيدتي
خرجتُ بها عني إليها فلم أعُدْ إليَّ ومثلي لا يقول برجعة[2]
جَلَت في تجليها الوجودَ لناظري ففي كل مرئيٍّ أراها برؤية
وأشهدتُ عيني إذ بدت فوجدتُني هنالك إياها بجلوة خلوتي
ففي الصحو بعد المحو لم أكُ غيرها وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلت
فوصفيَ إذ لم تُدْعَ باثنين وصفُها وهيأتُها إذ واحدٌ نحن هيأتي
فإن دُعيت كنتُ المجيب وإن أكن منادى أجابت من دعائي ولبَّت
وإن نَطَقَت كنتُ المناجي كذاك إن قصصتُ حديثاً إنما هي قصت

---

(١) تذكرنا هذه الأبيات بتائية الغزالي.

(٢) يريد بقوله «ومثلي لا يقول برجعة» أنه ليس شيعيًا، وفيه تورية.

فقد رُفِعَت تاء المخاطب بيننا ... وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي
فإن لم يجوّز رؤية اثنين واحداً ... حجاك ولم يثبت لبعد تثبُّت
سأجلو إشاراتٍ عليك خفيةً ... بها كعباراتٍ لديك جلية

* * *

وما شانَ هذا الشأنَ منك سوى السوى ... ودعواه حقًّا عنك إن تُمحَ تُثبت
كذا كنت حيناً قبل أن يكشف الغِطا ... من اللَّبس لا أنفك عن ثَنوية
أروح بفقد بالشهود مؤلِّفي ... وأغدو بوجد بالوجود مشتِّتي
يفرقني لبِّي التزاماً بمحضري ... ويَجْمَعُني سلبي اصطلاماً بغيبتي
ومِن فاقتي سكراً غنيت إفاقةً ... لدى فرقيَ الثاني فجمعي كوحدتي
فجاهد تشاهدْ فيك منك وراء ما ... وصفتُ سكوناً عن وجود سكينة
وفارقْ ضلال الفرقِ فالجمعُ مُنتجٌ ... هدى فِرقة بالاتحاد تحدّت
وصرِّحْ بإطلاق الجمال ولا تقل ... بتقييده ميلاً لزخرف زينة

من معاني البيت الأخير: كل شيء هو الله وكل العقائد صحيحة، وكل معبود هو الله..

وما زلتُ إياها وإياي لم تزل ... ولا فرقَ بل ذاتي لذاتي أحبّت
وليس معي في الملك شيء سواي والـ ... معية لم تخطر على ألمعيَّتي

نفي المعية في هذا البيت يوضح أنه لا يريد من كلمة «الاتحاد» حيثما أوردها إلا «الوحدة»:

ولكن لصدِّ الضدِّ عن طعنه على ... عُلا أولياء المنجدين بنجدتي
رجعتُ لأعمال العبادة عادةً ... وأعددتُ أحوال الإرادة عدتي

في البيتين الأخيرين اعتراف جريء من الشيخ بأنه كان قد قطع العبادة، ثم رجع إليها لتكون «عادة» لا عبادة، وليصد بها الأضداد (أهل الشريعة) عن الطعن على الأولياء مثله. وهذا مثل قول الغزالي الذي مر في صفحة سابقة تماماً.

وهذبت نفسي بالرياضة ذاهباً ... إلى كشف ما حُجْبُ العوائد غطّت

متى حِلْتُ عن قولي «أنا هي» أو اقل ، وحاشا لمثلي «أنها فيَّ حلَّت»
منحتك علماً إن تُرِدْ كشفه فَرِدْ سبيلي واشرع في اتباع شريعتي
فنبعُ صداءٍ من شرابٍ نقيعُه لديَّ فدعني من سرابٍ بقيعة

واضح أنه يعني بقوله: «سراب بقيعة» كل ما ليس من سبيله ولا من شريعته التي هي «وحدة الوجود»، وبذلك تكون الشريعة الإسلامية هي من «السراب بقيعة».

وكل الورى أبناء آدم غير أنـ ـيَ حزت «صحو الجمع» من بين إخوتي
ومن «أنا إياها» إلى حيث «لا إلى» عرجت وعطرت الوجود برجعتي
وغيري على الأغيار يُثْني وللسوى سواي يثني منه عطفاً لعطفتي
ومبدأ إبداها اللذان تسببا إلى فرقتي والجمع يأبى تشتتي
هما مَعْنا في باطن الجمع واحدٌ وأربعةٌ في ظاهر الفرقِ عُدَّت

- يبين في البيت الأخير وما قبله معنى الجمع والفرق.

ولم ألهُ باللاهوت عن حكم مظهري ولم أنْسَ بالناسوت مظهرَ حكمتي

يقول: إنه في الحكم إله وفي المظهر إنسان، وإنه يعي ذلك ولم ينسه.

تحققتُ أنّا في الحقيقة واحد وأثبتَ «صحْوُ الجمع» محوَ التشتت
إذا ما أزال السترْ لم تر غيره ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة
فأشكاله كانت مظاهرَ فعله بسترٍ تلاشت إذ تجلى وولت

- يقول: إن فعل الله هو أشكاله التي يظهر بها والتي تتلاشى عندما يتجلى.

تنزهتُ في آثار صنعي منزِّهاً عن الشرك بالأغيار جمعي وألفتي
فبي مجلس الأذكار سمعُ مطالعٍ ولي حانة الخمار عينُ طليعة
وما عقدَ الزنارَ حكماً سوى يدي وإن حُلَّ بالإقرار بي فهي حَلَّت
وإن نار بالتنزيل محرابُ مسجدٍ فما بار بالإنجيلِ هيكل بيعة
وأسفارُ توراة الكليم لقومه يناجي بها الأحبارُ في كل ليلة
وإن خرّ للأحجار في البدِّ عاكفٌ فلا وجه للإنكار بالعصبية
فقد عبد الدينارَ معنى منزهٌ عن العار بالإشراك بالوثنية

وما زاغت الأبصار من كلِّ ملّةٍ وما زاغت الأفكار في كل نحلة
وما اختارَ مَنْ للشمس عن غرةٍ صبا وإشراقُها من نور إسفارِ غُرَّتي
وإن عَبَدَ النارَ المجوسُ وما انطفت كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم سواي وإن لم يُظهروا عقد نيتي[1]

- يقول: كل شيء حق، وكل العبادات حق، وكل العقائد حق، فعابد البد «أي الصنم» وعابد النار والنصراني واليهودي والمسلم كلهم على حق. وعلينا أن نلاحظ أن هذه الأقوال قيلت في زحمة الحروب الصليبية.

ويقول ابن سبعين في الرسالة النورية مخاطباً تلميذه:

وجميع ما توجّهَ الضميرُ إليه اذكره به ولا تبال، وأي شيء يخطر ببالك سمّه به. مَنْ اسمُه «الوجود» كيف يُخَصُّ بأسماء منحصرة؟ هيهات! الله لا اسم له إلا الاسم المطلق أو المفروض، فإن قلت: نسميه بما سمى به نفسه أو نبيه، يقال لك: من سمى نفسه «الله» قال لك: أنا كل شيء، وجميع من تنادي أنا. وقد يصعب عليك هذا، فعسى أن تُسَلِّم أنه معك بالعلم والفعل، فإذا سلَّمت هذا تُسَلِّم أن الذي استجاب لك هو الوجود، فإذا سلَّمت ذلك فعجِّل بذلك، ولا تكن كذلك، فما يحقُّ لك ذلك؛ يا هالك يا مالك انظر مِنْ حالك، وقل بعد ذلك: يا حق يا أبد يا راحم يا أحد يا أكبر يا واجبَ الوجود، الذي الوجود ووحدته واحد، يا ماهية كلِّ ماهية، يا آنيةَ كلِّ آنية. لا شيء عندي إلا أنت. . . . لأن الكذب لا يجوز على الله، ولا مع الله، ولا شيء أكذب من لسان الإضافة، ولا شرك أقبح من شركها. . . ولا يعتبر المحقّق في ذلك إلا الله، وبُدُّ البُدِّ، والهو هو[2].

- يعني بقوله: «لسان الإضافة» إضافة شيء إلى الله، مثل «عبدالله أو مخلوقات الله. . .» أو إضافة الله إلى شيء، مثل «خالق الكون. . .». لأن الإضافة تعني الاثنينية، أي وجود اثنين، خالق ومخلوق، وهذا عند الصوفية كذب وشرك، لأنه لا موجود إلا الله، والكون هو الله.

---

(١) هذه الأبيات من التائية الكبرى في ديوانه. (٢) رسائل ابن سبعين، ص١٨٤.

ويقول في إحدى رسائله:

. . . واضرب عن الوهم والحس والخيال والعادة، واخرج عن لواحقك ومحمولك وموضوعك. . . واطلب واحدك بوحدتك، واخرج عن وترك الخاص بك كما خرجت عن شفعك التابع لك، حتى يبقى الواحد[1]. (أقول: هذا الكلام مثل كلام الشيخ رسلان).

وكان ابن سبعين يقول هو وأصحابه في ذكرهم: «ليس إلا الله» بدل قول المسلمين: «لا إله إلا الله»[2].

ويقول في أحد الفصول التالية لـ «ملاحظات على بد العارف»:

يا هذا، غُضَّ بصر إدراكك عن غير الله، ثم قل لنفسك: يا خسيسة المنزلة، متى ثبت سواه؟ حتى تستر يبي فيه وتغضي بصرك عنه! هو الله. . فلا هو إلا هو ولا يمكن غير ذلك[3]. اهـ.

- أرجو الانتباه والتدقيق في معنى العبارة الأخيرة: «. . . ولا يمكن غير ذلك».

ويقول: . . . لو كان فيهما موجود غير الله، لكان الله، وبالوهم لفسدت[4]. . .

ويقول:

كم ذا تُموِّه بالشِّعبين والعلم	والأمر أوضح مِنْ نارٍ على علم
وكم تُعبِّرُ عن سَلعٍ وكاظمةٍ	وعن زرودٍ وجيران بذي سلم
ظللتَ تسأل عن نجدٍ وأنت بها	وعن تهامة! هذا فعل مُتَّهِمِ
في الحي حيٌّ سوى ليلى فتسأله	عنها؟! سؤالك وهمٌ جرَّ للعدم[5]

ويقول:

ليس مَنْ فوَّه بالوصل له	مثلَ مَنْ سِيرَ به حتى وصل

---

(1) رسائل ابن سبعين، ص٢٦١.
(2) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص١٦٧.
(3) رسائل ابن سبعين، ص٢٥٧.
(4) رسائل ابن سبعين، (كتاب فيه حكم ومواعظ).
(5) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص١٢٩.

لا ولا الـواصـل عنـدي كالـذي	قرع البـاب ولـلدار دخـل
لا ولا الـداخـل عنـدي كالـذي	سارروه وهـو للسـر محلّ
لا ولا من ساررو كالـذي	صار إيـاهـم فدع عنـك العـلل
فمـحَـوْه عنـه فيـهـم فانـمـحـى	ثم لما أثبـتـوه لم يزل
ذاك شيء عَلِقَ الـقـلبُ به	لو تجلّى ذاك للخـلق قتَـلْ[1]

ويقول في «رسالة الإحاطة»:

. . . ربٌّ مالك، وعبدٌ هالك، ووهم حالك، وحق سالك، وأنتم ذلك! اختلط في الإحاطة الزوج مع الفرد، واتّحد فيه النجو مع الورد، واتفق فيه السقر مع القر. وبالجملة السبت هو يوم الأحد، والموَحِّد هو عين الأحد، ويوم الفرض هو يوم العرض، والذاهب من الـزمـان هو الحـاضـر، والأول في العيـان هو الآخـر، والبـاطن في الجَنَان هو الظاهر، والمـؤمن في الجِنـان هو الكـافـر، والغني هو الـولي، والفقـير هو الغني، وهـذه وحـدات حكمية، لا أحداث وهمية[2].

يريد بقوله: «عبد هالك»، أي: لا وجود للعبد، والنجو هو الغائط.

ويقول في إحدى رسائله:

الله فقـط، الله المستعـان والمستعـين. والإعـانـة معنىً فيـه في كونه معيناً ومستعيناً، الحمد لله في الأزل والأبد ولي المجد، ومن هو بهما عينُ الحامد والحمد. . . ولا حول ولا قوة إلا بالساري بذاته في أفعاله عن أسمائه بصفاته، أحبَّ فتسمّى بالحي وأحاط فتسمّى بالعالم . . . هو عين كل ظاهر، فحُقَّ له أن يتسمى بالظاهر، وهو معنى كل معنى فحق له أن يتسمى بالباطن[3]. . . .

ويقول في رسالة ثانية:

استمـع لما يوحى ويستقـرا . . . من أبصـر مقصودَه كفَّ عن سِواه لأنه سَواه، وشرْطُ مَنْ سُرِّي واستـوى قطـع وهم السوى. فمَنْ قَرَّبه لله يقول: الله فقط . . . ويحرر قضيته

(١) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص١٢٩

(٢) رسائل ابن سبعين، ص١٤٣.

(٣) رسائل ابن سبعين، ص١٩٠.

البسيطة بإطلاق الهوية على الآنية[1]. . .

- للتذكير: الهوية من قولهم: «هو» إشارة إلى الله سبحانه. والآنية إشارة إلى المخلوقات التي هي تعينات.

ويقول الششتري[2]:

ما للحجاب مكانٌ في وجودكم ... إلا بسرِّ حروف «انظر إلى الجبل»[3]
أنتم دللتم عليكم منكمُ ولكم ... ديمومةٌ عبَّرت عن غامض الأزل
عرَّفتمُ بكمُ هذا الخبيرَ بكم ... أنتم هُمُ يا حياة القلب يا أملي[4]

ويقول «زجلاً»:

لقد أنا شيء عجيب ... لمن رآني
أنا المحب والحبيب ... ليس ثَم ثاني
يا قاصداً عينَ الخبر ... غطَّاه أيْنُك
الخمر فيك والخبر ... والسرُّ عندك
ارجع لذاتك واعتبر ... ما ثَمَّ غيرك[5]

ويقول أيضاً:

لقد فشا سرِّي ... بلا مقال . وقد ظهر عني ... في ذا المثال
ترى وجودَ غيري ... من المحال ... وكلُّ ما دوني ... خيالٌ فيَّ
متحد فيْ ... كل شيْ ... أنا هو المحبوب ... وأنا الحبيب
والحب لي مني! ... شيء عجيب! ... وحدي أنا فافهم ... سرِّي غريب
فمَنْ نَظَر ذاتي ... رآني شيْ ... وفي حُلا ذاتي ... طواني طيْ
صفاتي لا تخفى ... لِمَن نظر ... وذاتي معلومة ... تلك الصَّورْ

---

(1) رسائل ابن سبعين، ص٢٣.

(2) أبو الحسن علي النميري الششتري، أندلسي، أخذ عن ابن سبعين رحل إلى المغرب، ثم إلى مصر، حيث أسس الطريقة الششترية، مات عام ٦٦٨هـ، ودفن بدمياط.

(3) إشارة إلى الآية: ﴿قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل. . .﴾.

(4) إيقاظ الهمم، ص٤١.

(5) إيقاظ الهمم، ص٤٢.

افنَ عن الإحساس ترى عِبَر في السرّ والمعنى خفيت كي
لأنه مني ستر عليّ[1]

يعلق ابن عجيبة على هذه الأشعار بعد شرحها، فيقول: وقد اتفقت على هذا المعنى، وهو سر الوحدة، مقالات العارفين، ومواجيد المحبين، وأشعارهم كل على قدر ذوقه وشُربه، جزاهم الله عنا وعن المسلمين خيراً، ولا يفهم هذه العبارات إلا أهل الأذواق والإشارات[2]. . .

ويقول الششتري أيضاً:

محبوبي قد عمَّ الوجود وقد ظهر في بيض وسود وفي النصارى مع اليهود
وفي الخنازير مع القرود وفي الحروف مع النقط أفهمني قط أفهمني قط
غرفته طول الزمان ظهر لي في كل أوان وفي المياه وفي الدلوان
وفي الطلوع وفي الهبوط أفهمني قط أفهمني قط[2]

- قوله هنا: «وفي الخنازير مع القرود»، هو مثل قول قائلهم: «وما الكلب والخنزير إلا إلهنا»[3]، ومثل قول ولي الله الدهلوي: «ولا يهولنك صدور الكائنات الدنسية من سنخ القدوسية»، ومثل قول ابن سبعين: «واتحد فيه النجم مع الورد»، ومثل قول مصطفى العروسي: «الظاهر في كل المراتب، الخسيس منها والشريف»، ومثل قول عبد القادر الجيلاني الذي ينسبه لابن عباس: «في كل شيء اسمٌ من أسمائه واسم كل شيء اسمه»، ومثل قول أحمد الرفاعي: «إن لله تعالى بعدد كل شيء خلقه أسماء» وغيرهم وغيرهم.

- وقبل الانتقال إلى غيره، نستشير متصوفة كباراً آراءهم بهذا الششتري، فمن أقوالهم فيه:

١ - كان الششتري يذكر في أزجاله قوله: «شيوخي هم شاذلية»[4]. وكان ذلك في حياة أبي الحسن الشاذلي وتلميذه أبي العباس المرسي.

---

(١) إيقاظ الهمم، ص٤٢.
(٢) إيقاظ الهمم، ص٤٣.
(٣) النفحات الأقدسية، ص٣٣٨.
(٤) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص١٧٤.

٢ - قَبِلَ الشاذليةُ إلى حد ما أشعاره في حضراتهم واحتضنوها[1].

٣ - عبّر ابن عباد الرتدي[2] في رسائله الكبرى عن إعجابه بأزجال الششتري وموشحاته، وهو ينصح مريديه الشاذلية بقراءتها، ويقول عنها: «وكلام الششتري عندي أقرب مأخذاً من كلام ابن سبعين، وأما أزجاله ففيها حلاوة وعليها طلاوة»[1].

٤ - شرح الشيخ أحمد زرّوق[3]، وهو من كبار الشاذلية، بعض أشعار الششتري ووصفه بقوله: «الشيخ العارف، أحد الصوفية، من أبناء الملوك ثم صار من سادات الصوفية، كان يُقرأ عليه القرآن والسنن، عارف بالحديث، وأما علم الأسرار والأنوار والحِكَم والأذواق، فحاز فيه قصب السبق[1]. . .

٥ - ويقول أبو العباس الغبريني[4]:

الشيخ الفقيه الصوفي الصالح العابد الأديب أبو الحسن علي النميري الششتري من الطلبة المحصّلين، ومن الفقراء المنقطعين، له معرفة بالحكمة، ومعرفة بطريق الصالحين الصوفية، وله تقدم في علم النظم والنثر على طريق التحقيق، وشعره في غاية الانطباع والملاحة، ونواشيحه ومُقَفّياته ونظمه الزجلي في غاية الحسن[5].

٦ - ويقول عنه ابن عجيبة الحسني:

. . . وكذلك قصة الششتري رضي الله عنه مع شيخه ابن سبعين، لأن الششتري كان وزيراً وعالماً وأبوه كان أميراً، فلما أراد الدخول في طريق القوم قال له شيخه: «لا تنال منها شيئاً حتى تبيع متاعك وتلبس قشابة وتأخذ بنديراً وتدخل السوق»، ففعل جميع ذلك، وقال له: «ما نقول في السوق». فقال: قل: «بدأت بذكر الحبيب»، فدخل السوق يضرب بنديره ويقول: «بدأت بذكر الحبيب»، فبقي ثلاثة أيام،

---

(١) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص١٧٤.

(٢) محمد بن إبراهيم بن أبي بكر. . بن عباد النفري الرندي، من رندة جنوبي الأندلس من شيوخ الشاذلية توفي سنة ٧٩٢هـ، ممن تأثر به، القديس يوحنا الصليبي من صوفية المسيحيين.

(٣) الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق، كان قطباً غوثاً، توفي سنة ٨٩٩هـ.

(٤) المؤرخ الفقيه صاحب «عنوان الدراية»، توفي سنة ٧١٤هـ.

(٥) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص١٧٠.

وخُرِقَت له الحجب، فجعل يغني في الأسواق بعلوم الأذواق، ومن كلامه رضي الله عنه:

شُويخ من أرض مكناس في وسط الأسواق يغني
آش علي مِن الناس وآش على الناس مني[1]

إذن فالششتري من كبار القوم وشيوخهم وعارفيهم، يذكرون اسمه مصحوباً بـ «رضي الله عنه»، ويأخذون أقواله حكماً ونبراساً ومعارف، وما دام هو كذلك، فشهادته كافية لتزكية أي شخص عند القوم، وهو يزكي شيخه ابن سبعين، بل يقدسه ويدعوه بكعبة الحسن وكنز حياته وشمسها وبدرها ومحيي الرسم، ومُجدِّ الذات، وذات الخير، وكمية السعادة، وإكسير الذوات، ومغناطيس النفوس»[2].

ويقول أبو الحسن الشاذلي:

إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا عن الدليل والبرهان، وإنا لا نرى أحداً من الخلق، فهل في الوجود أحدٌ سوى الملك الحق، وإن كان ولا بد فكالهباء في الهواء، إن فتَّشتهم لم تجدهم شيئاً[3].

ـ لنلاحظ أن أبا الحسن الشاذلي يصرّح بالاستغناء عن الدليل والبرهان!؟ وطبعاً يكون الدليل والبرهان من القرآن والسنة، والحق عنده هو ما يراه بالكشف! كما أن وحدة الوجود ظاهرة في النص.

ويقول: إذا أردت الوصول إلى الطريق التي لا لون فيها فليكن الفرق في لسانك موجوداً والجمع في سرّك مشهوداً[4].

وقد مر هذا النص فيما سبق، ولننتبه إلى قوله: «التي لا لون فيها».

ويقول: . . . مِنَ الأولياء مَنْ يسكر من شهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً، فما ظنك بعد ذوق الشراب وبعد الري؟ واعلم أن الري قل من يفهم المراد به، فإنه مزج

---

(١) إيقاظ الهمم، ص٢٨.
(٢) ابن سبعين وفلسفته الصوفية، ص١٧٢.
(٣) إيقاظ الهمم، ص٤٤.
(٤) طبقات الشعراني: ٢ / ٧.

الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال[1]. اهـ.

- أي إن الري هو التحقق بالألوهية الكاملة بكل معانيها.

ويقول: أبى المحققون أن يشهدوا غير الله تعالى لما حققهم به من شهود القيومية وإحاطة الديمومية[2]. اهـ.

- من مثل هذا النص نعرف معنى عبارة «وحدة الشهود».

ويقول: لا يتزحزح العبد عن النار إلا إن كفّ جوارحه عن معصية الله، وتزيَّن بحفظ أمانة الله، وفتح قلبه لمشاهدة الله، ولسانه وسرَّه لمناجاة الله، ورفع الحجاب بينه وبين صفات الله، وأشهده الله تعالى أرواح كلماته[3].

ويقول: العلوم التي وقع الثناء على أهلها، وإن جلّت فهي ظلمة في علوم ذوي التحقيق، وهم الذين غرقوا في تيار بحر الذات، وغموض الصفات، فكانوا هناك بلا هَمْ، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في أحوالهم[4].

- يجب الانتباه إلى قوله: فكانوا هناك بلا «هَمْ»، الذي مر معنا مثله، وإلى العبارتين الجديدتين علينا: «غرقوا في تيار بحر الذات» و «وغرقوا في غموض الصفات». وفي النص السابق عبارة: «رفع الحجاب بينه وبين صفات الله». وهي واضحة تماماً من حيث المعنى. ثم لننتبه إلى هذا الأسلوب في محاربة العلم: «العلوم . . . وإن جلّت فهي ظلمة . . .».

ويقول: فإذا أمدَّه الله تعالى بنور ذاته، أحياه حياة باقية لا غاية لها، فينظر جميع المعلومات بنور هذه الحياة؛ ووجد نور الحق شائعاً في كل شيء، لا يشهد غيره[5] . . .

- لننتبه إلى قوله: «أحياه حياة باقية لا غاية لها»، فما هي هذه الحياة الباقية؟ المعنى

(1) طبقات الشعراني: ٢ / ٨.
(2) طبقات الشعراني: ٢ / ٩.
(3) طبقات الشعراني: ٢ / ١٠.
(4) طبقات الشعراني: ٢ / ١١.
(5) طبقات الشعراني: ٢ / ١٢.

واضح، ففي حياتنا الدنيا لا حياة باقية إلا لله، فيكون معنى «أحياه حياة باقية..»، أي: حققه بالألوهية، ونرى مثل هذه العبارة كثيراً في نصوصهم.

ويقول: . . . فبينما هم كذلك، إذ ألبسهم ثوب العدم، فنظروا فإذا هم لا «هُمْ»، ثم أردف عليهم ظلمة غيَّبتهم عن نظرهم، فصار نظرهم عدماً لا علة له، فلا معرفة تتعلق به، اضمحلت المعلومات، وزالت المرسومات زوالاً لا علة فيه، وبقي من أُشير إليه، لا وصف له ولا صفة ولا ذات، واضمحلت النعوت والأسماء والصفات، وكذلك فلا اسم له ولا صفة ولا ذات، فهنالك ظهر من لم يزل ظهوراً لا علة فيه، بل ظهر بسرّه لذاته في ذاته، ظهوراً لا أولية له، بل نظر من ذاته لذاته في ذاته، وهناك يحيا العبد بظهوره حياة لا علة لها، وصار أولاً في ظهوره، لا ظاهراً قبله، فوجدت الأشياء بأوصافه، وظهرت بنوره في نوره سبحانه وتعالى، ثم يغطس بعد ذلك في بحر بعد بحر إلى أن يصل إلى بحر السرّ، فإذا دخل بحر السر غرق غرقاً لا خروج له منه أبد الأباد، فإن شاء الله تعالى بعثه نائباً عن النبي ﷺ، يُحيى به عباده، وإن شاء ستره، يفعل في ملكه ما يشاء، فهذا عنبرةٌ من طريقَي الخصوص والعموم. فتنبه[1].

ويقول أبو العباس المرسي[2]، تلميذ أبي الحسن الشاذلي:

قال لي الشيخ أبو الحسن: يا أبا العباس، ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت[3].

ـ هذا الكلام اعتراف من المرسي بأنه يسير على قدم أستاذه، فهما من عقيدة واحدة، وهذا بدهي.

ويقول: لو كان الحق سبحانه وتعالى يرضيه خلاف السنة، لكان التوجه في الصلاة إلى القطب الغوث أولى من التوجه إلى الكعبة[3].

ويقول: لو كُشف عن نور الولي لعُبد من دون الله[4]!!؟ (ولا تعليق).

---

(١) طبقات الشعراني: ٢ / ١٢.

(٢) مرت ترجمته، مات عام ٦٨٦هـ.

(٣) طبقات الشعراني: ٢ / ١٤.

(٤) إيقاظ الهمم، ص١٥٦، ولطائف المنن، ص٩٥.

ويقول ابن عطاء الله السكندري[1] في حِكَمِه:

لا ترحل مِنْ كونٍ إلى كون، فتكون كحمار الرحى، يسير، والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه، ولكن ارحل مِنَ الأكوان إلى المكوِّن، ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾[2].

- قوله: «لا ترحل من كون إلى كون. . . ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون» هو تماماً مثل قول عبد القادر الجيلاني الذي مر معنا: «. . إلى متى الدنيا؟ إلى متى الآخرة؟ إلى متى سوى المولى؟ . . » إذ المعنى واحد تماماً، وكذلك هو مثل قوله: «اخلع نعليك: دنياك وآخرتك . . »، لكن يزيد عليه أن الذي يبتغي الآخرة يكون كحمار الرحى (كانت الطواحين تدار بالحمير)، إذ إن حمار الرحى يدور، يدور ثم يرجع إلى مكانه، وهكذا طالب الآخرة عند السكندري!؟

ويقول: لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك مِنْ ذكر مع وجود غفلة إلى ذكرٍ مع وجود يقظة، ومِنْ ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومِنْ ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عن ما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز[3].

- في هذا النص يتضح لنا معنى المصطلح «حضور» ومعنى العبارة «غيبة عن ما سوى المذكور. . »، وسنشاهدهما كثيراً في كتبهم.

ويقول: إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً[4].

أورد عليك الواردَ ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك مِنْ رق الآثار[4].

أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك[4].

- في هذه النصوص، يتبين لنا معنى «الوارد». وبدهيًّا، أننا الآن نعرف بدقة معنى العبارات «لتكون به عليه وارداً، ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار، ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك». فهي كلها تعني «شهود وحدة الوجود»،

---

(١) مرت ترجمته توفي سنة ٧٠٧هـ.
(٢) إيقاظ الهمم، ص٧٢.
(٣) إيقاظ الهمم، ص٧٩.
(٤) إيقاظ الهمم، ص٨٦.

ويعني بالآثار شهود الخلق.

ويقول: «فمَنْ رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحُجبت عنه شموس المعارف بسُحُبِ الآثار»[1].

«مما يدلّك على وجود قهره سبحانه أن حَجَبك عنه بما ليس بموجود معه»[2].

«كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء»[3].

«كيف يُتَصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء»[3].

«كيف يُتَصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر لكل شيء»[3].

«كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء»[4].

«كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ليس معه شيء»[4].

- لنر كيف يقدم ابن عجيبة (الذي يشرح حكَم ابن عطاء الله) هذه التعجبات! إنه يقول: «. . . ثم استدل (أي ابن عطاء الله) على بطلان وجود الحجاب في حقه تعالى بعشرة أمور، متعجباً من كل واحد، لظهوره مع خفائه، أي لشدة ظهوره عند العارفين، وشدة خفائه عند الغافلين الجاهلين، فأشار إلى الأول بقوله: «كيف يُتصور أن يحجبه شيء . . .»، ومعنى هذا الكلام، أن الحجاب الذي يحجب الحق تعالى عن الغافلين الجاهلين هو الوهم فقط، لأن الحق ظاهر شديد الظهور، لكنه اختفى عن الغافلين بسبب غفلتهم وجهلهم. فهم يظنون أن المخلوقات هي غير الله. وهذا باطل عند العارفين.

- ويعلق ابن عجيبة على قول ابن عطاء الله: «وهو الذي أظهر كل شيء» شارحاً، فيقول:

---

(١) إيقاظ الهمم، ص٤٠.
(٢) إيقاظ الهمم، ص٤١.
(٣) إيقاظ الهمم، ص٤٣.
(٤) إيقاظ الهمم، ص٤٤، (موجودة كلها في حاشية لطائف المنن ص٢٠٣).

والظاهر هو الباطن، ما بطن في عالم الغيب هو الذي ظهر في عالم الشهادة، فحياض الجبروت متدفقة بأنوار الملكوت:

انظر جمالي شاهداً في كل إنسان الماء يجري نافذاً في أس الاغصان
تجده ماءً واحداً والزهر ألوان

يا عجباً كيف يُعرف بالمعارف من به عُرفت المعارف[1]...

- ويشرح قوله: «... وهو الذي ظهر بكل شيء»، فيقول: بباء الجر، أي تجلّى بكل شيء، فلا وجود لشيء مع وجوده، فكيف يحجبه شيء، والفرض أن لا شيء. قال صاحب العينية[2] رضي الله عنه:

تجليتَ في الأشياء حين خلقتَها فها هي ميطت عنك فيها البراقع[3]

- ويشرح قوله: «... وهو الظاهر قبل وجود كل شيء»، فيقول: فكل ما ظهر فمنه وإليه، فكان في أزله ظاهراً بنفسه، ثم تجلى لنفسه بنفسه، فهو الغني بذاته عن أن يظهر بغيره، أو يحتاج إلى من يعرفه غيره، فالكون كله مجموع، والغير عندنا ممنوع[4].

- ويشرح قوله: «... وهو الواحد الذي ليس معه شيء»، فيقول: لتحقُّق وحدانيته أزلاً وأبداً، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، أإله مع الله، تعالى الله عما يشركون، أفي الله شك، فكل ما ظهر للعيان فإنما هو مظاهر الرحمن، قال صاحب العينية:

تجلّى حبيبي في مرائي جماله ففي كل مرأى للحبيب طلائع
فلما تجلّى حسنه متنوعاً تسمّى بأسماءٍ فهنَّ مطالع

فالحق تعالى واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، فلا شيء قبله ولا شيء بعده ولا شيء معه[4].

- هذا النص الأخير يبين مرادهم من قولهم: «توحيد الذات وتوحيد الصفات

---

(١) إيقاظ الهمم، ص٤٣.
(٢) هو عبد الكريم الجيلي المتوفى سنة ٨٠٥هـ.
(٣) إيقاظ الهمم، ص٤٣.
(٤) إيقاظ الهمم، ص٤٤.

وتوحيد الأفعال التي تعني كلها وحدة الوجود.

ويقول ابن عطاء الله:

«ما حجبك عن الله وجود موجودٍ معه، إذ لا شيء معه، ولكن حجبك عنه توهم موجودٍ معه»[1].

«مَن عرف الحقَّ شهده في كل شيء، ومن فني به غاب عن كل شيء، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئاً»[2].

«إنما حَجَب الحقَّ عنك شدةُ قربه منك، إنما احتجب بشدة ظهوره، وخفي عن الأبصار لعظيم نوره»[3].

قبل الانتقال من حِكَم (بل نقم) ابن عطاء إلى غيرها يجب أن نعرف قيمتها عند القوم.

يقول ابن عجيبة: سُمِعَ شيخُ شيخنا مولاي العربي (أي الدرقاوي) رضي الله عنه يقول: سمعت الفقيه البناني يقول: «كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون وحياً، ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم» أو كما قال[4].

كما أنها تُدرس في مساجد المسلمين، يدرسها «علماء» لهم شهرة، ويحمل بعضهم ألقاباً علمية.

ويقول ابن عطاء الله أيضاً:

... ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾، وإن تعدَّدت الأسماء، فالمقصودُ منها واحد، وهو الله، وكل الأسماء هي صفته ونعته، وهو أولها وأصلها، والأسماء كلها سرت في العالم سريان الأرواح في الأجساد، وحلّت منه محل الأمر من الخلق، ولزمَته لزوم الأعراض للجواهر، فإنه ما من موجود دقَّ أو جلَّ، علا أو سفل، كثف أو لطف، كثر أو قل، إلا وأسماء الله جل وعز ذكره محيطة به عيناً ومعنى، ومقتضى

(1) إيقاظ الهمم، ص١٩٩.
(2) إيقاظ الهمم، ص٢٣٥.
(3) إيقاظ الهمم، ص٢٣٦.
(4) إيقاظ الهمم، ص٤.

اسم الألوهية جامع لجميعها[1]. . .

● **الملاحظة:**

قوله: «فإنه ما من موجود دقّ أو جلّ، علا أو سفُل. . . إلى آخر النص» هو مثل ما مرّ في صفحة سابقة من قولهم: «وما الكلب والخنزير إلا إلهنا. . . وبقية العبارات».

ويقول إبراهيم الدسوقي[2]:

من أُدخل دار الفردانية، وكُشف له عن الجلال والعظمة، بقي هو بلا هو[3]. . . .

ويقول: (وهي في الحقيقة لعامر بن عامر البصري، ولكن نوردها على أنها له احتراماً لكشف العارفين):

تجلّى لي المحبوب في كل وجهة ... فشاهدته في كل معنى وصورة

وخاطبني منّي بكشف سرائري ... فقال: أتدري من أنا؟ قلت: منيتي

فأنت مناي بل أنا أنت دائماً ... إذا كنت أنت اليوم عَينْ حقيقتي

وأنظر في مرآة ذاتي شاهداً ... لذاتي بذاتي وهي غاية بغيتي

وما شهدتْ عيني سوى عين ذاتها ... وإن سواها لا يلم بفكرتي

بذاتي تقومُ الذات في كل ذروة ... أُجدِّد فيها حلّة بعد حلّة

فليلى وهند والرباب وزينب ... وعلوى وسلمى بعدها وبثينة

عبارات أسماءٍ بغير حقيقة ... وما لوّحوا بالقصد إلا لصورتي[4]

- ومن المفيد إيراد النص التالي. . .

يقول: أنا موسى عليه السلام في مناجاته، أنا علي رضي الله عنه في حملاته، أنا كل ولي في الأرض خِلْعَته بيدي أُلبس منهم مَنْ شئت، أنا في السماء شاهدتُ ربي، وعلى الكرسي خاطبتُه، أنا بيدي أبواب النار غلقتُها، وبيدي جنة الفردوس فتحتُها، مَن زارني

---

(1) القصد المجرد، ص٣٣.

(2) إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن الحسين بن أبي طالب، مات في مصر عام ٦٧٦هـ.

(3) طبقات الشعراني، ١ / ١٦٧.

(4) طبقات الشعراني، ١ / ١٨٢.

أسكنته جنة الفردوس[1] . . . (ولا تعليق)!

وكتب إلى بعض مريديه، بعد السلام؛ وإنني أحب الولد وباطني خليّ من الحقد والحسد، ولا بباطني شظا، ولا حريق لظى، ولا جوى من مضى، ولا مضض غضا، ولا نكص نصا، ولا سقط نطا، ولا ثطب غطا، ولا عطل حظا، ولا شنب سرى، ولا سلب سبا، ولا عتب فجا، ولا سمداد صدا، ولا بدع رضا، ولا شطف جوا، ولا حتف حرا، ولا خمص خيس، ولا حفص عفص، ولا خفض خنس، ولا حول كنس، ولا عنس كنس، ولا عسعس خدس، ولا جيقل خندس، ولا سطاريس، ولا عيطافيس، ولا هطامرش، ولا سطامريش، ولا شوش أريش، ولا ركش قوش، ولا بسملاد نوس، ولا كتبا سمطلول الروس، ولا بوس عكمسوس، ولا انفداد أفاد، ولا قمداد أنكاد، ولا بهداد ولا شهداد[2] . . . .

وغيرها كثير من هذه الهذيانات التي يسمونها «علماً لدنيًّا».

ويقول: أشهدني الله تعالى ما في العلى وأنا ابن ست سنين، ونظرت في اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمان سنين، وفككت طلّسم السماء وأنا ابن تسع سنين، ورأيت في السبع المثاني معجماً حار فيه الجن والإنس ففهمته وحمدت الله تعالى على معرفته، وحركت ما سكن، وسكّنت ما تحرك بإذن الله تعالى وأنا ابن أربع عشرة سنة[3].

ويقول داود الكبير بن ماخِلاَّ[4]:

كلما جدد العبد المؤمن بالصدق حقيقة الإيمان، اقتضى تجديدُه ذلك فناءَ عوالم الأكوان[5].

ـ الرجاء الانتباه إلى ربطه الإيمان بفناء عوالم الأكوان، «أي وحدة الوجود».

---

(١) طبقات الشعراني، ١ / ١٨١.

(٢) طبقات الشعراني، ١ / ١٦٨.

(٣) طبقات الشعراني، ١ / ١٨٣.

(٤) الشيخ داود الكبير بن ماخلا، شيخ محمد بن وفا الشاذلي، كان شرطياً في بيت الوالي بالإسكندرية في أوائل القرن الثامن الهجري.

(٥) طبقات الشعراني: ١ / ١٩١.

ويقـــول: ما ظهـر متلصِّص كونٍ إلا عنـد غيبـة حارس المعـرفـة، ولـولاهـا ما لاح متلصِّصُ كون أبـداً، وإن شئتَ قلتَ تنـويعاً لمثل التوصيل: ما لاح كوكب كونٍ إلا عند غيبة شمس المعرفة، ومتى طلعت شمس المعرفة مِنْ مشارق التوحيد أَفَلَت كواكب الآثار وغابت نجوم الأغيار[1]. . .

ـ عبارات جديدة نراها في هذا النص: «متلصِّص كون» يعبر بها عن التفرقة، وكأنه يقول: إن الذي يعتقد أن الكون شيء خارج عن الوحدة، إنما هو لص يسرق الكون من الوحدة. وعبارة «حارس المعرفة» التي يعني بها «مقام الجمع». وكذلك بقية العبارات.

ويقول: . . . فلسان اللسان هواء عن هواء، ولسان القلب داع إلى هدى، ولسان الغيب يشير إلى عالم المحق والفناء، وانطوى الفرع الأدنى في الأصل الأعلى[2].

ـ الفـــرع الأدنى هو المخلوق، أو هو الإنســـان، هنـــا، أو هو الســالـك، إذا أردنـا التخصيص؛ والأصل الأعلى هو الحق سبحانه.

ويقول: إنما صد الناس عن العارف المحقِّق، وجود شِرْكهم، لأن العارف يدفع بهم في حضرات الجمع والتفريد، فتفرُّ نفوسهم من حر نار الأنوار إلى ظل ظلال الأغيار[3].

ويقول: لو زال منك «أنا» للاح لك مَن أنا[4].

ـ يعني بكلمة «أنا» الأولى، ما يسمونه في مصطلحهم بالأنية، أي الشعور بالذات كمخلوق، ويعني بـ «أنا» الثانية، ضميراً عائداً على أي متكلم كان (أو على الحق).

وكان يقول:

كلما وجّه العبد قلبه إلى الله تعالى انجمع، وكلما وجّه قلبه إلى الخلق تفرق[5].

كلُّ سببٍ فرَّقك فقد أفناك وأماتك، وكل سببٍ جَمَعك فقد أحياك وأثبتك[5].

---

(1) طبقات الشعراني: ١ / ١٩١.
(2) طبقات الشعراني: ١ / ١٩٢.
(3) طبقات الشعراني: ١ / ١٩٣.
(4) طبقات الشعراني: ١ / ١٤٩.
(5) طبقات الشعراني: ١ / ١٩٦.

ويقول محمد وفا[1] «الشاذلي الغوث» مؤسس الطريقة الوفائية:

قال لي الحق: أيها المخصوص، لك عند كل شيء مقدار، ولا مقدار لك عندي، فإنه لا يسعني غيرك، وليس مثلك شيء، أنت عينُ حقيقتي، وكل شيء مَجازك، وأنا موجود في الحقيقة، معدوم في المجاز، يا عينَ مطلعي، أنت الحد الجامع المانع لمصنوعاتي، إليك يرجع الأمر كله، وإليَّ مرجعك، لأنك منتهى كل شيء، ولا تنتهي إلى شيء، طويتُ لك الأرضين السبع في سبع من الحب والنوى، المتنوعة بالفعل إلى أصناف من نباتٍ شتى، فإذا شئتَ على نشرها، أَوْلجتَ فيها جواهر السماء، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج «إن الذي أحياها لمحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير»[2]. . .

ـ هذا العارف «محمد وفا» يتبع في تصريحه وتبيانه للحقيقة في هذا النص، أسلوب الحلاج والبسطامي وابن عربي وابن الفارض وغيرهم، لكن بشكل معكوس، فالحلاج قال: أنا الله، والبسطامي: أنا أنا، أو سبحاني، وهذا يقول: قال لي الحق، فالحق ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ هو الذي يقول لمحمد وفا: «ليس مثلك شيء، أنت عين حقيقتي، يا عينَ مطلعي، إليك يرجع الأمر كله . . .».

ويقول لسان الدين بن الخطيب:

. . . وإنما وقعت الكثرة بالتفصيل، والأمر في نفسه حقيقة واحدة وما ثم غيرها، الغدير إذا امتلأ عند المطر ملأ جباباً، ثُم لم يكن غير الغدير صباباً[3].

ويقول: . . . وأول مراتب العلم هو عين الذات، المعبرٌ عنه بحقيقة الحقائق الكلية، وسريانُه في كل اعتبار، ففي الإلٰهية إلٰهيًّا، وفي الكونية كونيًّا، والكلُّ مظاهره. . . وهو قسمان: ذاتي وحْداني، يلازمه الغنى، معناه شهود الذات نفسَه من حيث الواحدية التي هي مظهرٌ للأحدية بجميع الاعتبارات والشؤون، معنويّها ومثاليّها وحسّيّها، دنيا

---

(١) محمد وفا، من أكابر العارفين، خاتم الأولياء، صاحب الرتبة العلية، مات سنة ٧٦٥هـ في القاهرة.
(٢) طبقات الشعراني: ٢ / ٢٢.
(٣) روضة التعريف، ص٦١١.

وبرزخاً وآخرة، دفعة واحدة، من حيث الكل في شهود الحق عيناً واحدة[1] . . .

ويقول علي وفا[2] (ابن محمد وفا) وهو غوث أيضاً:

. . . لا يصح لأحد أن يقول في استفتاحه «وما أنا من المشركين» إلا حتى لا يرى غيره، ولا المصلَّى، ولا القبلة، ولا المناجى، فاجعل ربك مشهودك دون غيره[3].

من أعجب الأمور قول الحق تعالى لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿لن تراني﴾، أي مع كونك تراني على الدوام، فافهم[3].

﴿ولذكر الله أكبر﴾، وهو شهود ذاته وحده لا شريك له، لم يكن شيء غيره فافهم[3].

- قوله: «لا يصح لأحد أن يقول: وما أنا من المشركين حتى لا يرى غيره»، هو مثل قول للغزالي أرجو من القارىء أن يتسلى بالبحث عنه.

وكان يقول في قوله: ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾: أي كإحاطة ماء البحر بأمواجه معنى وصورة، فهو حقيقة كل شيء، وهو ذات كل شيء، وكلُّ شيء عينُه وصفتُه، فافهم[3].

وكان يقول في حديث: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني» أي: مهما تصورني به من الصور، كنتُ مُمِدُّه من أفق تلك الصورة بحكمها، فافهم[3].

وكان يقول: ما عبد عابد معبوداً إلا من حيث رأى له وجهاً إلهيًّا[3].

وكان يقول في حديث: «فإذا أحببته كنت سمعه»، وفي رواية: «كنتُه» ليس المراد به معنى الحدوث في نفس الأمر! لأنه كذلك بالذات، وإنما ذلك ليكون الشهود مرتباً على ذلك الشرط الذي هو المحبة، فمن حيث الترتيب الشهودي جاء الحدوث لا من حيث التقرير الوجودي، فافهم[4].

---

(1) روضة التعريف، ص581.

(2) هو وأبوه من سلسلة الخرقة الشاذلية، مات في مصر سنة 801هـ حسب طبقات الشعراني، و807هـ حسب جمهرة الأولياء وشذرات الذهب وغيرها.

(3) طبقات الشعراني: 2 / 23.

(4) طبقات الشعراني: 2 / 24.

ـ قوله: «ما عبد عابد معبوداً إلا من حيث رأى له وجهاً إلهيًّا» يذكرنا بقول الغزالي الذي مر معنا سابقاً وبقول محيي الدين بن عربي..

والحديث: «كنت سمعه» هو من حديث مشهور يستغله الصوفية أبشع استغلال، يحرفون معناه ويعطونه معنى هو في نظر الإسلام كفر.

وكان يقول (وهي عبارات تشير إلى وحدة الوجود يقدمها بين يدي القوم):

ما عبد الله أحدٌ إلا على الغيب، لكن فَتَح لك الشرعُ الذوقي، في الذوق الشرعي المحمدي باباً إلى الجمع، بأن تشهد كل شيء من معبودك، حتى عبوديتك، فتراه هو الذي يُجْري الأحكام عليك، ويُقيمها فيك بقيوميته، فتصير عند شهودك هذا تعبده كأنك تراه، لأنك لو رأيته، رأيته وجودَك القائمَ بجميع صفاتك، وسمّى اللسانُ المحمدي هذا الشهودَ مقامَ الإحسان، وليس بعده إلا مقام الإيقان، وهو العيان[1]، فافهم. (أرجو الانتباه إلى معنى «الإحسان» عندهم).

وكان يقول في معنى حديث: «كنت كنزاً لا أعرف»، يعني: مرتبة التجرد «فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً»، أي: قدّرت أعياناً تقديرية، وتعرفت إليهم ودللتهم على كل منها بكل منها، «فبي عرفوني»، أي: لأني أنا الكل، هذا حقيقة هذا الكلام في التحقيق، وله في الفرقان من معانٍ أُخَر، وكل من عند الله، فافهم[2].

وكان يشير أن يكون صدر كل كتاب هو: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه... أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وهو هو بما هو، سيدي وربي، وهو مولاي وحسبي، ليس إلا هو[3]...

وكان يقول:

... فهو تعالى ذات كل موجود، وكل موجود صفته، وليس لها مبدأ أول إلا هو، إذ ليس بعده إلا العدم، والعدم لا يكون مبدأ، سيما لموجود[4].

---

(1) طبقات الشعراني: ٢ / ٢٧.
(2) طبقات الشعراني: ٢ / ٣٢.
(3) طبقات الشعراني: ٢ / ٤٠.
(4) طبقات الشعراني: ٢ / ٤٥.

● **ملاحظة هامة :**

هذا الكلام ينفي عن الله سبحانه قدرة الإيجاد من العدم! وهو واضح للمتأمل. وقوله : «هو ذات كل موجود» هو مثل قول الآخر : «وما الكلب والخنزير. . . أو اجتمع فيه النجوم مع الورد، وغيرها».

وكان يقول :

من هو بكل شيء محيط، لا يسعه شيء، هذا ومعه شيء! فكيف بمن هو كل شيء؟ ولم يكن شيء غيره، ويكفيك هذا فاصبر نفسك في جدك أو أثبت التجريد[1].

ويقول عبد الكريم الجيلي :

صفات الله فرقان وذات الله قرآن
وفرق الجمع تحقيق وجمع الفرق وجدان[2]

نعرف الآن أنهم يعنون بعبارة «صفات الله، أو أسمائه» أنها هي المخلوقات بجميع أشكالها وأنواعها.

والجيلي هنا، يعني بكلمة «فرقان» أي مقام التفرقة، أو الفرق، وهو كما نعلم «التفريق بين الخالق والمخلوق». ويعني بكلمة «قرآن» مقام الجمع، وهو جمع الخالق والمخلوق في وحدة، هي الله، وحيثما وردت في كلام القوم عن الحقائق فيريدون بها هذا.

ويقول :

عجباً لذاك الحي كيف يَمُمُه قحطُ السنين وأحمدٌ نيسانه
أوجُ التعاظم مركز العز الذي لِرحى العلا مِن حوله دورانه
ملكٌ وفوق الحضرة العليا على الـ عرش المكين مثبَّتٌ إمكانه
ليس الوجودُ بأسره إن حققوا إلا حباباً طفحتْه دِنانه
الكل فيه ومنه كان وعنده تفنى الدهورُ ولم تزل أزمانُه

(1) طبقات الشعراني: ٢ / ٤٢.

(2) الإنسان الكامل: ١ / ١١٣.

فالخلق تحت سما علاه كخردلٍ ... والأمرُ يُبْرِمُه هناك لسانه
والكون أجمعه لديه كخاتمٍ ... في إصبع منه أَجَلُّ أكوانه
والملكُ والملكوت في تياره ... كالقطر بل مِنْ فوق ذاك مكانه
وتطيعه الأفلاك من فوق السما ... واللوحُ يُنفِذ ما قضاه بنانه
هو نقطة التحقيق وهو محيطه ... هو مركز التشريع وهو مكانه[1]

ـ يظهر في هذه الأبيات، وكأن الجيلي يجعل محمداً ﷺ هو الله، ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك؟ بل هي عقيدة يؤمن بها كل الصوفية دون استثناء! ويسمونها «الحقيقة المحمدية» ويقولون: إن محمداً هو المجلى الأعظم للذات الإلهية، وبتعبير أوضح: «هو أعظم جزء في الذات الإلهية، والمسيطر على بقية الأجزاء» سبحانك اللهم.

وظن بعض الباحثين أن «الحقيقة المحمدية» هي عقيدة بعض الصوفية دون بعضهم الآخر، وأخطؤوا، فكلهم يعتقدون نفس العقيدة! وسيأتي بيان ذلك، وهي عندهم جزء من عقيدة وحدة الوجود.

ويقول:

الواحديَّة مظهر للذات ... تبدو مُجمَّعة لفرق صفات
الكل فيها واحد متكثِّرٌ ... فاعجبْ لكثرة واحدٍ بالذات
هذاك فيها عينُ ذا وكمثل ما ... نبَّاك في حُكْم الحقيقة هاتي
فهي العبارة عن حقيقة كثرة ... في وحدة مِن غير ما أشتات
كل بها في حكم كلٌّ واحدٌ ... فالنفي في ذا الوجه كالإثبات
فرقان ذات الله صورة جمعه ... وتعدد الأوصاف كالآيات
فاتلوه واقرأ منك سرَّ كتابه ... أنت المبين وفيك مكنوناتي[2]

ويقول «من العينية»:

خبتني فكانت فيّ عني نيابة ... أجلْ عوضاً بل عينَ ما أنا واقع

---

(1) الإنسان الكامل: ١ / ٧٣.

(2) الإنسان الكامل: ١ / ٤٣.

فكـنـت أنــا هي، وهـي كانت أنــا ومــا | لها في وجــود مفــرد من ينــازع
بقــيــتُ بها فيــهــا ولا تاهَ بيـنـنــا | وحــالي بها ماضٍ كذا ومــضــارع
وشــاهــدتُــني حقّــا بعــين حقــيـقــتي | فلي في جبــين الحسن تلك الطــلائــع
فأوصــافــهــا وصــفــي وذاتــي ذاتهــا | وأخــلاقـهــا لي في الجــمال مطــالــع
واســمــي حقّــا اســمــهــا، واسم ذاتهــا | لي اسم، ولي تلك النعــوت توابــع[1]

ومنها:

فما ثَم من شيء سوى الله في الــورى | ومــا ثَم مســمــوع ومــا ثم سامــع
هو الـعــرش والكــرسيّ والمنظــر العــلي | هو الســدرة الــلاتي إليهــا المراجــع
هو الأصــل حقّــا والــرســوم مع الهــوى | هو الـفــلك الــدوار وهــو الطــبــائــع
هو الــنــور والظــلماء والمــاء والهــوى | هو العنصــر النــاري وهــو الطبــائــع
هو الــشــمس والبــدر المنــير مع السهــا | هو الأفق وهــو النجم وهــو المــواقــع
هو المــركــز الحــكــمي والأرض والســما | هو المظــلم الــعــتــام وهــو الــلوامــع
هو الــدار وهــو الحي «الأثــل والــغضــا | هو النــاس والسكــان وهــو المــرابــع
هو الحكــم والــتأثــير والأمــر والــقــضــا | هو الــعــز والــسلطــان والمتــواضــع
هو الــلفــظ والمــعــنــى وصــورة كل ما | يجول من المــعــقــول أو هو واقــع
هو الجنس وهــو الــنــوع والفصــل إنــه | هو الــواجــب الــذاتيّ والمتــمانــع
هو العَــرَض الطــاري نعم وهــو جوهــرٌ | هو المعــدن الصلديُّ وهــو المــوائــع
هو الحــيــوان الحــي وهــو حيــاتــه | هو الــوحش والإنسي وهو الســواجــع
هو الــقــيس بل ليــلى[2] وهــو بثيــنــة | أجــل نشــرهــا، والخيف وهــو الأجــارع
هو العقــل وهــو النفس والقلب والحشــا | هو الجــسم وهــو الــروح والمتــدافــع
هو المــوجــد الأشيــا وعــين وجــودهــا | وعــين ذوات الــكــل وهــو المــوانــع
حقــائــق ذات في مراتــب حقــه | تســمّى باســم الخــلق والخلق واســع
ونــزّهْــهُ عن حكــم الحــلول فما له | سوى، وإلــى توحيــده الأمــر راجــع
فيــا أحــديَّ الــذات في عين كثــرة | ويــا موجــد الأشيــاء، ذاتُــكَ شائــع

(1) الإنسان الكامل: ١ / ٦١.

(2) ليستقيم الوزن يجب أن تكون: «بل ليلاه».

تجليتَ في الأشياء حين خلقتها ... فها هي ميطت عنك فيها البراقع

قطعتَ الورى من ذات نفسك قطعةً ... ولم يك موصولاً، ولا فصل قاطع

فأنت الورى حقًّا وأنت إمامُنا ... وإنك ما يعلو وما هو واضع

وما الخلق في التمثال إلا كثلجة ... وأنت بها الماء الذي هو نابع

فما الثلج في تحقيقنا غير مائه ... وغيرانِ في حكم دعته الشرائع

ولكن يذوب الثلج يُرْفَع حكْمه ... ويوضعُ حكْمُ الماء والأمر واقع

تجمعت الأضداد في واحد البها ... وفيه تلاشت فهو عنهن ساطع

فكل بهاء في ملاحة صورة ... على كل قدٍّ شابه الغصن يافع

وكل اسوداد في تصافيق طرة ... وكل احمرارٍ في الطلائع صانع

وكل كحيل الطرف يقتل صبّه ... بماضٍ كسيف الهند حالٌ مضارع

وكل اسمرار في القوائم كالقنا ... عليه من الشعر الوسيم شرائع

وكل مليح بالملاحة قد زها ... وكل جميل بالمحاسن بازع

وكل لطيف جل أو دق حسنه ... وكل جليل وهو باللطف صادع

محاسن مَنْ أنشاه ذلك كله ... فوحِّدْ ولا تشرك به فهو واسع

وإياك لا تلفظ بغيرية البها ... فما ثم غيرٌ وهو بالحسن بادع

وأطلق عنان الحق في كل ما ترى ... فتلك تجليات من هو صانع

وشاهده حقًّا فيك منك فإنه ... هويَّتك اللاتي بها أنت دالع

ففي، أينما، حقًّا، تولوا وجوهكم ... فما ثم إلا الله، هل مَنْ يُطالع

ودع عنك أوصافاً بها كنت عارفاً ... لنفسك فيها للإلٰه ودائع

فقد صح في متن الحديث «تخلقوا ... بأخلاقه» ما للحقيقة مانع

وها هو سمعٌ بل لسانٌ أجلْ بدا ... لنا هكذا بالنقل أخْبرَ شارع

فعمَّ قوانا والجوارحَ كونُه ... لساناً وسمعاً ثم رِجْلاً تسارع

ويكفيك ما قد جاء في الخلق أنه ... على صورة الرحمن، آدم واقع[1]

- في الأبيات الأخيرة، نرى كيف يفسرون الآية: ﴿أينما تُوَلوا فثَم وجهُ الله﴾،

---

(١) فتوح الغيب، ص٢٠٣ - ٢٠٧.

والحديث: «تخلّقوا بأخلاق الله»، وهو حديث موضوع، وكيف يفسرون الحديث: «. . . فإذا أحببتُه كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به ويدَه التي يبطِش بها. . .» كما نرى في الأبيات التي قبلها تقرير الشاعر أن كل شيء هو الله، ونرى استعمالهم لعبارة: «دع عنك أوصافاً. . .» أي: دع أوصافك. . .

ويقول: ثم كتب (أي الحق سبحانه) على جناح الطير الأخضر، بقلم مداد الكبريت الأحمر، أما بعد؛ فإن العظمة نار، والعلم ماء، والقوى هواء، والحكمة تراب، عناصر بها يتحقق جوهرُنا الفرد، ولهذا الجوهر عرضان؛ الأول: الأزل، والثاني: الأبد. وله وصفان؛ الوصف الأول: الحق، والوصف الثاني: الخلق، وله نعتان؛ النعت الأول: القِدَم، والنعت الثاني: الحدوث. وله اسمان؛ الاسم الأول: الرب، والاسم الثاني: العبد[1]. . .

ويقول: اعلم أن جميع حقائق الوجود، وحفظها في مراتبها، تسمى الألوهية، وأعني بحقائق الوجود: أحكام المظاهر مع الظاهر فيها، أعني الخلق والحق، فشمول المراتب الإلهية، وجميع المراتب الكونية، وعطاء كل حقه من مرتبة الوجود، هو معنى الألوهية[2]. . .

ويقول: . . . واعلم أن الرب في كل موجود وجهٌ كامل، وذلك الوجه على صورة ذلك الموجود، وروح ذلك الوجود على صورة محسوسة وجسد، وهذا الأمر للرب أمر ذاتي. . . وإلى ذلك الإشارة في قوله: «خلق آدم على صورة الرحمن»، وقوله: «خلق آدم على صورته»، وهذان الحديثان، وإن كانا يقتضيان معاني قد تحدثنا عليها، فإن الكشف أعطانا أنهما على ظاهر اللفظ[3]. . .

ويقول محمد بن سليمان الجزولي[4] «مؤلف دلائل الخيرات»:

. . . اللهم صل على محمد وعلى آله، بَحْرِ أنوارك ومعدن أسرارك. . . وإمام

(١) الإنسان الكامل: ١ / ٢٤.
(٢) الإنسان الكامل: ١ / ٣٧.
(٣) الإنسان الكامل: ٢ / ٦.
(٤) أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن . . . بن سليمان الجزولي السملالي مات سنة ٨٧٠هـ.

حضرتك[1].

... اللهم صل على مَن فاضت من نوره جميع الأنوار[2]...

... اللهم صل على سيدنا محمد... إنسانِ عينِ الوجود، والسببِ في كل موجود، عينِ أعيانِ خلقك[3]...

اللهم صل على سيدنا محمد نور الذات، وسرِّه الساري في جميع الأسماء والصفات، ﷺ[4]...

... اللهم صل على محمد الذي هو قطب الجلالة[5]....

ـ هذه العبارات هي صور عن «الحقيقة المحمدية» واضحة المعنى، ووحدة الوجود واضحة فيها.

ويقول: ... ووفِّقْني لاتباعه.. واجْمعني عليه... وارفع عني العلائق والعوائق والوسائط والحجاب[6]... يا هو، يا من لا هو إلا هو، لا إله إلا هو[7]...

ـ لقد مرت هذه العبارات في الصفحات السابقة وشرحت هناك. إنها كلها تعني «وحدة الوجود».

ويقول زكريا الأنصاري[8] «شيخ الإسلام»:

... قالوا: والفناء على ثلاثة أوجه: فناءٌ في الأفعال: «لا فاعل إلا الله»، وفناء في الصفات: «لا حي ولا عالم ولا قدير ولا مريد ولا سميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة

---

(1) دلائل الخيرات، ص٧٦ و ٩٩.
(2) دلائل الخيرات، ص٩٠.
(3) دلائل الخيرات، ص١٠٠.
(4) دلائل الخيرات، ص٢٣٣.
(5) دلائل الخيرات، ص٢١٤.
(6) دلائل الخيرات، ص١٥.
(7) دلائل الخيرات، ص٢٢٣.
(8) زكريا الأنصاري الخزرجي، مات في مصر سنة ٩٢٦هـ.

إلا الله»، وفناء في الذات: «لا موجود على الإطلاق إلا الله»، وأنشدوا في ذلك:

فيفنى ثم يفنى فكان فناؤه عينَ البقاء[1]

● ملاحظة: قول الأنصاري هذا، هو أوضح ما قالوه في تعريف الفناءات.

ويقول شارحاً:

. . . وسئل الجنيد عن هذا، أعني عن قولهم: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، فأنشد جواباً للسائل:

طوارقُ أنوارٍ تَلُوحُ إذا بدت فتُظْهِر كتماناً وتُخبر عن جمع

أي: المقامات، أولها طوارق تلوح إذا ظهرت، ونهايتها أنها إذا قويت بعد ظهورها، أظهرت الجمع وكمال الحال وكتمان السر، فأول المقام طوارق، ونهايته جمع، وكمال حال، وكتمان سر، فأشار بالأول إلى مقام الأبرار، وبالثاني إلى مقام المقربين[2]!

ويقول عبد الرحمن العيدروس[3] في مقدمة كتابه «لطائف الجود في مسألة وحدة الوجود»[4]:

باسم الله بداية ونهاية، والحمد لله رواية ودراية، وأصلي وأسلم على الأول والآخر والباطن والظاهر وعلى آله وأصحابه الراتعين في بساتين المظاهر.

أما بعد، فهذه لطائف تتعلق بمسألة الوحدة، القائل بها أهل المعارف.

● ما يلاحظ:

قوله: «وأصلي وأسلم على الأول والآخر والباطن والظاهر».

نعلم أن الأول والآخر والباطن والظاهر هي من صفات الله تعالى، لكنه هنا،

---

(١) هامش الرسالة القشيرية، ص٢٨، وهامش حاشية العروسي: ٢ / ٣.

(٢) هامش حاشية العروسي: ٢ / ٣٣.

(٣) عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس، ولد في مدينة «تريم» في حضرموت، تنقل ثم استقر في مصر ومات فيها سنة ١١٩٢هـ.

(٤) كتاب من ١٤ صفحة فقط، والكتابة في أكثر صفحاته لا تتجاوز الصفحة.

جعلها صفات للرسول ﷺ، وهذا هو ما يسمونه «الحقيقة المحمدية» إذ يعتبرون أن محمداً ﷺ هو المجلي الأعظم للذات الإلهية، أي إن أعظم ظهور لله سبحانه هو في شخص محمد ﷺ.

والملاحظة الثانية قوله: «. . . بمسألة الوحدة، القائل بها أهل المعارف»، حيث يبين لنا ماذا يعنون بمصطلح «العارف» كما يبين أن أهل المعارف يدينون بوحدة الوجود. وهو تصريح يشكر عليه.

ويقول في نفس الكتاب «اللطيفة الثالثة»:

قال الشيخ الأكبر ـ نفع الله به ـ في الباب الثامن والأربعين ومائة من «الفتوحات المكية»: الحق خلق، وما الخلق حق!

قال أهل المعرفة ـ نفع الله بهم ـ: وذلك لأن الإطلاق الحقيقي ذاتي للحق، فلا تقيِّده الأكوان بظهور تعيناتها في تجلّيه المنبسط عليها.

والخلق مقيد، والقيد ذاتي له، لأن الخلق عبارة عن تعيّنٍ خاصٍّ في الوجود المنبسط، اقتضته ماهيته الثابتة.

فلو ارتفع القيد لم يكن خلق، فلا يصح أن يقال: الخلق عين الحق، لأن المقيَّد الذي يكون القيد ذاتيًّا له، لا يكون عين المطلق الذي يكون الإطلاق ذاتيًّا له.

بخلاف أن يقال: الحق عين الخلق، فإنه صحيح، لأن المطلق الحقيقي لا تقيده الأكوان، فتجلّيه فيها لا ينافي التنزيه بـ ﴿ليس كمثله شيء﴾.

ـ وهكذا أخضعوا الله ـ جل وعلا ـ وصفاته لعلم الكلام.

ويقول في نفس الكتاب: «اللطيفة السادسة»:

علم وحدة الأفعال، ووحدة الصفات، ووحدة الذات، من غير مباشرة ذلك ذوقاً وكشفاً وشهوداً، ليس لغير الخاصة، وأما الخواص فلهم مباشرة ذلك كشفاً.

. . . وإذا كان السالك في مباشرة «وحدة الأفعال» قَدِرَ على طي الأرض واختراق الهواء والمشي على الماء والإشباع بالقليل مكان الكثير والارتواء بالقليل، ونحو ذلك.

وإذا كان في مباشرة «وحدة الصفات» سمع في تجلّي صفة السمع له جميع الأشياء ناطقة، من جمادٍ ونبات وحيوان، لأنه بالحق يسمع لا بنفسه، وكذلك يبصر في «تجلي صفة البصر له» جميع المُبْصَرات، ولا يحجبه شيء عن شيء، لأنه بالحق يبصر، وكذا جميع بواقيه (أي بواقي الحديث) كما ورد: فبي يبصر وبي يسمع وبي يبطش إلى آخره.

وإن كان في مباشرة «وحدة الذات» كان بحسبها، لأنها تعود الأسماءُ الذاتية عنده كالملوَّنة لون إنائه، فيتصف به (أي بالله) بقبول الألوان كلها؛ فلا يدري العبد من هو لشهود الحق بالحق بلا نسبة شهودٍ له، بل كـ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ و﴿وكفى بالله شهيداً﴾ و﴿والله على كل شيء شهيد﴾، فتتّصل الشاهد بالشاهد في جميع المشاهد والشواهد. اهـ.

- وحدة الأفعال: أي ليس في الوجود إلا فاعل واحد، وكل فعل، كائناً ما كان، فهو فعل الواحد الذي لا فاعل غيره، وقد مر معنا معنى مصطلح «فعل الله» عندهم، يعني حركته.

- وحدة الصفات: لا يوجد إلا حي واحد وسميع واحد وبصير واحد ومتكلم واحد... فجميع الذين يتصفون بالحياة والسمع والبصر والكلام و.... و.... هم واحد، وهو الله.

- وحدة الذات: وهي أن يرى كل الممكنات هي من ذات الحق، ويشرحها عبد الرحمن العيدروس شرحاً أوضح عندما يقول: كـ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾.. أي إن الواصل يشهد أنه هو نفسه الله الذي لا إله إلا هو. ويشهد وحدة ذاته وذات كل شيء مع الذات الإلهية مثل: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾، أي لا شهيد غيره.

ويقول محمد بن عبد الله ابن شيخ العيدروس[1]:

... فانتبه لنفسك أيها الأخ، وتقربْ إلى مولاك بالصدق، تر العجائب فيما بينك

---

(١) محمد بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس، ولد بمدينة «تريم» بحضرموت، وتخرج بوالده في طريق القوم، ورحل إلى الهند شابًا حيث مات ببندرسوت عام ١٠٣١هـ حسب الإيضاح، أو سنة ١٠٠٥هـ حسب أعلام الزركلي.

وبين الوقوف على كنه الأشياء والاطلاع على أسرارها، إلى أن تنطلق من أسر هواك، وتتجرد عن علائق نفسك، فهناك تشرق عليك أنوار القبول، وتلوح عليك آثار الوصول، فإذا كنت كذلك:

بدا لك سرٌّ كان منك اكتتامُه ولاح صباحٌ كنتَ أنت ظلامه
وكنتَ حجابَ القلب عن سرّ غيبه ولولاك لم يطلع عليك ختامه
فمذ غبتَ عنه حلّ فيك وطنّبت على موكب الكشف المصون خيامه
وجاء حديثٌ لا يُمَلُّ سماعه شهيٌّ إلينا نثره ونظامه[1]

ويقول عبد القادر ابن شيخ العيدروس[2]:

السائر إلى الله تعالى تتجلى له في أثناء سلوكه أنوار وتبدو له أسرار، فإن أرادت همته أن تقف عند ما كشف لها من ذلك، لاعتقاده أنه وصل إلى الغاية القصوى، والنهاية من المعرفة، نادته هواتف الحقيقة: «المطلوب أمامك فجدّ في السير»، وإن تبرجت له ظواهر المكوّنات بزينتها، فمال إلى حسنها وجمالها، نادته حقائقها الباطنة: «إنما نحن فتنة فلا تكفر؛ وغض عينيك عن ذلك. وأن إلى ربك المنتهى».

فلا تلتفت في السير غيراً وكلُّ ما سوى الله غيرٌ فاتخذ ذكره حصنا
وكلُّ مقام لا تقم فيه، إنه حجاب فجدّ السير واستنجد العونا
ومهما ترى كلّ المراتب تُجتلى عليك، فحلْ عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب ولا صورة تجلى ولا طرفة تجنى[3]

قال الجنيد: أدركتُ سبعين عارفاً كلهم يعبدون الله على ظن ووهم، حتى أخي أبا يزيد منهم لو أدرك صبيًّا من صبياننا لأسلم على يديه. قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه في قوله: «يعبدون الله على ظن ووهم»، وإنما ذلك أنهم ظنوا أنه من المقامات ما لا يصلح أن يكون فوقه مقام، وليس كذلك، فلو أنهم تحققوا لعلموا أن فوق

---

(١) إيضاح أسرار علوم المقربين، ص٣١، والشعر لابن العريف صاحب الطريقة العريفية.
(٢) قطب العارفين، غوث الواصلين، محيي الدين، عمّ محمد بن عبد الله السابق، لم أقف على تاريخ وفاته.
(٣) الأبيات من قصيدة للششتري.

ذلك المقام مقاماً، إلى ما لا نهاية. قوله «لأسلم على يديه» أي: لانقاد له؛ والإسلام الانقياد، فليكن المريد عالي الهمة والنية حتى لا يكون له التفات إلى غير الله، وتكون النية إلى هذا المقام بإرشاد الشيخ العارف الردّاد:

ولو كان لي ما كان في الكون كله	وكانت لي الأكوان بالأمر ساجدة
لما نظرت عيني إليها وما رأت	إذا لم تكن ذاتي لذاتك واحدة

ولسيدي الحبيب الوالد شيخ ابن عبد الله العيدروس في المعنى:

لا ترتضِ بالاسم دون مُسَمّه	إن كنت يا ندمان صبًّا عاشقاً
واعكف على حب الحبيب وذكره	في جمع جمع الجمع لا تتفرقا
وإذا نأى لك قرنه من دونه	لا ترضها وارحل ولا تتعوقا
فهناك نادتك الحقائق لا تقف	فأمامك المطلوب دُمْ متشوِّقاً[1]

وقال عبد الله بن أبي بكر العيدروس[2]:

... فمن فني عن أفعال نفسه فهو باق بأفعال الله، ومن فني عن صفاته فهو باقٍ بصفات الله تعالى، ومن فني عن ذاته فهو باق بذات الله تعالى، كما قال بعضهم:

وقومٍ تاهوا في أرضٍ بقفر	وقوم تاهوا في ميدان حبه
فأفْنَوا ثم أفْنَوا ثم أفْنَوا	وأبقَوْا بالبقاء بقرب ربه

فالأول، كما قالوا: فناء صفاته لبقاء صفات الحق، ثم فناؤه عن صفات الحق بشهود الحق، ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق، وهو فناء الذات في الذات، وهذه حقيقةُ ﴿قُلِ الله ثم ذرهم... الآية﴾[3].

وقال: «فصل في حقيقة عالم التوحيد المبني على التفريد بعد أداء حق التجريد»:

---

(١) غاية القرب من مجموعة «إيضاح أسرار علوم المقربين»، ص٨٥.

(٢) إمام أئمة الأولياء العارفين، مؤسس الطريقة العيدروسية، من مدينة «تريم» في حضرموت، مات فيها سنة ٨٦٥هـ.

(٣) الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر من مجموعة «إيضاح أسرار علوم المقربين»، ص٧٦

وهـو أن يُفـردك الحق بفـردانيته، عند استيلاء سلطان الذكر، حتى تخرج من قشور الحـروف والصـوت، فتفنىٰ بسطـوة بقيـة وجـودك الـذاكـر، وبقية سلطنة إثباته، فثبوت المـذكـور عن الذكر بدوام الذكر على مقتضى قوله: ﴿اذكروني أذكركم﴾، فيصير حينئذ الـذاكـر مذكـوراً والمـذكـور ذاكـراً، ويستبـدل الأين بالعـين، والمبـاينة بالمعاينة، والأنيَّة بالـوحـدانيـة، وفني عن نفسـه وعن غيره بالكليـة في عين جمع الجمعيـة، فشاهَدَ الذات الحقيقـة الصمـديـة المنـزهة عن الجسمية الكثيفة واللطيفة وتوابعها ولوازمها بالكلية، ولا يرى إلا الـواحـد الحق أولاً وآخـراً وظـاهـراً وبـاطنـاً، ﴿ليس كمثله شيء وهـو السميـع البصير﴾، هذا توحيد خواص الخواص.

. . . فالجـذبـة تبعـده عن أنـانيتـه وتقـربه لهويته، إلى أن تورث الجذبةُ المشاهدة، فالمشاهدة أحضرته معه وغيبته عنه، إلى أن ظهر بالعيان، فالعيان يسحقه والعين تمحقه، ثم يحققـه الحق ويـزهق باطله، فيكـاشف بأنـوار غيب الغيب، فيطـالـع أسـرار الملك والملكوت، ويتيه في تيه العظموت والجبروت، حتى تتجلى له شمس الربوبية عن سماء العبـوديـة، فأشـرقت أرض البشـريـة بنـور ربهـا، ويرقى في المقام إلى تلألؤ نور الألوهية المستفـاد من الله تعـالى: ﴿الله نور السمـاوات والأرض﴾، ثم نفحـة الألطاف الربوبية، وانفتح في عين الشمس باب الهوية، وانغمس فيه المنغمس، ثم لا تسأل:

قد كان ما كان مما لا أفـوه به   فظـن خيراً ولا تسأل عن الخـبر

فاستضـاءت الآفـاق الجسـدانيـة بضـوء الشـريعـة، وظهـرت المشكـاة النفسانية بلوامع الطريقة، وتنورت الزجاجة القلبية بأنوار حقيقة الروحانية، وأشرق الصباح الروحية بنار نور الألـوهيـة، وَبـدت شجـرة الوحدانية، ونوديَ موسى السرّ: ﴿أن يا موسى إني أنا الله رب العـالمين﴾، فانمحت الجهـات، وتلاشت الصور، وانطمس الأبعاض، وانعدمت الأجزاء، وسطعت عزة الوحدانية بتجلّي نور الصمدانية الربانية، فتدكدك جبل الإنسانية الـروحـانيـة صعقـاً، فاحـترقت الغـيرية بنار الغيرة، وارتفعت الشركة وبقيت الوحدة، متعـززاً برداء الكـبريـاء والعـزة، متزراً بإزار العلاء والعظمة، وحده لا شريك له، ﴿كل شيء هالـك إلا وجهـه له الحكم وإليه ترجعون﴾، هذا أوان ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، وهذا وقت ﴿وما ينطق عن الهوى﴾، وهو سرُّ «كنت له سمعاً وبصراً ولساناً، فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق»، ولعمري إن هذا حال من كوشف بأسرار «كنت كنزاً

مخفيًا» فلما كُشف الغطاء، وذهب الجفاء، ودام اللقاء ﴿فما كذب الفؤاد ما رأى﴾، وللقلب ما زوى، فرعىَ في رياض المعرفة. . . إذ تجافى عن المحاط المطلق المحاطِ به غيبُ الغيب المحيطُ المطلق، فتحقق له: ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾.

أبـان الحـق ليس به خفـاء ... وبـاح الســرُّ وانكشف الغطـاء
فنـفـسـي زائـل والـروح نادت ... فلم يبـق الـتـكـبر والـصـفـاء
بقـاء الحـق أفـنـانـا فأفـنـى ... بقـاء فنـائـنـا، ذاك الـبـقـاء
تجلت سطـوة الجـبروت حتـى ... فنـيـنـا ثُمَّ إذ فني الـفـنـاء

هذا مقام المعرفة بمشاهدة الحقيقة[1]. . .

● ملاحظات:

- هناك أخطاء ية، نقلتها على شكلها الصحيح الذي يجب أن تكون عليه أنبه عليها:

- الجملة: «ويستبدل الأين بالعين. . . والأنية بالوحدانية»، وردت في الكتاب: «. . و. . والأينية بالوحدانية»، وهي غلطة مطبعية.
- «المنزهة عن الجسمية الكثيفة واللطيفة»، وردت: «الكشفية واللطيفة. . ».
- «فالجذبة تبعده عن أنانيته وتقربه لهويته»، وردت: «. . . تبعده عن إنابته. . ».
- «فاحترقت الغيرية بنار الغيرة. . »، وردت: «. . بنار الغيرية».
- «متزراً بإزار العلاء. . »، وردت: «. . مترزاً. . ».
- «هذا أوان ما رميت إذ رميتَ. . »، وردت: «هذا وإن ما رميت إذ رميت. . ».
«فلما كشف الغطاء. . »، وردت: «فلما كوشف الغطاء. . ».

ويبرز لنا في هذا النص ما يلي:

أ - دور الجذبة في الصوفية، وأنها هي المطلب.
ب - ما يظهر للسالك أثناء الجذبة، وأن المشاهدة هي في الجذبة.
ج - وحدة الوجود التي يشاهدها في الجذبة.

---

(١) الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر، من مجموعة «إيضاح أسرار علوم المقربين»، ص٧٦ وما بعدها.

د ـ عبارات تشير إلى وحدة الوجود وهي من عباراتهم التي يستعملونها.

هـ ـ كيف يفسرون بعض الآيات والأحاديث.

والرجاء من القارىء أن يتسلى بتحليل عبارات النص التي تشير كلها إلى وحدة الوجود.

ويقول مجدد الألف الثاني أحمد الفاروقي السرهندي[1]:

. . . وإذا قال هؤلاء الصوفية بنفسهم بأن ذات الحق سبحانه وتعالى لا يُحكم عليها بحكم؛ يكون الحكم عليها بالإحاطة والسريان مخالفاً لهذا القول، والحق أن ذاته تعالى ليس كمثله شيء، لا سبيل لحكم من الأحكام إليها أصلاً، بل في ذلك الموطن الحيرةُ الصرفة والجهالة المحضة، فكيف يتطرق السريان والإحاطة إليها؟ ويمكن الاعتذار من جانب الصوفية القائلين بهذه الأحكام بأن مرادهم بالذات هو التعين الأول، فإنهم لما لم يقولوا بزيادة ذلك التعيين على المتعيِّن، قالوا لذلك التعين عين الذات، وذلك التعين الأول المعبر عنه بالواحدية سارٍ في جميع الممكنات[2]. . .

ـ لتسهيل التحليل؛ يعني بالإحاطة قولهم: «الله محيط بكل شيء، أو بالممكنات»، ويشيرون بها إلى وحدة الوجود، وبالسريان قولهم: «الله سار في كل الممكنات، أو الأشياء»، ويعنون بها وحدة الوجود أيضاً. وطبعاً القول بالإحاطة هو حكم، وكذلك القول بالسريان هو حكم أيضاً، لذلك لا يقولون بها، لأن ذات الحق لا يحكم عليها بحكم.

ويعني، ويعنون بكلمة «المتعين» الجزء من الله (جل الله وعلا)، الذي تشكل أو تعين بالمخلوقات، ويقرر المجدد أنهم لم يقولوا بزيادة التعين (أي الخلق) على المتعين. فهو هو. والمتعيِّن الأول هو محمد ﷺ.

وطبعاً، هذا أسلوب جديد يقدمه المجدد لتقرير وحدة الوجود بأسلوب موهم فيه شيء من التعقيد، أرجو من القارىء أن يحلله بهدوء ليزداد تمرساً باللغة الصوفية، وليتأكد أن العقيدة عندهم تلاعب الألفاظ.

---

(١) مؤسس الطريقة المجددية النقشبندية، هندي مات سنة ١٠٣٤هـ.

(٢) المنتخبات من المكتوبات، ص١٠.

ويقول الشيخ عبد الغني النابلسي[1] في شرح رسالة الشيخ أرسلان:

واعلم أن الشرك الجليّ هو أن يَظْهر للعبد أو لغيره منه اعتقاد أن مع الله تعالى ربًّا آخر يستحق العبادة من الخلق، أو مع الله تعالى غيره موصوفاً بصفةٍ مثل صفاته تعالى، أو له فعل كأفعاله تعالى، أو اسم كأسمائه، أو حكم كأحكامه.

والشرك الخفي، هو خفاء شيء، من ذلك على العبد، وهو فيه بسبب استيلاء الغفلة على قلبه، فترى الغافل عن معرفة نفسه جازماً أنه مشارك لله تعالى في الوجود، وفي جميع الصفات التي منها السمع والبصر والعلم والحياة والقدرة والإرادة وغير ذلك؛ وفي جميع الأسماء التي منها الحليم والكريم واللطيف والعليم إلى آخره؛ وفي جميع الأفعال كالإيجاد للعبادات والإعدام للمخالفات ونحو ذلك، وفي جميع الأحكام كالجزم بالحرام والحلال على الأمور الداخلة بانفرادها وتشخصها تحت أحكام القرآن والسنة؛ ومع ذلك هو غافل عما هو فيه، غير منتبه لأمره، قاطع بأنه موجودٌ آخر مع الله تعالى، موصوف بأوصافٍ، مسمى بأسامي، له فعالٌ وأحكامٌ تصدر منه[2]. . . . اهـ.

* تبيين:

قوله: إن الشرك الجلي هو: . . اعتقاد أنه . . مع الله تعالى غيره موصوفاً بصفة مثل صفاته . . . يعني: من صفات الله، مثلاً أنه يسمع ويرى، والإنسان كذلك يسمع ويرى، فمن اعتقد أن الإنسان هو غير الله، فقد جعل لله شريكاً في السمع والرؤية. وهكذا بقية الأسماء والصفات، ومنها الوجود، ويجعل هذا شركاً جليًّا.

ويجعل من الشرك الخفي أن يكون هذا الاعتقاد بسبب الغفلة.

ويجعل من الشرك الخفي مثلاً، أن يظن إنسان، بسبب الغفلة، أنه مشارك لله في الوجود، فمن ظن أن الإنسان هو غير الله، فقد جعل لله شريكاً في الوجود . . وكذلك من اعتقد أن الأوثان التي تعبد هي غير الله فقد جعل لله شريكاً غيره يعبد.

ويقول عبد الغني النابلسي أيضاً شارحاً لقول الشيخ أرسلان: «فكلما أخلصتَ

---

(1) دمشقي، توفي في دمشق سنة ١١٤٣هـ.

(2) شروح رسالة الشيخ أرسلان، ص٧٥ و ٧٦.

يُكشف لك أنه هو لا أنت. . .»:

«فكلما أخلصتَ»، أي: في خروجك عنك بأن خرجت عن هذا الخروج أيضاً. . . «يُكْشَف لك» ـ بالبناء للمفعول ـ أي يَكشِف الله تعالى لك، بأن يَظهر فيك وتجده في نفسك المعدومة، وهذا الانكشاف ليس كانكشاف الأشياء المغطاة. . . قال أحد العارفين:

توهمتُ قدماً أن ليلى[1] تبرقعت ... وأن حجاباً دونها يمنع اللثما
فلاحت فما أن ثَمَّ والله حاجب ... سوى أن طرفي كان من حسنها أعمى

أي هو كشف، لكنه ليس كما يكشف الغطاء عن الآنية، أو الستر عن الباب، بل هو أمر إذا ظهر يرى العبد أن ذلك لم يكن مستتراً بشيء، وإنما الإدراك كان ضعيفاً عن الوصول إليه، فقواه الحق، فأدرك ما كان ظاهراً: «أنه. . . هو»، أي: الله سبحانه وتعالى الموجود وحده فقط، بالوجود القديم الخاص به «لا أنت»، أي: لا وجود لك بالكلية، بل أنت عدمٌ محض حينئذ، وإن كنتَ عند ذلك على ما كنت عليه قبل ذلك، من غير تغيير، إلا أن بصيرتك قويت فأدركت ما لم تكن تدرك من قبل[2]. .

ويقول أيضاً:

قد بالغ في الظهور والكتمان ... حتى حارت به أولو العرفان
والسرُّ على التحقيق كالإعلان ... قد أودعه في هذه الأكوان[3]

ويقول عبد الغني النابلسي أيضاً:

أنا كل الوجود والكائنات ... أنا كل الأرواح كلُّ الذوات
أنا كل العقول بل كل شيء ... في جميع الأزمان والأوقات
ليس كل الوجود إلا أسامي ... والمسمّى بكل ذلك ذاتي
والْتباسي عليك حيث لباسي ... كل شيء يلقيك في الآفات[4]

---

(١) يشير بكلمة «ليلى» إلى الحق سبحانه عما يصفون. (٣) شروح رسالة الشيخ أرسلان، ص١٠٧.
(٢) شروح رسالة الشيخ أرسلان، ص٨٠ و٨١. (٤) شروح رسالة الشيخ أرسلان، ص١٧٥ و١٧٦.

ـ وسيتسلى القارىء بتحليل هذه النصوص، وهي واضحة تماماً.

ويقول الشيخ أحمد الدردير[1] في صلواته:

. . . وزج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها[2]. . .

ـ هذه الفقرة هي جزء من الصلاة المشيشية، والشيخ الدردير يتبناها، ويضعها في أول صلواته، التي هي من الأوراد الخلوتية، إذن فيمكن اعتبارها، وكأنها له.

ويقول «حرف التاء»:

. . . وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وأنْعم علينا بتجلّي الأسماء والصفات، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وأغرقنا في عين بحر الوحدة السارية في جميع الموجودات، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وأبْقنا بك لابثاً في جميع اللحظات. . . وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وأذقنا لذة تجلّي الذات، وأدِمْها علينا ما دامت الأرض والسماوات[2].

ويقول في منظومة أسماء الله الحسنى:

وهب لي أيا رباه كشفاً مقدساً	لأدري به سرّ البقاء مع الفنا
وجُدْ لي بجمع الجمع فضلاً ومنة	وداوِ بوصل الوصل روحي من الضنا
ومُنَّ علينا يا ودود بجذبةٍ	بها نلحق الأقوام مَن كان قبلنا[3]

يشرح الشيخ أحمد الصاوي هذا الكلام، فيقول:

لما كان جمع الجمع ووصل الوصل أعلى من الفناء والبقاء، ترقّى إليهما بقوله: «وجُد لي. . إلخ»، واعلم أن لهم مقاماً يقال له: «الفناء»، ومقاماً يقال له: «البقاء» و«الجمع

(1) أبو البركات أحمد بن محمد بن أحمد العدوي المالكي الشاذلي الخلوتي الملقب بالدردير مات في القاهرة سنة ١٢٠١هـ.

(2) كتاب الأوراد الخلوتية «الصلوات الدرديرية».

(3) الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية، ص١٢٥ وما بعدها.

والفرق»، ومقاماً يقال له: «جمع الجمع»، ومقاماً يقال له: «الفرق الثاني»، ومقاماً يقال له: «الوصل»، ومقاماً يقال له: «وصل الوصل».

فأما المقام الأول الذي هو الفناء، فهو استغراق العبد في الله، حتى لا يشهد شيئاً سوى ذات الله، ويقال لصاحبه: «غريق في بحار الأحدية».

وأما المقام الثاني، وهو «البقاء»، فهو الرجوع بعد الفناء إلى ثبوت الآثار، بشهود ذاتِ وصفاتِ المؤثِّر فيها، ويقال لصاحبه: «غريق في عين بحر الوحدة»، فمُشاهد الأحدية مُشاهد للذات دون الأسماء والصفات وآثارها، وهو «الفاني»، ومُشاهد الوحدة مشاهد للذات متصفةً بالأسماء والصفات، مثبتاً للآثار، جامعاً بين الحق والخلق، وهذا هو الكمال بعينه، فلذلك قالوا: «لا بد لكل فناء من بقاء، ومقام «البقاء» هذا، هو المسمى بـ «الجمع والفرق»، فجمعه شهوده لربه، وفرقه شهوده لصنعه، وأما «جمع الجمع» فهو مقام أعلى من «البقاء» وهو أن يأخذه الحق بعد بقائه، فيسكره في شهود ذاته تعالى، فيصير مستهلَكاً بالكلية عما سوى الله تعالى، فمنهم من يبقى بهذه السكرة إلى الموت، كالسيد البدوي رضي الله عنه، ولذلك قال العارفون: «إنه جُذب جذبة استغرقته إلى الأبد»، ومنهم من يُرَد إلى الصحو عند أوقات الفرائض والقيام بأمور الخلق، كالسيد الدسوقي وأضرابه والمؤلف (أي الشيخ الدردير) رضي الله عنهم، فيكون رجوعاً لله بالله لا للعبد بالعبد، وهذا الرجوع يسمى «الفرق الثاني»؛ وأما «الوصل» فهو تلذذ القلب بشهود الحق بعد زوال الحجب الظلمانية والنورانية، فإن دام له الشهود يقال له: «وصل الوصل»، أي الوصل الكامل، كقولهم: «سر السر وعين العين» مبالغة في كمال الشيء[1]...

ويقول الشيخ الدردير:

... فإذا أدركَتْه العناية الإلهية واستند إلى شيخه بالكلية ولازم المجاهدة حتى تمكن من الصفات المحمودة، وانقطع عنه عِرْق الرياء، وصارت نفسه ذليلة، واستوى عنده المدح والذم، ودخلت (أي نفسه) في مقام الفناء، ورضيت بكل ما يقع في الكون من غير اعتراض أصلاً، سُمِّيت راضية...

---

(١) الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية، ص١٢٥ وما بعدها.

ولكن رؤ يـة الفنـاء والإخـلاص ربـما أوقـع في شيء من الإعجـاب فيرجـع به القهقرى، فليستعذ بالله من ذلك، مع مداومة الذكر والالتجاء إلى الله، وملاحظة أنه لا يتم له الخلاص إلا بمـدد الشيـخ، فإذا فني عن الفنـاء، خلص من رؤ يـة الإخلاص، وتجلّى عليـه الـرضـا، وعفـا عن كل ما مضى، وتبـدلت سيئاتها (أي النفس) حسنات، وانفتح لها أبواب الأذواق والتجليات، فصارت غريقة في بحار التوحيد . . . ولذا سُميت «مـرضيـة» . . . إلا أن صاحب الهمـة العليـة لا يرضى بالـوقوف عند هذه المقامات وإن كانت سنية، بل يسير من الفناء إلى البقاء، ويطلب «وصل الوصل» بتمام اللقاء، فتناديه حقـائق الأكـوان، ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾، ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾، فإذا سار إلى منـازل الأبطـال وخلف الدنيا وراء ظهره، ناداه بأحسن مقال: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[1] . . . اهـ.

● **الملاحظات:**

نلاحـظ في هذا النص ما يلي: ـ الـدور الأسـاسي للشيـخ في السير وفي الوصول. ـ الأوصـاف التي يطلقـونهـا على الجـذبـة ومـا بعـدهـا (الصفات المحمودة، انقطاع عرق الـريـاء . . .). ـ دور مداومـة الذكر. ـ عبارة «صارت غريقة في بحار التوحيد» التي تشير إلى الاستشعـار الـدائم لوحدة الوجود، أو للألوهية. ـ عدم الوقوف عند هذه المقامات، أي الغرق في التوحيد الذي هو مقام الفناء، بل يسير منه إلى البقاء بمداومة الذكر ومدد الشيـخ. ـ يشـير إلى وجـوب هذا الانتقال بالعبارة «فتناديه حقائق الأكوان إنما نحن فتنة فلا تكفر».

ونعـرف الآن أن العقيـدة الصـوفيـة هي أن الأكـوان ليست شيئاً غير الله سبحـانه وتعالى، إذن فحقائقها هي أنها تعينات إلٰهية، أو هي الله جل وعلا، التي تناديه: ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾، والنداء هنا مجازي طبعاً، ويجعل الشيخ الفتنة مشيرة إلى استشعار الألوهية حيث يبهت الواصل ويقول: «أنا الله، سبحاني . . . إلخ»، فيحكمون عليه بالكفر.

---

(١) حاشية العلامة الصاوي «شرح الخريدة»، ص١٣٤.

والجديد في هذا النص هو فهمهم للآية: ﴿ارجعي إلى ربك... فادخلي في عبادي..﴾، أوردَها مشيراً بها إلى مقام «البقاء» الذي يستشعر فيه العارف أنه الله (جل الله وعلا)، ويشاهد بنفس الوقت العبودية؛ وجملة: ﴿فادخلي في عبادي﴾ يجعلونها مشيرة إلى رؤية العبودية (أو الفرق)، والجمع مع الفرق هو مقام البقاء.

ـ ويقول ابن عجيبة[1] شارحاً قول ابن عطاء الله السكندري: «الحق ليس بمحجوب عنك، إنما أنت المحجوب عن النظر إليه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو قاهر له، وهو القاهر فوق عباده»، يقول:

... قلت: الحق تعالى محال في حقه الحجاب.. فلا يحجبه شيء، لأنه ظهر بكل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، فلا ظاهر معه، ولا موجود في الحقيقة سواه، فهو ليس بمحجوب عنك، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه، لاعتقادك الغيرية، وتعلُّق قلبك بالأمور الحسية، فلو تعلَّق قلبك بطلب المولى، وأعرضْتَ بالكلية عن رؤية السوى، لنظرت إلى نور الحق ساطعاً في مظاهر الأكوان، وصار ما كان محجوباً عنك بالوهم في حقّ الشهود والعيان، ولله در القائل:

لقد تجلّى ما كان مخبّى ... والكون كله طويت طي
مني عليّ دارت كؤوسي ... مِنْ بعد موتي تراني حي

فالناس كلهم يشاهدون ولا يعرفون، وكلهم في البحر ولا يشعرون، وسمعتُ شيخنا رضي الله عنه يقول: والله ما حجب الناس عن الله إلا الوهم، والوهم أمر عدميٌّ لا حقيقة له[2].

ويقول ابن عجيبة أيضاً:

... واعلم أن هذه الأوصاف البشرية التي احتجَبَتْ بها الحضرة، إنما جعلها الله منديلاً لمسح أقذار القدر (كالنفس والشيطان والدنيا)، فجعل الله النفس والشيطان

---

(١) أحمد بن عجيبة الدوريس الشاذلي الفاسي، توفي سنة ١٢٢٤هـ.

(٢) إيقاظ الهمم، ص٦٤ و٦٥.

منـديـلاً للأفعـال المـذمـومة، وجعل البشرية منديلاً للأخلاق الدنيئة، وما ثم إلا مظاهر الحق وتجليات الحق، وما ثم سواه[1].

ويقول: . . . فإذا تكامل إشراق نور الإيقان، وغطى وجود الأكوان، ووقع العيان على فقد الأعيان، ولم يبق إلا نور الملك الديان، كما أشار (أي ابن عطاء الله) إلى ذلك بقوله: «ما حجبك عن الله وجود موجود معه، إذ لا شيء معه، ولكن حجبك عنه توهُّمُ موجود معه».

قلت: الحق تعـالى ظاهـر، ونوره للبصائر باهر، وإنما حَجَبَه مقتضى اسمه الحكيم واسمه القاهر؛ فما حَجَبك عن شهود الحق وجود شيء معه: ﴿أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾، ولكن حجبك عن شهوده توهُّمُ وجود موجود معه، ولا شيء معه، وكما كان ولا شيء، بقي ولا شيء[2]. . .

- أرجو أن ينتبه القارىء إلى كيفية تفسيرهم للآية: ﴿أإله مع الله . .﴾.

ويقول: واعلم أن سرّ الخصوصية الذي جعله الله في بواطن أوليائه، وسَتَره بظهور وصف بشريتهم، قد يُظهره عليهم على وجه خرق العادة، فقد يُظهر على وليه من قدرته وعلمه وسائر كمالاته ما تحار فيه العقول وتذهل فيه الأذهان، لكن لا يدوم ذلك لهم، بل يكون على سبيل الكرامات وخرق العادات، يُشرق عليهم شموسُ أوصافه، فيتصفون بصفاته، ثم يقبض ذلك عنهم فيردهم إلى حدودهم، فنور الخصوصية، وهي المعرفة، ثابت لا يزول، ساكن لا يحول؛ وسـرُّهـا، وهـو كمالاتـه تعـالى، تارة يشـرق على أفق بشـريتهم فيستنـير بأوصـاف الـربوبية، وتارة ينقبض عنهم فيُردون إلى حدودهم وشهود عبوديتهم، فالمعرفة ثابتة، والواردات مختلفة، والله تعالى أعلم[3].

ويقـول: . . . وقـال سيـدي علي رضي الله عنـه، على قول الشيـخ أبي الحسن الشاذلي في شأن الخلق: «أراهم كالهباء في الهواء، إن فتشتهم لم تجدهم شيئاً»، قال: « إن فتشتهم وجـدتهم شيئـاً، وذلـك الشيء ليس كمثله شيء» يعني: وجدتهم مظاهر من

---

(١) إيقاظ الهمم، ص٦٦.
(٢) إيقاظ الهمم، ص١٩٩.
(٣) إيقاظ الهمم، ص١٥٧.

مظاهر الحق، أنواراً من أنوار الملكوت فائضة من بحر الجبروت[1].

- نرى في هذا النص أن عبارات عارفيهم ليست دائماً موافقة لما يريدون، فقد يخطئون ويُخَطَّؤون.

ويقول ابن عجيبة أيضاً:

. . . والتحقيق ما قدمناه من أن التعلُّق بأوصاف الربوبية يكون في الباطن، والتحقُّق بأوصاف العبودية يكون في الظاهر، فالحرية في الباطن على الدوام، والعبودية في الظاهر على الدوام، فحرية الباطن هي شهود أوصاف الربوبية، وهو معنى «التعلق بها»، لكن إن كان مجاهدةً فهو «تعلُّق»، وإن كان طبيعة وغريزة فهو «تحقُّق».

. . . والحاصل أن عظمة الربوبية ظهرت في مظاهر العبودية، فمن نظر للعظمة صرفاً تحقق بعظمة الربوبية، ومن نظر بظاهر المظهر تحقق بأوصاف العبودية، والكامل ينظر لهما معاً، فيتحقق بعظمة الربوبية في الباطن، ويتحقق بأوصاف العبودية في الظاهر، فيُعطي كل ذي حق حقه. فالتجمع في باطنه مشهود، والفرق في ظاهره موجود[2]. . .

ويقول: . . . اعلم رحمك الله ووفقك للتسليم لأوليائه، أن الحرية إذا تحققت في الباطن، لا بد من رشحات تظهر على الظاهر، فكل إناء بالذي فيه يرشح. . . ولذلك نجد أهل الباطن رضي الله عنهم، جلُّهم أقوياء في الظاهر، فربما تصدر منهم مقالات تستخرجها القدرة منهم، فيظن الجاهل بحالهم أن ذلك دعوى وظهور! وليس كذلك. وإنما ذلك رشحات من قوة الباطن لا قدرة لهم على إمساكها، منها ما يكون تحدثاً بالنعم، ومنها ما يكون نصحاً للعباد ليعرفوا حالهم فينتفعوا بهم في طريق الإرشاد؛ ومنْ هذا الأمر رفَضَهم كثيرٌ من أهل الظاهر المتعمقون في العبادة أو المتجمدون على ظاهر الشريعة[3]. . .

- يوضح ابن عجيبة في هذا النص سبب تصريح العارفين بمعارفهم، وطبعاً، صار القارىء الآن يعرف معنى عبارة «الحرية»، فهي ضد العبودية، وتحققها في الباطن يعني

(1) إيقاظ الهمم، ص١٦٦.
(2) إيقاظ الهمم، ص١٨٤.
(3) إيقاظ الهمم، ص١٨٦.

استشعار السالك أنه ليس عبداً بل هو الله.

ويقول: . . . وقال في «لطائف المنن»: وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال. . . ومِنْ ها هنا تبين لك أن الحجاب ليس أمراً وجوديًّا بينك وبين الله تعالى، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه! ولا شيء أقرب من الله، فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب[1]. . .

ويقول «معلقاً على قول ابن البنا السرقسطي»:

حتى إذا جاء بطور القلب خوطب إذ ذاك بكل خَطْب
فقيل لو عرفْتَني بكوني قيل إذن فاخلع نعال الكون

يقول: إذا وصل النور، مِنْ ناحية المذكور، إلى جبل الطور، وهو قلبك المستور، بحجاب هيبة المذكور، رَفَع عنه الستور، وخاطبه حينئذ بكل أمر جليل، وسرّ جليل، فلا تعلم نفس ما خُصِّص به من المسارة، والمصافاة، والمكالمة، والمناجاة، فيناديه لسان الملكوت مترجماً عن عالم الجبروت: يا أيها العبد الشائق إلى حضرتي، لتعاين سرَّ قدرتي هلا عرفتني بكوني، وقنعت بذلك مني؟ فيقول العبد المشتاق إلى حضرة التلاق: لا أريد إلا وجهك الكريم، ومشاهدة سرّك العظيم، فيقول له الحق جل جلاله: إن أردت هذا الخطب الجسيم، والأمر العظيم، فاخلع عنك نعال الكونين، وتخطَّ بقدم همتك نعيم الدارين، فإذا خلعتَ عنك الحظوط والهوى، فأنت بالوادي المقدس طوى[2].

ويقول: . . . فأوصاف الربوبية رفيعة القدر عظيمة الشان، وأصاف العبودية خسيسة القدر دنيئة المقدار، فلا مناسبة بينها في القدر، مع تلازمها في المحل بتحقيق الوحدة، فهما متلازمان في القيام، متضادان في الأحكام[3]. . .

ـ هذا القول مثل قولهم: «واتحد فيه النجوم مع الورد»، وقولهم: «وفي الخنازير مع القرود». . وغيرها. .

ويقول: إذا حققت أن الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوَّةٌ بأحدية ذاته، علمت علم يقين

(١) إيقاظ الهمم، ص٢٠١.
(٢) الفتوحات الإلهية، ص٣٤٢.
(٣) إيقاظ الهمم، ص٤١٩.

أن الأكوان والمكان والزمان لا وجود لها، وأن الحق كما كان وجودُه وحدَه ولا أين ولا مكان، بقي كذلك، لا أين ولا مكان ولا زمان، نورُ أحديته محى وجود الأكوان، فانتفى بوجوده الزمان والمكان، ولم يبق إلا الواحد المنان[1]. . .

ويقول: . . . ثم قال «أي ابن البنا السرقسطي»:

أو قال بالظهور والحلول فبدعةٌ يقدحُ في الأصول

قلت: (القائل ابن عجيبة): مراده بالظهور: ظهور الذات العالية لبصر الحس، حتى تدرك بالبصر الحسي، وقد قال تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾، وإنما تدركه البصيرة، فإذا انفتحت وقوي نورها، استولت على البصر، فصار الحكم لها، فالبصر لا يرى إلا الحس، والبصيرة لا ترى إلا المعنى؛ وقد يتلطف الحس فيصير كأنه معنى، فيكون ما تراه البصيرة في حق العيان، وهو محل الشهود، إذ الحس لا يفارق المعنى، وأما الحلول، فمعناه: إثبات «السوى» وحلول الألوهية فيه، وهو كفر صراح، فمن ادعى شيئاً من الظهور والحلول فارفضه، فقد أتى ببدعة تقدح في أصول إيمانه والعياذ بالله من الزلل. ثم قال (أي السرقسطي):

وقوله أنا الذي أهواه قبل الفنا عنه فما أقصاه

إذا قال الفقير: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا»، قبل تحقق فنائه، فما أبعده عن الصواب، وإذا تحقق فناؤه، فلا يقول ذلك إلا مع من يُصدّقه في حاله، وإلا تعرض لقتله[2]. . .

● **تعليق:**

يعني بالظهور: الرؤية بالعين المجردة «الحاسة البصرية» وقد مر معنا معنى «الحلول» عندهم، وقد يُعبرّون، في عصرنا هذا، عن الحلول بقولهم: «التلبُّس»، وقد سمعت من يقول: «إن الولي يتلبسه الله، وفي هذه الحالة، عندما يتكلم الولي، فالمتكلم حقيقة هو الله . . .»، وطبعاً قائل هذا القول هو إنسان جاهل بالصوفية،

---

(١) إيقاظ الهمم، ص٢٩٧.

(٢) الفتوحات الإلهية، ص٤٥٥ و ٤٥٦.

فالحلول عندهم كفر، وكذلك الاتحاد! لأن هذا وذاك لا يكون إلا بين اثنين، ولا يوجد إلا واحد.

والتعليقات كثيرة، أتركها للقارىء.

ويقول ولي الله الدهلوي[1]:

والفناء إما شفاهي، وإما حجابي، أما الشفاهي فانصباغٌ بحقيقة الذات، لا تجلياته، انصباغاً قويًّا تامًّا، ويختصُّ برجل شديد، فسَوْرة مزاجه لا تنقهر إلا بتكرار التجليات، قويّ جذبِه لا يغادر حالاً ولا شيئاً إلا غلبه وقهره، ولا يدعه حتى يبلغ الدرجة القصوى.

. . . وذلك لأنه ربما لم يتحقق الفناء الشفاهي، وحينئذ تَظهر النفس في صورة الربوبية، فيعسر زواله، ويُعقب خلافُه خزياً شديداً في الحياة الدنيا[2]. اهـ.

- قوله: «فسورة مزاجه»، أي: «فسورة مزاج الفناء». . .

- وقوله: «. . . فيعسر زواله»، أي: يعسر زوال ظهور صورة الربوبية، فيبقى الولي يقول عن نفسه: «أنا الحق. . .».

- وقوله: «ويعقب خلافه خزياً شديداً. . .»، نعلم ما هو هذا الخزي؟ إنه التكفير. . . والقتل.

ويقول: وأما الخاص، فكل فناء في حضرة الذات، كان مع الصورة المزاجية. . . وأصل مذهبهم أن يتجشموا عملاً نيرنجيًّا، وذلك العمل أن يتلطفوا من أنفسهم، فينقدح لهم سرٌّ عظيم الشأن، على درجاته.

فأول ما ينقدح استناد الأفعال إلى الله سبحانَه، فهناك يتوكل على الله ولا يخاف إلا إياه، وهذا ظَهْرُ السرِّ في الدرجة الأولى، وأما بطنها، فأن يرى الله سبحانه في عين كل

---

(١) أبو الفياض ولي الله أحمد بن أبي الفيض عبد الرحيم الدهلوي (نسبة إلى دهلي) شيخ محدثي الهند في القرون الأخيرة، توفي سنة ١١٧٦هـ.

(٢) الخير الكثير، ص١٠٦.

فعـل على أن الفعـل من أستاره وتقيداته. ووجه أوليتها أن الأفعال على شرف العدم في نفس الأمر، وإنما الموطن العلمي من تمثلات هذا الموطن، وهذه هي «المحاضرة» عندهم.

وثانياً: ينقدح لهم استناد الصفات بأجمعها إليه، فيرى أن كل بصر فهو من بصره، وكل سمع فهو من سمعه، إلى غير ذلك؛ ولعلك حرور باقتناص بطنها ووجه ثانويتها، فهذه هي «المكاشفة».

وثـالثـاً: ينقـدح استناد الذوات، فيرى أن كل ذات فهو من ذاته، فإذا انتقل إلى بطنهـا، وهـو أن الـواجبَ جلَّ مجدُه سَنْخُ كل موجـود، وأن كل موجود مُفاضٌ منه إفاضة مقدسة، ثم السير إلى الله، وهذه هي «المشاهدة»، ثم إن جذبات الله تعالى تجاذبه حيناً فحينــاً حتى ترتفــع الحجب والتقيــدات ولا يبقى إلا ذو الجـلال والإكـرام في وحـدتـه وكـبر يـائـه، ويـكـون المـدرَكُ عينَ المـدرِك، فلا يعلم بالعلم الحضـوري إلا الله سبحانه[1]. . . اهـ.

ـ مر هذا النص في معناه أكثر من مرة في الصفحات السابقة، ملخصه أن السالك في سيره إلى المعرفة، أي إلى معرفة وحدة الوجود، يمر في ثلاث مراحل:

أولاً: معـرفـة وحـدة الأفعال حيث يشاهد الواصل ذوقاً واستشعاراً أن كل الحركات التي تجري في الكون هي حركات الواحد وأفعاله، وهذه هي المحاضرة.

ثانياً: معرفة «وحدة الصفات» حيث يشاهد الواصل أن الصفات جميعها التي يراها المحجوبون صفات لمخلوقات، مثل: سميع، بصير، طويل، عريض، أحمر، أخضر، شجـاع، جبـان.. هي صفـات للواجب جل مجده (حسب تعبـير الـدهلوي) تظهـر في تعيناته التي يظنها المحجوبون غيره، وهذه هي «المكاشفة».

ثالثاً: وحدة الذات، أو وحدة الوجود، وهذه هي «المشاهدة»، وفي واقع الأمر، إن الأصل هو وحدة الوجود، وما وحدة الأفعال ووحدة الصفات إلا نتائج لها.

ويجب أن نعـرف أن هذا الـترتيب قد يحصـل لواصل وقد لا يحصـل، وهو تابع، إلى حد ما، لتوجيهات الشيخ وإيحاءاته.

---

(١) الخير الكثير، ص١٠٤ و ١٠٥.

ويقول ولي الله الدهلوي أيضاً:

ولا يهولنّك صدور الكائنات المدنسة من سَنْخ القدوسية على سبيل الظهور والتمثل، فإنه لكل متدنس قدُّوسية هي أقرب من حبل وريده، وهو أبعد منها بما هو هو كبعد المشرقين[1]. . . اهـ.

- هذه المقولة هي مثل مقولة ابن سبعين: «واتحد فيه النجم مع الورد»، ومثل مقولة الشستري: «وفي الخنازير مع القرود»، ومقولة ابن عجيبة: «متلازمان في المقام متضادان في الأحكام»، ومثل قول قائلهم: «وما الكلب والخنزير إلا إلهنا»، وغيرها من الأقوال المماثلة التي مرت والتي ستمر.

ويقول أيضاً مقرراً:

قال الشيخ صدر الدين القونوي[2]: الحق سبحانه من حيث وحدةُ وجوده، لم يصدر عنه إلا الواحد، لاستحالة إظهار الواحد وإيجاده - من حيث كونه واحداً - غيرَ الواحد؛ وذلك الواحد عندنا هو الوجود العام المفاض على أعيان المكوَّنات ما وُجد منها وما لم يوجد مما سبق العلم بوجوده؛ وهذا الوجود مشترَك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود، المسمى بالعقل الأول أيضاً، وبين سائر الموجودات، ليس كما يذكره أهل النظر من الفلاسفة، فإنه ليس ثمة عند المحققين إلا الحق، والعالَم ليس بشيء زائد على معلومه لله تعالى أولاً، المتصفة بالوجود ثانياً[3]. . . اهـ.

● **الملاحظات:**

نلاحظ في هذا النص ما يلي:

١ - وضوح عقيدة وحدة الوجود.

٢ - إيهان قطبين كبيرين بها «القونوي صاحب النص، والدهلوي الذي أورده مقرًّا بها

---

(١) الخير الكثير، ص٢١.

(٢) صدر الدين محمد بن إسحاق القونوي تلميذ ابن عربي وابن زوجته، له مكاتبات مع نصير الدين الطوسي وزير هولاكو، مات في قونية سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م.

(٣) الخير الكثير، ص٣٧.

فيه».

٣ - العقيدة الإسماعيلية التي هي أصلاً من اليونانيات: «الصدور والفيض والعقل الأول..».

٤ - محاولتهم التوفيق بين الإسلام واليونانيات عندما جعلوا العقل الأول (وهو من اليونانيات) هو القلم الوارد في الحديث الشريف.

٥ - يخالفون أصحاب اليونانيات (أهل النظر من الفلاسفة) الذين يقولون: إن العقل الأول انفصل عن الحق سبحانه وصار كأنه غيره رغم أنه صدر عنه بالفيض، بينما يقرر المحققون (أي الصوفية) أنه ليس ثمة إلا الحق، حيث لا وصل ولا فصل ولا غيره. وللعلم: القلم الأعلى الذي هو أول موجود، المسمى بالعقل الأول، هو محمد ﷺ عندهم.

ويقول الدهلوي أيضاً مقرراً:

قال مولانا عبد الرحمن الجامي[1] بعدما فصّل القول في تسويغ كون الوجود العام المنبسط على هياكل الموجودات عينَ الواجب جَلَّ مجده بهذه الألفاظ: الصوفيون القائلون بوحدة الوجود، لما ظهر عندهم أن حقيقة الواجب هو الوجود المطلق، لم يحتاجوا إلى إقامة الدليل على توحّده ونفي الشريك عنه (أي الشريك في الوجود)، فإنه لا يمكن أن يُتوهم فيه اثنينية وتعدّد من غير أن يُعتبر فيه تعين وتقيد[2]. . . اهـ.

- في هذا النص يظهر إيمان الجامي والدهلوي بوحدة الوجود، وكلاهما من الأقطاب.

ويقول أحمد زيني الدحلان[3]:

. . . قال أهل المعرفة إن تجلّي الحق سبحانه وتعالى على الدوام، ولا يمنع من ظهور

---

(١) نور الدين، عبد الرحمن بن أحمد الجامي، ولد في جام من بلاد ما وراء النهر، وتوفي في هراة سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م.

(٢) الخير الكثير، ص٣٨.

(٣) شيخ مشايخ الإسلام ورئيس العلماء الأعلام، شيخ الفريقين وإمام الطريقين أحمد بن زيني الدحلان، ولد في مكة وتوفي في المدينة سنة ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م.

أنـوار التجـلي إلا الاشتغـال بالسّـوى والإقبال على الغير، فلذلك يأمر الأشياخ المريدين بذكر لا إله إلا الله، لأنها مكنسة الأغيار، فإذا ذهب السوى ظفر بالمولى، فالحق سبحانه وتعالى ليس بغائب، إنما الغائب أنت لاشتغالك بسـواه، فأحضرْ قلبك تكن كأنك تراه، وهذا هو مقام الإحسان، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وههنا نكتة ذوقية في قوله ﷺ: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فَهِمها بعض العارفين حيث قال: «تكن» تامة بمعنى توجد، أي فإن لم توجد، بأن فنيت فيه، فإنك تراه، أي إذا تحققت بمقـام الفنـاء، نلت مقـام الشهـود، وهو الرؤية القلبية التي تصير في الآخرة بصـريـة؛ ولا يُشْكـل على ذلك أن مقتضى هذا المعنى أن يكون «تراه» جواب الشرط، ومقتضى قواعد العربية حذفُ الألف من «تراه» لأنه مجزوم جواباً للشرط. لأنّا نقول: إن بعض العرب يبقي مثل هذه الألف في الفعل المجزوم، فلا مانع أن يخرج ذلك على تلك اللغة لإفادة هذا المعنى اللطيف؛ ويكون قوله: «فإنه يراك» كلاماً مستأنفاً.

والحاصل أن الأصل في ذلك كله التحلي بالتوحيد، ومعرفة أن الأشياء كلها صادرة منـه سبحـانـه وتعالى، ومستمدة من فضله. فلو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبداً.

ولكن إذا أراد أن يوصلك إليـه غطّى وصفَـك بوصفه، ونَعْتَك بنعته، وأوصلك إليه بما مِنْه إليك، لا بما مِنْك إليه، عناية بك[1]... اهـ.

- نحن في هذا النص، أمام أسلوب جديد ومبتكر في تفسير الحديث، ولا حاجة بنا للتعليق، لأنـه من البـدهي أن الـذي يحرف كلم رسول الله ﷺ من بعد مواضعه، يكون منحدراً في منزلق سحيق.

وقد أصبحت - الآن - العبارات: «الأشياء كلها صادرة منه ومستمدة من فضله»، و «فنـاء مسـاويـك ومحو دعاويك»، مفهومة تماماً لدينا، فالعبارتان الأوليان تعنيان الوحدة، والثانيتان تعنيان: «الفناء عن الأغيار» أي عدم شهود الخلق، فلا خلق موجود.

ويقـول: ... فالسـالـك سائر عن عالم الطبيعـة إلى عالم الملكوت، ومنه إلى عالم

---

(١) تقريب الأصول لتسهيل الوصول، ص٢١٦ و٢١٧.

الجبروت، ومنه إلى عالم حضرة اللاهوت، حضرة تمحى فيها العبارة والإشارة، وتذهب الأسماء والرسوم، ولا يبقى هناك مشهود إلا الحي القيوم، فإذا ظهرت شمس المعرفة ذهبت نجوم التفرقة، فلا يشهد المنتهي إلا مولاه، ولا يظهر له فعل ولا وصف ولا وجود إلا لله، فمن عرف الله شهده في كل شيء، فلا يتوحش من شيء ويستأنس به كل شيء، ويستأنس هو من كل شيء، ويشهد معنى قوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ عياناً، ويفهم معنى قوله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، وتشرق على قلبه لمعة من قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾، ويتجلّى له: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾، ويرتفع عنه اشتباه معنى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾، وينطق بالحق، لأن الحق يكون حينئذ سَمْعَه وبصره ولسانه، كما في الحديث القُدسي: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به».

والحاصل أن العارف يصل إلى حالة يفنى فيها عن أفعاله وأوصافه وذاته، فلا يشهد إلا فعل مولاه وأوصافه وذاته، وهذا يسمى جمعاً، ومع ذلك لا يحجبه هذا عن فَرْقه. فالعارف لا يحجبه جَمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه، ولا صحوه عن سكره، ولا سكره عن صحوه.. ويوضح لك شَمَّة من ذلك قولُه تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، فنفى عنه الرمي أولاً بقوله: ﴿وما رميت﴾، وهو عين الجمع، وأثبته ثانياً بقوله: ﴿إذ رميت﴾، وهو عين الفرق، ثم قال: ﴿ولكن الله رمى﴾، أي إن الرمي منسوب إلى الله[1].

ويقول مصطفى العروسي[2] «شيخ مشايخ الإسلام»:

الحمد لله الذي عيّن الأعيان بفيض نوره الأقدس، وقدَّرها بعلمه في ذاته على وجه الحكمة الأنفس... فسبحانه من إله قد تجلّى بذاته لذاته، فأبدع آدم وأودعه مظاهر أسمائه المنعوتة (بالعالَم)، وأجمل فيه جميع الحقائق وأَلْهم، فجعله مظهر اسمه الجامع لما تأخر وتقدم، وجعل له من نعوت التلوين ما قد يكون بغير التمكين مزلّةً للقدم، ومنحه

---

(١) تقريب الأصول لتسهيل الوصول، ص٢٦٦.

(٢) شيخ الجامع الأزهر حتى سنة ١٨٧٠م، مات سنة ١٨٧٦ الموافق لـ ١٢٩٣هـ.

سر العليم الأعلم، فهــو العـالم[1] والعلم والمعلِّم والحـاكم والمحكـوم عليـه والحكم[2]، والمسمى بالأسماء الحسنى، ومرآة درج الكمال الأسنى . . . كيف لا وهو الإنسان الكامل والطلسم المعمى على سائـر الأواخـر والأوائـل . . . مَنْ قيـل فيـه لولاك ما خلقت الأفلاك . . . سيدنا ورسولنا أبو القاسم، جمع الجوامع، وسر الأسرار، مَـنْ كان مِن نوره سائـر الأنـوار، فهـو الاسم الأعظم، النـاطق بلسان: «أنا سيد ولد آدم»، أول التعينات الإلٰهيـة، وآخـر الدلالات الإرشادية المبعوث إلى كافة الأرواح والأجسام، من المجردات والمركبات، من أول التعيين إلى آخر الختام[3]. اهـ.

- الجديد في هذا النص هو قوله: «المبعوث إلى كافة الأرواح والأجسام من المجردات والمركبـات»!! وهـذا الكـلام يعني أن محمـداً ﷺ مبعـوث إلى القـرود والـذئاب والهرة والفئران والكلاب والخنازير!! كما أنه مبعوث رسولاً إلى المزابل والحجارة والتراب، وإلى الهيـدروجـين والأكسجين والآزوت والحديد والنحاس. . ! لكن ما هي رسالته لهؤلاء؟! الكشف أعلم!! لأن الكشف يعلم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويعلم ما لم يعلمه رسل الله ولا كتبه - والمشتكى إلى الله -.

- كما نرى العبـارة: «أول التعينـات الإلٰهيـة وآخر الدلالات الإشارية»، التي تعني: «أول تشكّل صدر عن ذات الله وخاتم الرسل»، وقد عرف «المقربون الصديقون الأولياء العارفون» هذا الأمر من حديث موضوع، وضعه أحد الكذابين الضالين المضلين، ولكن كشفهم صحح هذا الحديث، وإذا قال الكشف فصدقوه! فإن القول ما قاله الكشف!!

ويقـول: . . . وهـذه الحضـرة «أي حضـرة الـذات الأحدية، أو حضرة العماء، أو الحضـرة الـواحـديـة»، تتعـين بالتعـين الأول، لأنهـا محل الكثرة، ومظهر ظهور الحقائق والنسب الأسـمائيـة، وكل ما تعين فهو مخلوق، فهي العقل الأول. . . القائل بهذا القول يسمّي هذه الحضـرة بحضـرة الإمكـان، وحضرة الجمع بين أحكام الوجوب والإمكان، والحقيقـة الإنسـانية، وكل ذلك من قبيل المخلوقات، ويعترف بأن الحق في هذه الحضرة

---

(١) وردت في الكتاب «فهو العلم والقلم والمعلِّم» وهي غلطة مطبعية كما هو واضح.

(٢) وردت في الكتاب «المحكم»، وهي غلطة مطبعية كما هو واضح.

(٣) حاشية العروسي، ص٢.

متجلٍّ بصفات الخلق. . . ويوضح قولنا: «يُشار بالألف إلى الحضرة الأحدية» أن الحقيقة إن أُخذت بشرط أن لا يكون معها شيء، فهي المسماة بالمرتبة الأحدية المستهلكة فيها جميع الأسماء والصفات، وتسمى أيضاً «جمع الجمع»، و«حقيقة الحقائق»، و «العماء»، وإن أُخذت بشرط شيء: فإما أن تؤخذ بشرط جميع الأشياء اللازمة لها، كلّياتها وجزئياتها المسماة بالأسماء والصفات، فهي المرتبة الإلٰهية المسماة عندهم «بالواحدية»، و«مقام الجمع»، وهذه المرتبة باعتبار الإيصال لظاهر الأسماء التي هي للأعيان والحقائق، إلى كمالاتها المناسبة لاستعداداتها في الخارج، تسمى مرتبة «الربوبية»، وإن أُخذت لا بشرط شيء، ولا بشرط لا شيء، فهي المسمّاة بـ «الهوية السارية في جميع الموجودات»، وإن أُخذتْ بشرط ثبوت الصُّوَر العلمية فيها، فهي مرتبة «الاسم الباطن المطلق، والأول، والعليم، ورب الأعيان الثابتة»، وإن أُخذت بشرط كليات الأشياء فقط، فهي مرتبة الاسم: «الرحمن، ورب العقل الأول المسمى بلوح القضاء، وأم الكتاب، والقلم الأعلى»، وإن أُخذت بشرط أن الكليات فيها جزئيات مفصلة ثابتة من غير احتجابها عن كلياتها فهي مرتبة الاسم «الرحيم، رب النفس الكلية المسماة بلوح القدر، وهو اللوح المحفوظ، والكتاب المبين»، وإن أُخذت بشرط أن تكون الصور المفصّلة جزئية متغيرة، فهي مرتبة الاسم «الماحي والمثبت والمحيي، رب النفس المنطبعة في الجسم الكلي، المسمى بلوح المحو والإثبات». . . ومرتبة الإنسان الكامل عبارة عن جميع المراتب الإلٰهية والكونية، من العقول والنفوس الكلية والحسية، ومراتب الطبيعة إلى تنزلات الوجود، وتسمى بالمرتبة العمائية أيضاً، فهي مضاهية للمرتبة الإلٰهية، ولا فرق بينهما إلا بالـ ربوبية والمربوبية، فلذلك صار خليفة الله سبحانه وتعالى[1]. . . اهـ.

● الملاحظات:

نلاحظ في هذا النص الطويل «وقد حذفت منه كثيراً» ما يلي:

١ ـ يُظهر أن الأسماء الحسنى هي مظاهر الكون، ويضيف إلى الأسماء الحسنى، أسماء

---

(١) نتائج الأفكار القدسية، «حاشية العروسي»، ص٥.

ابتدعها القوم على أنها من أسماء الله، مثل: «الهوية السارية..».

٢ - يوفق بين الفلسفة اليونانية «الأفلاطونية الحديثة» التي تبناها الإسماعيلية، وبين العقيدة الإسلامية، وفي هذا دليل على أن في الصوفية نُسُغاً يونانيًا.

٣ - يبين عقيدة القوم بالإنسان الكامل، وأفكار غيرها يراها القارىء.

ويقول: ... وظلُّ الإله هو الإنسان الكامل المتحقق بالحضرة الواحدية، والعالَم الذي هو علامة على وجود موجده «الظل الثاني»، إذ ليس إلا الوجود الحق الظاهر بصور الممكنات كلها، فلظهوره بتعيناتها سُمِّيَ باسم السوى والغير، وذلك باعتبار إضافته إلى الممكنات، إذ لا وجود للمكنات إلا بمجرد هذه النسبة، وإلا فالوجود عين الحق، فالممكنات ثابتة على عدميتها... فالعالَم صورة الحق، والحق هوية العالَم وروحه[1]..

ويقول: ... وإن جميع الموجودات مستمدة من وجوده، فهو هي وهي هو، على معنى: «لا هو إلا هو، كان الله ولا شيء معه، ويبقى الله ولا شيء معه»، وإنما الكائنات تعينات له مخصوصة في أزمنة مخصوصة محكوم عليها بأحكام مخصوصة، ثم إليه يرجع الأمر كما بدا، الحِكَمُ عَليَّة، وأسرار إلهية علمها من علمها وجهلها من جهلها بتدبيره تعالى وتقديره، لا يسأل عما يفعل فافهم، ولا تك أسير النقل والتقليد[2]...

ويقول الشيخ عبد الرزاق القاشاني[3]:

... أي كل خلق تراه العين فهو عين الحق.. ولكن خيال المحجوب سماه خلقاً لكونه مستوراً بصورة خلقية، محتجباً بها، وإن كان متجلياً لم يعرفه[4]...

---

(١) نتائج الأفكار القدسية: ١ / ٨.

(٢) نتائج الأفكار القدسية: ٢ / ٢٠.

(٣) الأستاذ الفاضل والعالم الكامل الشيخ عبد الرزاق القاشاني، توفي بعد سنة ٧٣٠هـ، وكان محله أن يرد في مكان سابق حسب تاريخ وفاته، لكني أوردته هنا لأنني لم أعثر على ترجمة له، ولم أعرف تاريخ وفاته، وظننت أنه من أحياء القرن الثالث عشر هجري، فأوردته هنا، ثم عثرت على كتاب آخر له هو «رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال»، وقد ذكر المحقق في مقدمته أنه توفي بعد سنة ٧٣٠هـ، وهو شيعي (حسب الصوفية بين الأمس واليوم ص١٣٦)، وكتبه مقدسة عند جميع المتصوفة السنة والشيعة.

(٤) شرح فصوص الحكم للقاشاني، ص١٥٢.

● الملاحظة :

نلاحظ مخالفة للقاشاني، فهو هنا يشرح «فصوص الحكم» لابن عربي، وابن عربي يقول: «الحق خلق وما الخلق حق»، وقد شرحها العيدروس فيما مر قبل صفحات، بقوله بعد شرح: «. . . فلا يصح أن يقال: الخلق عين الحق. . . بخلاف أن يقال: الحق عين الخلق، فإنه صحيح. . . ». بينما نرى القاشاني يقول: «كل خلق، فهو عين الحق»، وهو اختلاف في أسلوب التعبير فقط.

ويقول: . . . فمن عرف علم الطريق، وأنه ليس إلا الحق، إذ لا شيء غيره عليه، عرف أن أسفل سافلين لا يخلو عن الحق، فعلم أن الجهنميين في القرب وإن توهموا البعد[1]. . .

ويقول: . . . وإن تعلقت مشيئته بإرادة الرزق لنا من لدنه، فهو المراد أن يكون لنا رزقاً، من حيث إنه الوجود الحق، فيوجدنا كما يشاء، ويختفي فينا، ويُظهرنا كالغذاء بالنسبة إلى المغتذي؛ فإنا نقوش وهيئات وشؤون وتعينات لا وجود لنا ولا تحقق، فهو المتعيّن بنا، ومظهرنا، وغذاؤنا بالوجود، كما نحن غذاؤه بالأحكام[2]. . .

ويقول أحمد الصاوي المالكي الخلوتي[3] في شرح الصلوات الدرديرية :

«بتجلي الأسماء والصفات» أي: بظهور أسمائك العظيمة وصفاتك الكريمة بحيث لا نشهد حادثاً من الحوادث، ولا كوناً من الأكوان، إلا بشهود الأسماء والصفات قبله، لكون الأكوان آثارها، وهو معنى قولهم: «العارف يرى الله في كل شيء»، وقول بعض العارفين:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ومعنى قول سيدي عبد الغني النابلسي :

كل شيء عقد جوهر حلية الحسن المهيب

---

(1) شرح الفصوص للقاشاني، ص١٥٦ .
(2) شرح الفصوص للقاشاني، ص٢٨٨ .
(3) من شيوخ الطريقة الخلوتية عاش في مصر وأخذ عن الدردير، مات في سنة ١٢٤١ في مصر.

ومعنى حديث: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها . . الحديث». أي كنت مسموعه عند سمعه الحوادث، مبصوره عنده إبصاره الحوادث، وحوله وقوته عند بطشه ومشيه، أي يشهدُني كذلك، لأنها آثاري وهي ظاهرة بي على حد قول بعض العارفين:

اللهَ قل وذر الوجود وما حوى	إن كنت مرتاداً بلوغَ كمال
فالكل دون الله إن حققته	عدمٌ على التفصيل والإجمال
من لا وجود لذاته من ذاته	فوجوده لولاه عين محال

وهذا المقام هو المسمى بوحدة الوجود، ولا يدركه الشخص إلا بعد الفناء في الأحدية الذي قال فيه ابن بشيش: «وزج بي في بحار الأحدية»، ووحدة الوجود هذه يسمى صاحبها في مقام «البقاء» ويسمى «غرقان في بحر الوحدة» التي هي شهود المولى من حيث قيام الأسماء والصفات به[1]. . . .

ويقول الشيخ حسن رضوان[2]، من منظومته «روض القلوب المستطاب»:

وتنجلي الرقائق المطويّة	في لفظةٍ والحكمة المنوية
لا سيما ما كان في العقائد	فإنه من أعظم المقاصد
وحسبه من ذلك المقصود	إشراق نور وحدة الوجود
وكل ما سواه نجمٌ آفل	بل في شهود العارفين باطل
فليس إلا الله والمظاهر	لجملة الأسماء وهو الظاهر
فمن صفت مرآته تحققا	بها من الأسما عليه أشرقا
وشاهد المَشَاهد المصونة	وأدرك المواهب المكنونة[3]

ـ قوله: «وكل ما سواه نجم آفل بل في شهود العارفين باطل» هي شهادة واضحة

---

(١) الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية، ص٦٠.

(٢) الشيخ حسن رضوان من كبار القوم، مصري توفي عام ١٣١٠هـ، ومنظومته هذه كما يقول زكي مبارك، تقرب من اثني عشر ألف بيت، وربما كانت أعظم منظومة في قواعد التصوف.

(٣) من كتاب التصوف الإسلامي لزكي مبارك: ١ / ٢٦٠.

وجـريثـة من «عـارف» أن العقيـدة الإسـلامية باطلة في شهود «العارفين»، لأنها لا تؤمن بوحـدة الـوجـود، ولأن القـرآن الكريم يحكم على القائلين بوحدة الوجود بالكفر المبين، ﴿وجعلوا له من عبادة جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾.

ـ وقـولـه: «فليس إلا الله والمظـاهر»، يذكرنا بالذكر: «ليس إلا الله» الذي استعمله جماعة منهم بدلاً من «لا إله إلا الله» كما مر آنفاً.

ويقول أيضاً:

إذا مَنَّ الحق تعالى على عبد من عباده، وصافاه بصفاء نفسه من كدورة التعلق بما سواه، وطهّـره من جنـابـات غفلته ورعونات شهوته، حتى أفناه به فيه حَقَّ اليقين، وبلغ بذلـك مرتبـة «جمع الجمع»، ولحقت نفسُه بعالَمها العلوي الأصلي، قامت به حينئذ رقيقةٌ لطيفة ذاتية خفِّية، مفاضَة من جانبَ الحق تعالى بفيض رحمانيته، ينكشف له به سريان الـوجـود الحق في جميـع ذرات الممكنات، وسرُّ تجليات الأسماء والصفات، وظهوره في كل مظهـر بحسب استعـداده، كشفاً إيمانيًّا، وذوقاً روحانيًّا؛ فيرى الحق في الخلق، والخلق بالحق؛ وهذا هو مشهد كمّل العارفين المحققين[1]. اهـ.

ـ قبـل الانتقـال إلى غيره، لا بأس من إيـراد شهادة تزكية للشيخ حسن رضوان من لفَـةٍ كبرى في الجـامـع الأزهـر، يقول زكي مبارك: «وقد حدثني الأستاذ الشيخ مصطفى عبـد الـرازق (وكـان شيـخ الجـامع الأزهر الأكبر)، أن البلد الذي أقام فيه الشيخ حسن رضوان، كثر فيه العلماء والمدرسون، فهو من الهداة الصالحين»[2].

ويقول الشيخ محمد مهدي الرواس «قطب الغوث»:

. . . قلنـا لَزِم الشكـر والاعتبـار، وطـرحُ الدنيا عن الأفكار، والاشتغالُ بالمؤثر عن الآثار، إذ ما في الدار غيره ديار[3].

ويقـول: وبـويعت في الحضـرة، على دوام الحضـور بالانفـراد الطُّـوري من حيث مشهد القلب إلى الله تعالى، منقلباً عن مشاهدة الأكوان، ومنسلخاً عنها انسلاخ مقيم

---

(١) التصوف الإسلامي لزكي مبارك: ١ / ٢٦٥.
(٢) التصوف الإسلامي لزكي مبارك: ١ / ٢٦٠.
(٣) فصل الخطاب: ص٢٢٤.

مع مراقبته، محترزاً من انتقاد مراقبه، فإن الناقد بصير، والأمر المقصود خطير، وإلى الله تصير الأمور[1].

- إن العبارة عند محمد المهدي الصيادي تذكرنا بالعبارة عند عبد القادر الجيلاني، فهي في القمة من حيث الأسلوب الإشاري الرمزي، وهذا النص الأخير واضح بالنسبة للمتمرس بالأساليب الصوفية، أما حديث العهد بها فيرى نفسه أمام كلام غير مفهوم.

ويقول: . . . وطَرْحُ هياكل الأكوان، هو عبارة عن التحقق بالتوحيد الخالص، والعلم بأن الخلق والأمر لله سبحانه، ألا له الخلق والأمر[2]. . . اهـ.

● الملاحظة:

التوحيد في الإسلام لا يحتاج إلى طرح هياكل الكون لا كثيراً ولا قليلاً، ولا جملة ولا تفصيلاً. أما عند الصوفية، فطرحها هو الأساس، لأن هياكل الكون لا حقيقة لها باعتبارها هياكل، لأن حقيقتها هي الحق.

ويقول: المادة الثانية والتسعون من المائة الثانية: طَرحُ هياكل الأكوان تحققاً بالتوحيد، مع حفظ الآثار، وإرجاع التأثير الذي يصدر عن الكل إلى الله تعالى[3].

- يعبر في هذا النص عن مقام «الفرق الثاني»، وأترك تحليله للقارىء.

ويقول:

آمنت بالله الوجود كله	سواه يفنى وهو باق لم يزل[4]
فطَهِّر القلب لقدسه وكن	ممتثلاً كتابه كما نزل

ويقول:

ولدى الأمرين حقًّا	ليس إلا الله فاعل
ثق به واترك سواه	واربطَنْ فيه الوسائل
وخذ الهادي إماماً	فهو برهان الدلائل

---

(١) فصل الخطاب: ص٥٤.

(٢) فصل الخطاب: ص٦٢.

(٣) المجموعة النادرة، ص٢٢٥.

(٤) المجموعة النادرة، ص٢٩١.

واتبـع الـقـوم فـمنهـم كل مقبـول وواصـل
عَرَفـوا الله وحـقًّـا ما خلا الله فبـاطـل[1]

ويقول:

وغـب عن جميـع الحـادثـات لربهـا ولا تتـخـذ فيهـا سوى شغله شغـلاً
وإن وهبـوك العـرش والفـرش والفضـا برمـشـة عين ضمـن حُجـبٍ فقـل لا
وسـر سيرتـي واسـلك بنهـج طريـقـي إلـى الله لا تشـهـد لدى غيره فعـلاً
وجـرّدْكَ من كل الـوجـودات واضطجـع على حُصُـر التسليم يا من سما عقـلاً

ـ يشير بهذه الأبيات إلى «وحدة الأفعال».

ولا تر للمـخـلوق حولاً وقـوة فلا قوة للخـلق طرًّا ولا حولاً
وخـذ حلْوَ أمـر الله في الـدين مشـربـاً فلن ترى من مجلى مشـاربـه أحـلى

ـ البيتان يشيران إلى «وحدة الصفات»:

ومَـن قاد للأغـيـارِ فاهـجـر سبـيـله ورافـقْ محب الله إن قل أو جلا[2]

ـ هذا البيت الأخير يشير إلى «وحدة الذات».

ـ في البيتين: «وإن وهبوك العرش. . .»، و«وخذ حلو أمر الله. . .»، في الشطر الثاني من كل منهما خلل في الوزن.

ويقول «من صلوات له»:

اللهم اجمعنا بك عليك، واردنا منك إليك، وأرشدنا في حضرة جمع الجمع، حيث لا فرقة ولا منع، إنك أنت المانح الفاتح، تمنح ما شئت من مواهب ربانيتك لمن شئت[3].

ويقول «من نفس الصلوات»:

اللهم صل على المتخلّق بصفاتـك، المستغـرق في مشـاهدة ذاتك، رسول الحق،

---

(1) المجموعة النادرة، ص٣٠٣.
(2) المجموعة النادرة، ص٢٨٩ و ٢٩٠.
(3) بوارق الحقائق، ص٣٢٨.

المتخلق بالحق، حقيقة مدد الحق ﴿أحق هو قل إي وربي إنه لحق﴾، اللهم إنا قد عجزنا من حيث إحاطة عقولنا، وغاية أفهامنا، ومنتهى إرادتنا، وسوابق هممنا، أن نصلي عليه من حيث هو، وكيف نقدر على ذلك، وقد جعلت كلامك خلقه، وأسماءك مظهره، ومنشأ كونك منه[1]. . . اهـ.

- نحن الآن نعرف كثيراً من مصطلحات القوم، ومنها «المشاهدة» وقد مرت قبل صفحات، إذن، فالعبارة: «المستغرق في مشاهدة ذاتك» واضحة المعنى، أترك للقارىء البحث عنها وتحليلها.

وما يجب أن نلاحظه بشكل متميز، هو إدراجه للجملة: ﴿أحق هو قل إي وربي إنه لحق﴾، التي توهم الساذج أنه يعني بها المعنى المعروف في كتب التفسير، أي إن كلمة «حق» تعني الصدق، لكن بشيء من التروي «لمن تمرس بأسلوب القوم»، يرى أنه يستعمل كلمة «حق» على أنها اسم من أسماء الله الحسنى، فهو يقول: «أمحمد هو الله قل إي وربي إنه الله». ثم لننتبه إلى قوله: «وأسماءك مظهره»، وإلى قوله: «ومنشأ كونك منه»، وكل هذا داخل فيما يسمونه «الحقيقة المحمدية» التي هي جزء من عقيدة «وحدة الوجود».

أما قوله: «ومنشأ كونك منه»، فهو أكثر وضوحاً من قول البوصيري في البردة:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ويقول «من نفس الصلوات»:

اللهم بك توسلت. . . أن تصلي عليه صلاة أبدية ديمومية قيومية إلهية ربانية، تُصَفِّينا بها من شوائب الطبيعة الآدمية، بالسَّحق والمحق، وتطمس بها آثار وجودنا الغيرية عنا في غيب غيب الهوية، فيبقى الكل للحق في الحق بالحق، وترقينا بها في معاريج شهود وجود ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[2].

- السحق: ذهاب تركيبك تحت القهر (ابن عربي في «اصطلاح الصوفية»)، ويفسره الدكتور عبد المنعم الحفني: «هو الاضمحلال، أي ذهول العبد تجاه قهر الحق».

---

(1) بوارق الحقائق، ص٣٢٦.

(2) بوارق الحقائق، ص٣٤٠.

ـ المحق: فناء وجود العبد في حضرة الحق، أو فناء وجود العبد في ذات الحق، أو فناؤك في عينه.

ـ وسياق الكلام يُظْهِر المعنى الذي يشيرون إليه من الآية: ﴿حتى يتبينَّ لهم أنَّه الحق﴾، فهو يعني أن محمداً هو الحق، بجعل الهاء من «أنه» عائدة على محمد ﷺ، وجعل «الحق» من أسماء الله الحسنى.

ـ وهذا الكلام يدور ـ كما هو واضح ـ حول الحقيقة المحمدية، وبالتالي وحدة الوجود.

ويقول:

قد حاول الجمعَ أقوامٌ فأرجعهم	موتى وهم بظَنين الظنّ أحياء
فالعارفون بباب الفَرْق موقفهم	والأنبياء، العرانين الأجلاء
قال اتحاداً أناس والحلولَ حكوا	والكل صدْمتُهم في الدين دهماء
لو حلّ فيهم على فرض المحال لما	منهم تحلل بالتحويل أجزاء[1]

ـ يقول في البيت الأول: إن أقواماً حاولوا الوصول إلى مقام الجمع، ولكنهم فشلوا ورجعوا خائبين موتى ويظنون أنفسهم أحياء، وطبعاً يقول هذا الكلام ليقارنهم مع نفسه والمقام الذي وصل إليه.

ـ وفي البيت الثاني يقول: إن العارفين، وهم الذين وصلوا إلى مقام الفرق الثاني «أو صحو الجمع..»، وكذلك الأنبياء، يقفون بباب الفرق، بمعنى أنهم يظهرون للناس العبودية لله، ويكتمون سر «الجمع».

ـ يهمنا من هذه الأبيات، البيتان الأخيران، لأنه ينفي بهما الاتحاد والحلول، ونعرف أن الاتحاد لا يكون إلا بين اثنين يتحدان ببعضهما. وكذلك الحلول يحتاج إلى اثنين يحل أحدهما في الآخر.

ويقول في نفس القصيدة:

وقائل الحق لم تُقلَب حقيقته	وإن ترنَّم بالتبديل ورقاء

---

(١) بوارق الحقائق، ص١١٠.

سرٌّ تكاتمه أهل القلوب فخذ منه الرموز وما للسر إفشاء

الفرق بين نياط الجمع متسق والجمع يَشْهَدُه لطفٌ وإنطاء

يُسِفُّه الحق سفًّا ثم يرجعه فرقاً وفي الأمر تجريد وإكساء[1]

- في الواقع، ليس هنا مكان هذه الأبيات، والتي قبلها، فمكان هذه في فصل سابق، ومكان التي قبلها في ما يلحق، وقد أوردتها هنا من أجل القارىء الذي يريد الرجوع إلى كتب الرواس - مَن نحن في حضرته الآن - فإنه سيجد في كتبه كلاماً يوهم لأول وهلة بـ «الفرق»، وقد يوهم بـ «الحلول» أو بـ «الاتحاد»، وكل ذلك هو من الأسلوب الإلغازي، أو «العبارة» ومن التقية.

ولتوضيح ذلك، لا بأس من نظرة سريعة على الأبيات الأخيرة.

في البيت الأول: «وقائل الحق لم تقلب حقيقته...»، يقول: إن الذي يقول الحق، أو «العارف» لا يتغير، ولا تُقلب حقيقته، أوحقيقة أنه عارف، إذا ترنّم بالتبديل، أي إذا بدل القول، وقال بعكس الحقيقة.. فإنه يبقى على حقيقته.

- وفي البيت الثاني يشرح سبب ذلك، فيقول: إنه السر الذي يتكاتمه أهل القلوب - وهم طبعاً الصوفية - ويطلب من المخاطَب الذي يعنيه هو، يطلب منه أن يأخذ من الكلام الرموز، لأنه لا يفشي السر.

- وفي البيت الثالث: «الفرق بين نياط الجمع..»، يقول: إنه يذكر في كلامه «الفرق» الذي هو التفريق بن الخالق والمخلوق، أو «العبودية»، متسقاً مع الجمع، أي إنه يذكر الجمع ثم الفرق ثم الجمع ثم الفرق، وهكذا... وأن الجمع يَشْهَدُه اللطف في البحث والتمعن به.

- والبيت الرابع واضح جدًا.

ويقول علي اليشرطي[2]:

(1) بوارق الحقائق، ص١٠٩.

(2) الشيخ علي نور الدين اليشرطي، مغربي هاجر إلى عكا، وأسس الطريقة الشاذلية اليشرطية، مات عام ١٣١٦هـ.

الـوجـود، هو الكتاب، والأنبياء سوره، وأكابر المسلمين والكفار آياته، وعامة الخلق كلامه، والوجود الناقص حروفه، والمجموع هو الله[1].

ويقـول: انظـر لمن يقـرأ القرآن، كل إنسان يقرأ بسورته، فالوجود كله فرقان، فمن جاوز قرآنه فرقانَه، كمل إيمانه وعرفانه[2].

ـ لعلنـا نذكـر، من النصوص السابقة، أنهم يعنون بـ «القرآن» مقام «الجمع»، وبـ «الفرقان» مقام «الفرق».

ويقول: قارىء القرآن مناجي الحق، قارىء القرآن ترجمان الحـق، والقرآن حضرة الجمع[3].

وقـال: متى استـوى الجمـع في بطن الفقـير، تتفجـر ينـابيع الحكمة من قلبه على لسانه، وتظهر الأسرار والأنوار، وعلى هذه الحالة كان مَنْ قُتل وعُذِّب في مقام الجمع، أما صاحب الفرق الثاني، فهو يسْري في الممكنات سريان الماء بالعود الأخضر[4].

وقال: مَن استوى جمعه، صار قيومَ كل ذرة من ذرات الوجود[4].

وقال: إذا كان ٱلإنسان في حالة جمعه سائراً لله، شهد اللهَ في كل شيء، فيكون في مقام الواحدية؛ فإذا تم جمعه، سار به الحق، وما رأى شيئاً طلبه إلا أنكره، ويكون ذلك الإنكار من جملة مطلوبه، ويكون الوجودَ الحق، وهذا مقام الأحدية، فهي أصل لظهور الممكنات التي هي أرض العبودية[5].

ـ كلمـة «الممكنـات» وشـرحهـا في النص الأخـير يوضح مراد الشيخ من قوله: «فهو يسري في الممكنات . . .» في النص السابق.

وقال: اجعل ظاهرك عبودية، وباطنك أحدية، وميّز ومهّد[6].

هذا القـول هو نفس قول الجيـلاني، «فبظـاهره ينظر إلى ما في السـوق، وبقلبه ينظر

---

(١) نفحات الحق، ص٦٩.
(٢) نفحات الحق، ص٧٠.
(٣) نفحات الحق، ص٩٧ و٩٨.
(٤) نفحات الحق، ص٩٨.
(٥) نفحات الحق، ص٩٨ و٩٩.
(٦) نفحات الحق، ص٩٩.

إلى ربه»، ونفس قول أبي الحسن الشاذلي: «اجعل الفرق في لسانك موجوداً والجمع في جنانك مشهوداً»، وقول ابن عجيبة: «إياك أن تقول أناه، واحذر أن تكون سواه». وقد مرت معنا ومر غيرها أيضاً بنفس المعنى.

وقال: يصل الفقير إلى مقام يقول فيه للشيء: كن فيكون. ثم تابع حديثه فقال: والبعضُ عند الخاطر[1].

- ويعني بقوله: «عند الخاطر»، أي يحصل الشيء عندما يمر بخاطره فقط، دون أن يقول له: «كن».

وقال: ما زال العبد يذكر الله، حتى يستولي عليه الاسم، ومتى استولى عليه الاسم، انطوت العبدية بالربية، وظهرت عليه صفات الرب، ولذةُ الرب تُغيِّب العبد عن وجوده حسًّا ومعنى[2].

وقال: . . . ومَن يرحمُ الفقير ربي يحسن إليه، وهذه وحدة الوجود لا يحصل عليها أي إنسان، فهي للأصفياء والأنبياء[3].

وقال: مر سائح كان يبحث عما يقربه إلى الله تعالى، ثم إذا هو بامرأة تحمل ولدها على منكبها فقالت له: ألم تر ولدي؟ فقد فقدته! فنظر إليها وقال: هو ذا الولد على منكبيك وتسألين عنه! فقالت: يا عجباً هو معنا وندور نبحث عنه! فانتبه الرجل لحاله وقال لها: جزاك الله عني خيراً[4].

وقال: ما في فراق (أي الفرق غير موجود)، ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾، الفراق من هذا القفص، ومتى خرجت منه تنظر جميع العوالم متصلة بك[5].

- يعني بالفراق: الفرق، وبالقفص: الجسد.

وقال: العبد قابل لظهور تجليات الحق[6].

---

(1) نفحات الحق، ص٩٩.
(2) نفحات الحق، ص١١٠.
(3) نفحات الحق، ص١٣٤.
(4) نفحات الحق، ص١٦٣.
(5) نفحات الحق، ص٢٢٥.
(6) نفحات الحق، ص٢٣٥.

ـ هذا القول ظاهر المعنى، ومع ذلكَ فالنصوص التالية تزيده ظهوراً.

يقول محمد بهاء الدين البيطار[1]:

... فاعلم أيدك الله وإيانا بروح القدس، وأراك آياته في الآفاق وفي النفس، أن لله أسماء، وأسماء الأسماء، فأما أسماء الأسماء فهي التي يعلمها عموم الناس من الأسماء الرقمية أو اللفظية أو الذهنية، فهي في الحقيقة أسماء للأسماء وليست عين الأسماء، والأسماء الحقيقية هي أعيان العالم وصور حقائق المعاني، إذ من المعلوم أن اسم الله المميت مثلاً ليس المؤثِّر منه بالموت هذه الحروف التي هي الألف واللام والميمان والياء والتاء، وإنما المؤثر بالموت معنى هذه الحروف الذي هو الحقيقة العزرائيلية، وليس المميت عزرائيل[2] فقط، بل عزرائيل مظهر من مظاهر الاسم المميت وصورة من صوره، ومعلوم أن صوَرَه لا تتناهى، فكل ما أمات فهو صورة للاسم «المميت»، فصورة الاسم تفنى، وأما جوهر الاسم وعينه فلا تفنى، لأنها عين الوجه الباقي، وكل شيء هالك إلا وجهه. فأسماء الله على الحقيقة أعيان العالَم وحقائقُه، ومظاهر الأسماء هي صور العالم، فلكل اسم إلٰهي من الصور ما لا يتناهى، فكل ما أمات، مثلاً، من ثعبان أو سيف أو رصاص أو حجر أو عصا فهو صورة من صور الاسم المميت، ومعنى المميت شأنٌ من شؤون الذات الإلٰهية، وهو عين الذات، ومن هنا يُفهم قوله تعالى: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾، فتارة ينسب الله تعالى الإماتة إلى عزرائيل، فيقول: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾، وتارة إلى الملائكة مطلقاً، فيقول: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾، وتارة إلى البشر، فيقول: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾، وتارة يقول: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾، فإذا فهمت ذلك، وعلمت أن المظاهر صور الظاهر، والظاهر حقيقةٌ واحدة، وهو وجود مطلق أحديّ العين، تجلّى في صور مختلفة، فأنت بالخيار، فإن شئت فانسبْ إلى الصورة الظاهرة مراعاة للأسباب، وإن شئت فانسبْ لحقيقة الصور كلها، والتي هي وجود الله تعالى، إذ الصور كلها مندرجة في وجود الله اندراج أمواج البحر، فالأمواج هالكة في البحر، وهي عينه، فالمظاهر عين الظاهر، فليس إلا الله بلا مزج ولا حلول ولا اتحاد، بل القوم بريئون من

---

(1) محمد بهاء الدين البيطار الشامي الميداني، من شيوخ الطريقة الرشيدية، مات سنة ١٣١٤هـ.

(2) الاسم عزرائيل لم يرد في قرآن ولا في سنة صحيحة، وقد عبر إلى كتب المسلمين من اليهودية بواسطة المتصوفة.

جميع ذلك والله على ما نقول وكيل . وإذا فهمت ذلك، فخذ جميع أسماء الله على هذا المنوال، فالرزاق والحفيظ والسميع والبصير إنما هي المظاهر القائمة بهذه المعاني، فهي الأسماء لا الكلمات المؤلّفة من بسائط حروف هذه الأسماء، لأن حروف الرزاق لا ترزق، ولا لفظ الرزاق، وكذلك لفظ السميع ليس هو السميع، هكذا، بل هذه الكلمات أسماء الأسماء لا عين الأسماء، كما حققه شيخنا الأكبر في «الفتوحات المكية»، سأل مريد أستاذه عن الاسم الأعظم، فضربه بحصاة، فكان هذا الضربُ هو الجوابَ! يشير له: أنك أنت الاسم الأعظم، إن عرفت نفسك وأقمت الجدار عنك، فيظهر لك كنزك، وينكشف لك سر قوله ﷺ: «من عرف نفسه عرف ربه»، إذا تحققت ذلك وتيقنته وسلمه قلبك بالإيمان القطعي. قال الشيخ الأكبر قُدس سره في كتاب «بلغة الغواص»: قال تعالى: ﴿إنه من سليمان وإنه﴾ يعني سليمان ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾؛ فجعل سليمان عليه السلام عين ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وإذا فهمت التفصيل المتقدم بين الأسماء وأسماء الأسماء، سهُلَ عليك فهمُ هذا. فإن الكامل في وقته مظهرُ هذه الأسماء الثلاثة التي هي: الله والرحمن والرحيم، بل مظهر أسماء الله على الكمال، القائم بحقيقة الجمال والجلال. قيل لبعضهم: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت أحيي وأميت وأنا على كل شيء قدير[1]. . .

ويقول: نحمدك اللهم يا من صلى على محمد بفيض ذاته فكان مجلى له في جميع تجلّياته . . . وأشهد أن لا إله إلا الله ولا موجود في هذا الوجود إلا إياه، وأشهد أن محمداً ﷺ إنسان عين ذاته وسرُّ إمداداته[2]. . .

ويقول: . . . ورد في الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي» فإزاره عينه، ورداؤه عينه، فالمظهر عين الظاهر، والاسم عين المسمى، فهو المحيط بذاته بإحاطةٍ هي عين ذاته، فكل ما تحيط به ذاته هو عين ذاته، فكل شيء له الكمال الذاتي المشار له بقوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾، فصراطه ذاته، فهو الآخذ بناصية كل شيء بذاته لذاته، والمأخوذ عين ذاته، فهو عين الصراط المستقيم الأحدي، وهو الذي عليه، فما على هذا

(1) النفحات الأقدسيه، ص٥ و٦.

(2) النفحات الأقدسية، ص٣.

الصراط إلا هو، وكل شيء عليه، فهو ذات كل شيء، وحقيقة النور والظل والفيء، ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾، فالأول عين الآخر، والظاهر عين الباطن، فالوجود واحد، كان الله ولا شيء معه، فهو تعالى كائن لا يزول، وأسماؤه لا تزول، كل يوم هو في شأن، فالشمس تجري لمستقر لها، ولا مستقر لها سواها، وها هنا كنز مطلسم[1]. . .

ويقول: . . . فما الأمر إلا هو، فكل أمرٍ عينُ الهو، وواقعٌ على الهو، وأوله هو، وآخره هو، وظاهره هو، وباطنه هو، وحقيقته هو، وذاته هو، قال الله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾، غير أن هذه الهوية لها وجهان، كل منهما مرآة الآخر في عينٍ واحدة[2]. . .

ـ في هذا النص يتوضح لنا معنى كلمة «الهوية» التي مرت معنا في نصوص سابقة، ولننتبه إلى تفسيرهم لـ ﴿قل هو الله أحد﴾.

ويقول: «جَمَع الجمع، وفرّق الفرق، من حيث لا جمع ولا فرق»[3]، أي إن الجمع والفرق حُكمان اعتباريان معقولان، وما ثَم إلا عين واحدة، هي المخبرٌ عنها بالحي القيوم، فلا حي سواها، ولا قيوم سواها، كان الله ولم يكن شيء غيره، أي: «لا غير»، وهذا الحكم مستمرٌ أزلاً وأبداً، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون، فمن رأى الأشياء معه فقد جهل، فإن الله تعالى دفع هذا الوهم بقوله: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾، فأين الأشياء؟ إلا أن الكاملين يَسْتَّرُون هذا الوجه بأسماء الأشياء[4].

ويقول محمود أبو الفيض المنوفي[5]:

وكذلك كل ما يبزغ أو يبدو في الكون من حياة أو وعي أو إرادة تنجلي كلها لكفاياتنا العليا كأنها نعوت وخصائص أصلية لذلك الكائن الأسمى الذي يبدو أنه مطلقٌ يشملُ اقتدارُه وإبداعه وجودنا ووجود غيرنا من الكائنات وما وراءها من كائنات معجبة بأفعالها

---

(١) النفحات الأقدسية، ص١١٣.

(٢) النفحات الأقدسية، ص٢٨٠.

(٣) هذه الجملة بين الحاصرتين هي من الصلوات الأحمدية الإدريسية التي هي من أوراد الطريقة الرشيدية.

(٤) النفحات الأقدسية، ص٢٨١.

(٥) مؤسس الطريقة الشاذلية الفيضية في مصر، أسس الكلية الصوفية عام ١٩٢٧، وبقيت حتى عام ١٩٣٣، ثم أصدر مجلة البهلول.

الخفية، ودليل ذلك أن الوجود في شموله ـ مع ما يبدو فيه من كثرة وتعدد ـ يمثل لإدراكنا الذاتي وحيرتنا النفسية الوجدانية وحدة شاملة مؤتلفة الروابط والعلائق وإن تفاوتت فيها النسب والأوضاع والكيفيات والوظائف لدى الحس والحواس والعقل والمعقولات، مما يدلك دلالة صريحة موجبة لليقين قاطعة للشك على أن أصلها سبب إلهي مبدع لأسباب أولى الكائنات وعللها القريبة التي تصدر عن مشيئته، وهو ضرورةً يدرك ما يفعل قبل أن يفعل وبعد أن يفعل، وتصير إليه أيضاً في النهاية نتيجة ما أراد وما فعل، وهو نفسه، فهو يقيناً ذلك الكائن الغيبي الذي نظم الكون ما علا منه وما سفل، بسماواته وأراضيه، وقد طبعها جميعها على أسلوب يجعلها كلًّا واحداً متناغم الوحدات مترابط الحلقات، إن صانعها ومبدعها واحد أحد، وقد جعل الكائنات كلها تتطور وتترقى إلى هدف خاص بالمجموع، كما لو كان هذا المجموع الكلي كائناً واحداً يهدف إلى حقيقة لا يُدْرك لها غور ولا نهاية، وما ذلك إلا لأن مبدع الكل كائن مطلق، ومتوحد في وجوده المتسامي[1].

● **الملاحظة:**

نحن الآن أمام ظاهرة في الكتابة الصوفية، فيها شيء من الجدة، هذا الشيء هو العبارة الخائنة، التي خانت قائلها فأظهرته بمظهر التناقض الصارخ، وإليك النص التالي الذي هو أكثر وضوحاً من هذا السابق.

يقول: . . . وقد أقاموا ـ أي الذين يهاجمون التصوف ـ أنفسهم بمعارفهم الضئيلة حكاماً قساة على أولياء الله وعارفيه بدون مبرر ويبر ر نظرياتهم لا من الشرع ولا من العقل، حالةَ أنهم لم يتذوقوا من مشارب القوم وعلومهم ومعارفهم ومواجيدهم فيما بينهم وبين ربهم، وكذلك في نظراتهم السامية العميقة لهذا الوجود! وأول ما يرمون التصوف به من كذب عظيم اتهام جميع شيوخ التصوف بوحدة الوجود، فما وحدة الوجود يا ترى؟ هل هي الجمع بين وجودين أزليين أبديين أو واقعين، وهو المستحيل، أو بين حادث وقديم وهو مستحيل أيضاً، والقوم أهل توحيد؛ أو يريدون بالحقيقة جعلها اثنينية بين خالق ومخلوق؟ وهذا باطل ينفيه التصوف الحق[2].

---

(١) معالم الطريق إلى الله، ص ٤٣.

(٢) معالم الطريق إلى الله، ص ٤٠٤.

● **التعليق على هذا الكلام:**

- يقول: «وقد أقاموا أنفسهم بمعارفهم الضئيلة . .»، فنجيبه:

وقال السها للشمس أنت ضئيلة   وقال الدجي «للظهر» لونك حائل

لكن تقريراً للحقيقة: إن هذه العبارة تعني معارفهم الضئيلة بالصوفية، وهو بهذا صادق، لأن كل الذين هاجموا التصوف كانوا لا يعرفون عنه إلا أموراً سطحية، فمعارفهم به كانت ضئيلة.

وقوله: «. . . حكاماً قساة على أولياء الله وعارفيه بدون مبر ر. . .»، فنجيبه:

أ - الذي يحكم بالقرآن والسنة لا يكون حاكماً قاسياً، والذي يتهمه بذلك يخرج من الإيمان: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾[1].

ب - يقول: «. . على أولياء الله . .»، فمن قال لك يا هذا أنكم «أولياء الله»، أولم تقرأ الآية الكريمة: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً. انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً﴾[2].

ج - أما قوله: «بدون مبر را!»، فجوابنا: بل المبر ر موجود وموجود وموجود، وهو من الشرع، ومن القرآن، ومن السنة، وهو فرض لا سنة، إنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- ويقول: «وكذلك في نظراتهم السامية العميقة لهذا الوجود. .»، فنجيبه: قرر مشايخ الصوفية وكبارهم وعارفوهم والمكاشفون والمشاهدون أن الحقيقة هي زندقة بالنسبة للشريعة، فإن كانت نظرات «أهل الحقيقة» سامية وعميقة! فكيف تكون نظرات الشريعة المناقضة لها؟؟ طبعاً ستكون بعكس ذلك! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

- ويقول: «وأول ما يرمون به التصوف من كذب عظيم اتهام جميع شيوخ التصوف

---

(١) سورة النساء: ٦٥.   (٢) سورة النساء: ٤٩ و ٥٠.

بوحدة الوجود . . .» فنجيبه :

لقد أفحمتنا يا شيخ؟! لأن القول بأن اتهام جميع شيوخ التصوف بوحدة الوجود هو كذب عظيم!! هذا القول هو مفحم جدًّا!! بل وجدًّا جدًّا أيضاً!! ولا يسعنا أمام ما يأتي به هؤلاء الأولياء العارفون من صدق عظيم وجرأة عظيمة وفصاحة أعظم إلا أن نقول: اللهم إنا نشكو إليك هذا البلاء العظيم الذي دمر الأمة الإسلامية، والذي يصر أقطابه على السير في طريقهم للقضاء على ما تبقى لهذه الأمة من عقيدة إسلامية وأخلاق ووجود، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

- ثم يقدم التساؤلات: «فما وحدة الوجود يا ترى؟! هل هي الجمع بين وجودين أزليين أبديين أو واقعيين؟». ويجيب نفسه: «وهو المستحيل».

ونقول: نعم، هو مستحيل، ولم يقل أحد إن هذه هي وحدة الوجود، ونعجب من شيخنا كيف يورد هذا التساؤل الذي لم يرد!! ولكنه الأسلوب الماهر.

ويواصل شيخنا تساؤله: «أو بين حادث وقديم؟! وهو مستحيل أيضاً».

ونجيبه نعم، إن الصوفية لا تقول بهذا، لأنه هو ما يسمى بالحلول أو الاتحاد، والصوفية بريئة من كليهما، والإسلام بريء من الجميع.

ويقول: «والقوم أهل توحيد».

فنجيبه: نعم، إنهم أهل توحيد، وقد رأينا توحيدهم في أكثر من مائة نص سابق، وعرفنا ما هو، إنه توحيد الوجود.

ثم يقول: «أويريدون بالحقيقة جعلها اثنينية بين خالق ومخلوق؟! وهذا باطل ينفيه التصوف الحق». فنجيبه:

نعم، نعم، الاثنينية بين الخالق والمخلوق، أي وجود خالق ووجود مخلوق، حيث يكون في الوجود اثنان، «خالق ومخلوق» فهذا مرفوض عند الصوفية، وقولك يا شيخنا: «هذا باطل ينفيه التصوف الحق» هو صحيح تماماً. فالتصوف الحق لا يؤمن بوجود «خالق ومخلوق»، وإنما يؤمن بوجود واحد فقط هو الحق، وما الخلق منه إلا كموج البحر من البحر، وهي هي نفسها «وحدة الوجود».

ونقـول: يا شيخنـا، ها أنت تقـرر وحدة الوجود عندما ترفض الاثنينية، إذن، فلم اتهمت (الذين يرمون شيوخ التصوف بوحدة الوجود)، لم اتهمتهم بالكذب العظيم؟ وهم لا يرمونكم إلا بما أنتم عليه.

وللإيضاح: يقول النص: «. . . اتهام جميع شيوخ التصوف»، وهذا يعني أن قسماً من شيوخه لا يؤمنون بوحدة الوجود، وسنرى فيما يأتي أن الذين لا يؤمنون بالوحدة هم الدخلاء على التصوف الذي يدّعون المشيخة دون ذوق أو معرفة (ومن تشبه بقوم فهو منهم).

ويقول في نص آخر:

إنـما ترجحت هذه الطـائفـة من حيث ارتفـاع معـارفهـا، لأن من تحقق عنده العلم بانفراد الله سبحانه بالفعل والصفة والذات وقيام مآثر الموجودات بما يخلقه لهم وفيهم من الصفـات والحيـاة، قاده ذلـك إلى جمع الهمـة عليه وعكوفها لديه، وتصفو هذه المعرفة في ميدان الفناء عن ذكر غيره ورؤية سواه، وإذا فني العبد عن الأغيار، كملت معرفته لبقائه مع الحق، وقلت غفلاته عنه، وهو علم البقاء، وإذا وصل من المعرفة إلى هذا الحد من التمكن، شارف عين الجمع، أي الحقيقة، وصار الجمع له حالاً، فَعَينُ الجمع بخلاف علم الجمـع الخـاص بذلـك (والجمـع هنا جمع معنوي خالص لجمع الروح على خالقها ونافخها دون حلول أو اتحاد أو اتصال أو انفصال كما يحدث في المحسّات وهو الحلول)[1].

● **تعليق:**

الأسلوب فيـه شيء من الجـدة كما قلنـا. فهـو يقـول: «انفـراد الله سبحـانه بالفعل والصفـة والـذات»، بدلاً من قولهم: «وحدة الأفعال والصفات والذات»، ولكنه يضيف عبـارة جديـدة هي انفـراده سبحانه بـ «قيام مآثر الموجودات» التي هي لا تخرج عن معنى وحدة الوجود، ولكن فيها شيء من الغموض يساعد هذا العارف على إضاعة القارىء العـادي، خاصـة عندما يضيف الجملة: «بما يخلقه لهم وفيهم من الصفات والحياة» التي تعني «الفرق». ويعني بعبارة «جمع الهمة عليه وعكوفها لديه» مقام الجمع، وهو واضح.

---

(١) معالم الطريق إلى الله، ص٢٦٢.

على أننا لو قبلنا جملته الأخيرة حسب ظاهرها الذي يمكن أن يفهمه القارىء العادي لكان النص كله تفاهة وسخافة، بل لكان كتابه كله كذلك.

ويشرح لنا كلمتين يستعملونها كثيراً وهما: «اتصال وانفصال» ويقرر أن ذلك هو الحلول.

وتوضيح ما يريده هو أن الاتصال يقتضي وجود اثنين متصلين ببعضهما، وهو الحلول، والانفصال يقتضي وجود اثنين أيضاً منفصلين عن بعضهما، وبما أن الاثنينية مرفوضة، إذن فلا اتصال ولا انفصال، بل وحدة، والجمع هو الإحساس بهذه الوحدة ذوقاً واستشعاراً.

ويقول: وأما المرحلة السابعة، فهي مرحلة السعادة الأبدية التي يقول الله سبحانه وتعالى في وصفها بحديثه القدسي: «ما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه، وما زال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ولسانه إلى آخره»، وهي المرحلة التي قيل فيها أيضاً: (وهناك ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، وهي المرحلة التي قلنا فيها من قصيدتنا الوجدانية:

فلما قرعتُ الباب قصدَ لقائها ... خلعتُ لها جاهي وعلمي ودعوتي
وحققتُ وصفي وهو ذلي لعزها ... وعاديت فيها حظ نفسي وعادتي
فلما رأت ذلي وعجزي وفاقتي ... تجلّت إلى قلبي بمكنون حكمتي
وقرّبني الساقي لحان شرابها ... فكان بها سكري وصحوي ونشوتي
ولما بدتْ من طُور ليلاي نارها ... رأيت بها منها إليها هدايتي
وصارت تناجيني بحُلْوِ خطابها ... فشاهدتُها لكن بعين بصيرتي
وأبصرت أسراراً تسامت بذاتها ... وإني أرى شرحي لها فوق طاقتي
فإني إذا ما بحت يوماً بسرها ... لقيت حمامي بعد تمزيق مهجتي
ولست على سرٍّ أميناً إذن ولا ... حظيت بقربٍ عند أهل مودتي

وفي مثل هذا المقام يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه حيث بلغه ووصل إليه من طريق الشهود:

وكــان ما كان مما لســت أذكــره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخــبر[1]اهـ.

ـ اعتــدنــا أن نــسمــع من القوم قولهم: «تحققت بأوصافها» وما شابه ذلك، أما هنا، فيعكس الأسلوب زيادة في التعمية، حيث يقول: «وحققت وصفي»، إذن فهو بعد كل الجهــد الطــويــل والــرياضات المملة والخلوة والجوع والسهر، وبعد تأليف الكتب، ما زاد على أن حقق وصفه فقط!! وبكل هذه البساطة. مع العلم أن كل ما يدب على الأرض محقّقٌ وصفــه الــذي هو ذلــه لعــزهــا، دون هذه الفلسفــة، لأنــه فُطِر على تحقيق وصفه: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾[2].

ولكن، نقول للقارىء، إنه الإمعان في التقية! ولنوضح الأمر:

في مراحــل من تاريــخ المسلمين، وصلت المجتمعات الإسلامية، بمساعي الصوفية وجهــودهم المستمــرة، إلى أحــط دركــات الجهل والغفلة، حيث «أخذ الأولياء العارفون الصــديقــون المقــربــون الطــاهــرون المطهــرون الأبــرار الــواصلون المحققون المصطفون المحبــوبــون المؤيــدون العالمون الموحدون خواص الخواص. . .»، حيث أخذوا حريتهم الكاملة في البيان، وأرْخوا لعباراتهم العنان، وباحوا بالسر المصان.

وقد رأينا قول بعضهم: «وحسبه. . إشراق نور وحدة الوجود».

ولعل النص التالي يغني عن الإطالة وإيراد نصوصٍ أُخر.

يقول الشيخ عبد الرزاق القاشاني:

وبعــد، فإن الــزمــان تقاصرت أذياله، وكادت ترتفع بانكشاف الحق أسباله، ونطق الحق على لســان الخلق بأســراره، وزهق البــاطــل بتشعشع أنواره، واقتضت الحقيقة أن تُهْتَك أستــارهــا، وطفقت في كل سمــعٍ يُحدّث أخبــارُهــا؛ أقبــل عليّ جماعــة من إخوان الصــدق والصفــا، وأربــاب الفتوة والوفا، من أهل العرفان والتحقيق، ومَن أيدته العناية بالتــوفيق، خصــوصــاً كالصــاحب المعظم العــالم العــارف المــوحّــد المحقق، شمس الملة

---

(1) بداية الطريق إلى مناهج التحقيق، ص٦٦. والواقع أن نص الغزالي هذا مسروق، أو منقول نقلاً شبه حرفي من كتاب: «قوت القلوب»، وكذلك نصوص كثيرة غيره.

(2) سورة الروم: ٣٠.

والـدين، قدوة أربـاب اليقـين. . . أن أشرح لهم كتاب «فصوص الحكم». . . شارطين عليّ أن لا أكتم شيئاً من جواهر كنوزه»[1]. . . اهـ.

ـ والكتب الصوفية التي أُلفت في القرن الثالث عشر الهجري وعدة قرون قبله، تحمل كلها، أو جلها، طابع التصريح الكامل بوحدة الوجود، وما يدور حولها من عقائد وفلسفات.

وجـاء القـرن الـرابع عشر، وتوسعت الثقافة، وزاد فهم بعض المسلمين للإسلام، ولبعض أعـداء الإسـلام، ولبعض أمراض المسلمين، وفهموا، بسبب الكتب التي ألفت في القرون السابقة، الكثير عن هذا السرطان الخبيث، وخطره ومكره، وأخذوا ينبهون عليه.

فأسـرع «العـارفـون الصـديقون الصادقون» إلى تقيّتهم ورموزهم وألغازهم، وكلما توسع الوعي الإسلامي قليلاً، كلما زادوا في التعمية والغموض.

والنصـوص الأخـيرة صور من هذه التقيـة الجديدة، التي أخذت تمعن في الغموض والتعمية، حتى وصلت إلى حد الكذب الجريء.

كان القـوم يستعملون فيـما سبق العبـارة والـرمـز واللغـز والإشارة، أما في حاضرنا، فأخذوا يستعملون الإنكار!؟

ومـاذا عليهـم؟ فالمهم هو «جلب الـزبـائن»، حتى إذا خضـع الزبون للشيخ، وقام بالـريـاضـات والمجاهدات والخلوات، التي تحقنه بالإيحاء الذاتي حقناً يملأ كل خليّة في جسمه، وطبّق عليه شيخه الإيحاء الخارجي المستمر، حتى يصل إلى الجذبات، وتتجلى عليـه التجليـات، ويـذوق من معاني الألوهية، أو يذوق على الأقل معْنى اسم من أسماء الحق، عندئذ يُمسون عارفين، ولات حين؟؟

والـذين لا يصلون، من الـذين وقعـوا في الشبكـة، يمسـون، بتأثـير الإيحـاءات، أنصـاراً مغفّلين متحمسـين، يدافعون عن الشيخ العارف، وعن الطريقة المجيدة، وعن

---

(١) شرح القاشاني، ص٤.

السالك المريد . . . ويمهدون المنزلقات إلى الهاوية ، ويغطونها بالألفاظ المنمقة ، والأكاذيب الجريئة المزوقة . . . انتظاراً لصيد جديد ، في يوم جديد .

وقد تطور هذا الأسلوب أكثر وأكثر ، وصار أكثر جدةً .

وهذا الأسلوب الجديد ، لا يخرج على القاعدة التي وضعها سيد الطائفة الجنيد ، عندما قرر : «لا يكون الصدّيق صدّيقاً حتى يشهد له في حقه سبعون صدّيقاً أنه زنديق» ، وفي رواية : «ألف صديق . . » .

ولا يخرج على قاعدة الجنيد عندما أفتى هو والشبلي بقتل الحلاج ، وهما يعلمان أنه ، في الحقيقة ، ولي الله حقًّا .

ولا يخرج على القاعدة التي وضعها أقطابهم وعارفوهم ، والتي هي شرحٌ لقاعدة الجنيد ، والتي تقول : «إن الصدّيق يعطي الظاهر - أي الشريعة - حكم الظاهر ، ويعطي الباطن - أي حقيقتهم - حكم الباطن» ، وبالتعبير الآخر «لا يلبس بالباطن على الظاهر ولا يلبس بالظاهر على الباطن» .

كما لا يخرج على القانون الأساسي للطائفة : «إياك أن تقول أناه ، واحذر أن تكون سواه» .

وكما قلنا : المهم هو جلب الزبائن ، وبعد ذلك يأتي التسليك ، ثم يأتي الباقي .

ويقول عبد القادر عيسى[1] :

اختلف علماء النظر في موقفهم من العارفين المحققين القائلين بوحدة الوجود ، فمنهم من تسرع باتهامهم بالكفر والضلال وفهم كلامهم على غير المراد[2] . . .

- إذن ، فالعارفون المحققون يقولون بوحدة الوجود ، وهذا اعتراف كامل من عارف محقّق ، كما يعترف أن من علماء النظر من يتهمهم بالكفر والضلال ، لكنه يتهم المتّهِمين

---

(١) شيخ الطريقة الشاذلية الدرقاوية في حلب .

(٢) حقائق عن التصوف ص٥٥٢ ، وللعلم ، يقال : إن كتاب «حقائق عن التصوف» هو من تأليف أحد تلاميذ الشيخ ، نسبه إلى شيخه طلباً للقربى والوصول .

بالتسرع، وعدم فهم كلامهم. فهل صحيح أنهم لم يفهموا كلامهم؟ مع أنه يقرر بوضوح أن العارفين المحققين يقولون بوحدة الوجود، فكيف ذلك؟

يتمم كلامه، فيقول:

. . . ومنهم من لم يتورّط بالتهجم عليهم، فتثبت في الأمر، ورجع إليهم ليعرف مرادهم، لأن هؤلاء العارفين، مع توسعهم في هذه المسألة، لم يبحثوا فيها بحثاً يزيل إشكال علماء النظر، لأنهم تكلموا في ذلك ودونوا لأنفسهم وتلاميذهم، لا لمن لم يشهد تلك الوحدة من غيرهم، لذلك احتاج الأمر للإيضاح، لتطمئن به قلوب أهل التسليم من علماء النظر[1].

- تقرير جديد؛ إن غيرهم لم يشهد تلك الوحدة! إذن فهم شهدوها.

يتمم: ومن العلماء الذين حققوا في هذه المسألة وفهموا المراد منها، السيد مصطفى كمال الشريف، حيث قال: «الوجود واحدٌ لأنه صفة ذاتية للحق سبحانه وتعالى، وهو واجب فلا يصح تعدده، والموجود هو الممكن، وهو العالَم، فصحَّ تعدده باعتبار حقائقه. وقيامه إنما هو بذلك الوجود الواجب لذاته، فإذا بقي الوجود كما هو، فالموجود غير الوجود، فلا يصح أن يقال: «الوجود اثنان: وجود قديم ووجود حادث»، إلا أن يراد بالوجود الثاني «الموجود» من إطلاق المصدر على المفعول، فعلى هذا لا يترتب شيء من المحاذير التي ذكرها أهل النظر على «وحدة الوجود» القائل بها أهل التحقيق. . .

. . . إلى أن قال: الحس لا يرى إلا الهياكل، أي الموجود، والروح لا تشهد إلا الوجود، وإذا شهدت الموجود فلا تشهده إلا ثانياً، على حدّ من قال: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله. وأراد بهذه الرؤيةِ الشهودَ، لا رؤية البصر، لأن الرؤية من خصائص البصر، والشهود من خصائص البصيرة، لذلك ورد: أشهد أن لا إله إلا الله، ولم يرد «أرى» بل ولا يصح أن يقال: «أرى»[2]. أهـ.

- إذن فقد قُتل الحلاج وأبو حمزة وابن برّجان والسهروردي وغيرهم، واستتيب من الكفر الجنيد والشبلي والبسطامي وأبو حيان وغيرهم، وكُفِّرَ وكُذِّب الغزالي وأُحرق كتابه

---

(1) حقائق عن التصوف، ص٥٥٢.

(2) حقائق عن التصوف، ص٥٥٢ و٥٥٣.

«إحياء علوم الدين» وكذلك ابن عربي وغيره وغيره . . . من أجل إطلاق الاسم «الوجود» على المخلوق «الموجود» من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول!!

أي قالوا: «الوجود» بدلاً من أن يقولوا: «الموجود».

من أجل استعمال المصدر بمعنى اسم المفعول، صُنع بهؤلاء المساكين الأبرياء ما صُنع! ومن أجل هذا تسرَّع علماء النظر باتهامهم بالكفر والضلال! (يا حرام).

على أنه يعود فيعترف أن «الموجود» هو الهياكل فقط، أي الأشكال والصور التي تُرى بالبصر، وهي في حقيقتها إنما هي الوجود، أي الحق سبحانه، وهذا لا يشاهده إلا الروح.

وهناك ملاحظة هامة جدًا، إنها تفسيره لمعنى «أشهد»، فنحن نعرف أن معناها لغة وشرعاً: أعترف وأُقر، وكذلك فهمها رسول الله ﷺ وفهمها عنه أصحابه وتابعوهم وكل المسلمين المسلمين . . بينما يفسرها هنا بمعنى «شهود البصيرة» وهو الذي يكون أثناء «الجذبة»!! وإلى الله المشتكى.

يتمم: وهكذا شأن العلماء المنصفين، يغارون على الشريعة الغراء، ويتثبّتون في الأمور، دون أن يتسرّعوا بتكفير أحدٍ من المؤمنين، ويرجعون في فهم كل حقيقة إلى أهل الاختصاص بها[1].

- الجواب على هذا الكلام: ﴿. . . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾.

- يا هؤلاء، ما دام علماء النظر يكفّرون أهل هذا الاختصاص، فكيف تطلبون منهم أن يرجعوا إليهم؟! ثم، هل الغيرة على الشريعة الغراء تكون بالتسليم للكفر وقبوله، واستفتاء أهله ليحكموا على أنفسهم؟! عجيب والله! إن الله سبحانه يقول: ﴿فإن تنازعتُم في شيءٍ فردُّوه إلى الله والرسولِ﴾، وأنتم تطلبون من الآخرين أن يردُّوه إليكم لتقولوا لهم: «إن كلمة الوجود هي من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول»!

(١) حقائق عن التصوف، ص٥٥٣.

وكفى الله المؤمنين القتال! وصار الكفر إسلاماً والضلال إيماناً وحقيقتكم شريعة غراء. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويقول: . . . وهكذا تحقق السادة الصوفية بأعلى مراتب التوكل. فقلوبهم مطمئنة بالله تعالى، معتمدة عليه، واثقة به، متوجهة إليه، مستعينة به، لأنه لا فاعل في الوجود سواه[1].

* تنبيه: أرجو من القارىء الذي عرف لغة القوم أن ينتبه إلى المراد من هذه العبارات؟

ويقول: . . . ولذا طَرَق السادةُ الصوفية باب شكر الله تعالى على جميع أحوالهم، وحمدوا الله تعالى في سائر شؤونهم، وشهدوه الفاعلَ المطلق والمنعم المتفضل والبر الرحيم[2]. . .

- قد مر معنا عشرات الأمثلة على معنى قولهم: «لا فاعل إلا الله»، وهنا يزيد المعنى توكيداً وتوضيحاً بقوله: «لا فاعل في الوجود سواه»، و«شهدوه الفاعل المطلق»، أي أضاف في الأولى عبارة: «في الوجود»، وفي الثانية: «المطلق»، وهذا زيادة في التوضيح.

ويقول: قالوا: وإنما السماعُ حقيقةٌ ربانية ولطيفة روحانية، تسري من السميع المُسْمع إلى الأسرار بلطائف التحف والأنوار، فتمحق من القلب ما لم يكن، ويبقى فيه ما لم يزل، فهو سماع حق بحق من حق[3].

- وطبعاً، نحن نعرف الآن تماماً ما معنى: «فتمحق ما لم يكن، ويبقى ما لم يزل» و«سماع حق بحق من حق»، وإن وُجد من لا يعرف معناها بعد مئات الأمثلة السابقة فلن يكون هذا ذنبنا.

ويقول: ويختلف الواصلون في وصولهم إلى الله تعالى، كل على حسب مقامه وهمته:

---

(١) حقائق عن التصوف، ص٣٨٠.

(٢) حقائق عن التصوف، ص٣٩٣.

(٣) حقائق عن التصوف، ص٢٠٩.

فمنهم من وصل في سيره إلى وحدة الأفعال ذوقاً وشهوداً، ويفنى فعله وفعل غيره، ويتذوق معنى قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، وهذه رتبةٌ في الوصول.

ومنهم من يصل في سيره إلى وحدة الصفات ذوقاً وشهوداً، فيتذوقون معنى قوله تعالى: ﴿وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله﴾، ويتذوقون معنى الحديث القدسي: «فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، وهذه رتبةٌ في الوصول.

ومنهم من يترقى إلى مقام الفناء في الذات، فيشهد عرضية كل شيء مقابل وجود الحق عز وجل، وتفيض عليه أنوار اليقين ولسان حاله يقول:

وُجودي أن أغيبَ عن الوجود ... بما يبدو عليَّ من الشهود

ويتذوق قول رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1].

- الكلام واضح واضح، ونعرف الآن تماماً ماذا يريدون عندما يوردون قوله سبحانه: ﴿وما رميتَ إذ رميتَ. .﴾، وقوله: ﴿وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله﴾، فقد مرت كثيراً في الأمثلة السابقة مع شروحها التي قدَّموها، وكذلك قول الرسول ﷺ في الحديث القدسي: «. . كنتُ سمعه. .» وقد مر شرحها أيضاً.

ولكن الملاحظ هنا، أن الشيخ استعمل عبارة «وحدة الأفعال» و«وحدة الصفات» حتى إذا وصل إلى الذات لم يستعمل العبارة التي استعملها أسلافه في مثل هذا التسلسل، وهي عبارة «وحدة الذات» بل لاص عنها ليستعمل عبارة تحمل نفس المعنى، استعملها العارفون الصديقون المقربون في أقوالهم ويستعملونها، وهي: «الفناء في الذات» ووضوحها كاف.

ونُضيف: إن كل من يأخذ أقوال شخص ما على أنها أقوال حكيمة يُطلب تطبيقُها، ثم يقدِّس هذا الشخص، فلا يذكر اسمه إلا مصحوباً بـ «سيدي» يتبعها بالدعاء له، إن كل من يفعل مثل هذا مع شخص ما فهو لا يفعله إلا إن كان يؤمن بعقيدته وسلوكه إيماناً

---

(١) حقائق عن التصوف، ص٢٨٠ و ٢٨١.

كاملاً.

وهذه نبذ من كتاب عبد القادر عيسى المسمى «حقائق عن التصوف» يورد فيها أسماء متصوفة مرت معنا أقوالهم في وحدة الوجود، ورأينا مدى صراحتها ووضوحها.

يقول تحت عنوان: «أقوال العارفين بالله مِن رجال التصوف..»[1].

أبو حامد الغزالي:

«قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي»[2]:

وقد أورد اسمه في الكتاب متمثلاً بأقواله ومستشهداً بها وداعياً إليها، تسعاً وثلاثين مرة.

- ومرت معنا أقوال الغزالي، فليرجع إليها القارىءُ ليرى ما فيها مما يغضب وجه الله.

ويقول: «قال سيد الطائفتين الجنيد»[3]..

- وقد مرت معنا أقوال الجنيد في وحدة الوجود، وورد اسمه في الكتاب سبعاً وعشرين مرة.

- وورد اسم ابن عطاء الله السكندري تسع عشرَة مرة. جاء في المرة الأولى بقوله: «يقول ابن عطاء الله السكندري»[4].

وقد مرت أقواله الصريحة في وحدة الوجود.

ويورد اسمَ ابن الفارض وأقوالاً له ست مرات، جاء فيها في المرة الأولى النص التالي: «... وما علموا كيف كانت بدايةُ ابن الفارض مِن حيث مجاهدته لنفسه، وإليك بعض كلامه يصف مجاهداته في سيره، مما يدل على أهمية المجاهدة، مع العلم أنه ابتدأ سيرَه إلى الله تعالى من نفسٍ لوَّامة، لا أمَّارة بالسوء، ويُبين أن السالك الذي

---

(1) حقائق عن التصوف، ص٥٩.
(2) حقائق عن التصوف، ص٦٠.
(3) حقائق عن التصوف، ص١٤.
(4) حقائق عن التصوف، ص٦٦.

لا مجاهدة له، لا سير له، ولا محبة له...»[1].

ـ ونعرف إعلانَ ابن الفارض إيمانه بوحدة الوجود وتصريحه بذلك.

ـ وممن يورد أسماءهم مع أقوال لهم مشفوعة بالتقديس والدعاء: أبو الحسن الشاذلي في خمسة عشر موضعاً، أبو حمزة البغدادي في ثلاثة مواضع، أبو القاسم القشيري في خمسة عشر موضعاً، أبو يزيد البسطامي في خمسة مواضع، إبراهيم الدسوقي في موضع واحد، ابن عجيبة في ثلاثين موضعاً، أحمد زيني الدحلان في أربعة مواضع، زكريا الأنصاري في خمسة مواضع، عبد الكريم الجيلي في ثلاثة مواضع... وغيرهم الكثير مما مر معنا ومما لم يمر.

وقد رأينا أقوالَ هؤلاء العارفين في وحدة الوجود، وإيرادُ عبد القادر عيسى لهؤلاء «الصوفية المشهورين» هو دليل أكثر من كافٍ على إيمانه بما كانوا يؤمنون به، وهو «وحدة الوجود» ولا يبقى على الذين يخادعون إلا أن يكفُّوا عن مخادعتهم.

ويقول آية الله الخمينْي:

واعلم أن الأسماء والصفات الإلهية كلُّها كاملٌ، بل نفس الكمال... وأكمل الأسماء هو الاسم الجامع لكل الكلمات، ومظهرُه الإنسانُ الكامل المستجمعُ لجميع الصفات والأسماء الإلهية ومَظْهَرُ جميع تجلياته[2]...

ويقول: فالإنسان الكامل جميعُ سلسلةِ الوجود وبه يتم الدائرة، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو الكتاب الكلّي الإلهي[3]...

ويقول: الموجودات كلها أسماء إلهية.

ولعلك بعد التدبر في روح الاسم والتفكر في حقيقته ومطالعة دفتر سلسلة الوجود وقراءة أسطره ينكشف لك بإذن الله وحسن توفيقه أن سلسلة الوجود ومراتبها ودائرة الشهود ومدارجها ودرجاتها كلها أسماء إلهية[4]...

---

(١) حقائق عن التصوف، ص١٢٧.
(٢) شرح دعاء السحر، ص٧٨.
(٣) شرح دعاء السحر، ص٦٧.
(٤) شرح دعاء السحر، ص٨٤.

ـ هـذا مثل قول قائلهم: «واجتمع فيه النجوم مع الورد» وغيرها مما مر.

ويقول: تحصيل إشراقي . . .

فإذا بلغ السـالـك إلى الله والمجـاهدُ في سبيله إلى ذاك المقام، وتجلّى عليه الحق في مظاهر الخلق، مع عدم احتجابٍ عن الحق والخلق، بنحو الوحدة في ملابس الكثرات، والكثرة في عين الوحدة، ينفتح عليه أبوابٌ من المعرفة والعلوم والأسرار الإلٰهية[1] . . .

ـ أقول: سنرى فيما يأتي من الفصول قيمة هذه المعرفة والعلوم الكشفية.

ويقول سعيد حوّى:

. . . وبشكل عام، فإن السائر إلى الله لِيَصلَ إلى مقام الإحسان، فإنه يمر على ما يسميه الصوفية «الفناءات»، والفناء في الأفعال بأن يحسَّ الإنسان أن كل شيء فعلُ الله، والفناء في الصفات بأن يستشعر الإنسان صفات الله عز وجل، والفناء في الذات، وهو أن يستشعر الإنسان أوَّليّة الذات الإلٰهية وصمدانيتها. ومتى استقرَّ في هذا المقام أحسّ بمقام الإحسـان، ويحـاولـون في هذه الحـالـة أن ينقلوه إلى مقام «المشاهدة مع رؤ يته الخلق»، وهـذا الـذي يسمـونـه مقـام «البقـاء»، وقـد تكون النقلة سريعة إلى الفناء في الصفات مباشرة، أو قد تكون إلى الفناء في الذات مباشرة، ثم يبدأ السالك يستشعر ما سوى ذلك[2]؟

ـ النص واضح جدًّا، مر معنا أمثاله. وفيه بعض العبارات الغامضة:

فعبارة: « . . . أولية الذات الإلٰهية» يعني بها: «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما كان عليـه»، فأوليـة الـذات الإلٰهيـة هي: «كان ولا شيء معه»، ويستشعر بها، أي: يستشعر أنها على حالها كما كانت، «وهو الآن على ما كان عليه».

وعبـارة: « . . . وصمـدانيتهـا»: للاسم «الصمد» معنيان؛ أحدهما: الذي يُصمد إليـه، أي يُرجـع إليـه ويُتـوجـه إليه في كل شيء. ومعنى «صمدانية الذات الإلٰهية» عند الصـوفيـة هو نفس معنى الآيـة: ﴿وأن إلى ربـك الـرُّجْعى﴾ عنـدهم، ونفس معنى:

---

(1) شرح دعاء السحر، ص١١٣.

(2) تربيتنا الروحية، ص٢٩٨.

﴿ارجعي إلى ربِّك راضيةً مَرضيةً﴾ عندهم . . وقد مر معنا كيف يفهمون الآيتين .

إذن ، فمعنى قوله : «يستشعر الإنسان أولية الذات الإلهية وصمدانيتها» هو: أنه يستشعر «وحدة الوجود» . وهذا المعنى واضح تماماً لكل من فهم عباراتهم وتذوق معانيها . أما من لم يستطع بعدُ فهمها ، رغم مئات الأمثلة والنصوص السابقة! فلا حيلة لنا معه .

وأمامنا أيضاً العبارة : « . . . أن ينقلوه إلى مقام المشاهدة مع رؤيته الخلق ، وهذا . . . مقام البقاء» .

إذن فمقام البقاء ـ ونعرفه سابقاً ـ هو المشاهدة يضاف إليها رؤية الخلق . وبالرغم من أننا الآن نعرف معنى مصطلح «المشاهدة» ولكن النص يزيدنا إيضاحاً ، فالمشاهدة هي رؤية الحق بدون خلق ، أي : رؤية الله ، جل وعلا ، في كل شيء ، بحيث لا يرى الواصل خلقاً ، بل يرى كل شيء هو الحق ، وهذا هو مقام الفناء في الذات ، لكنَّ الشيخ ينقله إلى مقام «المشاهدة مع رؤيته الخلق» ، وهو مقام «البقاء» أو الفرق الثاني ، أو صحو الجمع . . . أو . . . وهو المقام الذي يقول فيه أبو الحسن الشاذلي : «اجعل الفرق في لسانك موجوداً والجمعَ في جنانك مشهوداً» ، ويقول فيه الجنيد : «لا بد من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه» . ويقول فيه ابن عجيبة : «إياك أن تقول أناه ، واحذر أن تكون سواه» ، وهو المقام الذي يتواصون به منذ مقتل الحلاج وغيره .

وأترك للقارىء تحليل قوله : «ثم يبدأ السائر يستشعر ما سوى ذلك» ليزداد تمرساً بفهم النصوص الصوفية .

ويقول سعيد حوّى أيضاً :

ولئن كان جزءُ السير التحققَ بأسماء الله ، ولئن كانت مراحلُ السير تتم بالانتقال من فناءٍ إلى فناءٍ ، فإن الذكر هو وسيلة ذلك كله[1] . . .

ـ معنى «التحقق بأسماء الله» واضح ، ومر كثيراً في النصوص السابقة ، ومع ذلك أورد أمثلة تساعد على التوضيح أكثر :

---

(1) تربيتنا الروحية ، ص٣٠٣ .

لو قال قائل: «فلان متحققٌ باسم الشجاع» فإن كل من يسمع هذا القول يعرف أن فلاناً شجاع بكل معنى الشجاعة.

ولو قال: «فلان متحقق باسم الفيلسوف»، لفُهم مباشرةً أن فلاناً فيلسوف ضالع.

ولو قال القائل: «فلان متحقق باسم الصوفي» لعُرف دون تردد أن فلاناً صوفي.

وهكذا.. عندما يقول القائل: «إن السائر إلى الله، تحقق باسم من أسماء الله: وليكن مثلاً: الرب»، فكل من يسمع هذا القول يعرف أن فلاناً تحقق بالربوبية، أي صار ربًّا.

وهكذا بالنسبة للاسم «الرحمن»، وفي آخر الطريق بالنسبة للاسم «الله». ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويقول سعيد حوى أيضاً:

... ومع أنني في سيري إلى الله أذاقني الله مِن فضله مِن معاني اسمِهِ الصمد جل جلاله وهو المقام الذي زل به هؤلاء[1]...

- لو سمعت قائلاً يقول: «فلان ذاق معنى الوزارة» فماذا تفهم من ذلك؟ إن أي إنسان يسمع هذا الكلام يفهم منه بدهيًّا أن فلاناً صار وزيراً، فذاق معنى الوزارة. وكذلك قول الشيخ هنا: «أذاقني... مِن معاني اسمه الصمد»، أي مَرَّت به حال صار فيها صمداً، أو استشعر من الألوهية الاسم الصمد.

وقد رأينا فيما سبق من نصوص أن الواصل يذوق معنى الأسماء الإلٰهية، أو يتحقق بها بالتدريج، اسماً بعد اسم، حتى يصل إلى الاسم «الرب» ثم يصل إلى الاسم الأعظم «الله» حيث يصير هو هو، ويقول حينئذ: «أنا أنا» أو كما قال ابن البنا السرقسطي في «المباحث الأصلية»:

ثم امْتحى في غيبةِ الشهودِ فأطْلَق القولَ أنا معبودي

ويقول سعيد حوى أيضاً:

(١) تربيتنا الروحية، ص٣١٧.

نحن نعلم أن هناك حالاتٍ للسالك يُحِسُّ فيها بأحدية الذات الإلٰهية ويستشعر فيها اسم الله الصمد، وهي حالةٌ يستشعر فيها السالك فناء كل شيء، ولكن هذا الشعور لا بد أن يرافقه الاعتقادُ بأن الله خالق، وأن هناك مخلوقاً، وأن الخالق غير المخلوق[1].

ـ إذن فالسالك يحس «بأحدية الذات الإلٰهية» وقد مر معنا ماذا يعنون بعبارة «أحدية الذات الإلٰهيـة»، مرت في نصوص يمكن أن يقال عنها كثيرة، وكذلك يستشعر السالك أيضاً في تلك الحالات اسم الله الصمد. أي يستشعر الصمدانية، أو الألوهية، فالمدلول الأخير للصمدانية والألوهية واحد، ويفسر استشعار الاسم الصمد، باستشعار فناء كل شيء، أي لا يشعـر إلا بالله وحـده في كل شيء ومـع كل شيء وبكـل شيء، وهذه هي «وحدة الوجود».

ولكنه يقرر بأن هذا هو إحساس واستشعار، وذوق ـ كما يقول في مكان آخر ـ ولكن لا بد أن يرافقه الاعتقاد بأن الخالق غير المخلوق.

وهكـذا أوصلنـا إلى مقـام «الفـرق الثـاني»، الـذي هو مقـام الكمَّـل من الـرجال «الإنسـان الكـامـل»، مع ملاحظـة نبهنـا إليها؟ كانوا فيما سلف من القرون يطلبون من الواصل أن يقول بلسانه: إن الخالق غير المخلوق، بينما في قلبه، يجب أن يعتقد بأنه هو هو، أمـا الآن فالشيـخ يطلب من الـواصل الاعتقادَ ـ المرافق للشعور بالوحدة ـ أن الخالق غير المخلوق، وهذا تطور في التَّقية، على أننا لو تفحصنا الكلام بهدوء، لرأينا أن النتيجة واحدة.

لنأت إلى مَثَـل «المـاء والثلج»، فالذائق لكليهما يحس ويستشعر ويذوق أن الثلج هو نفس المـاء تكثف عنـه، فهـو هو، ولكن لا بد أن يعتقـد أن المـاء غير الثلج، فمظهـرهما مختلف، ودرجـة حرارتهـما مختلفـة، وهذا مائع وهذا جامد، إذن، فالاعتقاد بأن هذا غير هذا تؤكـده عدة ظواهـر؛ وكـذلك الوجود، فالملكوت غير الجبر وت وبينهما عدة فروق في المظاهر، لكن الحقيقة واحدة، هي «أحدية الذات الإلٰهية»، وهي هي «وحدة الوجود».

وقد يقول قائل: إن هذا الاستنتاج فيه توجيه معين!

---

(١) تربيتنا الروحية، ص٧٩.

لكن لو نظرنا في كلام الشيخ لرأينا الأمر واضحاً، فهو يقول: «يحس أحدية الذات الإلهية، ويستشعر الاسم الصمد، ويذوق معنى الاسم الصمد»، وهذا التصريح واضح بأن الواصل يستشعر «وحدة الوجودة»، حيث لا شيء إلا الله، ثم يقول: لا بد من الاعتقاد بأن الخالق غير المخلوق! فكيف التوفيق بين المتناقضين؟ مع العلم أن الوحدة شيء يحسه ويستشعره ويذوقه ويتحقق به، وهذا ما يسمونه «حق اليقين»، بينما اعتقاد الغيرية هو شيء مفروضٌ فرضاً «لا بد منه»! كيف التوفيق؟؟! نترك الأمر للقارىء.

ثم لنتنبه إلى قول الشيخ: «وهو المقام الذي زل به هؤلاء...» وماذا تعني هذه العبارة؟ وأترك تحليلها للقارىء الكريم ليتسلى بها، وهي سهلة المتناول.

* وأخيراً؛ هذه نصوص دامغة من أقوالهم من كتبهم المعتمدة لديهم، بدءاً من الجنيد وعصره، حتى يومنا هذا، وهي غيض من فيض، فلو حاولنا جمع أقوال عارفيهم ومحققيهم في «وحدة الوجود» لاحتجنا إلى ألوف الصفحات، على أن في ما أوردناه كفاية وأكثر من كفاية.

إذن؛ فالصوفية كلهم يؤمنون بوحدة الوجود، مع العلم أن بعضهم لم يسمعوا بعبارة «وحدة الوجود»، وإنما يعرفون أن المخلوقات هي الله، وأنه يجب كتم هذه المعرفة عن العامة، ولا تقال إلا للخاصة.

ونحن، في عرضنا للصوفية، نواجه نوعين من الناس: خبثاء وبسطاء.

والبسطاء يردّدون أقوال الخبثاء بسلامة صدرٍ وحسن نية.

ومن جملة ما سيقوله لنا كلا النوعين في هذا المقام: إن الصوفيين الحاليين لا يعرفون هذه الأمور! أو: إنهم الآن لا يفهمون ذلك! أو: إن هذا شيء انتهى! أو.. أو.. وما أكثر ما عندهم من اعتراضات كلها باردة وليس فيها شيء من الحق.

فسدًّا لذرائع أمثال هؤلاء، نورد نصوصاً معتمدةً لدى الطرق الصوفية، من أورادهم وصلواتهم التي يتعبدون بها في خلواتهم واجتماعاتهم، يطبعونها في كتبٍ يوزعونها، ويحفظون نصوصها:

★ من أوراد الطريقة القادرية (وقد يستعملها الآخرون):

. . . الاسم الثالث «هو»، عدد تلاوته أربعة وأربعون ألفاً وستمائة مرة، وتوجُّهُه: يا من هو الله لا إله إلا أنت هو هو هو، إلهي حقّق باطني بسرّ هُوِّيتك، وأفْنِ مني أنانيّتي إلى أن تصل إلى هُويّة ذاتك العلية، يا مَن ليس كمثله شيء، أفنِ عني كلَّ شيْء غيرك، وخففْ عني ثقل كثائف الموجودات، وامحُ عني نقطة الغَيريَّة لأشاهدك ولا أدري غيرك، يا هو يا هو يا هو، لا سواك موجود، لا سواك مقصود، يا وجود الوجود[1]. . .

★ ومن أوراد الطريقة القادرية أيضاً:

الحمد لله الذي كيَّف الكيْف، وتنزه عن الكيفية، وأيّن الأيْن وتعزز عن الأيْنِيَّة، ووُجد في كل شيء وتقدس عن الظرفيَّة، وحَضَرَ عند كل شيء وتعالى عن العِنْدِيَّة[2]. . .

★ ومنها: . . يا أول كل شيء، ويا آخر كل شيء، ويا ظاهر كل شيء، ويا باطن كل شيء[3]. .

ـ أقول: هذا مثل قولهم: «وما الكلب والخنزير إلا إلهنا»، و«ولا يهولنك صدور الكائنات الدنسية من سنخ القدوسية»، وغيرها.

★ ومنها: . . إلهَنا فَطَهِّر قلوبنا من الدنس لنكون محلاًّ لمنازلاتِ وُجودك، وخلصنا من لُوَث الأغيار لخالص توحيدك، حتى لا نشهد لغير أفعالك وصفاتك وتجلّي عظيم ذاتك[4]. . .

★ ومنها: . . . رباه رباه غوثاه، يا خفيًّا لا يَظْهر، يا ظاهراً لا يخفى، لطُفَتْ أسرار وجودك الأعلى فترَى في كل موجود، وعلت أنوار ظهورك الأقدس فبدت في كل مشهود[5]. . .

---

(١) الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، ص١٦.

(٢) الفيوضات الربانية «عقيدة الغوث الأعظم»، ص٤١.

(٣) الفيوضات «ورد الصبح»، ص١١٥.

(٤) الفيوضات «ورد العشاء»، ص١٣٨.

(٥) الفيوضات «ورد الاثنين»، ص١٤٣.

ـ وهذا أيضاً مثل قولهم: «ولا يهولنك صدور الكائنات الدنسية من سنخ القدوسية» وما شابهها.

★ ومنهـا: . . رب أشهـدني مُطْلَقَ فاعليتك في كل مفعـول حتى لا أرى فاعـلاً غيرك، لأكـون مطمئنـا تحت جَرَيـان أقـدارك، منقـاداً لكـل حكم ووجودٍ عينيٌ وغيبيٌ وبـرزخي، يا نافخـاً روح أمْـره في كل عين، اجعلني منفعـلاً في كل حال لِما يحوّلني عن ظلمات تكويناتي، وألْحِقْ فعلي وفعلَ الفاعلين في أحدية فعلك[1]. . .

★ ومن أوراد القادرية أيضاً:

إلهي عمّ قِدَمُك حَدَثي ولا أنا، وأشرقَ سلطان نور وجهك فأضاء هيكل بشريتي فلا سواك، فما دام منّي فبدوامك، وما فَني منّي فبرؤيتي إليك، وأنت الدائم لا إله إلا أنت، أسألك بالألف إذا تقدّمَتْ، وبالهاء إذا تأخرت، وبالهاء منّي إذا انقلبت لاماً، أن تفنيني بك عني، حتى تلتحق الصفةُ بالصفة، وتقعَ الرابطةُ بالذات[2]. . .

ـ أقول: «الألف إذا تقدمت، والهاء إذا تأخرت، والهاء مني إذا انقلبت لاماً»، هذا لغز أرجو من القارىء أن يتسلى بحله قبل قراءة هذا الحل في السطور التالية.

الحـل: أمـامنـا في هذا اللغز ثلاثة عناصر: الألف المتقدمة، والهاء المتأخرة، واللام (المنقلبة عن الهاء منه)؟

بما أن الألف متقـدمـة والهـاء متأخرة، إذن، فاللام متوسطة بينهما، ويكون اللغز هو كلمة «إله».

ويحوي هذا اللغز لغزاً آخر هو قوله: «والهاء مني»، التي يعني بها: «الهاء من الضمير «هو» العائد عليه». وأترك للقارىء التسلي بتحليله وإلى ماذا يشير؟

★ ومن اورادهم:

. . . يا هو يا الله «ثلاثاً» لا إله غيرك، اسْقِنا من شراب محبتك، واغمسْنا في بحار

(١) الفيوضات «ورد الاثنين»، ص١٤٤.
(٢) الفيوضات «ورد الأربعاء»، ص١٤٥.

أحديتك، حتى نرتع في بحبوحة حضرتك، وتقطع عنا أوهام خليقتك[1]. . .

★ ومنها: اللهم صلِّ وسلم على من له الأخلاق الراضية . . . الأنيس بك والمستوحش من غيرك، حتى تمتّع من نور ذاتك، ورجع بك لا بغيرك، وشهد وحدتك في كثرتك[1]. . .

★ ومنها: . . . وطهِّرْنا من قاذورات البشرية، وصفِّنا بصفاء المحبة الصدِّيقية من صدإ الغفلة ووهم الجهل، حتى تضمحل رسومنا بفناء الأنانية ومعاينة الطِّمْسَة الإنسانية في حضرة «الجمع»، والتحلية، والتحلِّي بألوهية الأحدية، والتجلِّي بالحقائق الصمدانية في شهود الوحدانيّة، حيث لا حيث ولا أين ولا كيف، ويبقى الكل لله وبالله ومن الله وإلى الله ومع الله غَرَقاً بنعمة الله في بحر منّة الله[2]. . .

★ ومنها: . . . صلاةً هُوَلها أهل، صلاة تُفرِّج بها عنا هموم حوادث عوارض الاختيار، تمحو بها عنا ذنوب وجودنا بباء سماء القُربة حيث لا بين ولا أين ولا جهة ولا قرار، وتُفنينا بها عنّا في غياهب غيوب أنوار أحديتك، فلا نشعر بتعاقب الليل والنهار، وتحوّلنا بها سماحَ رياح فُتوح حقائق بدائع جمالِ نبيك المختار، وتُلحقنا بها أسرارَ ربوبيتك في مشكاة الزجاجة المحمدية، فتُضاعِف أنوارنا بلا أمدٍ ولا حدٍّ ولا إحصار[3].

★ ومن أورادهم:

. . . وأيِّدْني اللهم عند شهود الواردات بالاستعداد والاستبصار، وأفِضْ عليّ مِن بحار العناية المحمدية والمحبة الصدِّيقية ما أندرجُ به في ظُلَم غياهب عيون الأنوار، واجْمَعْني، واجعل لي بَيْنَ سرِّك المكنون الخفي والاستظهار، واكشف لي عن سر أسرار أفلاك التدوير في حواشي التصوير، لأدبِّر كلَّ فلكٍ بما أقمته من الأسرار، واجعلْ لي الحظَّ الخطير الممدود القائم بالعدل بين الحرف والاسم، فأُحيطَ ولا أُحاطَ، بإحاطة: ﴿لِمَن المُلْكُ اليوم لله الواحدِ القهّار﴾[4].

ـ الرجاء الانتباه بإمعان إلى الجملة «فأُحيط ولا أُحاط . .»! وبأي إحاطة؟!

---

(1) الفيوضات «ورد صلاة الكبرى»، ص١٥٨.
(2) الفيوضات «ورد صلاة الكبرى»، ص١٦٧.
(3) الفيوضات، ص١٧٧.
(4) الفيوضات، «حزب الحفظ»، ص١٨٣ و ١٨٤.

بإحاطة: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾!! وفهمكم كفاية.

- ومن الجدير بالملاحظة أن الطريقة القادرية (بل كل الطرق الصوفية) تتبنى عينية عبد الكريم الجيلي، التي مر أبيات كثيرة منها، يتبنّونها على أنها من نظم عبد القادر الجيلاني. ولا يهمنا نسبتها لهذا أو لذاك، وإنما الذي يهمنا هو تبنّيهم لها، ويستطيع القارىء الرجوع إليها في صفحات سابقة، ولا بأس من إيراد بيتين منها:

وما الخَلْقُ في التِّمثال إلا كثلجةٍ وأنت لها الماءُ الذي هو نابعُ
وما الثلجُ في تحقيقنا غير مائه وغَيْرانِ في حكمٍ دعته الشرائعُ

★ ومن أوراد الطريقة الرفاعية (ويستعملها غيرهم):

. . . فكفى به برهان عينِ علمك المكنون، ببحرِ سرّ معنى نَ، ودقيقة أمرك المصون، بتجلّي بهاءِ إشارةِ كُنْ فيكون، واسطة الكلّ في مقام الجمع، ووسيلة الجمع في تجلي الفرق، رحمة للعالمين قبل العالمين[1]. . .

★ ومن أوراد الرفاعية من «صلاة الأنس»:

. . . اللهم صل على أَلِفِ إنْس إنسان الأزل، بحكمة باء برهان من لم يزل، أصلِ الأشياء الكلية، آدم في حقيقة البداية، أثرِ السرّ في آثار خفايا المظاهر الخفية، أولِ الكل في أول الأولوية. . . المتجلي في سماء المعرفة بظهور مظهَرِ شهادة الرحمن، محمدي الذات، المدلّى إلى قاب الوحدة بتجلّي مَوْكِبَيْ العناية والإحسان. . . أصل السبب في الإيجاد، فالكلُّ منه والكلُّ إليه، خزانة الأسرار، فالوارد والذاهب عنه وإليه[2]. . .

★ ومن أورادهم:

اللهم صلِّ على المتخلق بصفاتك، المستغرق في مشاهدة ذاتك، رسول الحق، المتخلق بالحق، حقيقةِ مدد الحق: ﴿أحقٌّ هو قل إي وربي إنه لحق﴾. . . وقد جعلتَ كلامَك خُلُقَه، وأسماءَك مَظْهَره، ومنشأ كونك منه[3]. . .

---

(1) قلادة الجواهر، ص٢٥١.
(2) قلادة الجواهر، ص٢٦٣.
(3) بوارق الحقائق، ص٣٢٦.

★ ومنها: اللهم اجْمعنا بك عليك، واردُدْنا منك إليك، وأَرشدنا في حضرة جمع الجمع، حيث لا فُرقة ولا منع[1]. . .

★ ومنها: اللهم بك توسلت. . أن تصلي عليه صلاةً أبدية ديمومية قيومية إلٰهية ربانية، تصفينا بها من شوائب الطبيعة الآدمية بالسحق والمحق، وتطمس بها آثار وجودنا الغيرية عنا في غيب غيب الهوية، فيبقى الكل للحق في الحق بالحق[2]. . .

★ ومن الأدعية التيجانية (ويستعملها غيرهم):

اللهم حقِّقْني بك تحقيقاً يُسقِط النِّسب والرتب والتعيينات والتعلّقات والاعتبارات والتوهُّمات والتخيلات، حيث لا أين ولا كيف ولا رسم ولا علم ولا وصف ولا مساكنة ولا ملاحظ، مستغرقاً فيك بمحو الغَيْر والغيرة بتحقيقي بك مِن حيث أنت كما أنت وكيف أنت، حيث لا حسّ ولا اعتبار إلا أنت بك لك عنك منك، لأكون لك خالصاً وبك قائماً وإليك آيباً وفيك ذاهباً بإسقاط الضمائر والإضافات[3]. . .

★ ومن أدعيتهم «ياقوتة الحقائق»:

الله الله الله. اللهم أنت الله الذي لا إلٰه إلا أنت العالي في عظمةِ انفرادِ حضرةِ أحديتك التي شئتَ فيها بوجود شؤ ونك، وأنشأت من نورك الكامل نشأَةَ الحق، وأنطقْتها وجعلتها صورة كاملةً تامةً تَجدُ منها بسبب وجودها من انفراد أحديتك قبل نشر أشباحها، وجعلتَ منها فيها بسببها انبساطَ العلم، وجعلت من أَثَر هذه العظمة ومن بركاتها شبحة الصّور كلها، جامدها ومتحركها، وأَنْطقْتها بإقبال التحريك والتسكين، وجعلتها في إحاطة العزة من كونها قبلتَ منها وفيها ولها، وتشعشعتِ الصورُ البارزة بإقبال الوجود، وقدرتَ لها وفيها ومنها ما يماثلها مما يطابق أرقام صورها، وحكمتَ عليها بالبروز لتأدية ما قدَّرْتَه عليها، وجعلتها منقوشةً في لوحها المحفوظ الذي خُلِقت منه ببركته، وحكَمْتَ عليها بما أردتَ لها وبما تريد بها، وجعلتَ كلَّ الكل في كلك، وجعلت هذا الكلَّ من كلك، وجعلت الكلَّ قبضة من نور عظمتك روحاً لما أنت أهلٌ له[4]. . .

---

(١) بوارق الحقائق، ص٣٢٨.

(٢) بوارق الحقائق، ص٣٤٠.

(٣) ميزاب الرحمة الربانية، ص٢٣.

(٤) الميزاب، ص٢٥.

★ وفي الطريقة النقشبندية:

مرّ معنا قول الشيخ سلامة العزّامي[1] واصفاً شيخه أمين الكردي:

. . . وكان يرى أن القول بوحدة الوجود من سُكر الوقت وغلَبة الحال، يُعْذَرُ صاحبه إذا كان مغلوباً، ولا يَصِحُّ تقليدُ غيره له[2]. . .

ويقول محمد بن سليمان البغدادي الحنفي النقشبندي[3]:

. . . الإسرافُ السابق لا ينافي الجذب اللاحق، لأن كثيراً من الأولياء الأكابر جذبتهم الواردات الإلٰهية وهم في الإسراف والمعصية، وأما الإسرافُ اللاحق، إذا لم يَغْلِب على الخير، بل كان الأمر بالعكس، فلا يُحكَم به على هلاك صاحبه جزماً والطعنِ في حاله. . . واعلم أن الجذب وحده من غير سلوك في الطريق المستقيم بامتثال أوامر الحق تعالى والاجتناب عن نواهيه لا نتيجة له أصلاً. . . وكذلك السلوكُ بامتثال الأوامر واجتناب النواهي من غير جذب إلٰهي لا نتيجة له غير الدخول في حيّز العلماء والعبّادِ من أهل الظاهر[4]. . .

ـ وطبعاً، الجذبة هي التجلّي الإلٰهي، وفيها يحصل التحقق بالأسماء الإلٰهية والاستشعار بالاسم الصمد، أو بالألوهية.

★ ومن أذكار النقشبندية «ذكر النفي والإثبات» أي «لا إله إلا الله» جاء في آدابه:

. . . ضارباً بلفظ الجلالة على القلب منفذاً إلى قَعْره، بقوة يتأثر بحرارتها جميعُ البدن، مع ملاحظة معنى هذه الجملة، وهو أنه لا مقصود إلا ذات الله تعالى، وينفي بِشِقِّ النفي «لا إله» جميعَ المحدثات الإلٰهية، وينظرُها بنظر الفناء، ويُثبت بشِقِّ الإثبات «إلا الله» ذاتَ الحق تعالى وينظره بنظر البقاء. . . ويقول بقلبه قبل إطلاق كل نَفَس «إلٰهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي». . . فإذا انتهى العدد إلى أحدٍ وعشرين، تظهر

---

(١) أحد علماء الأزهر، عاش إلى ما بعد سنة ١٣٤٣هـ، ولم أقف على أكثر من هذه المعلومات، إلا أنه كان خليفة الشيخ أمين الكردي.

(٢) تنوير القلوب «ترجمة المؤلف»، ص٤٢.

(٣) بغدادي، من خلفاء الخالدية «نسبة إلى الشيخ خالد النقشبندي»، توفي سنة ١٢٣٤هـ.

(٤) الحديقة الندية في الطريقة النقشبندية، ص١٠٧.

له نتيجةُ هذا الذكر المبارك، وهي النسبة المعهودة عند سادتنا النقشبندية من الذهول والاضمحلال والاستغراق في شهود المذكور تبارك وتعالى[1]. . .

ـ والنقشبندية ينبهون إلى ما يلي:

مَنْ كان مستعدًّا لتَقَدُّمِ الجذبة على السلوك لقّنه الشيخ الذكر الأول «الله الله . . » ومَن كان مستعدًّا لتقدم السلوك على الجذبة لقّنه الذكر الثاني «لا إله إلا الله»[2]. . .

ومن أصولهم: «الأصل الرابع المراقبة»:

اعلم أيها الأخ أن المراقبة هي عِلْمُ المريد وتحقُّقُه باطلاع الله عليه، واستغراقُه بمشاهدة الحق، واستهلاكُه بالحضور الإلهي، وملازمةُ القلب لذلك، فإذا انتهى أَمْرُ السالكِ في المراقبة إلى انتفاءِ علْمِه بنفسه وبالأكوان، حصل له مبادي الفناء، وحينئذ يليقُ له أن يذكر باللسان «لا إله إلا الله» مع التدبُّر الحقيقي، وأقله خمسة آلاف في اليوم والليلة، فإذا فني عن فنائه، وهو المسمَّى بالفناء التام، أومبادي البقاء، حصل له أول درجة من درجات الولاية الصغرى، فإذا تم له البقاء تَشَرَّف بالولاية الكبرى[3]. . .

ـ نصوص النقشبندية هذه توضح لنا معنى الولاية، وعلاقة «ذوق معنى الأسماء الإلهية» بالجذبة، وعدم علاقة الجذبة بالأعمال الصالحة ولا بالسلوك.

★ ومن الأوراد الشاذلية (وغيرهم يستعملها):

مر معنا قولهم في الصلاة البشيشية ـ أو المشيشية ـ: «وزجَّ بي في بحار الأحدية وانشلْني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أحس إلا بها»[4]. . .

★ ومما جاء في الوظيفة الشاذلية «الممزوجة بصلاة سيدي عبد السلام بن بشيش، وتُقرأ صباحاً ومساءً»:

. . . اللهم صل وسلم بجميع الشؤون، في الظُّهور والبطون، على مَن منه

---

(١) السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية، ص٣٤.
(٢) السعادة، ص٣٤ و٣٥.
(٣) السعادة، ص٣٥.
(٤) النفحة العلية في الأوراد الشاذلية، ص٢٦.

انشقّت الأسرار الكائنة في ذاته العليةِ ظُهوراً . . وفيه ارتقت الحقائق منه إليه ، وتنزلت علوم آدم به فيه عليه . . ولا شيء إلا وهو به مَنُوط ، وبسرِّه الساري مَحُوط . . اللهم إنه سرُّك الجامع لكلِّ الأسرار ، ونورُك الواسعُ لجميع الأنوار . . . اللهم ألحقني بنَسَبِهِ الروحي . . وعرِّفني إياه معرفةً أشهد بها محياه وأصير بها مجلاه . . . وسِرْ بي في سبيله القويم وصراطه المستقيم إلى حضرته المتّصلة بحضرتك القدسية . . . وزجَّ بي في بحار الأحدية المحيطة بكل مركَّبةٍ وبسيطة ، وانشلْني مِن أوحال التوحيد إلى فضاء التفريد المنزه على الإطلاق والتقييد ، وأغرقْني في عين بحر الوحدة شهوداً ، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجدَ ولا أحسَّ إلا بها نزولاً وصعوداً ، كما هو كذلك لن يزال وُجوداً . . . وأيِّدْني بك لك بتأييد مَن سَلَكَ فَمَلَكَ ، ومن مَلَكَ فسَلَكَ ، واجمع بيني وبينك ، وأزِل عن العين غَيْنَك ، وحُلْ بيني وبين غيرك . . الله ، منه بدأ الأمر ، الله ، الأمر إليه يعود ، الله ، واجبُ الوجود وما سواه مفقود[1] . . .

★ ومن أورادهم «مناجاة ابن عطاء الله وتُقرأ وقتَ السحر» :

. . . إلهي كلّما أخرسني لُؤمي أنطقني كرمُك ، وكلما أياستْني أوصافي أطْمَعَتْني مِنَّتك . . وترددُي في الآثار يوجب بُعْدَ المزار ، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك . . . أيكون لغيرك من الظُّهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك؟ ومتى بَعُدْت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك . . . وحقِّقْني بحقائق أهل القُرْب واسلُكْ بي في مسالك أهل الجذب . . أنت الذي أشرقْتَ الأنوارَ في قلوب أوليائك ، وأنت الذي أزلْتَ الأغيارَ من أسرار أحبائك . . . يا من أذاق أحبّاه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه مؤتلفين ، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيْبَته فقاموا بعزته مستعزِّين . . . فاطلُبْني برحمتك حتى أصل إليك ، واجذبْني بمنّتك حتى أُقبِلَ عليك . . . وأنت تعرَّفتَ لي في كل شيء فرأيتك ظاهراً في كل شيء . . . ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار[2] . . .

---

(١) النفحة العلية ، ص١٨ .

(٢) النفحة العلية ، ص٢٤ و٢٥ و٢٦ .

★ ومن حزب الفتح لسيدي أبي الحسن الشاذلي :

« . . ونسألك الإحاطة بالأسرار . . وجلّت إرادتك أن يوافقها أو يخالفها شيء من الكائنات، حسبي الله (ثلاثاً) وأنا بريء مما سوى الله . . »[1].

- يُرجى من القارىء أن ينتبه لقوله : «وأنا بريء مما سوى الله» في معنييها، الظاهر والصوفي، وأن يلاحظ مدى شمول البراءة في المعنى الظاهر ! !

★ ومن حزب اللطيف لسيدي أبي الحسن الشاذلي قُدس سره :

« . . . إلٰهي لُطفُك الخفي ألطف من أن يُرى، وأنت اللطيف الذي لطفت بجميع الورى، حُجبت من سَرَيان سرّك في الأكوان فلا يشهده إلا أهل المعرفة والعيان، فلما شهدوا سر لطفك بكل شيء أمنوا به من سوء كل شيء . . »[2].

★ ومن الأوراد الخلوتية من «الدرة الشريفة» للعارف بالله الشيخ عبد الرحمن الشريف :

« . . . صلِّ اللهم عليه أكمل صلوات بدوام التنزيلات العارية عن السوى، وأبْدِ التنقلات المخبآت عن من التوى، ما بَطَنَ الباطنُ بانطوائه في الوجود، وبدأ الظهورُ فعمَّ بصائر أهل الشهود . . . وبجلال صولة عنايتك القَهْرَموتية، صفِّ بواطننا من الأغيار، وظواهرنا من الأكدار، صفاءً صفَّته يدُ جذباتك، ففاز بمعالي قرباتك، حتى نخرج من وبال عضال أطوار البشرية، ونراقبك من دون غيرية، ونشهد حضرتك من غير معية . . . »[3].

★ ومن أورادهم من الصلوات الدرديرية :

« . . . وأنْعِم علينا بتجلي الأسماء والصفات، وصلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وأغْرِقْنا في عين بحر الوحدة السارية في جميع الموجودات، وصلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وأبْقِنا بك لا بنا في جميع اللحظات . . . وأذقنا لذة تجلّي الذات، وأدِمْها علينا ما

---

(١) النفحة العلية، ص١٤٤ .

(٢) النفحة العلية، ص١٥٥ .

(٣) مجموع أوراد الطريقة الخلوتية الجامعة الرحمانية، ص٣ .

دامت الأرض والسماوات»[1].

للعلم: الصلوات الدرديرية هي صلوات (بشكل أوراد) متفرقة لمتصوفة سابقين، جَمَعها أحمد الدردير وتبنّاها وأضاف إليها؛ وهي بذلك مثل دلائل الخيرات..

★ ومن وِرْدِ السَّحَر، للعارف بالله الشيخ مصطفى البكري:

«اللهم رقِّقْ حجاب بشريَّتي بلطائف إسعافٍ مِن عندِك، لأشهد ما انطوت عليه مِن عجائبِ قدسك...»[2].

★ ومنه: «إلهي صرِّفنا في عوالم الملك والملكوت، وهيِّئنا لقبول أسرار الجَبَروت، وأفِضْ علينا من رقائق دقائق اللاهوت»[3].

★ ومنه: «إلهي، نحن الأسارى فمِن قيودنا فأطْلِقنا... نسألك بأهل عنايتك الذين اختَطَفَتْهم يدُ جذباتك، وأدْهشَتْهم سناء تجلياتك، فتاهوا بعجيب كمالاتك...»[4].

★ ومن أورادهم «الخلوتية»:

«... اللهم افتح لنا أقفال قلوبنا بمفاتيح عنايتك... اللهم جذبةً من جذباتك تكشف حجابَ الوهم عن عين اليقين، ونفحةً من نفحاتك نلتمس بها مراتبَ أهل الرسوخ والتمكين...»[5].

★ ومنها:

ندعوك يا الله بالآيات والذ	كر الحكيم بمَظْهرِ الأسماء
بالشُّكر بالغيبات مِن صحوٍ كذا	بالشُّرب والريِّ العلي ثناء
بالزاجرات وأهلها ومقامهم	وبسيرهم من عالَم الأشياء
وبوحدة الذات العليِّ ووصفِها	وبوحدة الأفعال يا مولائي
وبوحدة الأسما الكثيرة خصَّنا	بالجمع ثم بجمعه الأسماء

(1) مجموع أوراد الخلوتية، «حرف التاء».
(2) مجموع أوراد الخلوتية، «حرف الراء».
(3) مجموع أوراد الخلوتية، «حرف الصاد».
(4) مجموع أوراد الخلوتية، «حرف النون».
(5) مجموع أوراد الخلوتية، «حزب السيف».

بالـفـرقِ رَبِّ وفَـرقـه زِلْ غَـيـنـنـا عن عين حقـك يا بديـع سماء
وأنـلْنـا معـرفـة الـيـقـين وعينَـه بالحق وامْـحُ الـغـيرَ من أحشـائي
بالـرؤ يـة الـلأتـي بكـم منكـم لكـم ويـوجـد أهـلِ الله دم لي هنـائـي
بِفَـنـائـهـم وصَـفـائـهـم أَفْنِ الـفـؤا دَ عن الـسـوى واجعلْنـا أهـل صفـاء
واجعلنـا من أهــل الـرسـوخ بجمعنا وأَدِمْ سلوك عبـيـدِك الـضـعـفـاء
بِهُويـة الـسِّـريـان في كل الـورى بالمـحْـقِ المَحْـقِ يا إلهـي شقـائـي
بالهـوّ والـتـجـريـد جرّدْنـا عن الـ أغـيـار وأفْـرِدْنـا بكـل علاء
بالهـوت والـلاهـوت والمـلكـوت والـ جبروت صفّ الـسـيرَ من وعـشـائي
بالجـذب ثم بأهـله اسْـقِ الـفـتـى من فيض سرٍّ قد سمـى ببـهـاء
بالـصحـو أرجعنـا إلى الإحسـاس مِنْ بعـدِ الهـبـاء وغـيـبـة الـنـزلاء[1]

ـ تبلغ القصيدة اثنين وأربعين بيتاً، تحتوي اصطلاحات الصوفية، أو أهمها، وهي أدعيـة، كما نرى، يُطلبُ بها الـوصـول إلى الجـذب ومـا يستشعـره المجذوب ويذوقه من الوحدة. والشاعر الذي قال هذه القصيدة ضعيف باللغة والشعر! فكشفه لم يسعفه!

★ ومن أورادهم:

وهَـبْ لي أيـا ربـاه كشـفـاً مقـدسـاً لأدري به سِرَّ الـبـقـاء مع الـفـنـا
وجُـدْ لي بجمـع الجمـع فضـلاً ومِنَّـةً وداوِ بوصـل الـوصـل روحي من الضنا
وسِـرْ بي على الـنـهـج القـويم موحّـداً وفي حضـرة الـقـدس المنيـع أَحِلَّنـا
ومُـنَّ علـيـنـا يا ودود بجـذبـةٍ بها نلحـق الأقـوام مَنْ سار قبلنـا[2]

★ ومن أوراد الطريقة الرشيدية «الصلوات الإدريسية»:

«... وتجلَّ لي يا إلهي باسم الذات، الاسم الله، مَرْجِعِ الصفات والأسماء الخفية توحيـداً صرفـاً، تجليـاً ينسف بصرصر عظمته وكبريائه جبالَ الخيالات الخَلْقية في نظري نسفـاً فيـذرهـا قاعـاً صفصفـاً، فتزول غشاوةُ عمشِ الأغيار عن بصري وبصيرتي، بل وعن ذاتي كلهـا، حتى تكـون ذاتي كلُّهـا عينـاً ذاتيـة إلهية من جميع الوجوه، وأكون كلي

(١) مجموع أوراد الخلوتية، «حرف الهمزة».
(٢) مجموع أوراد الخلوتية، «منظومة أسماء الله الحسنى».

وجهاً واحداً إلهيًا لا أعلم من جميع جهاتي ولا أشهد ولا أرى في «إياي» وفي كل شيء وفي لا شيء إلا إياك . . »[1].

★ ومنها: «اللهم صل على مَظْهر العظمة الإلهية[2]، جمعية عيون الحقائق الرحموتية[3]، سرِّ ملكوت الأسماء المعبرِّ عنه بالعَماء قبل خلق أرض وسماء[4]، ساذَج الذات الإحاطية الوجود، نقطةِ دائرة الكمال الإلهي في الغيب والشهود السذاجة الصرافة[5]، غيب هو[6]، فصلِّ اللهم عليه بِهُوَ، في هُوَ، كله هُوَ . . »[7].

★ ومن الصلوات الإدريسية «الرشيدية» أيضاً:

« . . . أن تصلي على النور الذاتي، والمنظر الصفاتي، مجلى الحقائق القرآنية، صورةِ مادّة التجليات الفرقانية[8]، الحاجز بين خَلْقِك وسبحات وجهك، كل الكل، في سرِّ تجلي كل الكل[9]، حيث الكل للكل قبوض الجمال والجلال والكمال، مِنْ «حيث لا حيث» إلى «حيث لا حيث» في «حيث لا حيث»، فصلِّ اللهم عليه وسلم مِنْ «حيث لا حيث» إلى «حيث لا حيث» في «حيث لا حيث» كما أنتَ حيث لا حيث . . . »[10].

★ ومنها: «اللهم صل على الذات الكُنْه، قِبْلة وجوه تجليات الكنه[11]، عين الكُنْه في الكُنْه، الجامع لحقائق كمال كُنْه الكُنْه، القائم بالكنه في الكنه للكنه، صلاةً لا غاية لكنهها دون الكنه، وعلى آله وصحبه وسلم، كما ينبغي مِن الكنه للكنه، اللهم إني أسألك بنور الأنوار الذي هو عينك لا غيرك[12] . .

★ ومنها «الصلاة السادسة»:

اللهم صل على أم الكتاب، كمالات كُنْه الذات، عين الوجود المطلق، الجامع لسائر التقييدات[13]، صورة ناسوت الخلق، معاني لاهوت الحق، الناظر بالكل في الكل

(١) النفحات الأقدسية، ص١٦ و١٧.
(٢) النفحات الأقدسية، ص٥٨.
(٣) النفحات الأقدسية، ص٦١.
(٤) النفحات الأقدسية، ص٦٢
(٥) النفحات الأقدسية، ص٦٣.
(٦) النفحات الأقدسية، ص٦٠.
(٧) النفحات الأقدسية، ص٦٩.
(٨) النفحات الأقدسية، ص٧٦.
(٩) النفحات الأقدسية، ص٧٩.
(١٠) النفحات الأقدسية، ص٨٠.
(١١) النفحات الأقدسية، ص١٠٢.
(١٢) النفحات الأقدسية، ص١٠٤.
(١٣) النفحات الأقدسية، ص١٠٦.

من الكــل للكليــات والجــزئيــات، كوثــرِ سلسبيــل منهــلِ حوضِ مشــاربِ جميعِ التجليات[1]، الملتذّ بصورة نفسه في جَنّة فردوس ذاته بنَظَره به منه إليه فيه[2]. . . . روح ذات الوجود، مجمع حقائق اللاهوت المشهود[3]. . . مبدأ الكل ومرجع الكل وهو الكل في الكل بلا بعضٍ ولا كل. . »[4].

★ ومنها «الصلاة العاشرة»:

اللهم صل على سلطان حضرة الذات[5] مالكِ أزمّة تجليات الصفات، قطبِ رحا عوالم الألوهية[6]. . . جَمَعَ الجمع وفرّقَ الفرقَ من حيث لا جمع ولا فرق[7]. . .

ـ الصلوات الإدريسيـة هذه هي من أوراد الطـريقـة الـرشيدية، وتظهر فيها «وحدة الـوجـود» مع «الحقيقـة المحمـديـة» بوضوح تام، والحقيقة المحمدية هي الجزء الأهم في عقيدة «وحدة الوجود».

★ وفي الطريقة الأويسية (منتشرة في إيران):

يقول الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا، مخاطباً شيخ الطريقة مولانا محمد صادق عنقا [8]:

. . . ومن ناحية أخرى، فإني أدركت من خلال دراسة كتبكم وتفحيصها، وأيقنتُ من ثنـايـا تتبـع خطكم الفكـري، أنكم تؤمنون بأن الحقيقة واحدة، ولكنها تنطق في كل زمانٍ بلسان مختلف، وأن الله واحد والوجود كلـه ناطق بكلماته، وأن ذات الموجودات هي ذات الحق، وأن الشيء الذي كان يُظن أولاً أنه ذات مغايرةٌ لذات الحق، ليس شيئاً في

---

(١) النفحات الأقدسية، ص١٠٧.
(٢) النفحات الأقدسية، ص١٠٩.
(٣) النفحات الأقدسية، ص١١٨.
(٤) النفحات الأقدسية، ص١٢٥.
(٥) النفحات الأقدسية، ص٢٢٧.
(٦) النفحات الأقدسية، ص٢٣١.
(٧) النفحات الأقدسية، ص٢٨١.
(٨) كان هذا في لقاء بينهما عام ١٩٧٤م في قرية «صوفي آباد» وهي لا تبعد كثيراً عن طهران.

الحقيقة، بل ليس ثم شيء إلا ذات الحق كما يقول ابن طفيل[1].

أخيراً..

إن في هذه النصوص الوحدوية المقدَّمة حتى الآن، كفايةً وكفاية، وأكثر من الكفاية، للدلالة على أن وحدة الوجود هي عقيدة القوم التي تقوم عليها الصوفية.

فالصوفية هي وحدة الوجود مغلَّفةً بالتقية، ووحدة الوجود المغلفة بالتقية هي الصوفية.

وهناك كتاب لا يكاد يخلو منه مسجد ولا بيت، يكاد يكون مقدساً لدى كل الطرق الصوفية، إنه كتاب «دلائل الخيرات» لمؤلفه محمد بن عبد الرحمن بن سليمان الجزولي السملالي.

إن كتاب «دلائل الخيرات» معتبر لدى كل الطرق الصوفية، يقرأ صباحاً ومساءً كل يوم، بل هو معتبر عند كثير ممن لا ينتمون إلى الصوفية. ومما جاء فيه:

... وفقني لاتباعه والقيام بآدابه وسننه، واجمعني عليه، ومتِّعني برؤيته، وأسعدني بمكالمته، وارفع عني العلائق والعوائق والوسائط والحجاب، وشنِّف سمعي معه بلذيذ الخطاب[2]...

- أُنبه هنا، إلى أن الذي يحتاج إلى توضيح معاني هذه العبارات، بعد مئات الصفحات السابقة، مثل هذا الإنسان عليه أن يشكو حاله إلى الله جل شأنه.

ومما جاء فيه:

... الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، يا هو، يا من لا هو إلا هو، يا من لا إله إلا هو[3]...

---

(١) من الفكر الصوفي الإيراني المعاصر، ص٦٨. وابن طفيل فيلسوف أندلسي مشهور، وهو مؤلف كتاب «حي بن يقظان».

(٢) دلائل الخيرات، ص١٥.

(٣) دلائل الخيرات، ص٢٢٣.

وبما جاء فيه أيضاً (صلوات الذات):

اللهم صلِّ على سيدنا محمد نور الذات وسرِّه الساري في جميع الأسماء والصفات[1]...

- نكتفي بهذا القدر من النصوص الوحدوية، ففيه، كما قلنا، كفاية وكفاية، وأكثر من الكفاية.

وهذه النصوص، رغم كثرتها، ما هي إلا جزء ضئيل من عباراتهم المشيرة إلى وحدة الوجود، والتي لو جمعت لملأت ألوفاً من الصفحات.

وكثير من أقوالهم ونصوصهم الوحدوية التي أهملتُها، هي أكثر وضوحاً من بعض ما أوردته على صفحات هذا الكتاب. لكني أهملت تلك، وأوْردت هذه، لأقدم للقارىء أكثر ما يمكن من أنواع عباراتهم ورموزهم وإشاراتهم وألغازهم.

البـحـر لا شك عنـدي في توحُّـدِه وإن تعـدَّد بالأمـواج والـزبـد
فلا يغـرَّنْـك ما شاهـدتَ من صور فالـواحـدُ الربُّ ساري العين بالعدد

«التلمساني»

(١) دلائل الخيرات، ص٢٣٣.

□ **النتيجة :**

مِن كلِّ ما سَبَقَ نستنتج ما يلي :

- الصوفية هي وحدة الوجود والطريقة التي توصل السالك إلى ذوقها واستشعارها .

- يَعْلمون أن وحدة الوجود هي كفر وزندقة بالنسبة للشريعة ، لذلك يتواصون بكتمانها عن غير أهلها .

- كلهم يؤمنون بها من أولهم إلى آخرهم ، قديمهم وحديثهم ، عارفهم وأُمِّيهم ، مشهورهم ومجهولهم ، (لكنهم يكتمونها عن المبتدئين حتى يتأكدوا من إخلاصهم) .

- عندما نسمع بعبارة «الصوفية الحقة» فهي تعني شيئاً واحداً ليس غير ، إنها تعني «وحدة الوجود» ، والطريق المؤدية إليها ، ثم كتمانها عن غير أهلها .

- من أجل التعمية على أهل الظاهر - أهل الشريعة - أوجد لهم سيدهم الجنيد مصطلحاتٍ خاصةً بهم ، يسجلون بها أوهامهم في كتبهم ، وينقلونها إلى مريديهم .

- وزيادة في التزوير والخداع ، اخترعوا أحاديث على لسان الرسول ﷺ ليؤيدوا بها عقيدتهم .

وزيادة في التزوير والخداع ، أوَّلوا بالباطل آيات القرآن وأقوال الرسول ﷺ ، ليؤيدوا بالتأويل الباطل عقيدتهم .

- وزيادة في التزوير والخداع ، ومن أجل التلبيس على البسطاء والسذَّج ، نشروا بين الناس أن عقيدتهم تعتمد على القرآن والسنة ، وأنها لا تناقض القرآن والسنة ، وأنها مؤيدة بالقرآن والسنة !؟

- وزيادة في التزوير والخداع الذي لا حدود له ، قالوا : إن طريقتهم هي الزهد وتربية

النفس، وأنها السير إلى الله والعروج إليه.

- وبإيحاء شياطينهم وأوهامهم، سمُّوا أنفسهم بأسماء فيها من الجرأة على الله سبحانه وتحدي قرآنه وسنة رسوله ما تجاوز كل حد وكل ذوق، حتى جعلوا أنفسهم يتصرفون في الكون، وحتى جعلوا أنفسهم أو جعلوا الواصلين منهم، متحققين بالاسم الأعظم «الله» أي أن الواصل هو الله.

فهم العارفون الصديقون الصادقون المقربون الأولياء الصالحون الأتقياء الأنقياء رغم جهلهم وضلالهم وكذبهم وبعدهم عن الشريعة الإسلامية وتوليهم الشيطان وممارستهم طقوساً لا تمت إلى الإسلام بصلة وتأليههم البشر والقبور والحجارة والشجر، وهم يطبقون هذا التأليه عمليًا وينكرونه نظريًا أمام أهل الظاهر (أهل الشريعة)، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وللحقيقة. إنهم كلهم، مشايخهم ومريديهم (إلا النادر من المبتدئين) يؤمنون بأنهم على حق فيما هم عليه، وأنه هو ما يسمونه «مقام الإحسان»، وعندما يكذبون ويتاقون فهم يرون أن هذا هو الحكمة الإلٰهية، التي أرادها الله لعباده!

ومن العجب أن هذه الحكمة مفروضة فقط على متصوِّفة المسلمين، أما الهندوس والبوذيون والطاويون والجينيون فليست مفروضة عليهم، لأنهم يقولون بوحدة الوجود بكل صراحة، والفرق بين المتصوفة وبين أهل تلك الأديان، أن المتصوفة يكذبون ويجعلون الله سبحانه وتعالى مثلهم، بحجة أنه يغار على السر (جل وعلا علوًا كبيراً).



□ لا حلول ولا اتحاد:

يتردد بين كثير من العلماء، وفي بعض الكتب، أن المتصوفة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم يؤمنون بالحلول، وقسم يؤمنون بالاتحاد، وقسم يؤمنون بوحدة الوجود. ويجعلون الحلاج مثلاً للحلوليين، وعمر بن الفارض مثلاً للاتحاديين.

* ومعنى الحلول: أن الله (سبحانه وتعالى عما يصفون) خلق الخلق، وحل فيه، كما يحل الإنسان في الثوب الذي يلبسه، أوكما يحل الماء في التراب عند مزجه، فيكونان بذلك اثنين متماسَّين (تعالى الله).

* ومعنى الاتحاد: أنه سبحانه خلق الخلق واتحد به، وضرب بعضهم مثلاً لذلك: اتحاد الماء بالخمر، مع أن هذا هو حلول في حقيقته وليس اتحاداً، وأصح منه مثلاً: اتحاد الكلور مع الصوديوم حيث يشكلان ملح الطعام. فيكونان بذلك متحدين، أومتماسَّيْن بالاتحاد.

* أما وحدة الوجود فقد عرفناها جيداً من النصوص السابقة، إنها تعني أنه ليس في الوجود إلا واحد هو الله، وكل ما نرى هو أجزاء منه تتعين بأشكال مختلفة، بما في ذلك أنا وأنت وهو وهي وهما وهم وهن، والأرض والشمس والقمر والنجوم والملائكة والجن، بما في ذلك الشياطين والحيوانات والحشرات.

والحقيقة، أن هذا التقسيم وهم لا حقيقة له في الواقع، فجميع متصوفة المسلمين من أولهم إلى آخرهم هم على مذهب «وحدة الوجود» وكل ما مر هو براهين على ذلك، نضيف إليه قولاً للحلاج ينفي الاثنينية، وآخر لعمر بن الفارض ينفي به الاثنينية أيضاً، وأقوالاً لبعضهم تنفي الحلول والاتحاد.

يروى عن عبد الودود بن سعيد بن عبد الغني الزاهد قال:

. . . قلتُ له (أي للحلاج): كيف الطريق إلى الله تعالى؟ قال: الطريق بين

اثنين، وليس مع الله أحد. فقلت: بيّن! قال: مَن لم يقفْ على إشارتنا لم ترشده عبارتنا، ثم قال:

أأنــتَ أم أنـا هذا في إلهــين ... حاشــاك حاشـاك من إثبـات اثنـين[1]

ويقول عمر بن الفارض:

ومـا شانَ هذا الشـأنَ منـك سوى السـوى ... ودعــواه حقًّـا عنـك إن تُمحَ تثـبـت
كذا كنــت[2] قبـل أن يُكْـشَـفَ الـغِطـا ... مِنَ الـلّبس لا أنـفـك عن ثنـويـة
متـى حلتُ عن قولي «أنـا هي» أو أقـل ... - وحــاشـا لمثـلي - «أنهـا فيَّ حلّت»
وسـرُّ «بـلى»[3] لله مرآة كشـفـهـا ... وإثبـاتُ معنى الجمـع نفيُ المعيـة[4]

وأقوالهم في استنكار الحلول والاتحاد ونفي وجود من يؤمن بهما كثيرة، نكتفي منها برشفات:

يقول الطوسي، صاحب اللمع «عنواناً لباب في كتابه»:

باب في ذكـر غلط الحلوليـة وأقـاويلهم، على ما بلغني، فلم أعرف منهم أحداً، ولم يصحّ عندي شيء غير البلاغ[5].

ويقول محمود أبو الفيض المنوفي:

... فمَنْ مِن الصوفية يا ترى يعتقد أن الذات الإلهي العظيم المقدس المنزه الذي لا يحيـط به شيء، ولا يحتـويـه شيء من المكـان على سعتـه، ولا الزمان على امتداده، يتّحد أو يحلّ بشيءٍ من مخلوقاته، إلا أن يكون جاهلاً بالتصوف وبالإسلام، أو مدَّعياً أو متطفّلاً على التصوف والإسلام، وإذن فليكفّ المتخرصون الجاهلون عن تخرصهم بغير علم عن التصوف الحق وأهل التصوف، وليَدَعوا أمر الخالق الذي له في خلقه الكثير من

---

(١) أخبار الحلاج، ص٥٧.
(٢) ليستقيم الوزن يجب أن تكون «كذا كنت قدماً أو حيناً...».
(٣) كلمة «بلى» يشير بها إلى الآية: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى...﴾.
(٤) الأبيات، التائية الكبرى.
(٥) اللمع، ص٥٤١.

الشؤون[1].

● ملاحظة: لقد أحسن عندما فرق بين التصوف والإسلام.

ويقول ابن عجيبة:

... فلا وجـود للأشيـاء مع وجـوده، فانتفى القـول بالحلول، إذ الحلول يقتضي وجود السوى حتى يحلّ فيه معنى الربوبية، والفرض أن السوى عدم محض فلا يُتصور الحلول...

ونـزهـهُ في حكـم الحـلول فما له | سوى وإلـى توحيـده الأمـرُ راجـع

... فقد تقرر أن الأشياء كلها في حيز العدم... فانتفى القول بالاتحاد، إذ معنى الاتحـاد هو اقـتران القديم مع الحادث، فيتحدان حتى يكونا شيئاً واحداً، وهو محال، إذ هو مبنيٌّ أيضاً على وجود السوى، ولا سوى، وقد يُطلقون الاتحاد على الوحدة كقول ابن الفارض:

وهـامـت بها روحـي بحـيث تمازجـا | اتحـاداً ولا جِرمٌ تخلّله جرم[2]

ويقول محمد بهاء الدين البيطار:

... فالمظـاهـر عين الظـاهر، فليس إلا الله بلا مزج ولا حلول ولا اتحاد، بل القوم بريئون من جميع ذلك والله على ما نقول وكيل[3]...

● الملاحظات:

نلاحظ في هذه النصوص (وكثير غيرها) ما يلي:

١ - ينفون وجود من يؤمن بالحلول أو بالاتحاد، لأن ذلك يقتضي أن في الوجود موجودين، خالقـاً ومخلوقـاً، أو حسب تعبيرهم، الحق والسـوى، وبـما أنهم كلهم يؤمنـون أن السوى لا وجود له، إذن فلا يوجد فيهم من يؤمن بالحلول أو الاتحاد.

---

(١) معالم الطريق إلى الله، ص٤١٠.
(٢) إيقاظ الهمم، ص٤٥ و٤٦.
(٣) مرت في صفحة سابقة.

٢ ـ الحلاج يتبرأ من الاثنينية وينزه الخالق عن إثبات اثنين، إذن فهو لا يقول بالحلول.

٣ ـ ينفي ابن الفارض الاثنينية[1]، وينفي وجود المعية مع الحق، إذن فهو لا يقول بالاتحاد، وفي شعره يردد كلمة «الاتحاد» وهو يعني بها وحدة الوجود، ولا شيء غير ذلك.

* **الخلاصة:**

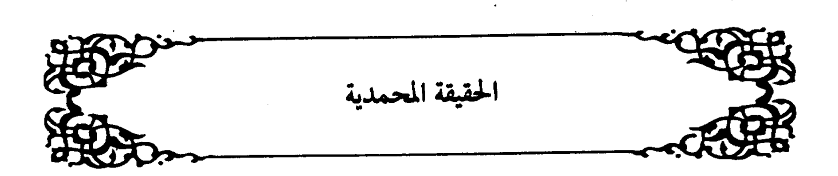
الصوفية مذهب واحد، لا يوجد فيهم من يؤمن بالحلول ولا الاتحاد ولا المزج ولا الوصل ولا الفصل، بل كلهم كلهم يؤمنون بوحدة الوجود، وقد غلط العلماء الذين قالوا: إن في الصوفية حلوليين واتحاديين، وكانوا واهمين.

جملة يتسلى القارىء بتحليلها:

يقول أحدهم: . . . وفي الحقيقة، لا فصل ولا وصل، ولذلك قيل:

ولا عن قِليً كان القطيعةُ بيننا ... ولكنه دهرٌ يُشتّ ويَجْمع

(١) مر هذا في الأبيات المنقولة من تائيته في صفحة سابقة.



الحقيقة المحمدية

وكيف تدعــو إلى الــدنيـا ضرورة من　　　لولاه لم تخرج الــدنيــا من العــدم

من النصــوص التــاليــة سنعــرف ماذا تعني «الحقيقة المحمدية» وسنعرف أن الصوفية كلهم يؤمنون بها.

يقول الحلاج :

طس، سراجٌ من نور الغيب بدا وعـاد، وجـاوَزَ الســراجُ وسـاد. . . ما أخبر إلا عن بصيرته، ولا أَمَرَ بسنته إلا عن حق سيرته، حَضَرَ فأحضر، وأبصر فخبَّر. . . أنوار النبوة من نوره برزتْ، وأنـوارهم من نوره ظهـرتْ، وليس في الأنـوار نورٌ أنْـوَرُ وأظهرُ وأقدمُ من القـدم سوى نور صاحب الكـرم. . . همتُـه سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم، لأنـه كان قبـل الأمم، ما كان في الآفـاق وراء الآفـاق ودون الآفـاق أظـرفُ وأشـرفُ وأعـرفُ وأنصفُ وأرأفُ وأخـوفُ وأعطفُ من صاحب هذه القضيـة، وهـو سيّد البـريـة، الذي اسمه أحمد، ونعتُهُ أوحد، وأَمْرُه أوكد، وذاتَه أوجد، وصفته أمجد، وهمته أفـرد. . . يا عجبـاً ما أظهـره وأنظـره وأكـبره وأشهره وأنوره وأقدره وأبصره، لم يزل، كان مشهـوراً قبـل الحـوادث والكوائن والأكوان، ولم يزل، كان مذكوراً قبل القَبْل وبعد البعد والجـواهـر والألـوان. . . هو الـدليـل وهو المدلول. . . بالحق موصول غير مفصول، ولا خارج عن المعقـول. . . العلوم كلهـا قطـرة من بحـره. . الأزمان كلها ساعةٌ مِنْ دهره، الحق وبه الحقيقة، هو الأول في الوصلة، وهو الآخر في النبوة، والباطن بالحقيقة، والظاهر

بالمعرفة . . . الحق ما أسلمه إلى خلقه، لأنه هو، وإني هو، وهو هو[1] . . .

● **الملاحظات :**

نرى في هذا النص ما يلي :

١ ـ ينكر الوحي، ويجعل الرسول ﷺ جاء بالرسالة من ذاته وبصيرته، ونرى هذا في الجمل (ما أخبر إلا عن بصيرته . . . حتى : وأبصر فخبر) .

٢ ـ يجعل محمداً ﷺ هو الله، وله جميع صفاته الحسنى .

ويقول محيي الدين ابن عربي :

. . . ثم تمّمها الجامع للكل محمدٌ ﷺ بما أخبر به عن الحق بأنه عينُ السمع والبصر واليد[2] . .

ـ قول ابن عربي هنا مختصر مفيد، فمحمد ﷺ جامع للكل . . .

ويقول أبو طالب المكي :

قال بعض أهل المعرفة : خلق الله الجنة بما فيها مِنْ نور المصطفى ﷺ، فلما اشتاقت إلى رسول الله ﷺ، كان شوقُها إلى المعدن والأصل، وصار شوق المشتاقين إلى الجنة شوقَهم إلى النبي ﷺ، لأنها من نوره خُلقت[3].

ويقول البوصيري في البردة :

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةُ مَن — لولاه لم تخرج الدنيا مِن العدم

* * *

دع ما ادّعته النصارى في نبيِّهم — واحكُم بما شئتَ مَدْحاً فيه واحتكم

* * *

---

(١) أخبار الحلاج «طاسين السراج»، ص٨٢ وما بعدها .

(٢) فصوص الحكم، ص١١٠ .

(٣) علم القلوب، ص٣٠ و ٣١ .

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علمَ اللوحِ والقلم

- أي أن محمداً ﷺ هو الذي أوجد الدنيا والآخرة.

ويقول محمد بن سليمان الجزولي في كتابه الذائع الصيت «دلائل الخيرات» وفيه الكفاية عن غيره:

اللهم صل على سيدنا محمد بحرِ أنوارك... إنسانِ عين الوجود، والسَّبب في كل موجود، عينِ أعيان خلقك المتقدِّم من نور ضيائك[1]...

- اللهم صل على محمد الذي هو قطب الجلالة[2]...

- اللهم صل على سيدنا محمد نور الذات وسرِّه الساري في جميع الأسماء والصفات[3].

ويقول عبد السلام بن بشيش:

... اللهم صل على مَن منه انشقَّت الأسرار وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق... وحياضُ الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا وهو به منوط... اللهم إنه سرُّك الجامعُ الدالّ عليك، وحجابُك الأعظم القائم لك بين يديك[4]...

ويقول سيدي محمد الفاسي الشاذلي:

... فهو الياقوتة المنطوية عليها أصداف مكنوناتك، والغيهوبة المنتَخَبُ منها معلوماتُك، فكان غيباً من غيبك، وبدلاً من سرِّ ربوبيتك، حتى صار بذلك مَظْهراً نستدل به عليك، فكيف لا يكون كذلك، وقد أخبرتنا بذلك في محكم كتابك بقولك: ﴿إنَّ الذين يُبايعونَك إنما يُبايعون الله﴾، فقد زال عنا بذلك الريب، وحصل الانتباه[5]...

---

(1) دلائل الخيرات، ص١٠٠.
(2) دلائل الخيرات، ص٢١٤.
(3) دلائل الخيرات، ص٢٣٣.
(4) النفحة العلية، ص١٥ و١٦.
(5) النفحة العلية، ص٣٣.

ـ إذن، فمعلومات الله، جل وعلا، منتخبة من غيهوبة محمد ﷺ، وهو بدل سر ربوبية الله، وهو مظهره، وقد أخبرنا الله تعالى في محكم كتابه أن محمداً هو الله، بقوله: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾.

ويقول عبد الكريم الجيلي:

أوجُ التعاظم مركزُ العزِّ الذي ... لِرحى العلا مِن حوله دورانُه
مَلِكٌ وفوق الحضرة العليا على ال ... عرش المكين مثبَّتٌ إمكانه
ليس الوجود بأسره إن حققوا ... إلا حباباً طفّحته دنانه
الكلُّ فيه ومنه كان وعنده ... تفنى الدهورُ ولم تزل أزمانه
فالخلقُ تحت سما علاه كخردلٍ ... والأمرُ يُبْرِمُه هناك لسانه
والكون أجمعه لديه كخاتم ... في إصبع منه، أجل أكوانه
والملك والملكوت في تياره ... كالقطر بل من فوق ذاك مكانه
وتُطيعُه الأملاكُ من فوق السما ... واللوح يُنفِذُ ما قضاه بنانه

* * *

اعلم، حفظك الله، أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود مِن أوله إلى آخره، وهو واحدٌ منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له تنوعٌ في ملابس، ويظهر في كنائس، فيسمّى به باعتبارِ لباسٍ، ولا يسمّى به باعتبارِ لباسٍ آخر، فاسمُه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين.

... واعلم أن الإنسان الكامل مقابلٌ لجميع الحقائق الوجودية بنفسه، فيقابل الحقائق العلوية بلطافته، ويقابل الحقائق السفلية بكثافته.. ثم اعلم أن الإنسان الكامل هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقْتَضَى الذاتي، فإنه المعبَّر عن حقيقته بتلك العبارات، والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات، ليس لها مستندٌ في الوجود إلا الإنسان الكامل، فمثاله للحق مثال المرآة التي لا يرى الشخص صورته إلا فيها، وإلا فلا يمكنه أن يرى صورة نفسه إلا بمرآة الاسم «الله» فهو مرآته، والإنسان الكامل أيضاً مرآته[1]...

---

(١) الإنسان الكامل: ٢ / ٧٣، وما بعدها.

- ومن صلواتهم عليه ﷺ في أورادهم:

★ **صلاة الإمام الغزالي، وقيل: إنها لعبد القادر الجيلاني:**

اللهم اجعل أفضل صلواتك أبداً... على أشرف الخلائق الإنسانية، ومَجْمَع الحقائق الإيمانية، وطُور التجليات الإحسانية، ومهبط الأسرار الرحمانية... ومالك أزمّة المجد الأسنى، شاهدِ أسرارِ الأزل، ومشاهدِ أنوارِ السوابق الأول، وترجمان لسان القدم... مَظْهر سرِّ الجود الجزئي والكلي، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي، روح جسد الكونين، وعين حياة الدارَيْن[1]...

- يقول العارف يوسف النبهاني، معلقاً على هذه الصلوات: قال سيدي أحمد الصاوي في شرح ورد الدردير: إن هذه الصلاة نقلها حجة الإسلام الغزالي عن القطب العيدروس...

وبالرجوع إلى كتاب «الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية على الصلوات الدرديرية» للإمام الهمام... أحمد الصاوي، نقرأ الجملة: «هذه الصلاة نقلها... إلخ» بحرفيتها[2]. ولم أقف على قطب معاصر للغزالي أو سابق له يعرف بالعيدروس، وأول قطب من عائلة العيدروس هو عبد الله بن أبي بكر المار ذكره، وقد وجد بعد الغزالي بثلاثة قرون.

وطبعاً نحن أمام الكشف الذي يعرضون عليه السمع والألفاظ الواردة، كما يقول الغزالي، فما شأننا؟!

★ **من صلاة لأحمد الرفاعي (جوهرة الأسرار):**

اللهم صل وسلم وبارك على نورك الأسبق... الذي أبرزْته رحمة شاملة لوجودك... نقطة مركز الباء الدائرة الأولية، وسرّ أسرارِ الألف القطبانية، الذي فتقْتَ به رتقَ الوجود... فهو سرك القديم الساري، وماء جوهر الجوهرية الجاري، الذي أحييْت به الموجودات، من معدن وحيوان ونبات، قلب القلوب، وروح الأرواح، وإعلام الكلمات الطيبات، القلم الأعلى، والعرش المحيط، روح جسد الكونين، وبرزخ

---

(١) أفضل الصلوات على سيد السادات، ص٨٣. (٢) الأسرار الربانية، ص٢٥.

البحرين[1]. . .

★ صلاة لأحمد البدوي:

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد شجرة الأصل النورانية، ولمعة القبضة الرحمانية . . . ومعدن الأسرار الربانية، وخزائن العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية . . . مَن اندرجت النبيون تحت لوائه، فهم منه وإليه[2]. . .

- لنتنبه إلى عبارة: «القبضة الأصلية»، التي تعني: القبضة التي قبضها الله سبحانه من نور وجهه، وقال لها: كوني محمداً (كما يفترون).

★ وصلاة ثانية له:

اللهم صل على نور الأنوار، وسر الأسرار، وترياق الأغيار[3].

★ صلاة إبراهيم الدسوقي:

اللهم صل على الذات المحمدية، اللطيفة الأحدية، شمس سماء الأسرار، ومظهر الأنوار، ومركز مدار الجلال، وقطب فلك الجمال[4].

★ صلاة لمحيي الدين بن عربي:

اللهم أفضْ صِلَةَ صلواتك . . . على أول التعينات المفاضة من العماء الرباني، وآخر التنزلات المضافة إلى النوع الإنساني، المهاجِر من مكةِ «كان الله ولم يكن معه شيء ثان» إلى مدينةِ «وهو الآن على ما عليه كان»، مُحْصي عوالم الحضرات الإلهية الخمس في وجوده: ﴿وكلَّ شيءٍ أحصيْناهُ في إمامٍ مُبين﴾ . . . نقطة البسملة الجامعة لما يكون ولما كان، ونقطة الأمر الجوّالة بدوائر الأكوان، سرّ الهوية التي في كل شيء سارية، وعن كل شيء مجردة وعارية . . . كلمة الاسم الأعظم، وفاتحة الكنز المطلسم، المظهر الأتم الجامع بين العبودية والربوبية، والنفس الرحماني الساري بموادّ الكلمات التامات،

---

(١) أفضل الصلوات، ص٨٤، وقلادة الجواهر، ص٢٤٩.
(٢) أفضل الصلوات، ص٨٥.
(٣) أفضل الصلوات، ص٨٦.
(٤) أفضل الصلوات، ص٨٨.

الفيض الأقـدس الـذاتي الـذي تعينت به الأعيـان واستعـداداتهـا، والفيض المقـدس الصفـاتي الـذي تكـونتْ به الأكوان واستمداداتها، مطلع شمس الذات في سماء الأسماء والصفـات. . . خَطّ الـوحـدة بين قوسي الأحـديـة والواحدية. . . ومركز إحاطة الباطن والظـاهـر. . . اللهم يا رب يا من ليس حجـابـه إلا النـور، ولا خفاؤه إلا شدة الظهور، أسألك بك. . . أن تصلي على سيدنا محمد صلاة تكمل بها بصيرتي. . . لأشهد فناء ما لم يكن وبقـاء ما لم يزل، وأرى الأشيـاء كما هي في أصلهـا معدومة مفقودة، وكوْنَها لم تشمُّ رائحة الوجود فضلاً عن كونها موجودة[1]. . .

★ صلاة لفخر الدين الرازي:

اللهم حيِّـد وجـرِّدْ في هذا الـوقت وفي هذه السـاعة من صلواتك التامات، وتحياتك الـزاكيـات. . . إلى أكمـل عبدٍ لك في هذا العالم، من بني آدم، الذي جعلتَهُ لك ظلاً، ولحـوائـج خلقـك قبلة ومحـلاً. . . وأظهرته بصورتك، واخترته مستوى لتجليك، ومنزلاً لتنفيذ أوامرك ونواهيك، في أرضك وسماواتك، وواسطةً بيْنَك وبين مكوناتك[2].

★ صلاة النور الذاتي لأبي الحسن الشاذلي:

اللهـم صـل وسلـم وبـارك على سيـدنـا محمـد النـور الـذاتي والسر السـاري في سائر الأسماء والصفات[3].

★ صلاة الشيخ محمد أبي المواهب الشاذلي:

اللهـم صـل على هذه الحضـرة النبـويـة. . . يا سيدنا يا رسـول الله أنت المقصود من الـوجـود. . وأنت الجـوهـرة اليتيمة التي دارت على أصناف المكوَّنات، وأنت النور الذي ملأ إشراقُه الأرضين والسماوات. . . يا أول يا آخر يا باطن يا ظاهر. . . الصلاة والسلام عليـك يا رسـول الله، الأمـلاكُ تشفعت بك عنـد الله، الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، الأنبياء والرسل ممدودون من مددك الذي خُصِّصتَ به من الله. . . قد نزلنا بحيك واستجرنا بجنابك وأقسمنا بحياتك على الله[4]. . .

---

(١) أفضل الصلوات، ص٨٩ وما بعدها.
(٢) أفضل الصلوات، ص٩٧
(٣) أفضل الصلوات، ص١١٣.
(٤) أفضل الصلوات، ص١١٨ وما بعدها.

★ **صلاة محمد بن أبي الحسن البكري:**

اللهم صل وسلم على نورك الأسنى، وسرِّك الأبهى... روحِ المشاهد الملكوتية، ولَوْح الأسرار القيومية، ترجمانِ الأزل والأبد، لسان الغيب الذي لا يحيط به أحد، صورةِ الحقيقة الفردانية... محمد الباطن والظاهر بتفعيل التكميل الذاتي في مراتب قربه... بدايةِ نقطة الانفعال الوجودي إرشاداً وإسعاداً، أمينِ الله على سرِّ الألوهية المطلْسَم، وحفيظِهِ على غيب اللاهوتية المكتَّم، مَن لا تدرك العقول الكاملة منه إلا مقدارَ ما تقوم عليها به حجّتُه الباهرة، ولا تعرف النفوس العرشية مِن حقيقته إلا ما يَتعرف لها به من لوامع أنواره الزاهرة، منتهى همم القدسيين وقد بَدَوْا مما فوق عالم الطبائع، مرمى أبصار الموحدين وقد طمحتْ لمشاهدةِ السر الجامع، من لا تُجلى أشعة الله لقلبٍ إلا مِنْ مرآة سرّه، وهي النور المطلق... وهو الوترُ الشفعي المحقق... الفرع الجدثاني المترعرِع في نمائه بما يُمدّ به كل أصل أبدي، جنيِّ شجرة القدم، خلاصة نسختي الوجود والعدم... وعابد الله بالله بلا حلول ولا اتحاد ولا اتصال ولا انفصال... اللهم صل وسلم على جمال التجليات الاختصاصيَّة، وجلال التدليات الاصطفائية، الباطن بك في غيابات العزّ الأكبر، الظاهر بنورك في مشارق المجد الأفخر، عزيز الحضرة الصمدية، وسلطان المملكة الأحدية... مستوى تجلِّي عظمتك ورحمتك وحُكْمك في جميع مخلوقاتك،... وخلَقْتَ بكلمةِ خصوصيَّتهِ المحمدية بحار الجمع... وجعلته بحكْم أحديتك وِتر العدد... اللهم صل وسلم على دائرة الإحاطة العظمى، ومركز محيط الفلك الأسمى... بحر أنوارك الذي تلاطمت برياح التعيّن الصمداني أمواجه... خليفتك على كافة خليقتك[1]...

★ **الصلاة المعروفة بالصلوات البكرية:**

اللهم إني أسالك بنيرِّ هدايتك الأعظم، وسرِّ إرادتك المكنون مِن نورك المطلْسَم، مختارِك منك لك قبل كل شيْ، ونورك المجرد بين مسالك اللُقِيْ، كنزِك الذي لم يحط به سواك، وأشرف خلقك الذي بحكْم إرادتك كونْتَ من نوره أجرام الأفلاك وهياكل الأملاك، فطافتْ به الصافُون حول عرشك تعظيماً وتكريماً، وأمرتَنا بالصلاة والسلام

---

(١) أفضل الصلوات، ص١٢٧ وما بعدها.

عليـه . . . وزجّيْتَ به في نور ألـوهيتـك العظمى . . . خليفتك بمحض الكرم على سائر مخلوقـاتـك . . . وشيـدْتَ به قوائم عرشـك المحـوط بحيطتك الكبرى . . . بَحْرِ فيضك المتلاطم بأمواج الأسرار[1] . . . .

★ الصلاة المسماة بالصلوات الزاهرة :

اللهم صل وسلم على الجمال الأنْفَس ، والنور الأقدس ، والحبيب مِن حيث الهُوية ، والمـرادِ في الـلاهـوتية ، مترجم كتاب الأزل ، والمتعالي بالحقيقة عن حقيقة الأثر حتى كأنه المثل ، الجِلس الأعلى ، والمخصوص الأوْلى ، والحكمة السارية في كل موجود . . . روح صُوَرِ الأسـرار الملكـوتيـة . . . محمـدك وأحمـدك وتْر العدد ، ولسان الأبد ، العرش القائم بتحمّـل كلمـة الاستـواء الـذاتي فلا عارض ، المتجـلي بسلطـان قهـرك على ظُلَل ظُلَم الأغيـار لمحْقِ كلّ معـارض ، النقطـة التي عليهـا مدارُ حروف المـوجـودات بجميـع الاعتبـارات ، . . . لوح الأسـرار ، ونـور الأنـوار . . . ومَظْهـر أنـوار اللاهوت في ناسوت المثـل ، القـائم بكـل حقيقـة سرياناً وتحكيماً . . . المتجلي بملابس الحقائق الفردانية . . . الحـافـظ على الأشيـاء قواهـا بقـوتك ، الممد لذرات الكائنات بما به برزت من العدم إلى الوجود بقدرتك ، كعبة الاختصاص الرحماني ، محجّ التعيّن الصمداني ، قيوم المعاهد التي سجدت لها جباه العقول ، أقنوم الوحدة ولا أقنوم ، إنما نورك بنورك موصول . . . منتهى كمال النقطـة المفـروضـة في دوائـر الانفعال ، ومبدأ ما يصح أن يشمله اسم الوجود القابل لتنـوعـات القضـاء والقـدر على ما سواك من حيث أنت أنت بما شئت من فيـوضـاتـك العلية . . . وسر سرائر الكنز الأحدي الصمدي[2] . . . .

ـ لننتبـه إلى عبـارة : «مـدار حروف المـوجـودات بجميع الاعتبارات» ، والتي تحمل نفس معنى : «وما الكلب والخنزير إلا إلهنا» و «اجتمع فيه النجو مع الورد» . . وغيرها . .

★ الصلاة السقافية لسيدي عبد الله السقاف :

اللهم صل وسلم على سلّم الأسـرار الإلهيـة ، المنطـوية في الحروف القرآنية ، مَهْبط

---

(١) أفضل الصلوات ، ص١٣١ و ١٣٢ . (٢) أفضل الصلوات ، ص١٣٤ وما بعدها .

الرقائق الربانية، النازلة في الحضرة العلية. . . صاحب اللطيفة القدسية المكسوة بالأكسية النورانية السارية في المراتب الإلٰهية المتكمّلة بالأسماء والصفات الأزلية والمفيضةِ أنوارَها على الأرواح الملكوتية المتوجهة في الحقائق الحقِّيَّة، النافيةِ لظُلمات الأكوان العَدمية المعنوية، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الكاشف عن المسمَّى بالوحدة الذاتية. . . صاحب الصورة المقدسة المنزّلة من سماء قدس غيهب الهوية الباطنة الفاتحة بمفتاحها الإلٰهي لأبواب الوجود القائم بها مِن مطلع ظهورها القديم إلى استواء إظهارها للكلمات التامات، اللهم صل وسلم على حقيقة الصلوات وروح الكلمات، قوام المعاني الذاتيات، وحقيقة الحروف القدسيات، وصور الحقائق الفرقانية التفصيليات. . . موصل الأرواح بعد عدمها إلى نهايات غايات الوجود والنور[1]. . .

★ صلاة (يتعبد بها كل الصوفية):

اللهم صل على طامَّة الحقائق الكبرى، سر الخلوة الإلٰهية ليلة الإسراء. . . ينبوع الحقائق الوجودية، بَصَر الوجود، وسرِّ بصيرة الشهود، حق الحقيقة العينية، وهوية المشاهد الغيبية، تفصيل الإجمال الكلي. . . نَفَسِ الأنفاس الروحية، كلية الأجسام الصُّورية، عرش العروش الذاتية، كتابك المكنون. . . يا فاتحة الموجودات، يا جامع بَحْرَي الحقائق الأزليات والأبديات. . . يا نقطة مركز جميع التجليات، يا عين حياة الحُسْنِ الذي طارت منه رشاشات، فاقتسمتها بحُكْمِ المشيئة الإلٰهية جميعُ المبدَعات[2]. . .

★ صلاة (يتعبد بها كل الصوفية):

اللهم صل على مولانا محمد نورك اللامع، ومظهر سرك الهامع. . . الذي فتحتَ ظهور العالم من نور حقيقته. . . ولولا هو ما ظهرت لصورةٍ عينٌ من العدم الرميم[3]. . .

★ صلاة (لكل الصوفية):

اللهم صل على عين بحر الحقائق الوجودية المطْلقة اللاهوتية، ومنبع الرقائق

---

(١) أفضل الصلوات، ص١٥٥ وما بعدها.

(٢) أفضل الصلوات، ص١٦٦ و١٦٧.

(٣) أفضل الصلوات، ص١٦٧ و١٦٨.

اللطيفة المقيَّدة الناسوتية، صورة الجمال، ومطلع الجلال، مجلى الألوهية، وسر إطلاق الأحدية، عرش استواء الذات، وجه محاسن الصفات، مُزيل برقع حجاب ظُلمات اللَّبْس بطلعة شمس حقائق كُنْه ذاته الأنْفَس، عن وجه تجليات الكمال الإلهي الأقدس، كتابِ مسطورِ جَمْعِ أحديةِ الذات الحق، في رقِّ منشورِ تجلياتِ الشؤونِ الإلهية المسمّى كثرةُ صُوَرِها بالخلق[1]. . .

★ صلاة (لكل الصوفية):

اللهم صل على سلطان حضرات الذات، مالك أزمّة تجليات الصفات، قطب رحى عوالم الألوهية. . . جبالِ موجِ بحارِ أحديةِ الذاتِ، طِلَّسْمِ كنوزِ المعارف الكُنْهيَّات الذاتيات، سقفِ مرفوع الكمالات الأسمائية، بحرِ مسجورِ العلوم اللدنيات، حوض الألوهية الأعظم المُمِدِّ لبحار أمواج صُوَرِ الكون الظاهرة مِن فيوض حقائق أنفاسه، قلمِ القدرة الإلهية العظموية، الكاتب في لوح نفسه ما كان وما يكون من محاسن مُبْدَعات العالم وتقلباته، وجمال كل صورة إلهية وسرِّ حقيقتها غيباً وشهادة. . . جَمْعِ الجمع وفرْق الفرق من حيث لا جَمْعَ ولا فرْقَ[2]. . .

★ الصلاة الكبرى لسيدنا عبد القادر الجيلاني:

. . . اللهم صل وسلم وأَفلحْ وأَنجحْ وأَتمّ وأصلحْ وزكِّ وأَربحْ وأَوْفِ وأَرجحْ أفضلَ الصلاة وأجزلَ المنن والتحيات على عبدك ونبيك ورسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو فلقُ صبحِ أنوارِ الوحدانية، وطلعةُ شمسِ الأسرارِ الربانية، وبهجةُ قمرِ الحقائق الصمدانية، وحضرة عرشِ الحضرات الرحمانية، نورُ كلِّ رسول وسناه. . . سرُّ كلِّ نبي وهداه. . . السيد الكامل الفاتح الخاتم، حاءُ الرحمة، وميمُ الملك، ودالُ الدوام، بحر أنوارك ومعدن أسرارك ولسان حجّتك وعروس مملكتك وعين أعيان خلقك. . . وإمام الحضرة وأمين المملكة. . . وكنز الحقيقة. . . طِلَّسْم الفلك الأطلس في بطون «كنت كنزاً مخفيًّا فأحببت أن أعرف» طاووسُ المَلَكِ المقدس في ظهورِ «فخلقت خلقاً فتعرفت إليهم فبي عرفوني». . . اللهم صل وسلم صلاة ذاتك على حضرة

---

(1) أفضل الصلوات، ص١٦٨.

(2) أفضل الصلوات، ص١٦٩ و ١٧٠.

صفاتك الجامع لكل الكمال، المتّصِف بصفات الجلال والجمال، مَن تَنزّه عن المخلوقين في المثال، ينبوع المعارف الربانية، وحيطة الأسرار الإلهية، غاية منتهى السائلين. . . مظهر سرّ الجود الجزئي والكلي، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي، روح جسد الكونين، وعين حياة الدارَيْن. . . اللهم إنا نتوسل إليك بنوره الساري في الوجود أن تحيي قلوبنا بنور حياة قلبه الواسع لكل شيء. . . وتُسْرِيَ سرائره فينا بلوامع أنوارك حتى تُغَيِّبَنا عنا في حقّ حقيقته فيكون هو الحيُّ القيومُ فينا بقيوميتك السرمدية، فنعيش بروحه عَيْش الحياة الأبدية. . . اللهم صل وسلم على سيدنا ونبينا محمد جمال لطفك وحنان عطفك وجلال مُلكك وكمال قدسك، النور المطْلَق بسرِّ المعيَّة التي لا تتقيد، الباطن معنىً في غَيبك، الظاهر حقًّا في شهادتك، شمس الأسرار الربانية، ومجلس حضرة الحضرات الرحمانية. . . الذي خلقْتَه من نور ذاتك، وحقّقْته بأسمائك وصفاتك، وخلقْت من نوره الأنبياء والمرسلين. . . اللهم صل وسلم على بهجة الكمال وتاج الجلال. . . وحياة كل موجود، عزِّ جلالِ سلطنتك، وجلال عز مملكتك، ومليك صنع قدرتك. . . سر الله الأعظم. . . والظاهر في مُلكك، والغائب في ملكوتك، والمتخلّق بصفاتك. . . الحضرة الرحمانية، والبُرْدَة الجلالية[1]. . .

ـ هذه الصلاة الكبرى للشيخ عبد القادر الجيلاني شرحها الشيخ عبد الغني النابلسي، ونقلها يوسف النبهاني من ذلك الشرح، وكلهم أقطاب مكاشفون عارفون يعلمون علم اليقين!

★ **ومن صلاة الأنس لأحمد الرفاعي أيضاً:**

. . . اللهم صلّ على أَلِفِ أُنْسِ إنسان الأزل، بحكمة باء برهان من لم يزل أصل الأشياء الكلية. . . المتصدر في رحاب الأسرار في مركز دائرة القَبول والألطاف المُنْفَرِشَةِ بُسُطُها في حومة العزّ. . . أصل السبب في الإيجاد، فالكلُّ مِنْه والكل إليه، خزانة الأسرار، فالوارد والذاهب عنه وعليه[2]. . .

ـ ومن شعر لشيخ الإسلام وغوث الزمان الحاج إبراهيم ابن الشيخ الحاج عبد الله

(1) أفضل الصلوات، ص١٧٤ وما بعدها.
(2) قلادة الجواهر، ص٢٦٣ و ٢٦٤.

الكولخي :

حرف الباء

فما ليَ غير المصطفى البدرِ مأربٌ	وفي جائزات الغير ما ليَ مرغبُ
هو الكلُّ منه الكل بطناً وظاهراً	فبحرٌ سواه ما لنا فيه مشربُ
فمِنْ نورِه الكونان، مِنْه تفجّرتْ	علومُ جميع الرسل والكلُّ يشربُ
هو الكامل المحمود والسؤْلُ والمنى	وأنت الحبيب المصطفى والمقرب[1]

★ **ومن الأوراد التجانية (الصلاة الغيبية في الحقيقة الأحمدية)، فإنها برزت من الغيب من غير إنشاء أحد، وهي :**

اللهم صل وسلم على عين ذاتك العلية، بأنواع كمالاتك البهيَّة، في حضرة ذاتك الأبدية، على عبدك القائم بك منك لك إليك، بأتم الصلوات الزكية، المصلي في محراب عينِ هاءِ الهُوية، التالي السبع المثاني بصفاتك النفسية . . . الداعي بك لك بإذنك لكافة شؤونك العِلْمِيّة . . . المفيض على كافَّة مَن أوجدتَه بقيومة سرك، المدد الساري في كليةِ أجزاءِ موهبةِ فضلك، المتجلي عليه في محراب قدسك وأنسك، بكمال ألوهيتك في عوالمك وبرك وبحرك[2] . . .

ويقول عبيدة بن أنبوجة الشنقيطي :

. . . نعمْ حقيقةُ مقصد هذه الطريقة العثورُ على معرفة بعض أسرار الحقيقة المحمدية مِن مراتب بطونها الأربع، ولا مطمع في خامستها كما تقدم، فالحقيقة المحمدية هي عين جميع المعارف الربانية، فلَمْ تشذَّ شاذَّةٌ منها، وصورتُها البشرية هي باب تلك الحقيقة، فكما لا تؤخذ أحكام الله إلا من أفعال تلك الصورة البشرية وأقوالها . . . كذلك لا توجد المعارف إلا من تلك الحقيقة وأحوالها[3] . . .

★ **ومن الصلوات الأحمدية الإدريسية (الصلاة الخامسة) :**

اللهم صل على الذات الكُنْه، قِبْلَة وجوه تجلّيات الكُنْه، عيْن الكُنْه في الكنه،

---

(1) الدواوين الست، ص51 .
(2) ميزاب الرحمة الربانية، ص25 .
(3) ميزاب الرحمة الربانية، ص155 .

الجامع لحقائق كمال كُنْه الكنه[1]. . .

★ ومنها (الصلاة السادسة):

اللهم صل على أُمِّ الكتاب، كمالات كُنْه الذات، عينِ الوجود المطْلَق الجامع لسائر التقييدات، صورة ناسوت الخَلْق، معاني لاهوت الحق، النَاظِر بالكل في الكل من الكل للكليات والجزئيات، كوثرِ سبيلِ منهلِ حوضِ مشاربِ جميعِ التجليات، الملتذ بصورة نفسه في جنة فردوس ذاته بنظره به منه إليه فيه، بحر قاموس الجمع المُطَمْطَم، وطراز رداء الكبرياء المطَلْسَم، وراءَ الوراء، ودون الدون بلا دون[2]. . .

ـ قولـه: «وراء الـوراء»، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والله من ورائهم محيط﴾، ومحمدٌ وراء الوراء، أي «هو من وراء الله محيط»!!

ومما يقوله محمد بهاء الدين البيطار، في شرحه على الصلوات الأحمدية الإدريسية:

. . . وللقوم رضوان الله عليهم في الحقيقة المحمدية أقاويل كثيرة، من أحسنها قول العـارف أفضـل الـدين، تلميـذ سيدي علي الخوّاص رضي الله عنهما: الحقيقة المحمدية هي سرُّ وجـوبِ الـوجـود الـذاتي، المِمِـدَّة لحقائق الممكنات الأسمائية والصفاتية مِن عالم البطون إلى عالم الظهور، بالتدريج القابل لتفصيل المظاهر الكونية وتفصيل حقائقها الإنسانية[3].

❋ للعلم: الصلوات الأحمـديـة الإدريسيـة هي من أوراد الطـريقـة الـرشيـديـة، والميرغنية، والختمية. . . وغيرها، مع العلم أيضاً أن أكثر أصحاب الطرق ـ إن لم يكن كلهم ـ يستعملون جميـع الأوراد المـوجـودة في جميـع الطرق، أو أكثرها، ومن الأدلة على ذلك الأوراد الدرديرية، وكتاب دلائل الخيرات.

ومما يقوله الوارثُ المحمدي الجامعُ الغوثُ محمد مهدي الصيادي الروّاس:

---

(١) النفحات الأقدسية، ص١٠٢ و١٠٣.

(٢) النفحات الأقدسية، ص١٠٦ وما بعدها.

(٣) النفحات الأقدسية، ص١٢ ومحمد بهاء الدين البيطار دمشقي توفي سنة ١٣١٤هـ، وأفضل الدين هو أخو عبد الوهاب الشعراني.

وبـويعتُ في الحضـرة، على الإيـمان بحيـاة النبي ﷺ، بل وبحيـاة جميـع النبيـين والمرسلين، وأن النبي ﷺ ذاق طعم الموت بالانتقال مِن هذه الدار إلى دار الآخرة، وردَّ الله عليـه روحَـه، فهـو في حضرة القرب عند مليكٍ مقتدر، يفعل بإذن الله في مُلك الله ما يريـد، ولـه التصـرفُ المحضُ بأمـر الله تعـالى في مُلك الله وملكـوتـه، وهوسُرارة الأزل والأبد . . . وعليه تُعرضُ الأعمال وإليه تنتهي الأحوال[1] . . .

ـ الجـواب: هو أولاً سؤال: هل الـرؤى الشيطـانية التي يشاهدها المتصوفة في حالة غيبوبة هلوسية[2] تنسخ آيات الله وقرآنه؟!

ـ والجـواب ثانيـاً هو من كتـاب الله: ﴿. . . ما لهم من دونـه من ولي ولا يشـرك في حكمه أحداً﴾، ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، ﴿قل إني لا أملك لكم ضرًا ولا رشداً﴾.

ـ والجـواب ثالثـاً: هو من قول رسـول الله ﷺ: «لا تطـروني كما أطـرت النصـارى عيسى بن مريم . . .».

ـ والجـواب رابعـاً: إن ما يذكـره الـرواس من رؤياه الهذيانية منقولٌ بدون تغيير من عقيـدة النصـارى بالمسيـح عيسى صلوات الله عليـه، وكـل ما فعله الـرواس هو تبـديل الاسم بالاسم، ولنتـذكـر توجيهـه للآيـة الـذي مر معنـا: ﴿أحق هو قل إي وربي إنـه لحق﴾، وكيف جعلها تعني: «آلله هو (أي محمد) قل إي وربي إنه الله»!

ولعلهم لم يكتفوا بالحقيقة المحمدية، فأضافت بعض الطرق إليها الحقيقة العلوية، فمن أقوال جلال الدين الرومي (الطريقة المولوية):

منذ كانت صورةُ تركيب العالم: كان عليّ.
منذ نُقشتْ الأرضُ وكان الزمان: كان عليّ.
ذلك الفاتح الذي انتزع باب خيبر بحملة واحدة: كان علي.
كلما تأملتُ في الآفاق ونظرتُ فيها

---

(1) فصل الخطاب، ص١٤٢.

(2) أطلق أحد الادباء الشباب على الجذبة الصوفية اسم «التحشيش الروحاني»، وهي تسمية صحيحة.

أيقنتُ بأنه في الموجودات: كان علي.

إن سرُّ العالمين الظاهر والباطن الذي بدا في شمس تبريز: كان علي[1].

- أما الطريقة البريلوية والطريقة البكطاشية فقد أحرزتا قصب السبق في تأليه علي بن أبي طالب، ومن أدعيتهما الرئيسية والأساسية، دعاء السيف: «ناد عليًّا مظهرَ العجائب، تجده عوناً لك في النوائب، كل همٍّ وغمٍّ سينجلي بولايتك يا علي يا علي».

ومن جهة أخرى، أحرزت البكطاشية أيضاً قصبة السبق بإعلان التثليث، فصارت الأقانيم عندهم ثلاثة: صورة الله، محمد، علي.

والبكطاشيون يعترفون بخطاياهم أمام مشايخهم فيغفرونها لهم، ويحللون الخمر، ويعتقدون تناسخ الأرواح[2].

ويقول آية الله الخميني[3]:

... وبالمشيئة ظهرَ الوجود، وهي اسم الله الأعظم... وهي الحبل المتين بين سماء الإلْهية والأراضي الخَلْقية، والعروةُ الوثقى المتدليةُ من سماء الواحديّة، والمتحققُ بمقامها الذي أُفُقُه أُفُقُها هو السبب المتصل بين السماء، وبه فَتَح الله وبه يختم، وهو الحقيقةُ المحمدية والعلويَّةُ صلوات الله عليه، وخليفةُ الله على أعيان المهيّات، ومقام الواحدية المطلَقَة والإضافةُ الإشراقية[4]...

نختم هذه النبذ بالنصوص التالية:

يقول ابن قضيب البان[5] في كتابه «المواقف الإلْهية»:

موقفُ الحقيقة المحمدية: أوقفني الحقُّ على مرتبة بيان الحقيقة المحمدية، وكشفَ لي عن حقائق الأسماء في مسمّياتها العلوية، ثم قال لي: انظر إلى كل اسم مِن حيث

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع، ص٧٩.

(٢) الفكر الشيعي والنزعة الصوفية، «فصل البكتاشية».

(٣) روح الله الموسوي، من بلدة «خمين» حاكم إيران الحالي.

(٤) شرح دعاء السحر، ص١١٠.

(٥) عبد القادر محمد أبي الفيض السيد الأفضل أبو محمد، يتصل نسبه بقضيب البان الموصلي، ولد بحماة سنة ٩٧١هـ، وتوفي في حلب في حدود سنة ١٠٤٠ هـ.

صورتـه ومعنـاه! فرأيتُ الأسماء الإلهية قامت في الأعين الثابتة (أي في المخلوقات)، وقال لي: هي أربـابهـا. وقـال لي ربُّ الأربـاب: الاسم الأعظم وسر الحقيقة المحمدية هو سرُّ قلبك وقطبُ وجودك. ثم كشف لي عن جُملة التجلي الأول ومظاهر التجليات ومَجْمع صُوَر المربوبات... ثم كشفَ لي عن صُوَر العقل الأول (وهذا من اليونانيات)، فإذا هو شيء لا يُكيَّف عند النظر، وكليات الوجود مندرجةٌ تحت إشراقه، ورأيتُه قد قابل شيئاً مثله في الصورة، وقد اشتمل على الجزئيات، فقال لي: هو لوح القضاء، والدرَّةُ البيضاء. وقال لي: الحقيقـةُ المحمـديـة هي الـرحمـة التي وسعت كلَّ شيء، وهي أمُّ الكتـاب، وحضرةُ العلم الجامع، وإنسان العين السامع، ومنها كُشف لي عن أسرار النور والوجود والعلم، فقـال لي: كلُّ ذلـك مظاهرُها وكلمتُها الجامعةُ وصحيفتُها الكاملة... ثم كشف لي منها عن نار العشق الأزلي والاتحـاد العيني، وأراني تعلقَـه في الهمم الإنسـانيـة، وقـال لي: هو إنشاء الإرادة، وبه توجّه الحب، وقال لي: هو أصل كل موجود وعدَّتُه، ثم كشف لي عن ينبـوع ذلـك، فإذا هي المـركز والنقطة التي في فؤاد القطب المحمدي... وكشف لي عن سرّ عرش الحقيقة المحمدية، وقال لي: هو القلب الذي هو بيت عزّتي ومخزن سِرّي ومنبع نوري، ومظهـر سعـة علمي وسـريـر سلطـة اسمي. وقـال لي: قالبُهُ الهيكل الذي بنيتُه بيـدي، وهـو مَجْمـع البحـرين، وقـاب قوسـين، وكشف لي فيه عن خزائن الرحمة وتنزُّل الآيـات، وكيفيـة حلولهـا من غير ممازجة، وسريانها في الأسماع والأبصار بسرّ التجريد في قوالبها، ورأيت حكْم سريانها في مرآة الخيال، وقيامها في مظاهر النبوة[1].

ويقول مصطفى بن محيي الدين نجا[2]، في شرحه على «المزوجة بصلاة ابن بشيش»:

«اللهم إنه سرك الجامع لكل الأسرار، ونورك الواسع لجميع الأنوار».

(إنه) أي المصطفى ﷺ.

(سرك) أمرك الخفي الذي لا يحيط به غيرك.

(الجامع لكل الأسرار) أي لجميع حقائق الوجود بحقيقته التي هي مادة كل موجود.

---

(١) الإنسان الكامل في الإسلام، ص١٩٥ و١٩٦ و١٩٧.

(٢) من تلاميذ علي اليشرطي.

(ونورك) أي وإنه مظهرك الأتمُّ الذي نشأ من حضرتك بدون واسطة.

(الواسع لجميع الأنوار) أي المملوء بأنوارك القدسية التي سرتْ بك منه إلى سائر المظاهر الكونية، أو الذي وسع صُوَرَ الكائنات كلها لاندراجها في حقيقته، وانطوائها في عين ماهيته انطواء الأشعة في الضياء؛ والنورُ من أسمائه[1]...

(وأصير بها مجلاه) أي محلاًّ لظهور كمالاته العلية ومحاسنه السنية، فيكون مَنْ رآني كأنما رآه، لأن الكاملين هم مرايا للكمال المحمدي، وهو مرآة للكمال الإلهي، ولا يكون التكميل لكل كامل إلا من الحضرة المحمدية[2]...

... والحاصل أن الله تبارك وتعالى جعل الحقيقة المحمدية واسطة الإيجاد لمخلوقاته تفضلاً منه وإحساناً، فالأرواح التي لا تشاهد ذلك ولا تدرك أنه ﷺ روحُها وعينُ حياتها كأنها أموات[3]...

(الله منه بدىء الأمر) أي الشأن الكلي الجامع لكل الشؤون، وهو النور المحمدي الشريف، وهو أول صادر عنه سبحانه... ويسمّى بالقلم الأعلى، وبالدرة البيضاء، وبالعقل الأول، وبروح الأرواح، وبالأب الأكبر، وبإنسان عين الوجود، وبالإنسان الكامل، وغير ذلك من الأسماء المشهورة عند العارفين[4].

- الرجاء أن يلاحظ القارىء في هذه النصوص: الكذب على الله ورسوله، والشرك الأعظم، واليونانيات (العقل الأول).

والذي يريد استقصاء أقوالهم في الحقيقة المحمدية يستطيع أن يملأ منها مجلدات.

إذن، فالمتصوفة كلهم، من دون استثناء، يؤمنون بالحقيقة المحمدية، وقد وهِمَ الذي خصّوا بذلك جماعةً منهم دون آخرين. لأن الصوفية مذهبٌ واحد.

* وملخص أقوالهم هو:

إن الله (سبحانه وتعالى عما يصفون) عندما أراد أن يجعل قسماً من ذاته متعيناً بشكل

---

(1) كشف الأسرار، ص١٠٢ و١٠٣.
(2) كشف الأسرار، ص١١٢.
(3) كشف الأسرار، ص١٢٦.
(4) كشف الأسرار، ص١٣٩.

مخلوقـات، كان أول شيء فعله هو أنـه قبض قبضـة من نور وجهـه وقال لها كوني محمداً، فكـان محمـد هو أول التعينـات. وهـذه القبضـة من النـور هي التي يطلقـون عليها اسم «الـذات المحمـديـة». ومن هذه الـذات المحمـديـة انبثقت السماوات والأرض، والدنيا والآخـرة، التي يسمـونها فيما يسمونها «تعيُّنات» فهي كلها تصدر عن الذات المحمدية ثم تعود إليها. وهذا هو ما يسمونه «الحقيقة المحمدية».

وأكـرر، إنهم كلهم يؤمنـون بالحقيقـة المحمدية، وإن أنكر أحدهم ذلك فهو مخادع يستعمل التقية.

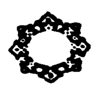
ولننتبـه إلى الشبـه التـام بينهم وبين الهنادكة الذين يقولون: إن الخلائق صدروا من وجه براهمان ومن يديه ومن فخذيه ثم من قدميه (حسب الطبقات الهندوكية).

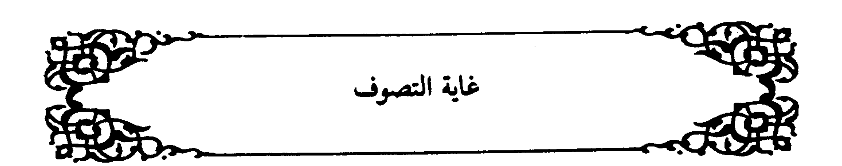
وأعيـد فأكـرر، إنهم كلهم يؤمنـون بالحقيقـة المحمـدية، كلهم بدون استثناء، وما مضى براهين.

وبعض الباحثين الذين خصوا بذلك جماعة منهم دون آخرين كانوا واهمين.

وكثيراً ما يعبرون عنها بعبارة «أسبقية النور المحمدي».

والمـولـد المكـذوب على ابن الجـوزي والـذي كانت قدسيتـه متـزاملة مع دلائـل الخيرات، إن لم تتقدمها في كثير من الأحيان، والذي كان يؤمن بما فيه كل المسلمين، إلا من رحم ربك، هذا المولد المكذوب فيه تفصيل للحقيقة المحمدية يستطيع الرجوع إليه كل من يريد ذلك، فهو متداول وصغير الحجم ومحشو بالشرك بالله والكذب على رسوله، وكذلك مولد البرزنجي.





غاية التصوف

الزهد عمل ساعة، والورع عمل ساعتين، والمعرفة عمل الأبد.

عبد القادر الجيلاني

في النصوص السابقة، أكثر بكثير من الكفاية، ولكننا أمام مخادعات ومراوغات لا تعرف حدوداً، ولا تعرف منطقاً، ولا تستحيي، وأمام مسلمين غافلين عن واقعهم خدعوا بالكلمات المنمقة.

لذلك، وسدًّا للذرائع، ومنعاً للمراوغات والمخادعات، وإسكاتاً لمقولتهم: «لعل ولعل ولعل...»، نقدم براهين أخرى من أقوالهم، على أن غاية التصوف هي استشعار وحدة الوجود، وأنه لا غاية للتصوف غير هذه الغاية (وسنحاول الاختصار كثيراً):

- والشائع بين أهل الشريعة أن غاية التصوف هي الزهد والتوكل والصبر... إلخ. وقد سَرَت هذه الأغلوطة في الغافلين من أهل الشريعة (أهل الأوراق)، مما يردده عليهم أهل الحقيقة (أهل الأذواق).

لكن لو رجعنا إلى عباراتهم المخصصة لأبناء طائفتهم، وللمريدين الذي قطعوا الشوط المطلوب في السلوك، لرأينا - وبوضوح - أن غاية التصوف هي التحقق بالألوهية، وهو ما يسمونه المعرفة، ولا غاية غيرها.

يقول عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور (لجنة نشر الأصول الصوفية):

«طُرُق التصوف متعددة مختلفة، وبعضها أوفق من بعض، وبعضها أسرع من غيرها، ولكنها على اختلافها وتعددها، تؤدي إلى هدفٍ واحدٍ وغاية واحدة!»[1].

- فما هي هذه الغاية؟

يقول أبو الحسن الشاذلي:

«كنتُ يوماً جالساً بين يديه «أي بين يديْ ابن مشيش»، وفي حجرِه ابنٌ له صغير يلاعبه، فخطر ببالي أن أسأله عن اسم الله الأعظم، قال: فقام إليَّ الولدُ ورمى بيده في طَوْقي، وهزّني وقال:

يا أبا الحسن، أنت أردت أن تسأل الشيخ عن اسم الله الأعظم. ليس الشأنُ أن تسأل عن اسم الله الأعظم! إنما الشأنُ أن تكونَ أنت هو اسمَ الله الأعظم!!؟

... قال: فتبسم الشيخ وقال لي: جاوبك فلانٌ عني..»[2].

- إذن فالشأن أن تكون أنت هو اسم الله الأعظم!!

- ورغم وضوح العبارة، فلا بأس من أن نزيدها وضوحاً.

- اسم الله الأعظم عند القوم هو «الله».

يقول ابن عطاء الله السكندري:

«إن هذا الاسم... أعني «الله» عز ذكره هو اسم الذات العليَّة... وهو أعظم الأسماء»[3].

ويقول: «﴿قل الله ثم ذرهم﴾ وهو الاسم الأعظم»[4].

والآن لنبدل العبارة «اسم الله الأعظم» بالاسم نفسه «الله»، فتكون الجملة: «إنما الشأن أن تكون أنت هو الله».

- هذا حُكْمٌ واضح المدلول، يقرره، حسب المرجع الذي أُخذ منه، أربعة أقطاب:

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، ص١٣.

(٢) أبو الحسن الشاذلي لعبد الحليم محمود، ص٢٥.

(٣) القصد المجرد، ص١٣.

(٤) القصد المجرد، ص٢٩.

عبد السلام بن مشيش، وأبو الحسن الشاذلي، وابن الصباغ (مؤلف درة الأسرار) وعبد الحليم محمود.

ويقول الغزالي:

. . . ولمثل هذا قالت الصوفية إن العلم حجاب، وأرادوا بالعلم: العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد، أو بمجرد كلماتٍ جدليةٍ حرّرها المتعصبون وألقوها إليهم، فأما العلم الحقيقي، الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة، فكيف يكون حجاباً وهو منتهى المطلب[1]؟!

ويقول: . . . وفرقةٌ أخرى اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها، وصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خُدَعها علماً وحرفة، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس، واستنباط دقيق الكلام في آفاتها . . .

وفرقة أخرى جاوزوا هذه الرتبة، وابتدؤوا سلوكَ الطريق، وانفتح لهم أبوابُ المعرفة، فكلما تشمموا من مبادىء المعرفة رائحةً تعجبوا منها وفرحوا بها، وأعجبتهم غرابتُها، فتقيَّدَت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم، وكلُّ ذلك غرور، لأن عجائبَ طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقفَ مع كل أعجوبة وتقيد بها قَصُرتْ خطاه وحُرِم الوصول إلى المقصد . . .

وفرقة أخرى جاوزوا هؤلاء، ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق، ولا إلى ما يتيسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات إليها، جادين في السير، حتى قاربوا فوصلوا إلى حدّ القُربة من الله، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله، فوقفوا، وغلطوا . . . سرُّ القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله . . . وتنجلي فيه صورة الكل، وعند ذلك يشرقُ نورُه إشراقاً عظيماً، إذ يظهر فيه الوجودُ كلُّه على ما هو عليه . . . فإذا تجلى نوره، وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه، ربما التفت

---

(1) الإحياء: ١ / ٢٥٥، وفي هذا النص إنكار صريح للعقيدة الإسلامية «العقائد التي استمر عليها أكثر الناس لمجرد التقليد. .»، وهي جملة تصفع وجوه الذين يسمون الغزالي «حجة الإسلام»، ويُدرسون «إحياء علوم الدين».

صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، وربما يَسْبِقُ لسانُه في هذه الدهشة، فيقول: «أنا الحق»[1].

ـ الرجاء من القارىء أن ينتبه إلى الجملة الأخيرة.

ويقول الغزالي أيضاً:

. . . فغاية المعاملة المكاشفة، وغاية المكاشفة معرفةُ الله تعالى، ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العاميُّ وراثةً أو تلقفاً، ولا طريقَ تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم، بل ذلك نوعُ يقينٍ هو ثمرةُ نورٍ يقذفه الله تعالى في قلب عبدٍ طهَّرَ بالمجاهدة باطنَهُ عن الخبائث. . . فكن حريصاً على معرفة ذلك السرِّ الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين[2].

ـ علينا مع هذا النص، أن نتساءل: ماذا يعني بقوله: «. . . الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثة أو تلقفاً»؟ (أترك تحليلها للقارىء). والجملة: «. . . السر الخارج عن بضاعة الفقهاء» تسهل التحليل وتوضحه. كما يجب أن ننتبه جيداً إلى قوله: «. . عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث» التي تعني، بوضوح، أن تطهير الباطن عند الغزالي يكون بالمجاهدة، أي: بالرياضة الصوفية، لا بالعبادة! فنسأل: ما هو الكفر؟ (لننتبه أن كلمة «العامي» تعني عندهم: عالم الشريعة).

ويقول: . . . فالقسم الأول علم المكاشفة، وهو علم الباطن، وذلك غاية العلوم. . . فهو عبارةٌ عن نورٍ يظهر في القلب. . . وينكشف من ذلك النور أمورٌ كثيرة كان يَسْمَعُ من قبلُ أسماءها فيتوهم لها معاني مُجْمَلةً غير متضحة، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات[3]. . .

ويقول أبو عثمان الهجويري[4]:

---

(1) الإحياء: ٣ / ٣٤٩ و ٣٥٠.
(2) الإحياء: ١ / ٤٦.
(3) الإحياء: ١ / ١٨.
(4) أبو عثمان الجلالي الهجويري الفارسي، من شيوخ الطريقة الحكيمية، مات عام ٤٦٥ أو ٤٦٩هـ.

فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية، وقد أكد هذه الحقية كل الشيوخ وإن اختلفت عباراتهم في ذلك. وكان محمد بن علي الحكيم هو أوّل من طبّق هذا الاصطلاح. وقد ألّف الشيوخ كتباً في هذا الموضوع ولكنها نادرة... فمِن هذا نرى أن الله تعالى اختار له أولياء اختصّهم بصحبته واختارهم حُكاماً لمملكته ومنحهم أنواع الكرامات... وجمع أفكارهم فيه ومعرفتهم به، كانوا فيما مضى، وهم الآن كذلك، وإلى ما شاء الله إلى يوم القيامة[1]...

- هذا النص، يبين لنا غاية التصوف، ويبين إلى جانبها حقيقةً تاريخية، هي أن محمد بن علي الترمذي الحكيم هو أول من أطلق صفة الولاية على الصوفية، وهو غير الترمذي المحدث صاحب السنن، والفرق بينهما كالفرق بين خداع الشيطان وهدى الرحمن.

ويقول أبو حيان التوحيدي:

... لأن غاية المجهود أن يَسْلوَ عن الموجود، ويُغمض عن المشهود، ويقصى عن المعهود، ليجد من يُغْنيه عن هذا كله بعطاءٍ ممدود، ورفد مرفود، وركن موطود، وحد غير محدود[2].

ويقول أبو مدين الغوث:

«من أقربِ رحلةٍ تكون للمريد إلى حضرة الحق الخاصة، دوامُ الذكر، فقد أجمعوا على أن من دامت أذكاره صفتْ أسراره، ومن صَفَتْ أسراره كان في حضرة الله قرارُه»[3]...

ويقول أيضاً:

ليس للقلوب إلا وجهة واحدة، متى توجّه إليها حُجبَ عن غيرها، فإن توجّه للدنيا حُجب عن الآخرة، وإن توجّه للآخرة حُجب عن الدنيا، وإن توجه إلى حضرة الله حُجب عن الدارَيْن[4].

---

(١) كتاب الرياضة وأدب النفس، ص٢٢.
(٢) الإشارات الإلهية، رسالة (يا)، ص١١٥.
(٣) الأنوار القدسية: ١ / ١٤٤، (في قواعد الصوفية).
(٤) الأنوار القدسية: ١ / ١٤٢.

ـ إذن، فالآخرة ليست غايتهم!

ويقول الشُطَّيبي[1] (ومعه ابن عجيبة):

. . . ومن الناس مَن تحجبُه المجاهدة عن المشاهدة، فتسطوعليه الأحوال، فتحول بينه وبين الغاية القصوى[2].

ـ إذن، فالغاية القصوى هي المشاهدة. ونعرف الآن ما معنى «المشاهدة» عندهم.

ويقول، ومعه ابن عجيبة أيضاً:

. . . إن الإنسان إذا جال مع النفس في ميدانها، فجاهدها حتى هذَّبَها وطهرها من الأوصاف الحاجبة لها، رجعت نفسه حينئذ إلى أصلها، وهي الحضرة التي كانت فيها، إذ لم تكن بينها وبين الحضرة إلا الحجب الظَلْمانية، فلما تخلَّصت منها، رجعت إلى أصلها[3]. . . .

ويقول عبد الله اليافعي:

إن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية، ولها طريقة هي عزائم الشريعة، فمن سلك الطريقة وصل إلى الحقيقة[4]. . .

ـ أقول: في كلام الشيخ هنا مغالطة جريئة، فهويجعل الطريقة (الخلوة والجوع والسهر والذكر والشيخ) يجعلها عزائم الشريعة، فنسأله: متى؟ وفي أي موضع عزمت الشريعة هذه العزائم؟

ويُنْسَب لعبد القادر الجيلاني (أتباع الطريقة القادرية يؤمنون أنها له):

قطعتُ جميعَ الحجب لله صاعداً ... فما زلتُ أرقى سائراً في المحبةِ
تجلّى ليَ الساقي وقال إليَّ قم ... فهذا شرابُ الوصل في حان حَضْرَتي
وشاهدتُ معنىً لو بدا كشفُ سرِّه ... بصُمِّ الجبالِ الراسياتِ لدُكَّتِ[5]

---

(1) لم أقف على ترجمته.
(2) إيقاظ الهمم، ص٣٤٨.
(3) إيقاظ الهمم، ص٣٤٩.
(4) نشر المحاسن الغالية، ص٧٧.
(5) فتوح الغيب، ص٢٣٦.

ـ ما زال يسير حتى وصل إلى الغاية التي بينها، وطبعاً هذا هو عقيدة كل أهل الطريقة القادرية.

ويقول عمر بن الفارض في «نظم السلوك»:

وما زلتُ إياها وإيايَ لم تزل ولا فرقَ بل ذاتي لذاتي أحبت

إلى أن يقول:

فغاية مجذوبي إليها ومُنْتهى مراديَ ما أسلفتُه قبل توبتي

أي إن غاية مجذوبه هو ما سلف من قوله «فما زلت إياها وإياي لم تزل».

وكان الشيخ داود بن باخلاّ يقول:

«احذر أيها المريد أن يكون قصدُك مِن ذكرك وعبادتك الأجرَ والثوابَ، فإن ذلك حاصل لا محالة، وإنما ينبغي أن تكون همتك في التلذذ بمناجاته..»[1].

وكان يقول:

المريد أوّلاً يسمع، وثانياً يفهم، وثالثاً يعلم، ورابعاً يشهد، وخامساً يعرف[2].

ويقول ابن خلدون في المقدمة، فصل «علم التصوف»:

... ولا يزال المريد يترقى من مقامٍ إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة... ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشفُ حجاب الحسّ والاطلاع على عوالم مِن أمْرِ الله ليس لصاحب الحسِّ إدراك الشيء منها.

ـ ويقول ابن البنا السرقسطي في «المباحث الأصلية»:

وإنما القوم مسافرون لحضرة الحقّ وظاعنون

* * *

(١) الأنوار القدسية: ١ / ١٢٩، (في قواعد الصوفية).

(٢) الأنوار القدسية: ١ / ١٣٠.

فعندما مالت إلى الزوال	أُدْخلَ في خلوة الاعتزال
وقيل قل على الدوام (الله)	واحذر كطرف العين أن تنساه

* * *

حتى إذا جاء بطُور القلب	خوطب إذ ذاك بكل خطب
فقال لو عرفتني بكَوْني	قيل، إذن، فاخْلع نعال الكون
ثم فني عن رؤية العوالم	ولم ير في الكون غير العالِم
ثُم انتهى لفلك الحقيقة	فقيل هذا غاية الطريقة
ثم امتحى في غيبة الشهود	فأطلقَ القولَ «أنا معبودي»
حتى إذا رُدَّ عليه منه	أثْبت فرقاً حيث لم يكنه

ويقول عبد الوهاب الشعراني:

. . . ومعلومٌ أن مقصود القوم القربُ من حضرة الله الخاصة، ومجالسته فيها من غير حجاب. وأما الثواب فحُكْمه حُكْم عَلَف الدواب، قال تعالى: «أنا جليس من ذكرني». . . والمراد بالمجالسة انكشاف الحجب للعبد[1]. . .

ـ لننتبه إلى قوله: «وأما الثواب فحكمه حكم علف الدواب»!! ولنسأل: ما هو سبب فساد الأمة؟

ويقول ابن عجيبة:

. . . والأعمال عند أهل الفن ثلاثة أقسام: عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة. . . أو تقول: عمل أهل البداية، وعمل أهل الوسط، وعمل أهل النهاية. فالشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصُده، والحقيقة أن تشهده. . . فإذا تطهَّر من أوصاف البشرية تجلّى بأوصاف الربوبية[2]. . .

ويقول أيضاً:

. . . وأما موضوعه (أي التصوف) فهو الذات العلية، لأنه يبحث عنها باعتبار

---

(١) الأنوار القدسية: ١ / ٣٤.

(٢) إيقاظ الهمم، ص١٠.

معرفتها، إما بالبرهان، وإما بالشهود والعيان[1].

ويقول ابن عربي:

سَجَدَ الملائكة الكرام لديهم دون اعتقادِ وجودِ ربٍّ ثان

* * *

للذات كان مسيرهم فحباهُمُ بشهودها عيناً بلا أكوان
وصلوا إليه وعاينوا ما عاينوا من غيب سرِّ السرِّ كالإعلان[2]

ويقول علي نور الدين اليشرطي:

يصل الفقير إلى مقامٍ يقول فيه للشيء كن فيكون... والبعضُ عند الخاطر[1].

- أي يحصل الشيء عندما يمر بخاطر الفقير فقط، دون أن يتعب لسانه بقول «كن». وطبعاً يحصل له هذا بالكشف لا بالواقع.

ويقول: ما زال العبد يذكر الله حتى يستولي عليه الاسم، ومتى استولى عليه الاسم انطوت العبدية بالربية، وظهرتْ عليه صفاتُ الرب، ولذَّةُ الرب تُغيّب العبد عن وجوده حسًّا ومعنى[4].

- أقول: كل من رأينا، ومن قرأنا له، ممن انطوت فيهم العبدية بالربية وظهرت عليهم صفات الرب، كلهم إما بلهاء، أوتنقصهم المقدرة على التفكير السليم، فهل هذه هي صفات الرب؟!

ويقول محمود أبو الفيض المنوفي:

... إن الوجود وحدةٌ، ظاهِرُها الكائنات المتعددة، وباطنها الحقائق المتوحدة المقوِّمةُ للكل... ولذا نرى أن أخصّ خصائص الكون، النزوعُ للترقي: فباطنه ينزع

---

(1) إيقاظ الهمم، ص٥.
(٢) كتاب الإسرا، فصل «مناجاة قاب قوسين»، ص٢٢.
(٣) نفحات الحق، ص٩٩.
(٤) نفحات الحق، ص١١٠.

طالباً للظهور، وظواهره تتحول طلباً للاستبطان والخفاء. فالكائنات كلها تمثّل على التحقيق دائرةً واحدة، مركزها فعال في محيطها، ومحيطها آيل إلى مركزها. تلك الحقيقة العليا هي غرض الدين، وأمنية الفلسفة، وموضع دهشة العلم، وهي نفسها غايةُ الإنسان الكامل من الوجود، وهي هي بالذات موضوع بحث التصوف الحق[1].

ـ نسأل هذا العارف: ما هو دليله من الكتاب والسنة على أن وحدة الوجود هي غرض الدين؟؟ ولنتذكر أن مركزها الفعال في محيطها هو محمد ﷺ.

ومر معنا قول حسن رضوان:

وحَسْبُه من ذلك المقصود ... إشراق نور وحدة الوجود

ويقول أحمد الصاوي (المالكي الخلوتي):

... وأما الحقيقة فهي ثمرة الطريقة، مِنْ فَهْم حقائق الأشياء، كشهود الأسماء والصفات وشهود الذات[2]...

ومن الأوراد الخلوتية التي مرت في فصل سابق:

وجُدْ لي بجمع الجمع فضلاً ومنّةً ... وداوِ بوصل الوصل روحي من الضنا

* * *

ومُنَّ علينا يا ودود بجذبةٍ ... بها نلحق الأقوامَ مَنْ كان قبلنا

ويقول محمد بن سليمان البغدادي النقشبندي:

... تحقَّقَ بالتجربة والعيان لدى أساطين العلم والكشف والشهود والعرفان، مِنْ أنَّ الطريقة النقشبندية أقربُ وأسهلُ على المريد للوصول إلى درجات التوحيد، لأن مبناها على التصرف وآلقاء الجذبة المقدمة على السلوك[3]...

---

(١) معالم الطريق إلى الله، ص١١٦.
(٢) الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية، ص٦٩.
(٣) الحديقة الندية، ص١٢. وكلمة آلقاء لم أجدها فيما بين يدي من معاجم، ولعلها تصحيف من أَلَقات، بمعنى لمعات.

- هذه هي غاية التصوف، إنها التحقق بالذات والصفات، إنها وحدة الوجود، التي تشرق بالغيبة عن الحس الطبيعي (الجذبة).

ولو أردنا استقصاء أقوال القوم في غاية التصوف وهدفه، الذي هو الوصول ومعرفة وحدة الوجود، لاحتجنا إلى مئات الصفحات، وقد نحتاج إلى ألوفها. ولكن في هذا القدر كفاية، بالإضافة لما نراه في فصلي «المدخل إلى فهم النصوص الصوفية» و«وحدة الوجود»، بل وفي شتى فصول الكتاب.

وهذا يعني، أننا عندما نسمع أحد الأولياء الأوفياء الأتقياء الأنقياء الصادقين الصديقين المقربين العالمين العارفين المحققين الأغواث الأقطاب الأشراف الأسياد الأشياخ الصالحين الخاشعين المتعبدين الذاكرين المتضرعين المحبين المحبوبين المطمئنين الموقنين الواصلين الموصولين المكاشفين المشاهدين الطاهرين المطهرين المحظيين الموحدين المؤمنين المستنيرين الراضين المرضيين الزاهدين المتوكلين العاشقين المعتصمين المتقين الدّالين على الله الداعين إليه الذين يُمسون في حضرة الحق ويصبحون، المتحكمين في الكون، القائلين للشيء كن فيكون المتحققين بأسماء الله الحسنى حتى الاسم الأعظم «الله» ذوي الأسرار العجيبة والعلوم الجليلة... إلى آخر هذه الأوصاف التي يصفون بها أنفسهم والتي تجاوزت كل حدود رسمتها الشرائع، حتى الوثنية، وتجاوزت كل حدود الذوق والمنطق والعقل والحياء والخجل والأخلاق والضمير، بل وتجاوزت حدود الهزء بالإنسان وعقله وقلبه ونفسه وسره وسمعه وبصره، بل وتجاوزت حدود السخرية بوجود الإنسان ووجود الدين الإسلامي، والوحي الذي نزل بالدين الإسلامي.

أقول: عندما نسمع أحد هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات يقول: إن غاية التصوف هي الزهد والعبادة والاستقامة... فيجب أن نعلم أنه يستعمل التقية، وما أدراك ما التقية، ثم ما أدراك ما التقية، ثم ما أدراك ما التقية؟!

ولنتذكر حكمة الغزالي:

إذا كان قد صحَّ الخلاف فواجب   على كل ذي عقل لزوم التقية

وقبل الانتقال إلى الفصل التالي أنبه إلى أن هذه الأوصاف التي أوردتها هي جزء مما يصفون به أنفسهم وكلها من كتبهم وأقوالهم وأشعارهم وحكمهم.

وجواباً عليها نذكرهم ونذكر من يغتر بهم وبأقوالهم بقوله سبحانه: ﴿ألم ترَ إلى الذين يُزكُّون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يُظلمون فَتيلاً انظُر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً﴾، وقوله: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلمُ بمَن اتَّقى﴾.

والآن، أرجو من القارىء أن يتسلى بتحليل بيتٍ وَرَدَ سابقاً مأخوذاً عن مجدد الألف الثاني، وهو:

إن كنتَ لم تقطعْ بـ «لا» عنقَ السوى ... في قصر «إلا الله» لستَ بواصل[1]

ولتسهيل التحليل: «لا» و «إلا الله» مأخوذتان من «لا إله إلا الله» و«قَصْر» من قَصَر يقصر.

وفي هذا البيت ثلاث فوائد:

١ ـ أسلوب من أساليب العبارة الصوفية الملغزة المشيرة إلى وحدة الوجود.

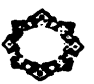
٢ ـ كيف يفسرون «لا إله إلا الله».

٣ ـ من هو الواصل في اصطلاحاتهم، وبالتالي ما هي غاية التصوف.

وأخيراً.. وحدة الوجود هي الصوفية، وهي الصوفية الحقة، وهي غاية التصوف، ولا غاية للتصوف غيرها، وواهم من ظن أو يظن خلاف ذلك، واهمٌ واهم.

يقول عبد القادر الجيلاني: «الزهد عمل ساعة، والورع عمل ساعتين، والمعرفة عمل الأبد»[2].

وهذا كلام واضح صريح أن الزهد والورع ليسا من الغاية في شيء وأن المعرفة هي الغاية ولا غاية غيرها! فما هي المعرفة؟ ومن هو العارف؟

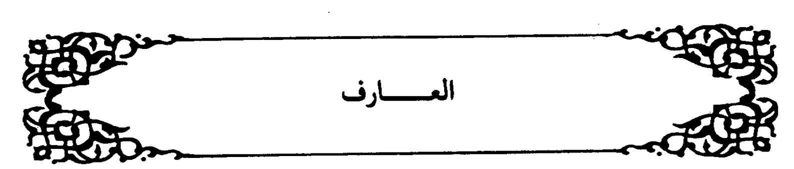


(١) المنتخبات من المكتوبات، ص١٧.

(٢) فتوح الغيب، ص١٧١.



الفصل السادس :



العـــارف

كلنـا نسمـع بالعـارف بالله فلان، ونقرأ في الكتب عن العارف بالله علاّن، كما نرى مكتوباً على أبـواب بيـوت الأوثـان المنتشـرة في بلاد المسلمـين طولاً وعرضاً: «هذا مقام العارف بالله . . .».

وليس لهذه العبـارة «العـارف بالله» مدلـول واضح في أذهان كثيرين! وإنما تبعث في النفوس صوراً شاحبة لنوع ما من التزكية على الله تزكية عريضة وغامضة مبهمة، هذا هو الشعور الذي تبعثه هذه العبارة في الأكثرية من الناس الذين يعطونها تفاسير انطباعية غير موضوعية، تتناسب مع هوى المفسر ونفسيته ومستواه العلمي.

فما هو معنى هذا المصطلح؟ وماذا يريدون به وله وفيه ومنه وعليه وإليه وعنه؟

الجـواب، بكـل بسـاطـة، العارف بالله هو من عرف أن الله هو الكون!! وأن كل ما نرى ونسمع ونحس، بما في ذلك أنا وأنت وهو وهي وهم وهن ونحن وأنتم وأنتن ـ ونسيت أن أذكـر «أنتـما» ـ وبـما في ذلـك الحيـوانـات والحشـرات والنبـاتات والجمادات، والأرض والشمس والقمـر والنجـوم والكـواكب. . . كل هؤلاء هم أجـزاء من الله! مع العلم أن بعض القـوم لا يجيـزون أن يقـال: «أجـزاء من الله» لأن الله كل لا يتجزأ، إنه وحدة غير قابلة للتعـدد ولا للتجـزؤ، ﴿سبحـان الله عما يصفون﴾، فالعارف، وبكل بساطة، هو من توصل إلى معرفة وحدة الوجود بالذوق والمشاهدة. قال الجنيد: المعرفة وُجودُ جهلك عند قيام علمه. قيل له: زدنا، قال: هو العارف وهو المعروف[1].

---

(١) التعرف، ص٦٦.

وسئل الجنيد أيضاً عن العارف، فقال: لون الماء لون الإناء[1].

وسئل الحسين بن علي بن يزدانيار: متى يكون العارف بمشهد الحق؟

قال: إذا بدا الشاهد وفنِيَ الشواهد، وذهب الحواسّ، واضمحلّ الإحساس[2].

معنى: «بدا الشاهد»: يعني شاهِد الحق. و«فناء الشواهد»: بسقوط رؤية الخلق عنك. و«ذهاب الحواس»: هو معنى قوله: «فبي ينطق وبي يبصر»[3].

وسئل ذو النون عن نهاية العارف فقال: إذا كان كما كان حيث كان قبل أن يكون[4].

وسئل الشبلي: متى يكون العارف بمشهدٍ من الحق؟

قال: إذا بدا الشاهد، وفنيت الشواهد، وذهبت الحواس، واضمحل الإحساس بالسوى، ولم يبق إلا شعور الذات بالذات[5].

ويقول الشبلي كذلك: المعرفة أولها الله وآخرها ما لا نهاية له[6].

وسئل أبو يزيد البسطامي عن صفة العارف؟ فقال: إن لون الماء من لون إنائه[7].

- يلاحظ أن قول ابن يزدانيار هو نفس قول الشبلي إلا قليلاً، وقول الشبلي أكمل منه وأوضح. كما أن قول البسطامي هو نفس قول الجنيد؛ ولا غرو! فمن البدهي أن يأخذوا عن بعضهم الأقوال والأفعال. وأظن أن معاني أقوالهم صارت الآن مفهومة تماماً للقارىء.

ويقول الغزالي:

«... فمَنْ عرفَ الحقَّ رآه في كل شيء، إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله، فهو الكل على التحقيق..»[8]. (ثم يلوك الغزالي بعد هذا الكلام كلاماً يقصد به التمويه

---

(1) التعرف، ص١٣٨.
(2) التعرف، ص١٣٦.
(3) من شرح الكلاباذي في التعرف، ص١٣٦.
(4) التعرف، ص١٣٧.
(5) معالم الطريق إلى الله، ص١١٣.
(6) طبقات الشعراني: ١ / ١٠٤.
(7) معالم الطريق إلى الله، ص١١٣.
(8) الإحياء: ١ / ٢٥٤.

على غير أهل الحقيقة).

ويقول: . . . العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة، اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق، ولكن منهم من كان له هذه الحالة عِرفاناً علميًّا، ومنهم من صار له ذوقاً وحالاً، وانتفتْ منهم الكثرةُ بالكلية، واستغرقوا بالفردانية المحضة، فلم يبْقَ عندهم إلا الله، فسكروا سكراً وقع دونه سلطانُ عقولهم! فقال بعضهم: «أنا الحق»، وقال الآخر: «سبحاني ما أعظم شاني»، وقال الآخر: «ما في الجبة إلا الله»[1].

ويقول: . . . من هنا ترقّى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة، واستكملوا معراجهم، فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله تعالى[2]. . .

ويقول: . . . قال العارفون: ليس خوفُنا من نار جهنم، ولا رجاؤنا للحور العين، وإنما مطالبنا اللقاء، ومَهْرَبُنا من الحجاب فقط[3]. . .

- بتأمل النص الأخير، نلاحظ أن الغزالي يريد أن يقول: « . . . ولا رجاؤنا للجنة»، لكنها كانت ستكون شديدة الوقع على سمع المسلم وعلى عقيدته «فشلبنها» لتكون أخف وقعاً وقال: «ولا رجاؤنا للحور العين» والمعنى واحد طبعاً.

ويقول ابن عربي (الشيخ الأكبر):

. . . فإن العارف مَنْ يرى الحق في كل شيء، بل يراه عَيْنَ كلِّ شيء[4]. . .

. . والعارف المكمَّل من رأى كلَّ معبودٍ مجلى للحق يُعْبَدُ فيه، ولذلك سمُّوه كلهم إلهاً مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو فلك[5].

. . . فمَنْ رأى الحق فيه بعينه (أي بعين الحق) فذلك العارف، ومَنْ رأى الحق منه فيه بعين نفسه فذلك غير العارف، ومن لم ير الحق منه ولا فيه وانتظر أن يراه بعين نفسه

---

(١) مشكاة الأنوار، ص١٢٢.

(٢) مشكاة الأنوار، ص٥٥.

(٣) الإحياء. ٤ / ٢٢

(٤) الفصوص، «فص حكمة إمامية في كلمة هارونية»، ص١٩٢.

(٥) نفسه ونفس الفص، ص١٩٥.

فذلك الجاهل[1]. . . . (أرجو التمعن جيداً).

ويقول شهاب الدين السهروردي البغدادي:

. . . فلما صحَّ تعرفُه صحَّ تصرفه، وهذا أعز في الأحوال من الكبريت الأحمر[2]. . .

ويقول عبد الكريم القشيري:

. . . وعند هؤلاء القوم، المعرفة صفةُ مَنْ عَرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته. . . ثم تنقّى عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب اعتكافه، فحظي من الله تعالى بجميل إقباله. . . وانقطع عن هواجس نفسه، ولم يُصْغِ بقلبه إلى خاطرٍ يدعوه إلى غيره، فإذا صار من الخلق أجنبيًّا، ومن آفات نفسه بريًّا. . . وصار محدَّثاً مِن قِبَل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه مِن تصاريف أقداره، يسمّى عند ذلك عارفاً وتسمى حالته معرفة[3].

ومما أورده اليافعي للقشيري:

. . . لا يُسمّى العبد في هذه الطريقة عارفاً حتى يحصل بينه وبين الله تعالى أحوالٌ زائدة على العلم، مِن فنون الكشوفات وصنوف التعريفات. . والعارف يبدو في قلبه، في ابتداء التعريف، لوائح ثم لوامع ثم كشوفات وبصائر وطوالع[4]. . .

ـ أقول: القشيري هنا حذر يستعمل الرمز، لكن عن مدى غير بعيد.

ويورد القشيري أيضاً في الرسالة:

قال ذو النون المصري: مُعاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى! يحتملك ويحلم عنك تخلقاً بأخلاق الله عز وجل[5]. . .

---

(١) الفصوص، «فص حكمة أحدية في كلمة هودية»، ص١١٣.

(٢) عوارف المعارف في هامش الإحياء: ٢ / ١٥٠.

(٣) الرسالة القشيرية، ص١٤١.

(٤) نشر المحاسن الغالية، ص٦٩.

(٥) الرسالة القشيرية، ص١٤٢.

ومما يورده:

. . . قال الحسين بن منصور (أي الحلاج): إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة أوحى الله تعالى إليه بخواطره وحرس سره أن يسنح فيه غير خاطر الحق[1].

ويقول ابن عطاء الله السكندري:

. . . والمعـرفـة رؤ يـةٌ لا علم، وعـينٌ لا خبر، ومشـاهـدةٌ لا وصف، وكشفٌ لا حجاب، ما هُمْ هُمْ، ولا هُمْ بإياهم، كما قال تعالى: «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه. فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤ يداً»[2]. . .

- يظهر من القراءة السـاذجة لهذا النص أن فيه تنافراً بين جُمَله! لكن هذا يزول إذا تذكرنـا أنهم يعنـون بعبـارة: «أنعمنـا عليه»، أي: بالولاية والقرب. وعبارة: «كنت له سمعاً وبصراً»، أي: جعلته يستشعر ويتحقق أنه أنا. وأن «هو» من الأسماء الحسنى.

ويقول أيضاً:

إنَّ ما سوى الله تعالى عند أهل المعرفة، لا يوصف بوجود ولا فَقْد، إذ لا يوجد معه غيره، لثبوت أحديته، ولا فقد لغيره لأنه لا يُفْقَدُ إلا ما وُجد، ولو انهتك حجاب الوهم، لوقع العيانُ على فَقْدِ الأعيان، ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان[3]. . . .

ويقول لسان الدين بن الخطيب:

ومحصول السعادة عندهم أن ينكشف الغطاء، وتظهر للعارف إنِّيَّةُ الحق، وأنه عينُ إنية كل شيء، ويعقِلُ إنية ذاته وما هي عليه، ومن عرف نفسه عرف ربه[4]. . .

- كلمة «إنِّيَّة» منحوتة من قول القائل: إني إني. .

ويقول ابن خلدون:

. . . ولا يزال المريد يترقى مِنْ مقام إلى مقام، إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة،

---

(1) الرسالة القشيرية، ص١٤٢.

(2) القصد المجرد، ص٨٦.

(3) كشف الأسرار لتنوير الأفكار، ص١٣٩.

(4) روضة التعريف بالحب الشريف، ص٦١١.

التي هي الغاية المطلوبة للسعادة[1].

وقال داود الكبير بن ماخلا (أو باخلا):

... ما لاح كوكبُ كونٍ إلا عند غيبة شمس المعرفة، ومتى طلعت شمس المعرفة مِن مشارقِ التوحيد أَفَلَت كواكب الآثار وغابت نجوم الأغيار[2]...

«... أولاً تسمع، ثانياً تفهم، ثالثاً تعلم، رابعاً تشهد، خامساً تعرف..»[3].

ويقول ابن عجيبة:

... وأما العارفون فقد ظَفِروا بنفوسهم ووصلوا إلى شهود معبودهم، فهم يستأنسون بكل شيء، لمعرفتهم في كل شيء، يأخذون النصيب من كل شيء، ويفهمون عن الله في كل شيء، فإذا مُدِحوا انبسطوا بالله، لشهودهم المدح من الله وإلى الله، ولا شيء في الكون سواه[4].

... فإذا تطهَّر من الأغيار مُلىء بالمعارف والأسرار، فالمعارف هي العلوم، والأسرار هي الأذواق، فمَنْ رآها وذاقها يقال له عارف، ومن لم يصل لهذا المقام وكان من أهل الدليل يقال له عالم[5]...

... وحقيقة العارف هو الذي فني عن نفسه وبقي بربه، وكَمُل غناه في قلبه؛ لا يحجبه جَمْعُهُ عن فَرْقِه ولا فرقُه عن جَمْعه؛ يُعطي كل ذي حق حقَّه، ويوفي كل ذي قسط قسطَه[6]...

ويقول عبد العزيز الدبَّاغ[7] «قطب الواصلين»:

(1) مقدمة ابن خلدون، «علم التصوف».
(2) طبقات الشعراني: ١ / ١٩١.
(3) طبقات الشعراني: ١ / ١٩٤.
(4) إيقاظ الهمم، ص٢١٥.
(5) الفتوحات الإلهية، ص٤١٢.
(6) الفتوحات الإلهية، ص٤١٣.
(7) الشيخ عبد العزيز بن مسعود بن أحمد الدباغ، مغربي من فاس، ولد سنة ١٠٩٥هـ، وتوفي سنة ١١٣٢هـ.

. . . إن الله تعالى لا يُحب عبداً حتى يُعرِّفه به، وبالمعرفة يطّلع على أسراره تعالى، فيقع له الجذب إلى الله تعالى[1].

ويقول مصطفى العروسي:

. . . العارف، وهو مَن أشْهده الله تعالى ذاتَه وصفاتِه وأفعالَه، إذ المعرفة حالةٌ تَحْدُثُ عن شُهود، والعالم من أطلعه الله على ذلك لا عن شهود، بل عن يقين مستنِدٍ إلى دليل وبرهان، والعلماء بهذا المعنى هم العامة في اصطلاح الصوفية[2]. . .

ويقول محمود أبو الفيض المنوفي:

وحاصل المعرفة: أن الله هو النبع السامي لكل شيء، وليس شيء من الأشياء جميعها هو الله[3].

- يقول: «وليس شيء من الأشياء جميعها هو الله» لأن الله في عقيدتهم هو جميع الأشياء لا شيء واحد منها فقط. وهو يستعمل هنا لفظ الجلالة «الله» بمعناه الكلي. بينما ذاك الذي قال: «أنا الله» استعمل لفظ الجلالة «الله» من باب إطلاق اسم الكل على الجزء. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً، وسبحان الله عما يصفون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولو أراد باحث أن يجمع أقوالهم في العارف ومعنى المعرفة لاحتاج إلى مئات الصفحات. وفي القدْر الذي مر كفاية لسد الطرق أمام مراوغاتهم التي تخلو من الحياء والمنطق والعقل السليم، بل وتخلو من الخوف من الله!

وزيادة في التوضيح، نذكر نصًّا لابن عطاء الله في حِكَمِه (بل نقمه) مع شرح عليه لابن عجيبة، يقول ابن عطاء الله:

«. . . إن كانت عينُ القلب تنظرُ أن الله واحدٌ في منّته، فالشريعة تقتضي أن لا بد من شكر خليقته. وأن الناس في ذلك على أقسام ثلاثة:

---

(1) الإبريز، ص٢١٧.
(2) حاشية العروسي: ١ / ٨.
(3) معالم الطريق إلى الله، ص١١٥.

غافلٌ منهمك في غفلته، قويتْ دائرة حسه، وانطمست حضرة قدسه، فنظر الإحسان من المخلوقين، ولم يشهده من رب العالمين، أما آعتقاداً فشرك جلي، وأما استناداً فشرك خفي.

وصاحبُ حقيقةٍ غاب عن الخلق بشهود الملِكِ الحق، وفَنِيَ عن الأسباب بشهود مسبِّبِ الأسباب، فهذا عبدٌ مواجَهٌ بالحقيقة، ظاهرٌ عليه سناها، سالكٌ للطريقة، قد استولى على مداها، غير أنه غريقُ الأنوار، مطموسُ الآثار، قد غلب سُكْرُه على صَحوه، وجَمْعُه على فَرْقه، وفناؤه على بقائه، وغيبته على حضوره.

وأكْملُ منه عَبْدٌ شَرِبَ فازداد صحواً، وغاب فازداد حضوراً، فلا جمعه يحجبه عن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يصدُّه عن بقائه، ولا بقاؤه يصدُّه عن فنائه، يُعطي كلَّ ذي قسطٍ قسطَه، ويُوفي كلَّ ذي حق حقه[1].

ومن شرح ابن عجيبة لهذه الحِكَم الضلالية:

... عينُ القلب هي البصيرة، ومِنْ شأنها أن لا ترى إلا المعاني دون المحسوسات، كما أن البصر لا يرى إلا المحسوسات دون المعاني، والحُكْمُ للغالب منهما، فمَنْ غلب بصرُه على بصيرته لا يرى إلا الحس، وهو الغافل؛ ومن غلبتْ بصيرته على بصره لا يرى إلا المعاني، وهي معاني التوحيد وأسرار التفريد؛ فالبصيرة لا ترى إلا نور الحق دون ظُلْمة الخلق، لكن لا بدَّ من إثبات الحكمة، وقد تقدم قوله: «الأكوان ثابتة بإثباته، ممحُوَّةٌ بأحدية ذاته»، فلا بدَّ من إثباتها قياماً بالحكمة ونَفْيِها قياماً بالوحدة... (وأن الناس في ذلك على أقسام ثلاثة)، إما واقف مع الحس ناظر للأسباب، أو غائب عن الحس وعن رؤية الأسباب، أو جامع بينهما؛ أو تقول: إما عامة أو خاصة أو خاصة الخاصة... الحقيقة هي شهودُ نور الحق في مظاهِرِ الخَلْق، أو شهود نور الربوبية في قوالب العبودية، فصاحب الحقيقة هو الذي يغيب عن الخلق بشهود نور الملِكِ الحق، ويفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب، فإن كان مع مراعاة الحكمة فهو كامل، وإن كان من غير مراعاة الحكمة، فإن كان غائباً مصطلماً، فهو معذور... (ظاهر عليه

---

(١) إيقاظ الهمم، ص٣٨٥ وما بعدها، والكتاب شروح وتعليقات لابن عجيبة على الحكم العطائية.

سنـاهـا)، أي: نورهـا، فلما دَهَتْه الأنوار سكر وأنكر الحكمة؛ فهو باعتبار ما قبله، كامل لاستغـراقـه في بحـر الـوحـدة، وهـو معـذور في نفيـه الحكمة لِغَلَبة وجده وظهور سكره، وباعتبار ما بعده ناقصٌ لقصور نفعه على نفسه[1]. . .

- بيَّن هنـا حالـة الفنـاء، بأنها تعتبر كمالاً بالنسبة لما قبلها الذي هو حالة الفرق (أي التفـريق بين الخـالق والمخلوق)، وهي نقص بالنسبة لما بعدها، وهو الحال الذي يسمونه الفرق الثاني: أي الاعتقاد بالوحدة وبالحكمة، والحكمة عندهم هي وجود التعينات التي يجب أن نسميها «خَلْقاً» أو «عبودية» مراعاة للحكمة!

- وواضح أن هذا الكلام هو اتهامٌ لله سبحانه ولشريعته بالكذب والمتاقاة.

ويقولُ ابن عجيبة متمماً كلامه:

. . . فمِنَ النـاس من يكـون صدره ضيقاً فلا يحتمل تلك الأنوار ولا يُطيق مشاهدة تلك الأسـرار، فيغيب في شهـود الـوحـدة، وينكر الحِكْمة، ومِن الناس من يكون واسع الصـدر قوي النـور، فإذا أشرقت عليـه أنوار الحقيقة لم تغلبه عن القيام بالحكمة، وصار برزخـاً بين حقيقـةٍ وشـريعة، هكذا يكون سيره بين فناءٍ وبقاءٍ حتى يتمكن فيهما ويعتدل أمره بينهما، وهذه حالة الأقوياء. . .»[2].

- إذن فالكامل هو بين فناء «أي في الوحدة»، وبين بقاء «أي يحس بالحكمة»، وهي أن في الوجود تعينات يجب أن يقول إنها خَلْق، ويجب أن يرى نفسه ويراها عباداً لله، لتتم الحكمة. فهو غارق في الوحدة ومتظاهر بالفرق. وهذا هو العارف.

- حتى يقول:

«. . . الجمـع رؤيـة الحق بلا خَلْق، والفـرق رؤيـة الخلق بلا حق، فإن كان بعد الجمـع فهـو رؤيـة الخلق والحق، والحـاصـل أن أهل الجمع لا يشهدون إلا الحق، وأهل الفـرق لا يشهـدون إلا الخلق، ويستـدلون على الحق، وأهل الفرق في الجمع يشهدون الخلق والحق، أعني يشهدون الواسطة والموسوط من غير فرق بينهما[3]. . .

---

(1) إيقاظ الهمم، ص٣٨٥ - ٣٨٧.
(2) إيقاظ الهمم، ص٣٨٨.
(3) إيقاظ الهمم، ص٣٨٨.

ـ في هذا النص شرح لمصطلحات «الجمع، والفرق، والفرق في الجمع».

«فالجمع» هو رؤية الحق بلا خلق، وأهله هم الذين يقولون: «أنا الله، وسبحاني...».

«والفرق» هو رؤية الخلق بلا حق، أي أنهم ليسوا هم الحق، وهؤلاء هم المحجوبون.

«وأهل الفرق في الجمع» هم الذين يعرفون أنهم هم الله، وأن الكون هو الله، وأن الواسطة هي نفس الموسوط لا فرق بينهما، ولكنهم مع ذلك يعترفون بالعبودية، ويقولون: إنهم خلق وعبيد، وهؤلاء هم العارفون.

ومثله قول سعيد حوى:

«نحنُ نعلم أن هناك حالات للسالك يحسُّ فيها بأحدية الذات الإلهية، ويستشعر فيها اسم الله الصمد، وهي حالةٌ يستشعر فيها السالك فناء كل شيء، ولكن هذا الشعور لا بدَّ أن يرافقه الاعتقاد بأن الله خالق، وأن هناك مخلوقاً، وأن الخالق غير المخلوق»[1].

ـ هذا قول واضح في تعريف الصوفي الكامل، الذي يسمونه العارف، ويسمونه أسماء كثيرة، منها: الولي والصدِّيق والمقرَّب... وغيرها وغيرها مما مر معنا، ومما لم يمر، وعلى رأسها «الإنسان الكامل» أي الواصل إلى مقام الفرق الثاني.

ويجب أن نلاحظ الاستدراك الذي يستدركه على توضيحه للحقيقة التي عبَّر عنها بقوله: «يحس أحدية الذات، يستشعر اسم الله الصمد، يستشعر فناء كل شيء»، ثم استدرك ليلتزم بالقاعدة التي يتواصون بها، فقال: «ولكن... يجب أن يرافقه الاعتقاد بأن الله خالق وأن هناك مخلوقاً، وأن الخالق غير المخلوق»، هذا الاستدراك صريح (بشيء من التأمل) في أن تلك الحالات التي يحسُّ بها أحدية الذات الإلهية ينْعَدمُ فيها فكرة الخالق والمخلوق، فالكل واحد، وهذا ما يعبرون عنه بأحدية الذات، واستشعار

(١) تربيتنا الروحية، ص٧٩. والكتاب هو اقتباسات وتفريعات وزيادات على كتابي ابن عجيبة «إيقاظ الهمم والفتوحات الإلهية».

اسم الله الصمد، وفناء كل شيء (وقد مرت كل هذه التعابير)؛ كما أن هذا الاستدراك ما هو إلا التزام بالقاعدة القائلة «اجعل الفرق في لسانك موجوداً والجمع في جنانك مشهوداً»، مع تطوير لها.

إذ معنى قوله هنا هو: إن وحدة الوجود هي واقع الوجود، وإن الواصل يحس بها ويذوقها ويستشعرها وبالتالي سيعتقد بها، لكن يجب عليه أن يعتقد بالنقيضين معاً! يجب عليه أن يعتقد أن الخالق هو المخلوق، وأن يعتقد معها أن الخالق غير المخلوق! انظر إليه يقول: «. . ولكن هذا الشعور لا بد أن يرافقه . . .»!

الشعور بماذا؟ بأحدية الذات الإلهية، باستشعار الصمدانية، باستشعار فناء كل شيء، أي باستشعار وحدة الوجود.

وبدهي أن الإنسان إذا استشعر شيئاً وذاقه وأحس به فسيعتقد به اعتقاداً جازماً.

ومع ذلك، فالشيخ يطلب من السالك أن يعتقد مع هذا الاعتقاد (أن يرافقه) نقيضه، أي أن يعتقد النقيضين معاً! وهذا منطق جديد وتطوير جريء للعقيدة الصوفية وعبارتها.

* النتيجة:

من كل ما تقدم، ومما يمكن أن يملأ مئات الصفحات مما لم يتقدم، يظهر بوضوح تام أن معنى المعرفة عند القوم هو معرفة وحدة الوجود، وأن العارف عندهم هو الذي يعرف أن الكون هو الله ذوقاً واستشعاراً، أي يذوق الألوهية ويستشعرها ويحس بها ويتحقق بها.



□ خلاصة كل ما تقدم:

- الصوفية مذهب واحد فقط، فقط، فقط.

- هذا المذهب هو سر يجب كتمانه، وهم يقولون بقتل من يبوح به لغير أهله.

- هذا السر هو «وحدة الوجود»، أي: إن الله هو الكون، والخالق هو عين ما نتوهم أنه المخلوق.

- لهم أسلوب خاص للتعبير عن هذا السر بين بعضهم، بحيث لا يفهمه إلا من كان منهم، ويسمون هذا الأسلوب «العبارة»، وهي تشمل الإشارة والرمز واللغز، أي إنهم يعبرون في كلامهم عن وحدة الوجود بالإشارة والرمز واللغز، مِنْ أجل التعمية على غيرهم. وكلما كانت العبارة أكثر إيغالاً في الإشارة والرمز واللغز، كلما كانوا أكثر تقديساً لها وأكثر إعجاباً بصاحبها، ونجد قمة العبارة عند شهاب الدين السهروردي البغدادي، ثم عند أستاذه عبد القادر الجيلاني والجنيد وأفراد غيرهم.

- كلهم يؤمنون بوحدة الوجود، لكنهم يكتمونها، حسب القاعدة، ويتظاهرون أنهم يؤمنون بالمخلوقية والعبودية، ويسمون ذلك «الفرق الثاني» أو «الفرق في الجمع» أو «صحو الجمع» أو «الصحو بعد المحو»... كما يطلقون على وحدة الوجود اسماً آخر هو «وحدة الشهود»، وكثيراً ما يستعملون الاسم الثاني «وحدة الشهود» للمغالطة، ويتقيدون بالشريعة من أجل ستر حقيقتهم، ويعتقدون أن الله سبحانه هو الذي يريد هذه المخادعة التي يسمونها «الحكمة».

- كلهم يؤمنون بالحقيقة المحمدية، التي تعني أن محمداً ﷺ هو المجلى الأعظم للذات الإلهية، وأن كل التعينات (أي الأشياء) تصدر عنه ثم تعود إليه، يقول شاعرهم:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

- للتصوف غاية واحدة فقط، ولا يوجد في التصوف أية غاية أخرى غيرها على

الإطلاق، وهذه الغاية هي الوصول إلى الجذبة التي يذوقون بها وحدة الوجود، أي يذوقون الألوهية.

وحسبه من ذلك المقصود   إشراق نور وحدة الوجود

وما يقولونه من أن الغاية هي الزهد والتوكل والورع وأخواتهن، ما هو إلا أسلوب دعائي لا أكثر ولا أقل، يخادعون به الله والذين آمنوا. ولنتذكر قول الجيلاني: «الزهد عمل ساعة والورع عمل ساعتين والمعرفة عمل الأبد».

- والعارف، هو من وصل إلى معرفة وحدة الوجود، يذوق الألوهية واستشعارها والتحقق بها ومشاهدتها، لا بالدليل والبرهان.

وحجة الكلام كلام حجة الإسلام، الإمام الهمام، بل أكثر من خمسين ألف ألف إمام، بدر التمام، أبي حامد، بل أبي المحامد الغزالي، يقول:

... حتى إن مشايخ الصوفية صرَّحوا ولم يتحاشوا، وقالوا: «مَنْ يعبد الله لطلب الجنة أو للحذر من النار فهو لئيم، وإنما مطلب القاصدين إلى الله أمرٌ أشرف من هذا، ومَنْ رأى مشايخهم وبحث عن معتقداتهم وتصفح كتب المصنفين منهم، فهِمَ هذا الاعتقاد من مجاري أحوالهم على القطع...»[1].

هذه هي الصوفية، ومئات الصفحات السابقة هي براهين من أقوالهم على ذلك، وكل من يقول خلاف ذلك، إن كان منهم فهو مراوغ مخادع، وإن كان من غيرهم فهو جاهل بالصوفية، جاهل بالصوفية.

ونسأل الذين يزكون بعض المتصوفة مثل الجنيد وغيره، نسألهم: هل كان الجنيد صوفيًّا أم لا؟ إن كان صوفيًّا فهذه هي الصوفية ولا شيء غيرها، وإن تجرأ متجرىء ونفى عنه الصوفية! نقول له: إن كل الذين كتبوا عن الجنيد كتبوا عنه على أنه صوفي.

ويتوصلون إلى هذه الغاية بالطريقة.

فما هي الطريقة؟

(١) ميزان العمل، ص١٦.

لا وصول للحقيقة إلا بعد سلوك الطريقة «ابن عجيبة»

الباب الثاني: الطريقة

□ **تمهيد: طريقتان:**

لا يوجد في الصوفية إلا طريقتان هما:

١ ـ طريقة الإشراق:

هي الطريقة الوحيدة الأزلية التي استعملها المتصوفة في كل الأمم.

فما إليه أبداً نُشير ... هُوَ علاج النفس والتطهير
وهذه طريقة الإشراق ... كانت وتبقى ما الوجودُ باقي[1]

بالرغم من أن معنى العبارتين «علاج النفس والتطهير» يجب أن يكون الآن، وبعد مئات الأمثلة، واضحاً تماماً، ومع ذلك فلا بأس من شرحهما.

علاج النفس: سياسة النفس، ومعاملتها، بإخضاعها مرحلة بعد مرحلة، إلى ما يوصلها إلى الجذبة.

تطهير النفس: هو تطهيرها مما يسمونه «الصفات المذمومة» وقد مرت عليها أمثلة كثيرة، وهي كل ما يُعيق السالك عن الوصول إلى الجذبة وتذوُّق الوحدة.

٢ ـ طريقة البرهان، أو الطريقة الغزالية، أو التصوف السنّي:

وفرْقَةٌ قالت بأن العِلْما ... مِن خارجٍ بالاكتساب أسمى
وشرطوا العلومَ في اصطلاحه ... إذ لا غنى للباب عن مفتاحه
فليس للطامع فيه مطمع ... ما لم تكن فيه علومٌ أربع
وهي علوم الذات والصفات ... والفقه والحديث والحالات
وهذه طريقة البرهان ... وهي لكلِّ حازمٍ يقظان[1]

(١) من قصيدة المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي.

أي إن طريقة البرهان هي نفس الطريقة الإشراقية التي يعبرٌ عنها هنا بـ «الباب» أي الباب الذي يمر به السالك كي يصل الجذبة، يضاف إليها العلوم الإسلامية، مع الملاحظة أنه يُعبرٌ عن الجذبة ورؤاها بكلمة «الحالات».

ولا بأس من زيادة في التوضيح.

طريقة الإشراق:

هي الطريقة القديمة المستمرة (كانت وتبقى ما الوجود باقي)، وُجدت مع وجود الصوفية في أعماق التاريخ، وهي الطريقة الوحيدة في الحقيقة، ولا طريقة غيرها. يقول عنها الدكتور عبد الحليم محمود:

. . . فإن الصوفية جميعاً وفلاسفة الإشراق منذ فيثاغورس وأفلاطون (بل هي أقدم منهما بكثير) إلى يومنا هذا يعلنون منهجاً محدداً يُقرُّونه جميعاً ويثقون فيه ثقة تامة، ذلك هو المنهج القلبي أو المنهج الروحي أو منهج البصيرة، وهو منهج معروف أقرته الأديان جميعها واصطفته مذاهب الحكمة القديم منها والحديث[1]. . . اهـ.

وأسلوبها الأممي التاريخي القديم الحديث، هو أن يُميت السالك إحساساته وأعصابه بإرهاقها إرهاقاً شديداً جدًّا حتى يصل إلى ما يشبه العته ـ وأقول «ما يشبه العته» ـ لأنه عته اصطناعي غير ناتج عن مرض طبيعي، وإلا فله كل مظاهر العته ـ وذلك بأن يخضع نفسه للرياضة، وهي، كما يقول الغزالي: الخلوة والصمت والجوع والسهر[2]: وقد يضاف إليها شيء من التعذيب الجسدي. كما كان يفعل الشبلي وغيره، مع العلم أن متصوفة المسلمين جعلوا الذكر بدل الصمت، لأنه أسرع في الوصول إلى الجذبة، حتى إذا وصل فقد يأمرونه بالصمت. أما الجوع الذي يطبقونه فقد يمتد إلى عشرات الأيام، وفي سبيل السهر ومقاومة النوم يستعملون أية وسيلة يمكن أن تساعدهم على ذلك: كضرب السالك جسمه أو حرقه، أو الجلوس على الشوك، أو الوقوف على رجل واحدة مع التعلق بوتد اجتناباً للسقوط أو تعليق القدمين في الأعلى والرأس مُدَلَّى إلى أسفل. . . أو أخذ وضع من أوضاع «اليوغا» أو أخذ مادة طاردة للنوم كالشاي والقهوة

---

(١) أبو العباس المرسي، ص١٠.

(٢) الإحياء: ٣ / ٦٥.

المركّزين تركيزاً عالياً أو غيرهما من المواد الكيماوية.

يداوم السالك على هذه الحال، واضعاً أمامه غايةً واحدة، حتى يصل إليها، ويعبرون عنها بمثل قولهم: «لا أريد إلا الله»، وهذا لا يمنعه أن يحصل معه أمر آخر غير الغاية المرجوة التي هي الجذبة ورؤاها.

قد يكون مفيداً إيراد بعض شرح لابن عجيبة:

«... فعند ذلك (بعد رياضاتٍ ذكرها) يُدْخِله (الشيخ) إلى الخلوة، أي يأمره بها، ويحضُّه على ذكر الاسم المفرد «الله» حتى لا يفتر عنه ساعة... وهذا التدريج ليس بلازمٍ لكل الشيوخ ولا لكل المريدين أن يسلكوه، بل من الشيوخ مَن يلقِّنُ الاسم مِن أول مرة (أي دون الرياضة التي ذكرها قبل هذا الكلام) إذا رأى الفقير أهلاً له، ويأمره بقتل نفسه مع ذكر ربه، بحيث يجعل له وقتاً يذكر فيه ربه، ووقتاً يقتل فيه نفسه، وهذا الذي أدركْنا عليه أشياخَنا: يأمر الفقير بالخلوة في أول النهار إلى وقت العصر، ثم يخرج إلى السوق ويعمل من الأحوال ما تموت به نفسه، فيكمل فناؤه في الاسم مع موت نفسه، فيقرُبُ فتْحُه.

ومن المريدين مَن لا يحتاج إلى خلوة، بل يأمره بالخلطة مِن أول مرة، والناس معادن وطبائع، والعلل متفاوتة، والفتح من الله مِنْ غير توقفٍ على الأسباب، إلا أن الحكمة جارية مع القدرة. والله تعالى أعلم[1]. «انتهى».

- ولعل القارىء يعرف الآن أن «الفتح» هو الجذبة ورؤاها.

- وعادة قد يسبق الجذبة أو يرافقها أمورٌ خارقة للعادة، كأن يرى أشخاصاً أو أشكالاً مختلفة، أو يسمع أصواتاً... وقد يحدث مع بعضهم أن يسير على الماء أو يطير في الهواء... وهو موجود في كل الأمم، وفي الكافرة قبل المسلمة، ودور الشياطين واضح فيها.

- والمشاهد الجذبية مع خرق العادة هي التي تجعلهم يتشبثون بالتصوف ذلك التشبث الذي لا يقبل النقاش، حتى يصل بهم الأمر إلى تأويل آيات القرآن الكريم

---

(١) الفتوحات الإلهية. ص٣٣٨.

ووضـع الأحـاديث على لسـان الـرسول ﷺ وتأويل الصحيح منها: ﴿يحرفون الكلم من بعـد مواضعـه﴾، لتتّفق مع رؤ اهم الإشـراقيـة التي يسمـونهـا كشفـاً وعلوماً لدنية، وقد يسمونها «حكمة الإشراق»[1].

أما طريقة البرهان:

فهي طريقـة الإشـراق نفسهـا مزجـوهـا بالإسلام، وفلسفها حجتهم الغزالي بذكاء ودهـاء. فصـار عالمهم يتعلم، إلى جانب الإشـراق، العلوم الإسـلاميـة، وذلك بقصد التستر، واعتقاداً منهم أن الله سبحانه يريد ذلك.

وهم في علم التـوحيـد (علوم الـذات والصفـات) ينقسمـون ظاهـراً إلى قسمـين: أشعـريـة وماتريدية. أما باطناً فالتوحيد عندهم هو وحدة الوجود، وقد رأينا مئات الأمثلة على ذلك في الفصول السابقة.

أما الحديث فلهم فيه أسلوبهم الخاص!

فقد نرى بعضهم ـ مع الندرة ـ يحفظ ركاماً من الأحاديث، وقد يحفظها بأسانيدها، وقد يكون حافظاً لعدة كتب من كتب الحديث، ولكنه لا يستطيع أن يفقه الحديث ولا أن يميز بين صحيحه وضعيفه وموضوعه! وذلك لسببين:

١ ـ أنه لا يحفظ الحديث من أجل العلم والعمل به ولمعرفة الحق من الباطل، إنما يحفظه ليتسـتر به، وليكـون مقبـولاً عنـد الناس، ويستطيع أن ينتزع منه ما يخال أنه يؤ يد به مذهبه، وليزاود على منتقديه من أهل الظاهر، وقد مر بعض أقوالهم في ذلك، وطبعاً فيهم شاذون يحفظونه للعلم.

٢ ـ رأينـا أن كشفهم هو الـذي يصحـح لهم الحـديث أويضعفـه! وقـد يكـون الحـديث صحيحـاً فيضعفـه الكشف فيصبـح عنـدهم ضعيفـاً! وقـد يكـون الحديث موضوعاً مكـذوبـاً فيصححـه الكشف فيصبـح عندهم صحيحاً! لأن الكشف عندهم هو نور اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

---

(١) هناك كتاب ليحيى بن حبش السهروردي اسمه «حكمة الإشراق».

ـ وفي الإشارة إلى الطريقة البرهانية بالرمز واللغز يستعمل الصوفية عبارات كثيرة لا تخفى على المتمرس بلغتهم، منها على سبيل المثال: «حقيقتنا مقيدة بالقرآن والسنة» أو «طريقتنا سلفية وحقيقتنا صوفية» أو «التصوف السلفي» أو «إن كانت عين القلب تنظر أن الله واحد في منته فالشريعة تقتضي أن لا بد من شكر خليقته» وغيرها . . .

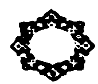
* خلاصة القول:

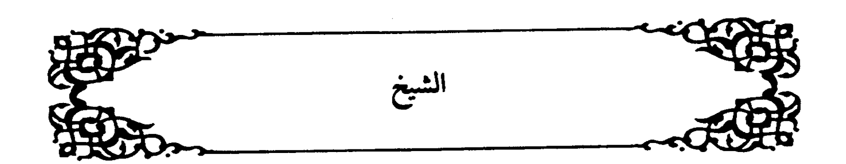
لا يوجد في التصوف إلا طريقة واحدة هي طريقة الإشراق، سواء عند متصوفة المسلمين أو عند غيرهم، ولكن متصوفة المسلمين مزجوا الطريقة الإشراقية بالإسلام، وسموا ذلك «التصوف السني» أو الطريقة البرهانية أو الغزالية، وبذلك استطاعوا أن يخدعوا المسلمين ويجروهم إلى التصوف.

أما ما نرى ونسمع من أسماء كثيرة لطرق كثيرة، فسببه الشيوخ، ولا شيء غير الشيوخ إلا جشع الشيوخ، و«المدد» الذي يقدمه المريدون والمحبّون و«المؤمنون».

وليُظهر الشيخ أن طريقته تختلف عن بقية الطرق، يخترع أوراداً تختلف بألفاظها فقط عن بقية الأوراد، ولذلك قالوا: «الطريقة بأورادها». وقد رأينا كيف أن أورادهم محشوة بما يناقض الإسلام جملة وتفصيلاً، وكلها تحمل معاني واحدة أو متشابهة.

وقد ظهر في المجتمعات الإسلامية عشرات الطرق الصوفية، اندثر بعضها، وتفرع بعضها إلى طرق كثيرة، وسنرى بعد قليل كشفاً لما أمكن الوقوف عليه منها.





الشيخ

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله فقم بها أدباً لله بالله

ابن عربي

□ لا طريقة بدون شيخ :

الشيخ عند المتصوفة هو إلـه ، يعطونه كل صفات الألوهية ، وهو الأساس في كل طريقة . وما تفرقت الطرق إلا اتباعاً لشيخ ، وتسمى كلها باسم مشايخها ومؤسسيها ، ومع الزمن تتفرع الطريقة الواحدة إلى طرق كثيرة تحمل أسماء مشايخها الجدد .

ولنترك أئمتهم يتكلمون . . .

يقول أبو حامد الغزالي :

. . . فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ، ليهديه إلى سواء السبيل ، فإن سبيل الدين غامض ، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة . . . فمعتَصَمُ المريد ، بعد تقديم الشروط المذكورة ، شيخُه ، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطىء النهر بالقائد ، بحيث يفوِّضُ أمرَه إليه بالكلية ، ولا يخالفه في وِرْدِهِ ولا صَدَرِه ، ولا يُبْقِي في متابعته شيئاً ولا يذر ؛ وليعلم أن نفعه في خطإ شيخه ـ لو أخطأ ـ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب ؛ فإذا وَجَد مثل هذا المُعْتَصَم ، وجب على مُعتَصِمِه (أي شيخه) أن يحميه ويعصمه بحصنٍ حصين[1] . . . .

(١) إحياء علوم الدين : ٣ / ٦٥ .

ويقول القشيري :

. . . ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً. هذا أبو يزيد يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان. وسمعت الأستاذ أبا علي الدّقاق يقول: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس، فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً فنفساً فهو عابد هواه، ولا يجد نفاذاً[1] . . .

ويقول محيي الدين بن عربي في أول الباب الواحد والثمانين والمائة من الفتوحات المكية:

ما حُرمة الشيخ إلا حرمة الله	فقم بها أدباً لله بالله
هم الأدلاء والقربى تؤيدهم	على الدلالة تأييداً على الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم	لا يسألون مِنَ الله سوى الله
فإن بدا منهم حالٌ تولّههم	عن الشريعة فاتركهم مع الله[2]

- لا أظن أن القارىء الذي بدأ الكتاب من أوله بحاجة إلى شرح لهذه الأبيات الضلالية، وتبيان ما فيها مما ينقض الشريعة الإسلامية جملة وتفصيلاً.

وكان عبد القادر الجيلاني يقول:

من لم يعتقد في شيخه الكمال لا يفلح أبداً[3].

ويقول عبد الوهاب الشعراني «القطب الرباني والغوث الصمداني»:

. . . فإن لم يتيسر للمريد صلاة الجمعة عند أستاذه، فليتخيله عنده في أي مسجد صلى فيه[4] . . .

ويقول علي وفا:

. . . فكما أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به، فكذلك محبة الأشياخ لا تسامح أن

---

(١) الرسالة القشيرية، ص١٨١.
(٢) الفتوحات المكية، الباب ١٨١ في أوله.
(٣) الأنوار القدسية: ١ / ١٧٤.
(٤) الأنوار القدسية: ١ / ١٨٨.

يشرك بها[1]. . .

وكان أيضاً يقول:

إذا صدق المريد مع شيخه وناداه من مسيرة ألف عام، أجابه حيًّا كان الشيخ أو ميتاً[2]. . .

وكان أيضاً يقول:

المريد الصادق مع شيخه كالميت مع مغسله، لا كلام ولا حركة، ولا يقدر ينطق بين يديه من هيبته، ولا يدخل ولا يخرج، ولا يخالط أحداً، ولا يشتغل بعلم ولا قرآن ولا ذكر إلا بإذنه[2]. . .

ويقول عدي بن مسافر:

لا تنتفع بشيخك إلا إذا كان اعتقادك فيه فوق كل الاعتقاد[3].

- أرجو أن يفتش القارىء الكريم عن حدود قوله: «فوق كل الاعتقاد».

وللعلم: عدي بن مسافر هذا هو تلميذ عبد القادر الجيلاني، وهو شيخ الطريقة العدوية المعروفة الآن باليزيدية (عبادو الشيطان)، طبعاً، بعد أن خضعت لشيء من التطور.

ويقول أبو يزيد البسطامي:

إذا أمر الأستاذُ التلميذَ أمراً من أمور الدنيا وبعثه في إصلاحه، فيقيم مؤذنٌ في بعض طرقاته على مسجد من المساجد؛ فيقول: أدخل أولاً المسجد وأصلي ثم أكون وراء ما بعثني إليه، فقد وقع في بئر لا يتبين أسفلها، يعني ليس لها مقر[4].

ويقول إبراهيم الدسوقي (أحد الأقطاب الأربعة المدّركين):

. . . وكذلك ينبغي له (أي: للمريد) أن يحذر من تأويل كلام شيخه عن ظاهره إذا

---

(1) الأنوار القدسية: ١ / ١٨٧.

(2) الأنوار القدسية: ١ / ١٨٩.

(3) الحقيقة التاريخية، ص٣٤٣.

(4) شطحات الصوفية، ص١٨٢.

أمره بأمر، بل يبادر إلى فعل ذلك من غير تأويل[1]. . .

ويقول يوسف العجمي:

مِنْ أدب المريد أن يقف عند كلام شيخه ولا يتأوله، وليفعل ما أمره به شيخه وإن ظهر أن شيخه أخطأ[2]. . .

ويقول علي اليشرطي:

إياكم أن تؤوِّلوا كلامي، فإن كلامي صريح لا يُؤوَّل، فاسمعوا ما أقول لكم[3].

- كلام الله وحديث رسوله يؤوَّلان ليتفقا مع كشفهم! - كما يقول حجة الإسلام وكما يفعلون كلهم مما مرَّ معنا ومما لم يمر - أما قول الشيوخ المتصوفة فلا يجوز تأويله؟!

فيا ناس، ويا خلق، ويا عباد الله، ويا أسوياء، ويا مجانين، ويا من عنده ذرة من عقل أو ذرة من ضمير أو ذرة من حياء، أفتونا في هذا البلاء؟ أين المخرج؟ وكيف السبيل؟

ولئن عرضت عليهم هذه الأقوال، فستجد الجواب المعهود: هذا مدسوس، أو: هؤلاء منحرفون، ليس كل الصوفية هكذا!. . . إلخ.

ويقول علي المرصفي (الذي قرأ في يوم وليلة ثلاثمائة وستين ألف ختمة!!):

. . . وإن قال (قائلٌ) للمريد: إن كلام شيخه معارض لكلام العلماء أو دليلهم، فعليه الرجوع إلى كلام شيخه. . . وإذا خرج المريد عن حكم شيخه وقدح فيه، فلا يجوز لأحد تصديقه، إنه في حال تهمة، لارتداده عن طريق شيخه[4]. . .

- إذن فالدليل لا قيمة له!! وما هو الدليل؟ إنه القرآن والسنة بلا ريب، ومع ذلك فعلى المريد الرجوع إلى كلام الشيخ!؟ ولتُنْسخ الآية الكريمة.

وهذا يفسر لنا الحالة التي وصل إليها المسلمون من الجهل والانحطاط والذل.

---

(1) الأنوار القدسية: ٢ / ٩٧.

(2) الأنوار القدسية: ٢ / ٣٦.

(3) نفحات الحق، فصل «إرشاد وهداية».

(4) طبقات الشعراني: ٢ / ١٢٨.

وعودة إلى يوسف العجمي، الذي يقول:

. . . ومِنْ شأنه (أي المريد) إذا ذكر الله تعالى، أو فَعَلَ عبادةً من العبادات، أن يستحضر نظر شيخه إليه، ليتأدب ويضُم شتات قلبه[1]. . .

ويقول أحمد الرفاعي (الذي تسري كراماته في أتباعه من بعده!!):

. . . مَنْ لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان . . . وينبغي للمريد أن يَعْرف لشيخه الحق بعد وفاته كما كان يَعْرف له الحق في حالة حياته . . . وقال: من يذكر الله تعالى بلا شيخ، لا الله له حصل! ولا نبيه! ولا شيخه[2]!

- يا مسلمون، بل يا مؤمنون (لأن ليس كل مسلم مؤمناً)، إن لم يكن هذا هو الشرك فما هو الشرك؟ أفيدونا يرحمكم الله.

ويقول العارف بالله سراج الدين الرفاعي الصيادي (ويشاركه أبو الهدى الصيادي):

. . . ومِن آداب المريد اللازمة: أولاً: حفظ قلب شيخه، ومراعاته في الغيبة والحضور. . . والتواضع له ولذريته وأقاربه، وثبوت القدم على خدمته، وأوامره كلّيّها وجزئيّها، وربْط القلب به، واستحضار شخصه في قلبه في جميع المهمّات، واستمداد همته، والفناء فيه، وأن يكون ملازماً له لا يفتر عنه طرفة عين، ولا يُنْكِر عليه ما ظهر منه من صفة عيب، فلربما يَظْهر من الشيخ ما لا يَعْلمه المريد . . . كما وقع لبعضهم أنه دخل على شيخه فرأى عنده امرأةً جميلة يلاعبها ويعانقها ويجامعها!؟ فخرج مُنْكراً على شيخه، فأُخذ منه حالاً جميعُ ما استفاده من شيخه، ومع ذلك إن الامرأة امرأة الشيخ وزوجته[3].

- يا للأولياء النجباء الأنقياء الأنقياء . . . دستور من خاطرهم دستور! يلاعب زوجته ويجامعها أمام مريده!!

---

(1) الأنوار القدسية: ٢ / ٩٨.
(2) قلادة الجواهر، ص١٧٧.
(3) قلادة الجواهر، ص٢٧٨.

لكن ماذا عليه؟ فالمقرَّبون لا يُسألون عما يفعلون؟ هكذا قرروا ويقررون! ولا تعترض فتنطرد، وسلِّم تسلم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويقول أبو مدين الغوث:

وراقِبِ الشيخ في أحواله فعسى	يَرى عليك من استحسانه أثراً
ففي رضاه رضا الباري وطاعته	يرضى عليك فكن مِنْ تركها حَذِرا[1]

وعودة إلى الشعراني حيث يقول:

سمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: حقيقة حُبِّ الشيخ أن يحب الأشياءَ من أجله ويكرهها مِنْ أجله، كما هو الشأن في محبة ربنا عز وجل[2].

ويقول أيضاً:

مِن أدب المريد إذا زار شيخاً في قبره أن لا يعتقد أنه ميت لا يسمعه، بل الأدب أن يعتقد حياته البرزخية لينال بركته، فإن العبد إذا زار وليًّا وذكر الله عند قبره، فلا بد أن ذلك الولي يجلس في قبره، ويذكر الله معه كما شهدنا ذلك مراراً[3].

ويقول أيضاً:

... وأجمعوا على أن مِن شَرْط المحب لشيخه أن يصمَّ أذنيه عن سماع كلام أحدٍ في الطريق غير شيخه، فلا يقبل عذل عاذل، حتى لو قام أهل مصر كلهم في صعيدٍ واحد لم يَقْدِروا على أن يُنفروه من شيخه، ولو غاب عنه الطعام والشراب أياماً لاستغنى عنها بالنظر إلى شيخه لتخيله في باله، وبلغنا عن بعضهم أنه لما دخل هذا المقام سَمِنَ وعبل مِنْ نظره إلى أستاذه[4].

ويقول محمد العربي السائح التجاني[5]:

... مِن فضائل هذه الطريق (أي التيجانية) أنَّ من دَخَلها وأسلم قياده إلى

---

(1) الفتوحات الإلهية، ص٢٣٠.
(2) الأنوار القدسية: ١ / ١٦٩.
(3) الأنوار القدسية: ١ / ١٦١.
(4) الأنوار القدسية: ١ / ١٦٨.
(5) أحد خلفاء أحمد التجاني، مات سنة ١٣٠٩هـ.

صاحبها بطريق المحبة الخاصة وكمال التصديق كان من الآمنين عند الله تعالى في الدنيا والآخرة[1]. . .

ويقول ابن عجيبة :

للقوم في لقاء المشايخ آداب، منها : أنهم إذا قربوا المنزل رفعوا أصواتهم بالهيللة والذكر، فلا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى الزاوية . . . ومنها تقبيل يد الشيخ ثم رجله، إنْ جَرَتْ بذلك عادة الفقراء، فهو من أحسن التعظيم . . . ومنها جلوسهم بين يديه على نعت السكينة والوقار، خافضين أصواتهم، ناكسين رؤوسهم، غاضِّين أبصارهم، فلا يكلمونه حتى يبدأهم بالكلام[2]. . .

. . . فإن تعذر عليه (أي على المريد) الوصول إلى الشيخ، وقد عرض له مرض أو أمر، فليشخِّص شيخه بين عينيه بصفته وهيأته ويشكو له، فإنه يبرأ بإذن الله، وإن كان مع جماعة واستحيا فليشتك إليه في قلبه[3]. . . (ما هو الشرك؟).

ويقول علي اليشرطي :

الطريق ذِكْر الله ومحبة الشيخ[4].

ويقول : الطريق طريقنا، والنور نورنا، وإن شئنا نُمِدُّه للفقير، وإن شئنا نطويه عنه[5]. . .

ويقول محمد أمين الكردي :

. . . ومنها أن لا يعترض عليه (أي على شيخه) فيما فعله، ولو كان ظاهره حراماً، ولا يقول : لِمَ فعلَ كذا؟ لأن مَن قال لشيخه : لِمَ؟ لا يفلح أبداً. فقد تصدر من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن[6]. . .

ويقول عبد المجيد محمد الخاني النقشبندي :

---

(١) بغية المستفيد، ص٨٤.
(٢) الفتوحات الإلهية : ص٣٠٨ و ٣٠٩.
(٣) الفتوحات الإلهية، ص٣٣٩.
(٤) نفحات الحق، ص٩٥.
(٥) نفحات الحق، ص٩٧.
(٦) تنوير القلوب، ص٥٢٨.

اعلم أيها الأخ المؤمن أن الرابطة عبارة عن ربط القلب بالشيخ الكامل . . . وحِفْظُ صورتـه بالخيـال ، ولـو عنـد غيبته أو بعد وفاته ، ولها صُوَر ، أهونها أن يتصور المريد صورة شيخه الكامل بين عينيه ، ثم يتوجّه إلى روحانيته في تلك الصورة ، ولا يزال متوجهاً إليها بكليته حتى يحصل له الغيبة أو أثر الجذب . . . وهكذا يداوم على الرابطة حتى يفنى عن ذاته وصفاته في صورة الشيخ . . . فتربِّيه روحانيةُ الشيخ بعد ذلك إلى أن توصله إلى الله تعـالى ، ولـو كان أحـدهما في المشـرق والآخر في المغرب ، فبالرابطة يستفيض الأحياءُ مِنَ الأموات المتصرِّفين[1] . . .

ويقول القشيري في الرسالة في (باب حفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم) :

سمعتُ الشيـخ أبـا عبـد الـرحمن السلمي يقـول . . . أن شقيقـاً البلخي وأبا تراب النخشبي قَدِما على أبي يزيد (البسطامي) فقُدِّمت السفْرة ، وشابٌ يخدم أبا يزيد ، فقالا له : كل معنا يا فتى ، فقال : أنا صائم ، قال أبو تراب : كل ولك أجر صوم شهر ، فأبى ، فقال شقيق : كل ولك أجر صوم سنة ، فأبى ، فقال أبو يزيد : دعوا مَن سَقَطَ من عين الله تعالى ؛ فأُخذ ذلك الشاب في السرقة بعد سنة فقطعت يده[2] . . . «انتهى» .

ـ عجيب والله كل العجب ، يؤلهـون أنفسهم ! يُعطـون أجـر صوم شهر ! وأجر صوم سنة ! فماذا بقي من الشرك والكفر؟ ورجل يطيع أوامر الله وأوامر رسوله يصوم تطوعاً لله ، ويرفض أن يؤله غير الله أو يأخذ تشريعاً إلا منه . هذا الرجل يصبح ساقطاً من عين الله في حكم هؤلاء القوم ! لِمَ وفيمَ يسقط من عين الله؟ لأنه رفض أن يتَّخذ إلهاً غير الله ! ثم ماذا؟ الصـوم أصبـح جريمـة في نظرهم ! فهـل يستطيـع هؤلاء القوم أن يقولوا لنا ما هو الكفر؟ وما هو الشرك؟ وما هو الإلحاد؟ وما هي الزندقة؟

لكن يجب أن لا ننسى أبـداً أن الاعـتراض ممنـوع ، والـذي لا يحفـظ قلوب هؤلاء المشايخ العارفين الأبرار الأطهار الأخيار الصادقين الصديقين المقربين الواصلين المحظيين العـارفـين العالمين المدَّركين المتصرفين الأولياء الأتقياء الأنقياء الأصفياء المحبين المحبوبين الغـارقـين (في جهنم وبئس المصـير) الذي لا يحفظ قلوبهم يسقط من عين الله وتُقطع يده

(1) السعادة الأبدية ، ص٢٢ و٢٣ .

(2) الرسالة القشيرية ، ص١٥١ .

على السرقة؟!

ثم يتساءل المتسائلون: ما هو سبب انهيار المسلمين؟ ما هو سبب فساد الأمة الإسلامية؟ ما هو سبب ذل المسلمين؟ ما هو سبب انحطاط الأمة الإسلامية؟ يتساءلون؟ والجواب ماثل أمام الناظرين الذين ينظرون بنور القرآن والسنة، لا بأعين الصوفية، لأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

ويورد القشيري إياه، في نفس الباب (حفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم):

. . . ومِنَ المشهور أن عمر بن عثمان المكي رأى الحسين بن منصور (الحلاج) يكتب شيئاً، فقال: ما هذا؟ فقال: هو ذا أُعارض القرآن! فدعا عليه وهجره، قال الشيوخ: إن ما حل به بعد طول المدّة كان لدعاء ذلك الشيخ عليه[1].

● جوابنا:-

أولاً: الدنيا دار بلاء لا دار جزاء.

ثانياً: استهتاره بالقرآن ومحاولة معارضته لم تكن سبب بلائه، وإنما كان سبب بلائه دعاء الشيخ عليه!!؟

وللعلم: الرسالة القشيرية تُدرَّس في مساجد المسلمين، وينصح القومُ بقراءتها هي وكتاب إحياء علوم الدين والحكم العطائية على أنها كتب إسلامية! والمشتكى إلى الله.

ويقول عبد القادر الجيلاني:

. . . وينبغي له (أي للمريد) أن لا ينتظر من الله مطلوباً سوى المغفرة. . . . والتحبّبُ إلى الشيوخ من الأولياء والأبدال، إذ ذاك سببٌ لدخوله في زمرة الأحباب ذوي العقول والألباب! الذين عقلوا من رب الأرباب، واطّلعوا على العِبَرَ والآيات[2]. . .

● الملاحظات:

نلاحظ قوله: «التحبب إلى الشيوخ . . . سبب لدخوله في زمرة الأحباب» أي

---

(١) الرسالة القشيرية، ص١٥١.

(٢) الغنية: ٢ / ١٦٤.

أحباب الله!

وهـذا الكـلام مردود عليـه لأن رسول الله ﷺ علمنا - وحياً عن ربه - أن الدخول في زمرة أحباب الله هو إطاعة الله سبحانه واتّباع رسوله والابتعاد عن الشرك، كل الشرك، ولم يَرِد أيُّ نصٍّ عن المعصـوم بالـوحي أن التحبب إلى الشيـوخ سبب في رضـا الله، وبالتالي نطالبه بالدليل من القرآن والسنة، ولا دليل لديه إلا باللف والدوران والتأويل الباطل.

ثم لننتبـه إلى قولـه: «الذين عقلوا من رب الأرباب..»، وهذه العبارة تحمل نفس معنى قولهم: «حـدثني قلبي عن ربي..» وهـو افـتراء على الله الكـذب. إنـما هي إحسـاسـات هَلْوسيَّة أقوى من الأفيونية، توهمهم شياطينهم من الإنس والجن أنها رحمانية وأنها خطاب من الله.

ويقول الجيلاني أيضاً:

وأما آدابه (أي المريد) مع الشيخ، فالواجب عليه تركُ مخالفةِ شيخه في الظاهر، وتركُ الاعتراض عليه في الباطن، فصاحبُ العصيان بظاهره تاركٌ لأدبه، وصاحب الاعتراض بسرِّه متعرضٌ لعطبه، بل يكون خصماً على نفسه لشيخه أبداً، يكفُّ نَفْسَه ويزجرها عن مخالفته ظاهراً وباطناً[1]...

- وهكـذا يقـرر سلطـان الأوليـاء، عبد القادر الجيلاني، أن الشيخ ينفع ويضر، وأن التحبب إلى الشيخ سببٌ للدخول في زمرة الأحباب، وهذا هو النفع؛ والاعتراض عليه في سره سببٌ لعطبه، وهذا هو الضر.

- أما نحن فنؤمن أن لا نافع ولا ضار إلا الله. ونؤمن أن من يعتقد خلاف ذلك فهو مشرك مرتد.

ويقول: ... إن لم تفلح على يدي، لا فلاح لك قط[2]...

- مقـارنـةً بين هذه الجملة وبـين قولـه سبحانه: ﴿قد أفلح المؤمنونَ . الذين هُم في صلاتِهم خاشعونَ . والذينَ هُم عن اللغوِ معرِضونَ . والذينَ هُم لفُروجِهم

(١) الغنية: ٢ / ١٦٤.

(٢) الفتح الرباني، ص٣٧١.

حافِظونَ . . . ﴾ .

ولم يقل سبحانه : لا فلاح إلا على يدي الشيخ كائناً من كان هذا الشيخ؟

فنسأل : من الصادق ومن الكاذب؟ ومن يجب أن نتبع؟

ويقول الدكتور سيد حسين نصر[1] (ترجمة كمال خليل اليازجي)[2] :

والشيخ ، فضلاً عن أن تأثيره ثابت ، فإنَّ نوره ينتشر في كل مكان ، ومع أنه شخصيةٌ روحيَّةٌ واضحة المعالم ، لكنه مقترنٌ داخليًّا بالنور الذي يشرق على البر والبحر ويضيء كل شيء للمريد المرتبط به[3] .

ويقول شهاب الدين السهروردي البغدادي :

. . ومِنَ الأدب مع الشيخ أن المريد إذا كان له كلامٌ مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو أمر دنياه ، لا يستعجل الإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه ، حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعدٌّ له ، ولسماع كلامه وقوله متفرغٌ ، فكما أن للدعاء أوقاتاً وآداباً وشروطاً ، لأنه مخاطبة الله تعالى فللقول مع الشيخ أيضاً آداب وشروط لأنه من معاملة الله تعالى[4] .

- لننتبه إلى مقارنته مخاطبة الشيخ مع مخاطبة الله ، وجعله الكلام مع الشيخ من معاملة الله تعالى ! !

ويقول أحمد الفاروقي السرهندي (مجدد الألف الثاني) :

. . . وهذه المحافظة إنما هي إلى زمان الوصول إلى الشيخ الكامل المكمِّل ، ثم بعد الوصول إليه ، لا شيء عليه سوى تفويض جميع مراداته إليه ، وكونه كالميت بين يدي الغسال لديه ؛ والفناءُ الأوَّل هو الفناء في الشيخ ، ويكون هذا الفناء وسيلة الفناء في الله[5] . . .

---

(١) إيراني أظنه لا زال حيًّا .
(٢) سوري أو لبناني ، وأظنه لا زال حيًّا أيضاً .
(٣) الصوفية بين الأمس واليوم ، ص٧٣ .
(٤) عوارف المعارف ، هامش الإحياء : ٤ / ٩٨ .
(٥) المنتخبات من المكتوبات : ٢١ .

☐ مشاهد شيخية مرسلة :

★ المنظر الأول :

انتهت الحضرة، ووقف الشيخ تكرماً منه وعطفاً ليسهِّل على المريدين التبرك بتقبيل يده الإلهية.

وقف المريدون وملء قلوبهم الشكر والامتنان لهذا الشيخ الكريم العظيم، الذي يمكنهم دائماً من تقبيل يده المقدسة، وأحياناً من تقبيل رجله، ينعمون بما تفيضه عليهم من روحانيته التي تحققت بأسماء الله وصفاته، يعبُّون منها ذخراً روحيًّا يعيشون في نشوته القدوسية أياماً، حتى يتكرم عليهم الشيخ من جديد، بتجل جديد لطلعته الصمدانية التي تملؤهم بالأسرار الربانية.

أخذوا يتقدمون الواحد تلو الآخر، يجللهم صمت المؤمنين أمام وثنهم المعبود، وبخشوع تعبدي ينحني صاحب الدور راكعاً أمام الشيخ، آخذاً يده الكريمة الممدودة بيده الحقيرة، يقبلها ويحاول أن يرتشف منها أكثر ما يستطيع من الأسرار الإلهية المختزنة في شيخه. ثم يترك الدور لغيره وينصرف حامداً شاكراً.

وصل الدور إلى شاب ملأ الإيمان الخرافي قلبه وغمره بشوق جنوني إلى تنسم رائحة العارف الكامل الذي وصل إلى مقام «الفرق الثاني». وجاءت الفرحة، فأمسك بيده المرتعشة يد الشيخ القدوسية، وركع أمامه، ثم أهوى عليها يقبلها ويقبلها، وهو لا يشبع من تقبيلها ومن تمريغ وجهه وجبهته عليها.

عيل صبر المريد الذي كان خلفه ينتظر دوره، فربت على ظهره طالباً منه الإسراع.

لكن الشيخ الكريم الرحيم العطوف الودود قال لهذا الذي نفد صبره، ناصحاً ومربياً ومعلماً: «خليه يرتوي يا ابني خليه يرتوي». وذهبت مثلاً.

★ المنظر الثاني :

الوقت بعد العصر، والطقس شديد البرودة، والسيارة الفخمة تقبع في جانب من أحد الأزقة الفرعية، وليس في الشارع سوى أفراد يسرعون الخطا هرباً من البرد.

مر رجل طاعن في السن، ممن امتلأ قلبه إيماناً بالضبابيات والخرافيات الصوفية، ولم يستطع الوصول إلى الجذبة رغم محاولاته.

التفت هذا العجوز نحو السيارة فعرفها، ومن وراء الزجاج المجلل ببخار الماء المتكاثف، لمح داخلها شخصاً فعرفه أيضاً. . وكيف لا؟ إنه شيخه[1] الولي العارف الصديق المقرب المحب المحبوب الواصل القديس المقدس المتحقق بالاسم الأعظم. . . إلخ. فكان كأنما عثر على كنز الدنيا والآخرة، بل وأعظم من الدنيا والآخرة! فانطلق نحوه دون وعي حتى وقف أمام زجاج السيارة صامتاً خاشعاً، خافضاً رأسه بذلة وخنوع، مادًّا نظره الحقير نحو الشيخ يستجديه نفحة من قدوسيته المستسرة.

نظر إليه الشيخ بعينين جامدتين، وأنزل زجاج النافذة بمقدار ما يكفي لإخراج كفه؟

وأخرجها، فاستلمها العجوز، وقبلها.

ثم سحب الشيخ يده، وأغلق النافذة.

وذهب العجوز لحال سبيله؛ وهو مفعم بنشوة تغرقه في أعتم ظلمات الخيالات الوثنية؛ لكنه كان يحس أنه قبّل يد الحق «سبحان الله وتعالى عما يشركون».

مشهد شيخي مسجل :

أورد ابن العماد الحنبلي في أحداث سنة سبع وثمانمائة :

وفيها (أي توفي فيها) أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن وفا . . . وقال ابن حجر في «أنباء الغمر». . . اجتمعتُ به مرة في دعوة فأنكرتُ على أصحابه إيماءهم إلى جهته

---

(١) هذا الشيخ أخبره الكشف أنه المهدي المنتظر، وهو منذ سنين كثيرة ينتظر أن يأذن له الكشف بالتحرك.

بالسجود، فتلا هُوَ وهو في وسط السماع يدور ﴿فأينما تُولوا فثَمَّ وجه الله﴾ فنادى من كان حاضراً من الطلبة: كفرت كفرت، فترك المجلس وخرج هو وأصحابه. . .

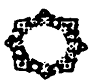
ـ لعل القارىء يذكر أن علي بن محمد بن وفا هذا هو غوث من رجال السلسلة الشاذلية وهذا يعني أن الطريقة الشاذلية تتبنى أفعاله وأقواله وتؤمن بها، وإن كتموا ذلك.

* الخلاصة:

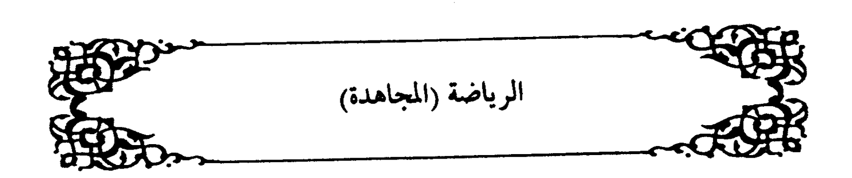
الشيخ عند الصوفية إله، يسبغون عليه كلَّ صفات الألوهية، والمريد الذي لا يعتقد بشيخه القدسية الإلهية لا يفلح في سعيه إلى الوصول إلى وحدة الوجود، وهذا هو معنى الفلاح عندهم، الجذبة، ثم مشاهدة الألوهية في نفْس المُشاهد وفي كل شيء.

ولنستمع إلى قول الدكتور سيد حسين نصر، وهو من أعلام الصوفية في إيران، يقول:

«إن دور الشيخ المرشد الذي يقتضي التسليم التام له، وأهميته، في تحرير المريد من الارتباك في عالم الكثرة، ثم توجيهه له بالتأمل في عالم الوحدة»[1]. . .



(١) الصوفية بين الأمس واليوم، ص٧٧.



الرياضة (المجاهدة)

□ لا طريقة بدون شيخ :

لنرجع أولاً إلى عارفيهم يخبرونا كيف يسلّك الشيخ مريده في الطريقة .

يقول ابن عجيبة :

إذا أتى الفقير إلى الشيخ ليأخذ بيده، فأول ما يلقنه الورد، فإن التلقين فيه بركة عظيمة . . . ثم يأمره بالتوبة وردِّ المظالم وقضاء الدين بقدر الاستطاعة، ويحذّره من الرجوع إلى ما كان عليه، ثم يعلّمه ما يلزمه في دينه من طهارة وصلاة وما يتعلق بذلك إن كان جاهلاً، وما يتيسر من علم التوحيد خالياً عن الدليل، فإن كان الشيخ ليس من شأنه ذلك، دفعه إلى من يعلّمه، ثم يأمره بلزوم الطاعة من صلاة وصيام وذكر وغير ذلك، كل واحد ما يليق به، لأن الشيخ تقدّم أنه يكون طبيباً ماهراً، ثم يأمره بالصحبة ولزوم مجالسة الشيخ، والاجتماع مع الإخوان، فطريق التربية ليست طريق الانفراد، وإنما هي طريق الاجتماع والاستماع والاتباع، فمهما انفرد المريد عن الإخوان لم يكن منه شيء، فإن تعذّر إقامته مع الشيخ أمره بالزيارة والوصول، فمدد الشيخ جارٍ إلى المريد كالساقية أو القادوس، فإن كان يتعاهدها ويمشي معها بقي الماء جارياً، وإن غفل عنها تخرم الماء وانقلب مع غيره، وأيضاً الوصول إلى الشيخ يدل على المحبة . . . ثم يُذكّره أولاً بما يُصلح جوارحه الظاهرة وهي التقوى والاستقامة، فإذا صلحت جوارحه الظاهرة أمره بالعزلة والصمت والجوع المتوسط وفراغ القلب والفناء في الاسم المفرد (الله) فإذا رآه تحقق

فناؤه وكثر تعطشه فتح له شيئاً من علم الحقائق، وأمره بالتفرغ التام وقطع العلائق، والزهد في الكونين، فإذا رآه أخذته حيرة أو دهشة دَفَع له علم الحقيقة، وأمره بتقليل ذكر اللسان وعمل الجوارح، وشغله بالفكرة، فإذا رآه لم يقدر على علم الحقيقة، أورآه قنع بالعلم دون الذوق، أمره بتخريب الظاهر والتجريد التام، فإذا تمكن من الحقيقة، ورسخت فيه ذوقاً وتحقيقاً أمره بإرشاد الناس إن رآه أهلاً. هذا الذي أخذنا به وفهمناه من طريق أشياخنا[1]. . .

ويقول ابن البنا السرقسطي مبيِّناً:

حتى إذا انقاد مع الإفادة — وكاد أن يصلح للإرادة
إذ للمريد عندهم حدودُ — لأجلها قيل له مريد
فعندها رُدَّ إلى الأوراد — كالصمت والصوم مع السُّهاد
وعاملوه بالمعاملات — إذ علموا مختلف العلّات
ولم يُحيلوه على الحقيقة — إذ لم يكن مستوفي الطريقة
لكن أحالوه على الأعمال — لأجل ما فيها من النوال
حتى إذا أحكم علم الظاهرْ — وأبصروا القبول فيه ظاهرْ
ألقوا إليه من صفات النفس — ما كان فيها قبل ذا من لَبْس
وهي إذا أنكرتها فلتعرف — إحدى وتسعين وقيل نيف
فجرعوها أكؤس المنون — وهي تنادي كيف تقتلون
فعندما مالت إلى الزوال — أُدخِلَ في خلوة الاعتزال
وقيل: قل على الدوام (الله) — واحذر كطرف العين أن تنساه

* * *

فلم يزل مستعملاً للذكر — فيصمت اللسان وهو يجري
وقَدْرَ ما تجوهر اللسان — بالاسم يستثبته الجنان
ثم جرى معناه في الفؤاد — جريَ الغذا في جملة الأجساد

---

(1) الفتوحات الإلهية، ص٣٢٨.

فعندها حاذى مِراةَ القلب لَوْحُ الغيوب وهو غير مخبي
فأدرك المعلومَ والمجهولا حيث اقتضى لتركها قبولا
حتى إذا جاء بطُور القلب خوطِب إذ ذاك بكل خطب
فقيل لو عرفتني بكوني قيل إذن فاخلع نعال الكون
ثم فني عن رؤية العوالم ولم يرى في الكون غير العالم
ثم انتهى لفلك الحقيقة فقيل هذا غاية الطريقة
ثم امتحى في غيبة الشهود فأطلق القول: «أنا معبودي»
حتى إذا رُدَّ عليه منه أثبتَ فرقاً حيث لم يكنه
فرُدَّ نحو عالم التحويل وعبّروا عن ذاك بالنزول
وردُّه بالحق نحو الخلق كي ما يؤدي واجبات الرقِّ[1]

ويقول ابن عجيبة: . . . ثم يمده بالعلم الظاهر، ومعناه أنه يُذكّره بعلم الشريعة وعلم الطريقة، دون علم الحقيقة، حتى إذا تهذب ظاهره وباطنه صلح لعلم الحقائق، ولا بد من الترتيب. . . وقد قالوا: من قدَّم الباطن على الظاهر فاته الباطن والظاهر[2]. . . اهـ.

ـ وهكذا فالسالك لا يعرف حقيقة التصوف، لأنهم لا يخبرونه بها حتى يصبح أهلاً لذلك حسب قواعدهم.

وإنما يلقنونه أولاً علم الشريعة، فما هو علم الشريعة هذا الذي يلقنونه إياه؟ لنسمع الغزالي يشرحه، يقول ابن عجيبة:

. . . قال الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: ولقد أردت في بداية أمري سلوك هذا الطريق بكثرة الأوراد والصوم والصلاة، فلما علم الله صِدْق نيتي، قيّض لي وليًا من أوليائه قال لي: يا بني، اقطع مِنْ قلبك كل علاقة إلا الله وحده، واخْلُ بنفسك واجمع همتك، وقل «الله الله الله» ولا تزد على ما فرض الله عليك شيئاً إلا الرواتب، وقل هذا

(١) الفتوحات الإلهية، ص٣٣١ وما بعدها بشكل متقطع.
(٢) الفتوحات الإلهية، ص٣٣١.

الاسم بلسانك وقلبك وسرِّك، وأحضر قلبك واجمع خاطرك، ومهما قالت نفسُك: ما معنى هذا؟ فقل لها: لستُ مطلوباً بمعناه، وإنما قال تعالى: ﴿واذكُرِ اسمَ ربِّك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلاً﴾[1].

- مِنْ هذا النص (ومن ركامٍ غيره لا نورده اختصاراً) نعرف ما هو علم الشريعة الذي يلقنونه للمريد؟

هذا الوصف الذي يقدمه هنا ابن البنا السرقسطي وابن عجيبة والغزالي، هو ما نراه في كل كتبهم التي تهتم بهذه الناحية.

أما علم الطريقة (الإشراقية) ففي النصوص التي مرت في هذا الكتاب توضيح مبين.

إنهم يعلِّمون المريد، منذ الخطوة الأولى في رحاب الشيخ، أن يقدس الشيخ، وأن يكون عبداً للشيخ أكثر من عبوديته لله.

هذا هو رأس الطريق وأصله منذ أن نزل إبليس إلى الأرض، أو بعد ذلك بقليل، حتى الآن، وإلى ما شاء الله.

ثم يأتي (عند إشراقيي المسلمين وبعض غيرهم) الذكر الإرهاقي، الذي استعاضوا به - بصورة عامة - عن الرياضة، أو عن بعضها.

لكن الرياضة، رغم كل شيء، يبقى لها دورها في التصوف بين المسلمين، كما أن لها دورها الرئيسي، أو الوحيد، في تصوُّف غير المسلمين.

والمجاهدة (أو الرياضة)، كما رأينا، هي: الخلوة والصمت والجوع والسهر. وقد يرافقها تعذيب النفس بشكل من الأشكال، وتركيزُ الفكر في شيءٍ ما أساسيٌّ في المجاهدة الإشراقية.

* **الخلوة (أو العزلة)**: طقسٌ إشراقي أساسي، لا بد منه في السير إلى الجذبة، مارسه الإشراقيون منذ أن اكتشف إبليس أحبولة «الإشراق» التي كانت على مدى

---

(١) الفتوحات الإلهية، ص٣٣٨.

التاريخ، وما زالت، تسمّى «المعرفة»، وجاء إشراقيو المسلمين فغلّبوا عليها اسم «الصوفية والتصوف».

كان إشراقيو الأمم، وما زالوا، يمارسون الخلوة في كهوف الجبال والوديان وفي شعابها، وفي أعماق الغابات، أو في كهوف (غرف صغيرة) تبنى في المعابد خصيصاً لهذه الغاية.

ومثلهم تماماً، مارسها متصوفة المسلمين، لكن قرونهم الأولى، استعاضوا عن كهوف المعابد بخلوات في بيوتهم، لأن المسلمين في ذلك الوقت كانوا يعرفون الإسلام ويفهمونه، وكانوا يعرفون أن هذه الزندقة غريبة عن الإسلام، فكل من عُرف بها أقاموا عليه حد الرِّدة.

وتتالت الأيام، شيئاً فشيئاً فعلت السموم الصوفية التي كانوا ينفثونها بهدوء فعلَها في المجتمعات الإسلامية، ففشا فيها الجهل والخرافة، وأخذ كهان الصوفية حريتهم بإعلان عقيدتهم الفاسدة والدعوة إليها، وسموها أسماءً فيها من الوقاحة بقدر ما فيها من الجرأة والافتراء على الله سبحانه، وبنوا لها هياكلها الخاصة التي سموها «الخانقاه»، وفي الخانقاهات أقاموا، وفيها أقاموا كهوف الخلوة، وفي بعض الأحيان سموها «المدرسة».

وتتالت الأيام، وبالتكرار والزمن، تمادوا في السيطرة على الفكر في المجتمعات الإسلامية، فجمدوه وعقّموه، وصار الجهل والخرافة هو المظهر والمخبر، فانتشرت الخانقاهات في أحياء المدن وأزقتها، وفي القرى، بعد أن بدلوا اسم «الخانقاة» بـ «الزاوية»، ثم امتدوا من الزوايا ليتوغلوا في المساجد فيهتكوا حرماتها، وليرفعوا بيوت الأوثان التي يسمونها «الأضرحة» وليجعلوا فيها ومنها كهوفاً لخلواتهم، وهياكل لطقوسهم، ومجالس لنشر ضلالاتهم.

وأصبح من غير المستهجن وجود أماكن الخلوة في المساجد، ومن المظاهر اللازمة انتشار الزوايا، هياكلهم التي يقيمون فيها طقوس المكاء والتصدية، وارتفاع القباب فوق القبور إشارة إلى أن تحتها وثناً يعبد، ومكاناً للخلوة، ولم يعودوا بحاجة إلى كهوف الجبال والوديان وشعابها، ولا للغابات ولا للصحاري.

وأقل مدة للخلوة يوم وليلة، ولا حد لأكثرها، لكن المعتاد أن تكون أسبوعاً أو أكثر

حتى الأربعين يوماً.

* **الصمت**: طقس إشراقي أساسي، لا بد منه في السير إلى الجذبة، مارسه الإشراقيون منذ أن اكتشف إبليس أحبولة الإشراق التي سموها «الصوفية».

لكن إشراقيي المسلمين الأوائل، عرفوا الأثر السحري لترديد كلمة ما، مئات الألوف من المرات أو ملايينها، بشكل مستمر ودون انقطاع، وهذا ما سموه «الذكر»، فاستعاضوا به عن الصمت، بل وعن الرياضة كلها في كثير من الأحيان.

على أن عارفهم يعود إلى ممارسة هذا الطقس «الصمت» بعد وصوله إلى ما يسمونه «مقام جمع الجمع»، أي: عندما تصبح الجذبة طوع يديه أو مسيطرة عليه.

* **الجوع**: طقس إشراقي أساسي، لا بد منه في السير إلى الجذبة، مارسه الإشراقيون منذ أن اكتشف إبليس أحبولة الإشراق، التي سموها «الصوفية».

وأقل مدة له يوم وليلة تتكرر، ولا حد لأكثرها نظريًا، وفي كتبهم يتحدثون عن متصوفة صاموا أسابيع وشهوراً، بل وسنين أيضاً، وقد رأينا من أقوالهم هذه أمثلة في هذا الكتاب، حتى تحدثوا عن صوفي صام أربعين سنة كان يأكل كل يوم زبيبة واحدة؟!

* **السهر**: طقس إشراقي أساسي، لا بد منه في السير إلى الجذبة، مارسه الإشراقيون منذ أن اكتشف إبليس أحبولة الإشراق التي سموها «الصوفية».

وهذا الطقس، مضافاً إلى الخلوة، كانا وراء اكتشاف القهوة، فهم يذكرون أن عبد الرحمن العيدروس هو مكتشفها، وهو غير صحيح، لأنها معروفة قبله بأكثر من قرنين[1]، ويقول ابن العماد الحنبلي: «إن مكتشفها هو أبو بكر بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩٠٩هـ».

- هذه هي الرياضة أو المجاهدة. وهدفها هو إرهاق الجملة العصبية إرهاقاً يُفقدها المقدرة على القيام بوظائفها، فتتخدر إحساساتها، وتصبح مَرْكباً سهلاً لشياطين الجن

---

(١) عرفت القهوة والمقاهي في استانبول عام ٩٦٢هـ، الموافق لـ ١٥٥٥م، حيث جاء سوريان، أحدهما من حلب، والثاني من دمشق، وفتحا مقهيين في حي «تحت القلعة»، وهذا يعني أن القهوة كانت معروفة في سورية قبل ذلك.

التي تجري من ابن آدم مجرى الدم ؛ وتصبح أكثر استعداداً للتأثر بالمادة المخدرة التي يفرزها الجسم من أجل وظيفة حيوية فيزيولوجية .

* **تعذيب النفس**: كانوا يستعملونه من أجل السهر والصبر على الخلوة، وقد قلّت ممارسته الآن، إذ نادراً ما نسمع به، واستعاضوا عنه بالمنبهات .



□ الذكر (أو ما يسمى بالذكر):

قلنـا، ونقـول، وقـالـوا هم: إن الطـريقة الوحيدة التي تقود إلى الجذبة هي طريقة الإشـراق، وهي هي نفسهـا طريقـة البرهان، أو الطريقة الغزالية، بعد مزجها بالإسلام مزجاً تعسُّفيًّا.

ورأينـا أن الطـريقـة الإشـراقيـة تعتمـد الرياضة (الخلوة والجوع والسهر والصمت) للوصول إلى الجذبة، لكن متصوفة المسلمين عرفوا أسلوباً أسرع وأكبر إمكانيةً للوصول إليها (إلى الجذبة)..

إنه الذكر، وكثيراً ما استغنوا به عن الرياضة.

فما هو الذكر؟ وما هو دوره؟

يقول عبد الوهاب الشعراني:

... إن عُمدة الطريق الإكثار من ذكر الله عز وجل... قالوا: إن الذكر منشور الولاية...

... وأجمع القوم على أن الذكر مفتاح الولاية، وجاذبُ الخير، وأنيس المستوحش، ومنشور الولاية... وما ثَم أسرع من فتح الذكر[1]...

ويقول ابن البنا السرقسطي:

فعـنـدمـا مال إلـى الـزوال	أُدخـل في خلوة الاعـتـزال
وقـيـل قل على الـدوام «الـلـه»	واحـذر كطـرف العـين أن تنسـاه

يشرح ابن عجيبة هاذين البيتين:

---

(١) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: ١ / ٣٥.

. . . ومَيْـل النفس إلى الـزوال هو إعطـاؤ ها الطَّوْع مِن نفْسها بحيث يتصرف فيها صاحبهـا بلا نزاع منهـا . . . فعنـد ذلك يدخل الخلوة . . . ويحضّه على ذكر الاسم المفرد حتى لا يفتر عنه ساعة ، وهذا التدريج الذي ذكره الناظم (في أبيات سابقة) ليس بلازم لكل الشيوخ ولا لكل المريدين أن يسلكوه ، بل من الشيوخ مَن يُلقِّن الاسم مِن أول مرة إذا رأى الفقـير أهـلًا له . . . ومن المـريدين من لا يحتاج إلى خلوة ، بل يأمره بالخلطة من أول مرة ، والناس معادن وطبائع ، والعلل متفاوتة . . . قال الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه : ولقد أردت في بداية أمري سلوك هذا الطريق بكثرة الأوراد والصوم والصلاة ، فلما علم الله صدق نيتي قيّض لي وليًّا من أوليائه قال لي : يا بني اقطع من قلبك كل علاقة إلا الله وحده ، واخلُ بنفسك ، واجمع همتك وقل : «الله الله الله» ولا تزد على ما فرض الله عليك شيئاً إلا الرواتب ، وقل هذا الاسم بلسانك وقلبك وسرك ، وأحضر قلبك ، واجمع خاطرك ، ومهما قالت نفسك : ما معنى هذا؟ فقل لها : لست مطلوباً بمعناه[1] . . .

ويقول علي نور الدين اليشرطي :

«والله ما أخذناها بالسماع ، ما أخذناها إلا بالذكر . . .»[2].

ويقول ابن عطاء الله السكندري :

«الـذكـر الـرابـع : «الله» ؛ ويسمى الـذكـر المفـرد ، لأن ذاكـره مشـاهـد لجلال الله وعظمته ، فانياً عن نفسه ، قال الله تعالى : ﴿قلِ الله ثم ذَرْهُم في خوضِهم يلعبونَ﴾[3].

● ملاحظة :

- يستعمل ابن عطاء الله الآية في غير معناها الذي أُنزلت له ، أي يستعمل التأويل .

فماذا يحدث للذاكر؟ . . . لنستمع إلى أقوالهم :

يقول علي نور الدين اليشرطي :

ما زال العبد يذكر الله حتى يستولي عليه الاسم ، ومتى استولى عليه الاسم انطوت

---

(١) الفتوحات الإلهية : ٣٣٨ .
(٢) نفحات الحق ، ص١١٣ .
(٣) مفتاح الفلاح ، ص٤٢ .

العبدية بالربِّية، وظهرت عليه صفات الرب[1]. . .

ـ أقول: إن سأل سائل: ما هي صفات الرب التي تظهر عليه؟ فالجواب: هي الهلوسات التي يشاهدها أثناء الجذبة! ويشاهد فيها أنه الله (جل الله) بأسمائه وصفاته.

ويقول عبد المجيد الخاني النقشبندي:

واعلم أن المريد الصادق إذا اشتغل بالذكر على وجه الإخلاص، يظهر عليه أحوالٌ عجيبة وخوارق غريبة، وهي ثمرات أعماله من فضل الله تعالى عليه، إمّا تطميناً لقلبه وتأنيساً، وإما ابتلاءً من الله تعالى وامتحاناً له. فالواجب عليه أن لا يلتفت إليها ولا يغتر بها لئلا ينقطع بها عن مقصوده (مشاهدة الوحدة). ولهذا قال العارفون بالله تعالى: أكثر من انقطع من المريدين بسبب وقوعهم في الكرامات[2]. . .

* **خلاصة ما تقدم:**

إذا اشتغل المريد بالذكر، وهو عادة الاسم المفرد «الله»، واستمر عليه ليلاً ونهاراً أياماً كثيرةً، قد تقصر وقد تطول، وقد تمتد إلى ما يزيد عن عشرين سنة، كما حصل لعبد القادر الجيلاني، تظهر أمامه خوارق؟ كأنْ يرى أشخاصاً يظهرون فجأة ويختفون فجأة، أو يسمع أصواتاً، أو تحدث أمامه حوادث غير عادية وغير معروفة السبب؟ أو قد يحدث مع بعضهم أن يسير فوق الماء أو يطير في الهواء.

هذه الخوارق ليست لازمة بالضرورة، فقد لا يحصل شيء منها. وإذا حصلت فإنهم يتواصَوْن بإهمالها وعدم الالتفات إليها والاغترار بها! لأن غايتهم هي الوصول إلى الجذبة التي يستشعرون فيها وبها الألوهية ويذوقونها.

يستمر السالك بالذكر. وقد يلجأ إلى الرياضة (المجاهدة) كعامل مساعد، وقد يبدل الخلوة في غرفة بالسياحة في القفار، مع الجوع والسهر والمشاقّ، ويبقى يذكر ويذكر حتى يصل إلى الجذبة التي هي الهدف الأول، وتكون عادةً سريعة الزوال في أول الأمر، عندئذ يسمونه: المجذوب أو الولي أو الواصل. . .، ويعنون بكلمة «مجذوب» أن الله

---

(1) نفحات الحق، ص١١٠.

(2) السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية، ص٣٧.

سبحانه جذبه إليه، وينصحونه ألا يغترّ بالجذبات القليلة السريعة الزوال، بل عليه أن يستمر في الذكر، حتى يزداد عدد جذباته ويزداد طولها، ثم حتى يشاهد فيها وبها المشاهد.

يبقى المريد (أو السالك) هكذا مستمرًا حتى تصبح الجذبة طوع يديه، ففي أي وقت يريدها يبدأ بالذكر، وما هي إلا دقائق حتى يقع فيها، بل قد يقع فيها بمجرد التفكير بها.

وقد يصل إلى مقام تتكرر عليه تلقائيًا دون ذكر، وهذا عندهم هو الأمل المنشود، ومن وصل إليه فهو البدل أو الوتد أو القطب أو الغوث (حسبما يوحي إليه شيطانه).

على أن عند النقشبندية أسلوباً أسرع (كما يقولون) في الوصول إلى الجذبة، وهو ترديد لا إله إلا الله، مع هز الرأس بالصورة التالية:

يدير المريد وجهه إلى اليمين حتى تصبح ذقنه فوق كتفه اليمنى، ويلفظ كلمة «لا».

ثم يدير وجهه بسرعة إلى الأمام ويضع ذقنه على صدره، ويلفظ كلمة «إله».

ثم يدير وجهه بسرعة أيضاً إلى اليسار، حتى تكون ذقنه فوق كتفه اليسرى، ويلفظ كلمة «إلا».

ثم يدير وجهه بسرعة دائماً، إلى الأمام ويضع ذقنه فوق صدره، كما في الحركة الثانية، ويلفظ كلمة «الله».

ويعيد الكرة ويعيدها، وكل هذا يتم بأسرع ما يمكن.

ويقولون: إن القيام بهذه العملية واحداً وعشرين مرة، يمكن أن يوصل إلى الجذبة، ومن لم يصل، فليعد الكرة، ثم ليعدها، وسيصل أخيراً. ومن الناس من لا يصل مهما عمل وحاول.

ولقد انتقلت هذه الحركة إلى بعض الطرق الأخرى، لما فيها من سرعة في الوصول.

ولعل القارىء أدرك أن ترديد عبارة «لا إله إلا الله» أثناء هذه الحركة لا يقدم ولا يؤخر في الوصول إلى الجذبة، وأن الفعل كله لهز الرأس بالشكل المذكور، ويا لها من ولاية! تهز رأسك فتصبح وليًا لله؟ (مرحبا ولاية)!

□ المنشطات (الحضرة، السماع، قراءة الكتب الصوفية):

يقول الشيخ سعيد حوى:

. . . ويرافق السيرَ إلى الله اجتماعٌ وإنشادٌ، وتصحبُه أمورٌ، ويتطلَّب آداباً[1]. . .

ويقول: . . . هذه الحالات التي تزيد من إقبال الإنسان على الله تعالى أو تُجدِّد همته إن فترت، كثيرةٌ، منها الاجتماع على علم أو على قراءة قرآن أو على ذكرٍ أو على مذاكرةٍ، ومنها الإنشاد ومنها المطالعة في كتب السير إلى الله[2]. . .

ـ أقول: المعروف أن الصحابة رضوان الله عليهم وتابعيهم وتابعي تابعيهم، كانوا يجتمعون على علم وعلى قراءة القرآن، وكان هذا لا يدفعهم إلى ما يسميه «السير إلى الله»، بل كانوا يسيرون في طريق الإسلام الذي أنزله الله سبحانه على رسوله ﷺ.

كما أنه من المؤكد أن الذين يجتمعون على علم وعلى قراءة القرآن بتدبُّرٍ وتطبيق يبتعدون كل البعد عن هذا الذي يسمونه «السير إلى الله».

إن القرآن الكريم والعلم النبوي يحكمان بأن ما يسمونه «السير إلى الله» لا يمتُّ لهما بصلة، وبالتالي ليس سيراً إلى الله، بل هو سير إلى الجذبة (ليس غير) وسنرى ذلك فيما بعد.

أما الآن، فإلى بعض التفصيل للمنشطات: الاجتماع، ومظهره الرئيسي هو الحضرة، والسماع، وقراءة كتب التصوف.

---

(1) تربيتنا الروحية، ص١٦٦.

(2) تربيتنا الروحية، ص١٦٧.

□ الحضرة (لا طريقة بدون حضرة إلا بعض الشواذ النادرة) :

كلمة «الحضرة» تعني عند القوم الجلسة التي يحضرها رسول الله ﷺ ومعه رجال الغيب، ففيها يكونون في حضرته، ولذلك سموها الحضرة. وقد أفتى شيوخهم أن مَن حلف يميناً، أو طلاقاً، أن محمداً ﷺ حاضر معهم، فلا يحنث ولا تطلق زوجته، وكلهم يعتقدون هذا لكنهم يكتمونه (حسب القاعدة).

ولا بد في الحضرة من الشيخ أو من نائب عنه بإذنه، إذ بدون ذلك لا يحضرها رسول الله ﷺ.

تنقسم الصوفية من حيث الحضرة إلى قسمين:

١ ـ الصوفية الجالسة :

يقومون بطقوس الحضرة وهم جلوس، وينقسمون بدورهم إلى قمسين:

أ ـ الجالسة الصامتة : يقرؤ ون أورادهم وأذكارهم جلوساً صامتين، كالنقشبندية، والخوفية، وقد يجهرون بعض الأحيان، وقد يقفون (حسب توجيه الشيخ)، مع ندرته.

ب ـ الجالسة الصائتة : يقرؤ ون أورادهم وأذكارهم جلوساً مع الجهر بالصوت، كالتيجانية، والنعمتللاهية، وقد يقفون ويرقصون (حسب توجيهات الشيخ)، وهذا نادر.

٢ ـ الصوفية الراقصة :

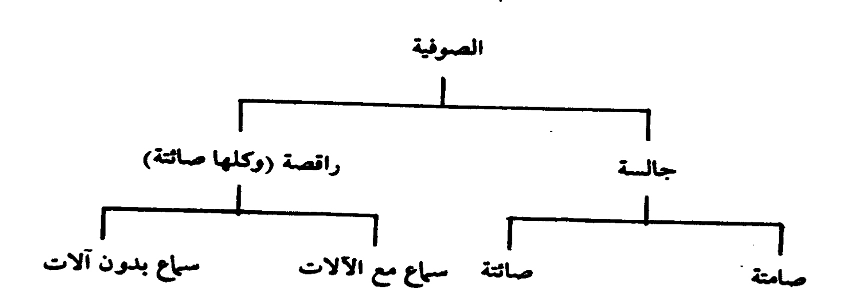
عليها أكثر الطرق، وكلها صائتة، يبدؤ ون الحضرة في أكثر الأحيان جلوساً، ثم ينهضون للقفز والرقص، وقد يصاحب قفزهم الطبول والزمور والدفوف، وقد يكون الرقص إفرادياً، مع السماع طبعاً.

والصوفية الراقصة تنقسم أيضاً إلى قسمين :

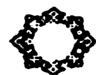
أ ـ الرقص مع السماع بدون آلات .

ب ـ الرقص مع السماع مصحوباً بالآلات .

وتلخيص ذلك بالشكل التالي :



أما الرقص الإفرادي فقد يكون رقصاً مع النقص، (أي : مع هز الخصر)، أو بدون نقص، (أي : بدون هز الخصر).



□ كيفية الحضرة:

نذكر كيفية الحضرة بإيجاز وإجمال، دون تفصيل، إذ لا فائدة من ذلك ولا ضرورة.

مع العلم أنه لا يتم شيء في الحضرة إلا حسب توجيه الشيخ فقط، دون أي كلمة أو إشارة من المريدين، إذ هم أمامه كالميت بين يدي الغاسل.

قد تبدأ الحضرة بدرس يلقيه الشيخ، أو بقراءة بعض أحاديث نبوية دون تمييز، أو بنشيد من أناشيدهم، ثم يبدأ الورد.

ولا يكون الورد إلا مع الالتزام التام بما يسمونه «الرابطة الشريفة»، وهي أن يربط كل مريد في الحضرة بصره بشيخه إن كان حاضراً، وأن يتصوره في خياله إن كان غائباً، ويمكن له في أول أمره أن يضع صورته أمامه وينظر إليها، حتى يتدرب شيئاً فشيئاً على تصوره جيداً في وهمه.

وقد يقرأ أحدهم، بأمر من الشيخ طبعاً، السلسلة المزعومة للمشيخة (الطريقة) والتي يصلونها، زوراً وبهتاناً، بالرسول ﷺ.

ثم تأتي الأذكار والصلوات على النبي، ولكل مشيخة أذكارها وصلواتها التي قد تطول وقد تقصر، والاختلاف طبعاً هو بالألفاظ لا بالمعاني، فالمعاني واحدة أو متقاربة، وقد رأينا نماذج منها فيما مر من الفصول.

وبالنسبة للصوفية الجالسة، تنتهي هذه الجلسة بالفاتحة وإهدائها إلى النبي ﷺ - ومن فضله إلى الشيخ ثم إلى الأولياء... إلخ. وقد يزيدون عليها شيئاً من القرآن الكريم.

ثم يمد الشيخ يده، ويبدأ الحاضرون بتقبيلها واحداً بعد واحد، ثم ينصرف من

يريد منهم الانصراف، وأحياناً يقف الشيخ عندما يمد يده للتقبيل كرماً منه، ليسهل على المريدين تقبيل يده دون إلجائهم إلى الجلوس والسجود ثم النهوض.

أما بالنسبة للصوفية الراقصة، فهم، بعد الانتهاء من جلسة الذكر والصلوات يقفون بشكل حلقة غير تامة، أو أكثر من حلقة، حسب العدد، ويأخذون بالقفز وهم في مكانهم، يتوسطهم الشيخ أو نائبه، يحركهم بإشارات يده، وهم يرددون: «الله حي، الله حي، الله حي»، لكن لا بلفظها، بل بأنّات تتفق مقاطعها مع مقاطعها، ويد كل واحد ممسكة بقوة بيد جاره، متشابكة أصابعهم، وهم في قفزهم يرتفعون معاً ويهبطون معاً، ويقف المسِنّون منهم في الأطراف، وقد لا يشبكون أيديهم بأيدي جيرانهم، وعادة يكون قفز هؤلاء بتحريك الرأس والجذع إلى الأمام والوراء، دون أن يرفعوا أرجلهم عن الأرض، وقد يرفعون أعقابهم فقط.

يرافق ذلك إنشاد من منشد حسن الصوت، ولا يوجد نشيد خاص لكل مشيخة، إن الأناشيد بشكل عام، مشتركة بين الجميع، إلا تلك التي تختص بتقديس شيوخ الطريقة.

وفي بعض الطرق، كالرفاعية، يرافق القفز الطبول الرجاجة، وفي بعضها، كالمولوية، يرافقها الموسيقى المنبعثة من النايات والصنوج والدفوف والمزاهر.

وبعد زمن قد يطول وقد يقصر، يعطي «البيشر»[1]، إشارة الانتهاء، وتختلف من طريقة إلى أخرى.

ثم يجلسون، ويقرؤون الفاتحة مع الإهداء والدعاء، ثم يأتي شرب الشاي الحار، لأن شرب المشروبات الباردة ممنوع بعد الرقص.

وفي جميع المشيخات الصوفية، لا يجوز دخول الحضرة إلا بعد الطهارة والوضوء.

ثم يأتي دور تقبيل يد الشيخ حسب الشكل الذي مر آنفاً.

عادة، إذا كان الشيخ يريد من الحاضرين جميعهم الانصراف، يقف قبل الجميع

---

(١) البيشر، اصطلاح أورده شهاب الدين السهروردي في عوارف المعارف، ويعني به الشخص الذي يدير الحضرة، سواء كان الشيخ أو نائبه، ويستعملون الآن كملة «البيشروش».

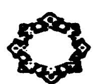
قرب الباب، ويمد يده، فيشرع الحاضرون بالخروج مارين أمام الشيخ واحداً بعد واحد، يقبلون يده المقدسة، وقد يمرغون جباههم عليها. وقد يقبل بعضهم رجله حيث يمدها الشيخ إلى الأمام، تكرماً ومنّةً وعطفاً منه وتفضلاً ليمكن المريد من تقبيلها وتمريغ وجهه وجبهته عليها.

وأكرر الإشارة إلى أن الرقص قد يكون إفراديًا، فيكون دون ترديد عبارة «الله حي» أو الآهات التي تتناغم معها، والراقص لا يردد أي شيء إلا إن كان الإنشاد الذي يرافقه يقتضي من الجميع أن يرددوا اللازمة معاً، فحينئذ قد يتفاعل الراقص معهم.

ونوع الرقص تابع لمهارة «الولي» الراقص، الذي يمكن أن يكون أي مريد أو أي شيخ، وأكثر ما تكون رقصاتهم من نوع «السماح» الذي هو رقص «المولوية» المشهور، وقد يرقصون «التانجو، أو السامبا، أو السلوفوكس»، ولا أدري إن كانت الرقصات العنيفة «بوغي بوغي، أو الروك أند رول، أو غيرها» قد دخلت حلقاتهم أم لا. مع العلم أن هذا ليس عامًا في كل المشيخات، بل قد يوجد في بعض الأحيان، وفي بعض الأماكن، وقد لا يوجد، ولا يختص بمشيخة دون أخرى.

أما رقصة «السماح» التي يرقصها المولوية «تقرباً إلى الله»، فهي أشهر من أن تعرّف، وكذلك الرقصات البكتاشية حول قبر وثنهم «حاجي بكتاش»، وأشهر منها رقصات «الزار» في مصر والسودان والحبشة وغيرها.

لكن، على كل حال، يجب أن لا ننسى أبداً، أن هذه الرقصات هي منشطات على «السير إلى الله»!!



□ السماع :

ماذا يقولون في السماع؟ نكتفي ببعض الكلمات لبعض كبرائهم، «وكلهم في الهوى سواء».

يقول الغزالي :

. . . فإذاً تأثيرُ السماع في القلب محسوس، ومَن لم يحرِّكه السماع فهو ناقصٌ مائلٌ عن الاعتدال، بعيدٌ عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور، بل على جميع البهائم، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته؛ ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب، لم يَجُزْ أن يُحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم، بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات، فحكمه حكم ما في القلب، قال أبو سليمان : السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه، ولكن يُحرِّك ما هو فيه. فالترنُّم بالكلمات المسجَّعة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب[1]. . . .

ومما يورده الطوسي :

. . . سمعت الطيالسي الرازي يقول : دخلت على إسرافيل أستاذ ذي النون رحمهما الله وهو جالس ينكتُ بأصبعه على الأرض ويترنم مع نفسه بشيء، فلما رآني قال : أتُحْسِنُ تقول شيئاً؟ قلت : لا . قال : أنت بلا قلب . سمعتُ أبا الحسن علي بن محمد الصير في قال : سمعت رويماً، وقد سئل عن المشايخ الذين لقيهم : كيف كان يجدهم في وقت السماع؟ فقال : مثل قطيع الغنم إذا وقع في وسطه الذئاب[2]. . .

---

(١) الإحياء : ٢ / ٢٤٣ .

(٢) اللمع، ص٣٦١ .

ويقـول: سمعت أبـا عمـرو إسماعيل بن نُجيد، قال: سمعتُ أبا عثمان سعيد بن عثمان الرازي الواعظ، يقول: السماع على ثلاثة أوجه. فوَجه منه للمريدين والمبتدئين، يستدعون بذلك الأحوال الشريفة، ويُخشى عليهم في ذلك الفتنة والمراءاة.

والوجه الثاني: للصدِّيقين يطلبون الزيادة في أحوالهم، ويسمعون من ذلك ما يوافق أحوالَهم وأوقاتهم.

والوجه الثالث: لأهل الاستقامة من العارفين، فهُم لا يعترضون، ولا يتأبون على الله فيما يردُ على قلوبهم في حين السماع، مِن الحركة والسكون. أو كما قال[1].

ويقـول: وقـال بعضهم: أهـل السماع في السماع على ثلاثة ضروب: فضربٌ منهم أبنـاء الحقـائق، وهم الـذي يرجعـون في سماعهم إلى مخاطبـة الحق لهم فيـما يسمعـون. وضـربٌ منهم ير عـون فيـما يسمعـون إلى مخاطبـة أحـوالهم وأوقـاتهم ومقـاماتهم، وهم مرتبطـون بالعلم ومطـالبـون بالصـدق فيـما يشير ون إليه من ذلك. والضرب الثالث هم الفقـراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والاشتغال بالجمع والمنع، فهم يسمعون بِطِيبة قلوبهم، ويليق بهم السماع، وهم أقرب الناس إلى السلامة، وأسلمهم من الفتنة. والله أعلم[2].

★ **السماع والتواجد أو الرقص:**

رأينـا وصف واصفهم عنـد السـماع أنهم «مثل قطيع الغنم وقع في وسطه الذئاب»، وهذه أبيات لأبي مدين المغربي:

فقــل للذي ينهــى عن الــوجــد أهــلَه ... إذا لم تذق معنى شراب الهــوى دَعْنــا

إذا لم تذق ما ذاقــت النــاس في الهــوى ... فبـالله يا خالي الحـشـا لا تعنِّفْنـا

وسـلِّم لنـا فيـما ادَّعيـنـا فإنـنـا ... إذا غلبـت أشـواقـنـا ربـما صحنـا

وتهـتـز عنـد الاسـتـماع حواسـنـا ... وإن لم نُطـق حملَ التـوجـد نوَّحنـا

أمـا تنظـر الطـير المـقـفَّص يا فتـى ... إذا ذكـر الأوطـان حنَّ إلى المغنـى

(1) اللمع، ص٣٤٩.

(2) اللمع، ص٣٥١.

وفـرّج بالـتـغـريـد ما في فؤاده
فيـفـلق أربـاب الـقـلوب إذا غنى

ويهـتـزُّ في الأقـفـاص مِنْ فرط وجـده
فمضطـربُ الأعضـاءُ في الحس والمعنى

كذلـك أرواح المـحـبّـين يا فتـى
تهَزْهِـزهـا الأشـواق للعـالم الأسنى

أَنُـلزِمُـهـا بالـصـبر وهـي مشـوقـة
وكيف يطيق الصـبر من شاهـد المعنى

إذا اهـتـزت الأرواح شوقـاً إلى الـلقـا
نَعَم ترقص الأشبـاح يا جاهـل المعنى

فيـا حادي الـعـشـاق قُمْ وأحْـدُ قائـماً
وزَمْـزِمْ لنـا باسم الحبيب وروِّحنـا

وصُنْ سِرَّنـا في سكـرنـا عن حسـودنـا
وإن نظـرتْ عينـاك شيئـاً فسـامحنا

فإنـا إذا طِبْـنـا وطـابـت نفـوسـنـا
وخـامَـرَنـا خمرُ الـغـرام تهتَّـكـنـا

فلا تلم الـسـكـران في حال سكـره
فقـد رُفـع التكليف في سكـرنـا عنا

ويـا عاذلي كرِّر عليّ حديـثـهـم
فأعـيـنـنـا منهـم وأعـيـنهـم منـا

أرجو من القارىء الكريم أن يتسلى بملاحظة العبارات الصوفية الواردة في كل بيت من أبيات القصيدة، وقد مرت كلها (أو أكثرها) في النصوص السابقة.

والسماع في أكثر الأحيان يكون مصحوباً بالآت تبدأ بالدف، ثم تأتي الصنوج والمزاهر والطبول الرجاجة والنايات والأبواق.

وقد يكون السماع بدون آلات.

وكلتا الحالتين قد توجدان في الطريقة الواحدة، حسب الشيخ والظرف.

وأقوالهم في السماع، حسب هذا المعنى الذي رأيناه، تملأ مئات الصفحات وأكثر.



□ **قراءة الكتب الصوفية :**

مِن المنشطات على الاجتهاد في الرياضة والذكر والإصرار على الوصول إلى الجذبة، قراءة الكتب الصوفية، وهي كلها مشحونة بتقديس التصوف وشيوخه، وبسرْدِ مثيرٍ لخوارق العادة التي تحدث أمامهم، وبتلك العبارات والرموز والإشارات التي تتكلم عن أسرارٍ غريبة وعجيبة، وغيرها من المثيرات المغريات.

كل هذا يبعث في القارىء شوقاً جامحاً لتلك الأسرار، واندفاعاً ملحًّا للوصول إلى تلك الحالات، ويجعل خياله وآماله وأحلامه تهوم في تلك الأجواء الغنوصية التي يصورونها له إلٰهية وتحققاً بالألوهية، ويعبرّون عنها بمثل قولهم: «لا أريد إلا وجه الله الكريم»، فيُقْبل على الرياضة الصوفية بإصرار، وعلى الغلوّ في الخضوع الشركي للشيخ، مما يساعده على الوصول إلى الجذبة والتحقق بالألوهية بسرعة أكثر.

وكل المراجع التي اعتمدناها لهذا الكتاب هي كتبهم التي إليها يرجعون وعليها يعتمدون، وهي كتبهم التي يقدسون، مؤلفوها هم عارفوهم وأشياخهم وأقطابهم وعلماؤهم.

وناسخوها هم من عارفيهم وأشياخهم وأقطابهم وعلمائهم ومريديهم.

والمشرفون على طباعتها لجان منتقاة من عارفيهم وأشياخهم وأقطابهم وعلمائهم.

والذين يقتنونها ويقرؤونها هم من المنتسبين إلى طرقهم ومشيخاتهم، الذين لا يعصون الشيخ ما أمرهم، ويفعلون ما يأمرهم به.

والذين يقتنونها ويقرؤونها أيضاً من عارفيهم وأشياخهم وأقطابهم وعلمائهم ومريديهم.

والذين يشترونها ليضعوها في مكتباتهم، أو في مكتبات المساجد أو المدارس، مراجع

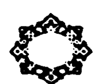
إليهـا يرجعـون، هـم من عارفيهم وأشيـاخهـم وأقطـابهم وعلمائهم وأسيـادهـم ومـريديهم والسالكين على أيديهم.

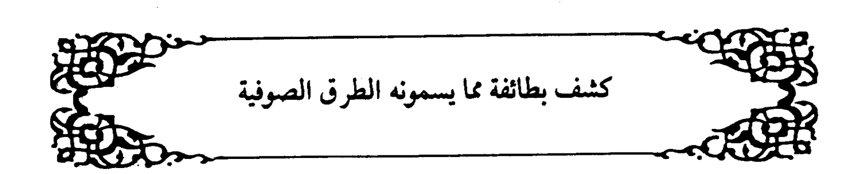
لذلك أرجو من القارىء الكريم، أن يكون مطمئنًا كل الاطمئنان، واثقاً كل الثقة، مؤمناً كل الإيـمان، أن كل ما في كتبهم هو صحيـح النسبة إليهم، يؤمنون به كلهم إيماناً كليًا كاملاً، ولا يوجد فيه أي دس صغير أو كبير.

وإذا قال لك أحـد منهم عن أمـر من أمـورهم أو قصـة من قصصهم أو نص من نصـوصهم: إنـه مدسـوس. فاعلم أنـه يكـذب عليـك ويخـادعـك ويمكـر بك ويكيـد للإسلام، (عن وعي أو عن غير وعي)، ولكن عن إخلاص وإيمان.

وإذا قال أحد من غيرهم: إنه مدسوس. فاعلم أنه جاهل بالصوفية غافل عن واقع المسلمين.

إن البحر الميت لا يحتاج لأن يدس فيه الملح ليصبح ملحاً، وجهنم لا تحتاج أن يدس فيها الجمر لتغدو حامية.





كشف بطائفة مما يسمونه الطرق الصوفية

إنها ليست طرقاً، وإنما هي مشيخات أخذت أسماءها من أسماء مشايخها الذين كانوا ومازالوا يجمعون حولهم المريدين والسالكين ليحصلوا بذلك على المدد، أي: الأموال التي تنهمر عليهم، إما من المريدين مباشرة، أو بسبب هؤلاء المريدين، هذا المدد، مضافاً إلى اللذة التي يجدونها في الجذبة، مع هلوساتها التي توهمهم أنهم تحققوا بالألوهية، كل هذا يدفعهم إلى التفاني في خدمة إبليس للإبقاء على مسيرة الكهانة، وجر المسلمين إلى أشراكها، والفرق بين الطرق هو بكلمات الأذكار، لا بمعانيها، وبأشكال الحضرة، أما الرياضة والوصول والكشف والحقيقة، التي هي هي الصوفية، فواحدة.

وهذه طائفة مما يسر الله سبحانه الوقوف عليه من مشيخاتهم، أوردها بإيجاز:

المحاسِبيَّة: نسبة إلى الحارث بن أسد المحاسبي، بصري، مات في بغداد سنة ٢٤٣هـ.

الطَّيْفورية (أو البسطامية): نسبة إلى أبي يزيد، طيفور بن عيسى البسطامي، اختلفت كتبهم (المؤيدة بالكشف!!) في تاريخ وفاته على قولين: سنة ٢٣٤هـ، وسنة ٢٦١هـ.

السَّقَطية: نسبة إلى أبي الحسن، السري بن المغلس السقطي، خال الجنيد

وأستاذه، وإليه ينتمي أكثر المشايخ في بغداد، مات فيها سنة ٢٥١هـ.

القصّارية: نسبة إلى أبي صالح، حمدون بن أحمد بن عمارة القصار، شيخ الملامتية في نيسابور، مات فيها عام ٢٧١هـ.

الجُنَيدية: نسبة إلى الجنيد بن محمد (أبي القاسم) سيد الطائفة الصوفية - كما يلقبونه - أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه في العراق، ويقال له أيضاً: «القواريري»، مات في بغداد سنة ٢٩٧هـ.

النُّورية: نسبة إلى أبي الحسين، أحمد بن محمد بن عبد الصمد النوري، بغوي الأصل، بغدادي المولد والمنشأ، مات سنة ٢٩٥هـ.

السُّهلية: نسبة إلى سهل بن عبد الله التستري (أبي محمد) مات سنة ٢٧٣ أو ٢٨٣هـ.

الخـرّازيـة: نسبة إلى أبي سعيد، أحمد بن عيسى الخراز، يقال له: «لسان التصوف»، بغدادي، مات سنة ٢٧٧هـ.

الحكيمية: نسبة إلى أبي عبد الله، محمد بن علي الترمذي، الحكيم، مات سنة ٢٩٦ أو ٣٢٠هـ، ولعلها الأرجح، وهو غير الترمذي المحدث صاحب السنن.

الحلّاجية: نسبة إلى أبي المغيث، الحسين بن منصور الحلاج، فارسي، نشأ بواسط في العراق، مات قتلاً على الزندقة في بغداد سنة ٣٠٩هـ. والصوفية كلهم يزكونه، وعلى رأسهم الغزالي في «إحيائه»، والقشيري في «رسالته»، والجيلاني في «فتحه وفتوحه»، وابن عربي في كتبه.

الخفيفية: نسبة إلى أبي عبد الله محمد بن خفيف الضبّي الشيرازي، مات سنة ٣٧١هـ أو ٣٩١هـ.

السيارية: نسبة إلى أبي العباس، القاسم بن القاسم السياري من مرو، مات سنة ٣٤٢هـ.

هذه الطرق، هي الأصول للطرق التي ظهرت فيها بعد، وقد اندثرت أسماؤها بعد أن انقسم كل منها إلى طرق كثيرة، بسبب المشايخ الذين ظهروا فيها، ثم أصّل كل منهم

طريقة باسمه على حساب اسم شيخه. والظن أن هناك طرقاً غير هذه، واكبتها أو تقدمتها، لم يتهيأ لي الوقوف على ما يشير إليها.

الجنْبلانية: مؤسسها أبو محمد عبد الله بن محمد الجنبلاني، من بلدة جنبلا في فارس، مات فيها سنة ٢٨٧هـ وإليها يعود الفضل في نشر المذهب النصيري.

الملامتية: تنسب أحياناً لحمدون القصار، لكن الذي بلورها وأعطاها شكلها النهائي هو تلميذه أبو محمد عبد الله بن منازل، مات بنيسابور سنة ٣٢٩ أو ٣٣٠هـ، وسموا أنفسهم الملامتية، من «الملامة» لأنهم يشتغلون بملامة أنفسهم ويهملون الشريعة والأخلاق، وقد اضمحلت كطريقة مستقلة، لكنها استمرت تظهر في سلوك كثير من الأولياء في كل الطرق، يتظاهرون بالتهتك وإتيان البهائم وشرب الخمور وتناول الحشيش والسرقة وغير ذلك، ليستروا عن الناس ولايتهم وصديقيتهم!

الكازُرونية: نسبة إلى أبي سعيد الكازروني، تتلمذ على ابن خفيف، وكان يلقب بـ«المرشد»، لم أقف من ترجمته على أكثر من هذا، ويمكن أن تكون نسبة إلى أبي إسحاق، إبراهيم بن شهريار، مات في كازُرون (في إيران) سنة ٤٢٦هـ، تخرج في الخفيفية بأبي محمد الحسين الأكار، ولعل هذا هو الأرجح، ويدعي أصحاب الطريقة الأويسية في إيران أن الكازروني من رجال سلسلتهم.

السالمية: تنسب إلى أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سالم (الكبير) بصري، مات سنة ٢٩٧هـ، وإلى ابنه أبي الحسن أحمد بن محمد (ابن سالم الصغير) مات سنة ٣٦٠هـ، وهو أستاذ أبي طالب المكي، والسالمية فرع من السهلية.

المسرِّيَّة: نسبة إلى محمد بن عبد الله بن مَسَرَّة الجبلي، مات سنة ٣١٩هـ، إسماعيلي، اتهم بالزندقة فخرج فارًّا من الأندلس، ثم عاد إليها بعد مدة، وطريقته أُمّ الطرق الصوفية في الأندلس، وهو غير ابن مسرة المحدث الحافظ الفقيه[1].

---

(١) المحدث الحافظ الفقيه وهب بن مسرة بن مفرج التميمي الحجاري، من وادي الحجارة بالأندلس، توفي سنة ٣٤٦هـ، وقد وهم فيه الحافظ الذهبي وتبعه ابن حجر بسبب تشابه نسبته مع ابن مسرة الصوفي، (هذا التعريف مقتبس عن مجلة «دار الحديث الحسنية» العدد الثالث، سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص١٤٥).

الحلمانية: أسسها أبوحلمان الفارسي الحلبي في دمشق في القرن الرابع أوبعده بقليل، حاربها الأشاعرة لأن أتباعها كانوا يصرحون بوحدة الوجود، فلم تعمر طويلاً.

القشيرية: نسبة إلى أبي القاسم، عبد الكريم بن هوازن القشيري، مؤلف الرسالة القشيرية، مات في نيسابور سنة ٤٦٥هـ، ولعلها هي التي تسمى أيضاً: «الهوازنية».

الصدِّيقية: ينسبونها إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، ومؤسسها هوأبوبكر بن هوار من قبيلة الهواريين الكردية، سكن في البطائح في جنوب العراق، في قرية الحدادية، وهومن أهل القرن الخامس الهجري، أخذ طريقته عن أبي بكر الصديق في المنام حيث ألبسه ثوباً وطاقية ومرّ بيده على ناصيته، وقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر بك تحيى سنن أهل الطريق من أمتي بالعراق بعد موتها...» ثم استيقظ فوجد الثوب والطاقية بعينيهما عليه.

العريفية: نسبة إلى ابن العريف، أبي العباس، أحمد بن محمد بن موسى، من ألمرية في الأندلس، مات في صنهاجة في المغرب سنة ٥٣٥ أوسنة ٥٣٦هـ، وهوغير ابن العريف النحوي الشاعر، وبالعريفية تخرج ابن عربي.

القادرية: أسسها محيي الدين، أبوصالح، عبد القادر الجيلاني (سلطان الأولياء)، مات سنة ٥٦١هـ في بغداد، وهوأعجمي من (جيلان)، لكنهم يجعلونه من سلالة فاطمة الزهراء، رضي الله عنها.

الرفاعية (أو البطائحية): أسسها أحمد بن الحسين الرفاعي، من بني رفاعة (قبيلة من العرب)، ولد وعاش في أم عَبيدة، من أعمال البصرة في العراق، ومات فيها سنة ٥٧٨هـ، والبطائح اسم المنطقة، وفي كتبهم يجعلونه من سلالة فاطمة الزهراء رضي الله عنه، ويجعلون رفاعة أحد أجداده.

العَدَوية: أسسها عدي بن مسافر، تلميذ عبد القادر الجيلاني، توفي في قرية بالس في جبل لالش من جبال الهكّارية قرب سنجار، شمالي العراق، سنة ٥٥٥ أو٥٥٧ أو ٥٨٥هـ، وقد تطورت هذه الطريقة، وأتباعها اليوم هم «اليزيديون» عبدة الشيطان.

البَيانية: نسبة إلى الشيخ أبي البيان: بنان، أوبناء، بن محمد بن محفوظ (السلمي)

أو (القرشي) الحوراني ثم الدمشقي، مات سنة ٥٥١هـ.

المَدْيَنيَّة: نسبة إلى أبي مدين، شعيب بن حسين (أوحسن) الأندلسي، استوطن بجاية في المغرب، مات وهو في طريقه للقتل على الزندقة سنة ٥٩٠ أو ٥٩٣هـ في تلمسان.

الرحيمية القنائية: نسبة إلى عبد الرحيم القنائي، مغربي أخذ عن أبي يعزى، ثم انتقل إلى مصر ومات فيها سنة ٥٩٢هـ في قنا. وقد وهم من قال: إنه لم يكن شيخ طريقة. ولكن يظهر أنها اندثرت.

القَلَنْدرية: نسبة إلى قلندر يوسف، أندلسي هاجر إلى المشرق، وقد ظهرت هذه الطريقة لأول مرة في دمشق سنة ٦١٠هـ، وأتباعها يحلقون لحاهم، ولا يأخذون أنفسهم بشعائر الدين الإسلامي ولا بمقومات الأخلاق، مات قلندر يوسف في دمياط بمصر، والطريقة منتشرة في الهند، نشرها الشيخ قطب الدين العمري الجونپوري (أجهل عصره).

الكبروية: للشيخ نجم الدين أبي الجناب أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي الكبرى، أشهر صوفية الفرس، ولد وعاش في مدينة (خيوة) من أعمال خوارزم، مات فيها سنة ٦١٨هـ أو قبلها بقليل، ويقال: إنه أخذ التصوف عن روزبهان[1] في مصر، لكني أظنه تخرج في القادرية بأحد تلاميذ عبد القادر.

الجِشْتية: نسبة إلى قرية «جشت» في هراة، (في الشمال الغربي من أفغانستان)، مؤسسها أبو إسحاق الدمشقي الجشتي، وهو من أحياء العقود الأخيرة من القرن السادس الهجري، ولعله أدرك بعض الأولى من القرن السابع، وهي منتشرة في الهند، نشرها هناك خواجه معين الدين حسن السنجري الأجميري، مات في أجمير سنة ٦٢٠ أو ٦٢٧ أو ٦٣٤هـ، وقبره محجة للمسلمين والهندوس على السواء، وقد كان لبعض أتباعها دور في نشر الإسلام بين الهندوس، ويقول مؤلف «الثقافة الإسلامية في الهند»: إنها أول طريقة أخذها أهل الهند.

---

(١) يختلف اسمه من مرجع إلى آخر، فقد ورد: روزبهار وروزبهان وروزنهار، وزون بهار، ولم يساعد الكشف على معرفة الصحيح منها.

اليونسية: نسبة إلى يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني البخاري، لا شيخ له، مات سنة ٦١٩هـ في قرية «القنيّة» من أعمال «داريّا» قرب دمشق، وهي غير اليونسية الفرقة الشيعية التي ذابت فيما بعد في المتاولة، وغير اليونسية، الفرقة المرجئية.

السُّهروردية: نسبة إلى شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي البغدادي، مات في بغداد سنة ٦٣٢هـ.

البابائية (أو البابية): نسبة إلى بابا إسحاق الكفرسودي (من كفرسوت بنواحي حلب) التركماني، وقيل: نسبة إلى بابا إلياس، أو إليهما معاً باعتبارهما شريكين، وقد بدأت شهرة (بابا) في بلاد الروم (تركيا) سنة ٦٢٨هـ. قُتل بابا إسحاق سنة ٦٣٨هـ، قتله السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني السلجوقي، وعفا عن بابا إلياس، وهي غير البابية التي أنجبت البهائية.

الأكبرية (أو العربية أو الحاتمية): نسبة إلى الشيخ الأكبر . . . ابن عربي الحاتمي، أندلسي من مرسية، طاف البلاد، واستقر في دمشق، ومات فيها سنة ٦٣٨هـ، تخرج بالعريفية، ويعتبره الإسماعيلية من أعلامهم.

الشُّوذية: مؤسسها أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بـ (الحلوي) توفي على الأرجح مع مطلع القرن السابع الهجري في تلمسان، وفي الشوذية تخرج ابن سبعين.

الحريرية: نسبة إلى علي بن أبي الحسن بن منصور الحريري، مات في (بُسْر) من حوران سنة ٦٤٥هـ، وقد اضمحلت الآن.

البكطاشية: نسبة إلى حاجي بكطاش، محمد بن إبراهيم بن موسى الخراساني، من أعوان بابا إلياس، نزح من خراسان إلى تركيا ومات في نوشهر حوالي منتصف القرن السابع الهجري، منتشرة في تركيا وشرقي أوروبا ومصر، وغلو التشيع الاثني عشري واضح فيها.

الشاذلية: مؤسسها أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، مغربي، رحل إلى تونس وسكن فيها في قرية «شاذلة»، ثم انتقل إلى مصر، ومات فيها سنة ٦٥٦هـ في صحراء عيذاب وهو في طريقه إلى الحج، وكان كُفّ بصره، وفي بعض كتب الرفاعية أن الشاذلية فرع من الرفاعية. (والشاذلي مثل غيره من الصوفية من سلالة

فاطمة الزهراء).

الأحمدية (أو السطوحية): نسبة إلى أحمد البدوي، من المغرب، هاجر أبوه إلى مكة، وهاجر هو منها إلى مصر بعد أن مر على العراق، وزار أضرحتها، أقام في مدينة طندتا (طنطا) ومات فيها سنة ٦٧٥ه‍، وسميت السطوحية لأنه كان يقيم على السطح بصورة دائمة، ويقولون: إنه كان لا يصلي، وهو (مثل غيره من الصوفية) من سلالة فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

العَلَوية: مؤسسها الأستاذ الأعظم، محمد بن علي بن محمد... باعلوي، ولد في مدينة تريم بحضرموت، ومات فيها سنة ٦٥٣هـ.

العَلِيَّة السَّعدية: نسبة إلى سعد الدين الجباوي (من قرية جبا في الجولان)، ابن يونس الشيباني، مات حسب «أعلام» الزركلي سنة ٦٢١هـ، والظن أنه أدرك النصف الثاني من القرن السابع.

الأدهمية: نسبة إلى الشيخ أدهم؟ مدفون في القدس، ولعله من أحياء العقود الأخيرة من القرن السابع أو الأولى من الثامن الهجري.

البرهامية (أو الدسوقية) مؤسسها إبراهيم الدسوقي، من المغرب، مات في مصر سنة ٦٧٦هـ.

السبعينية: نسبة إلى ابن سبعين، أندلسي، انتقل إلى مكة ومات فيها (يقال: منتحراً) سنة ٦٦٧ أو ٦٦٨ أو ٦٦٩هـ. وأتباعها يسمون «الليسية» لأن ذكرهم كان: «ليس إلا الله».

الشُّشْتَرية: نسبة إلى أبي الحسن علي النميري الششتري، تلميذ ابن سبعين، أندلسي، مات في مصر (دمياط)، سنة ٦٦٨هـ.

السنِّيَّة السعدية: أسسها سعد الدين محمد بن المؤيد... بن حمويه، شيعي[1]، سكن سفح قاسيون في دمشق، ثم رجع إلى بلده الأصلي خراسان، انتشرت طريقته في الشام وخراسان بين السنة الذين تشيعوا اتباعاً لشيخهم، وسموه «يسعى العجم» إشارة

(١) الصوفية بين الأمس واليوم، ص١٣٦.

إلى الآية الكريمة ﴿وجاءَ رجلٌ من أقصى المدينةِ يَسْعى﴾، مات في خراسان سنة ٦٥٠هـ، ويسمونه أيضاً سعد الدين الحموي، تخرج في الطريقة الأكبرية بالشيخ الأكبر نفسه.

المولوية (أو الجلالية): نسبة إلى المولى جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين الرومي، بلخي، هاجر وهو صغير مع أبيه إلى سيواس وغيرها حتى استقر في قونية (عاصمة السلاجقة) في تركيا، زار دمشق واتصل بابن عربي وتلاميذه، ومنهم سعد الدين الحموي والقونوي، وفي قونية وصل إلى مقام الفرق الثاني على يد شمس تبريز محمد بن علي بن ملك داد (لعله إسماعيلي)، مات جلال الدين سنة ٦٧٢هـ.

النعمانية: نسبة إلى أبي عبد الله، شمس الدين، محمد بن موسى بن النعمان، مغربي، قدم الإسكندرية شابًا ومات فيها سنة ٦٨٣هـ.

المسلّمية: شيخها حسن بن مسلّم، مصري، مات في القاهرة سنة ٧٦٤هـ.

المنايفية: شيخها رمضان الأشعث، مات في مصر في القرن الثامن ؟

الوفائية: نسبة إلى محمد وفا بن محمد بن محمد النجم، ولد في الإسكندرية، ثم رحل إلى القاهرة، ومات فيها سنة ٧٦٥هـ، ومحمد وفا معدود من رجال السلسلة الشاذلية.

الهمدانية: نسبة إلى علي بن الشهاب الهمداني، فارسي، مات سنة ٧٨٦هـ، تخرج في الكبروية، ولعل اهتمامه بعبد القادر الجيلاني كان عن طريقها، وللهمدانية دور في نشر التشيع في إيران.

الركنية: نسبة إلى ركن الدين، أبو المكارم، علاء الدولة السمناني، من قرية سمنان في خراسان، مات سنة ٧٣٦هـ، تخرج في الكبروية، وكان يعارض بشدة التصريح بوحدة الوجود.

النقشبندية: أسسها بهاء الدين محمد بن محمد البخاري على صورة ثورة صوفية ألغت كثيراً من تقاليد التصوف، من ذكر وخلوة وكرامات، وألغت بشكل خاص خرافة السلسلة الصوفية التي كانوا يرفعونها إلى علي بن أبي طالب، حيث يقول بهاء الدين: «لا

تصل سلسلة أحد موضعاً معيناً»، ويقول: «لم تصل إلى المتأخرين طريقة من أحد المشايخ»، ولكن تلاميذه عادوا فجعلوا لطريقتهم سلسلة رفعوها إلى الجنيد، وجعلوه يكلمهم ويوجههم، مات بهاء الدين سنة ٧٩١هـ، وقد تحولوا عن الجنيد فيما بعد، ففي كتاب «تنوير القلوب» مثلاً، يجعلون سلسلتهم تمر بأبي يزيد البسطامي حتى تصل إلى أبي بكر الصديق، كما عادوا أيضاً إلى الخلوة، وإلى الرقص أحياناً، وإلى بقية الصوفيات، والطريقة من الجالسة الصامتة مع شذوذ نادر.

الحُروفية: أسسها فضل الله بن عبد الرحمن الحسيني الاسترابادي، شيعي، كان يتنقل بين مدن فارس، قتل سنة ٨٠٤هـ، وسميت «الحروفية» لاعتنائهم الزائد بالحروف وأسرارها على طريقة الأوفاق والطلاسم والزايرجة واستنطاق الحروف والتنجيم، وقد اندمجت الحروفية فيما بعد بالبكطاشية وطورتها (كان الخليفة الثاني لفضل الله يسمى: «علي الأعلى»).

الصفَوية: نسبة إلى صفي الدين، إسحاق بن جبرائيل (والظاهر أنه تركي) العلوي (الحسني أو الحسيني)، توفي في أردبيل سنة ٧٣٥هـ على الأرجح، أخذ التصوف عن الشيخ إبراهيم الزاهد الكيلاني (لعلها الطريقة القادرية)، تشيع هو أو ابنه صدر الدين موسى (مات سنة ٧٩٤هـ)، كان أتباعه من السنة الذين انقلبوا إلى شيعة بسبب شيوخهم صفي الدين وأولاده وأحفاده (المؤلهين)، وكلهم من شمالي إيران، وقد قويت طريقته وكثر أتباعها في زمن خلفائه حتى استطاع أحد أحفاده (إسماعيل بن حيدر) أن يتملك بهم على إيران سنة ٩٠٥هـ.

والطرق الأربع: الهمدانية، والسنيّة السعدية، والحروفية، والصفوية، هي التي بدأت العمل على نشر التشيع في إيران، وقد ذابت السنية السعدية والحروفية، بينما تابعت الصفوية عملها حتى تحولت إلى ملك، ثم إلى فرقة جديدة أضيفت إلى الفرق الإسلامية هي «القيزيلباشية».

النوربخشية: نسبة إلى محمد بن عبد الله الملقب «نوربخش» أي واهب الأنوار، هاجر أبوه من الأحساء، وسكن في بلدة «قاين»، وانتسب أولاً إلى الطريقة الهمدانية، ثم أكد نسبته إلى علي بن أبي طالب عن طريق الكشف، فعرف أنه من سلالة موسى

الكاظم، كما عرف عن طريق الكشف أنه المهدي، وساعده على ذلك اسمه «محمد بن عبد الله»، وسمى ابنه «القاسم»، فأصبح «أبو القاسم محمد بن عبد الله»[1] (وكان يصرح علناً أن حركته ترمي إلى الجمع بين التصوف والتشيع)[1]، والملاحظ أنه شيعي، لكنه ادعى المهدوية حسب النصوص السنية، والطريقة الآن شيعية كلها، وقد ساعدت كثيراً جدًا على انتشار التشيع في إيران والهند، مات نوربخش سنة ٨٦٩هـ[2] في الري. وفي أواسط القرن العاشر هرب شيخ النوربخشية «طاهر بن رضا الإسماعيلي القزويني» مع جمع من أتباعه إلى الهند حيث نشروا التشيع هناك مع الطريقة.

النعمتللاهية: نسبة إلى نعمة الله الولي العلوي الحلبي، ساح ولقي عبد الله اليافعي، ثم استقر في ماهان (من أعمال كرمان)، وكان مريدوه يسجدون له، ويرون أنه المعنيُّ بالآية ﴿يعرفونَ نِعمةَ الله ثمَّ يُنْكِرونَها وأكثرُهم الكافرونَ﴾، وقد صارت الطريقة كلها شيعية بعد أن كان مؤسسها سنيًّا حنفيًّا ميالاً إلى التشيع، تخرج بالشاذلية، مات سنة ٨٣٤هـ، وعمرة قريب من مائة سنة، وانتشرت النعمتللاهية في إيران والهند، وهي أوسع الطرق انتشاراً في إيران، وقد ساعدت كثيراً على انتشار التشيع هناك.

المَشَعْشِعية: مؤسسها محمد بن فلاح بن هبة الله، وهو كغيره من الأولياء، من سلالة فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، ولعله في الأصل درزي من وادي التيم، تصوف وتفقه في مدينة الحلة بعلوم الشيعة الاثني عشرية على يد أحمد بن فهد الحلي، وتزوج ابنته، ثم تنقل حتى وصل إلى بادية خوزستان، حيث أخبره الكشف أنه المهدي المنتظر (مهدي السنة)، حصلت على يده خوارق كثيرة كثر بسببها أتباعه، وكلهم من السنة الذين تحولوا إلى مذهب شيخهم المؤله الشيعي، وكان يسمي خوارقه «التشعشع»، وكان يقطع الطرق، وينهب الحجاج، امتلك الأهواز والحويزة (العاصمة)، وأكثر بلاد خوزستان، مات سنة ٨٦٦هـ.

الشطارية: نسبة إلى عبد الله شطار الخراساني، مات سنة ٨٣٢هـ في مدينة ماندو

(١) الفكر الشيعي والنزعات الصوفية، فصل محمد بن عبد الله الملقب بنوربخش، وهو نقلاً عن نفحات الأنس، ص٢٨٦.

(٢) الصوفية بين الأمس واليوم، ص١٣٧.

في الهند الوسطى، وقد كانت في القرن العاشر طريقه الهند الرئيسية، أدخلت اليوغا في رياضتها، واهتمت كثيراً بالسيمياء (السحر).

المدارية: أسسها بديع الدين مدار المكنپوري (الهند)، مات سنة ٨٤٤هـ، كان أتباعها من أهل الوحدة المطلقة، أي يصرحون بوحدة الوجود، ومن أهل التجريد الظاهري، يكتفون بستر العورة الظاهرة، ويجترئون على مناهي الشرع.

العَيْدَروسية: نسبة إلى عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن العيدروس، من مدينة «تريم» في حضرموت، مات فيها سنة ٨٦٥هـ، وقد تخرج في العلوية، وهي منتشرة أكثر شيء في الهند وحضرموت.

الشابيّة: نسبة إلى أحمد بن مخلوف الشابيّ، تونسي، مات في القيروان سنة ٨٨٧هـ، وهي فرع من الشاذلية.

الجزولية: نسبة إلى محمد بن عبد الرحمن . . . بن سليمان الجزولي السملالي، مؤلف «دلائل الخيرات»، مات سنة ٨٦٩ أو ٨٧٠هـ في المغرب، وجزولة هي إحدى قبائل البربر، ولكنه مع ذلك من سلالة فاطمة الزهراء.

الزرّوقية: نسبة إلى أبي العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوي الفاسي المعروف بزروق، يقول عنه أبو الفيض المنوفي في جمهرة الأولياء: «ولد يوم الخميس ١٢ محرم عام ٨٤٠ هـ، وعاش ٦٣ سنة، ومات سنة ٨٩٩هـ»[١]، وقد تخرج في الشاذلية.

العيساوية: نسبة إلى سيدي محمد بن عيسى، من بلاد السوس (المغرب)، تخرج في الطريقة الجزولية، مات في «مكناسة الزيتون» سنة ٩٣٣هـ، ويظهر أنها والجزولية فرعان من الرفاعية، لأنهما تعتمدان الطبول وضرب الشيش والخناجر وأكل الزجاج والحيات، وفيهما كثير من المنكرات ـ شأن كل الطرق ـ لكن محموداً أبا الفيض المنوفي يجعل الجزولية فرعاً من الشاذلية.

الكَنكَوهية: نسبة إلى الشيخ عبد القدوس الكَنكَوهي، هندي، كان يصرح بوحدة

---

(١) الصحيح أنه ولد عام ٨٤٦هـ، وعاش ٥٤ عاماً، ومات سنة ٨٩٩هـ.

الوجود ويدعو إليها بقوة، وهي فرع من الصابرية الجشتية، مات الكَنكَوهي سنة ٩٤٤هـ.

الجهنجهانوية: نسبة إلى عبد الرزاق الجهنجهانوي، هندي، مات سنة ٩٤٩هـ، مزج بين القادرية والجشتية، وكان عالماً معروفاً، ويدعو إلى وحدة الوجود متحمساً لها ولمحيي الدين بن عربي.

المهدوية: مؤسسها «المهدي المنتظر» محمد بن يوسف الجنپوري، من جونپور في الهند، ومن أحياء القرن التاسع وأوائل العاشر الهجريين، توفي في خراسان، أخبره الكشف أنه المهدي المنتظر، وانتشرت طريقته في كجرات والدكن من بلاد الهند، وقد تحولت إلى فرقة من الفرق المنحرفة، ويجب أن لا نخلط بينها وبين المهدية السودانية التي جاءت بعدها بأربعة قرون.

الخلْوتية: نسبة إلى «أخي» محمد بن أحمد بن محمد كريم الدين الخلوتي، أخذها عن محمد ﷺ مباشرة في اليقظة لا في المنام، وكان يقول: «طريقتي محمدية»، مات سنة ٩٨٦هـ في مصر.

المجدّدية (أو الأحمدية): نسبة إلى مجدد الألف الثاني أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي، من الهند، توفي سنة ١٠٣٤هـ / ١٦٢٥م، والطريقة فرع من الباقيّة التي هي فرع من النقشبندية، منتشرة في الهند وفي أكثر بلاد المسلمين، ولعلها غير موجودة في شمال إفريقية.

البيرامية: نسبة إلى إبراهيم (بل بيرم) بن تيمورخان، من بوسنة في البلقان، طاف البلاد، وله في كل بلد اسم، فاسمه في ديار الروم علي، وفي مكة حسن، وفي المدينة محمد، استقر في مصر، ومات فيها سنة ١٠٢٦هـ.

الوزَّانية: نسبة إلى عبد الله بن إبراهيم بن موسى اليَمْلَحي المصمودي الوزاني، نسبة إلى بلدة وزان في المغرب، مات سنة ١٠٨٩هـ، الموافقة لـ ١٦٧٨م.

الذهبية: نسبة إلى آقاسيِّد محمد القريشي الذهبي، فارسي، ولعله من أهل النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري، والطريقة منتشرة بين الشيعة في إيران

والهند، وهي فرع من النعمتللاهية.

الدرقاوية: نسبة إلى العربي (أو محمد العربي) بن أحمد... الدرقاوي، مغربي مات سنة ١٢٣٩هـ، وهي فرع من الشاذلية.

الولي اللاهية: نسبة لولي الله، أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦هـ / ١٧٦٣م، تخرج بالطريقة الأحسنية التي هي فرع من الطريقة الباقيَّة، التي هي بدورها فرع من النقشبندية، له دور هام في نشر علم الحديث في الهند، ولعل هذا ناتج عن تأثره بدعوة محمد بن عبد الوهاب، والطريقة منتشرة في الهند.

المحمدية الأحسنية: مؤسسها أحمد بن عرفان البريلوي الشهيد، قاد جهاداً إسلاميًّا في محاربة الاستعمار، لكن صوفيي الهند خذلوه، لأنه - مع تصوفه - كان يقول بالنهج السلفي، قتل مجاهداً سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣١م، وطريقته فرع من الأحسنية (سيرد ذكرها) ولعله تخرج بالولي اللاهية.

الرحمانية: فرع من الخلوتية، تنسب في المغرب إلى محمد بن عبد الرحمن بوقبرين، مات في تونس سنة ١٠٢٨هـ، وينسبونها في بلاد الشام إلى عبد الرحمان الشريف، مات سنة ١٣٠٥هـ.

الإدريسية: أسسها أحمد بن إدريس، مغربي من الأدارسة، تجول في البلاد، واستقر في اليمن، طريقته محمدية، أخذها عن النبي ﷺ مباشرة في اليقظة لا في المنام، مات في بلدة «صبية» في تهامة عسير سنة ١٢٥٣هـ، وطبعاً رأى الرسول ﷺ في اليقظة بالكشف.

الرشيدية: نسبة إلى إبراهيم الرشيد، تلميذ أحمد بن إدريس، سار على نفس طريقته، وهو سوداني، تنقل، ومات في مكة سنة ١٢٩١هـ، ويجب أن لا نخلطها مع الرشيدية إحدى فرق الخوارج.

التيجانية: مؤسسها أحمد التيجاني، أخذ الطريقة عن محمد ﷺ مباشرة في اليقظة لا في المنام، مات في المغرب سنة ١٢٣٠هـ، وقد كان الاستعمار الفرنسي يشجع انتشارها في البلاد الإسلامية التي يحتلها. تسلّك أحمد التجاني في أول أمره في الخلوتية.

السُّنُوسية: أسسها محمد بن علي السنوسي، تنقل، ومات في جغبوب (ليبيا) سنة ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م، وكانت ولادته في مستغانم (الجزائر)، وفي فترة ما كانت السنوسية شبيهة بالحزب السياسي ولها دور في محاربة الاستعمار.

المدنية: نسبة إلى محمد بن حمزة بن ظافر المدني، خرج من المدينة المنورة واستقر في المغرب الأقصى، وكان مبدأ ظهور طريقته عام ١٢٤٠هـ، وهي فرع من الشاذلية.

الأُوَيْسِيَّة: ينسبونها ـ زوراً ـ إلى أويس القرني (وهذا بدهيًّا غير صحيح)، ظهر أويس في خلافة عمر بن الخطاب، توفي سنة ٣٧هـ ترجيحاً، وفي السلسلة الأويسية كثير من التخليط، فهم يجعلون من شيوخ سلسلتهم: ابن خفيف، والكازروني، والكبرى، ونوربخش، ولا يستبعد أن يكون مؤسسها (جلال الدين علي أبو الفضل عنقا)، توفي في طهران سنة ١٢٩٣هـ، أو شيخه (عبد القادر جهرمي)، مات سنة ١٢٦٢هـ، وإن صعدت فلا تبعد.

الميرغنية: نسبة إلى محمد عثمان الميرغني بن محمد أبي بكر بن عبد المحجوب، من الطائف، انتقل إلى مصر، ثم إلى السودان، واستقر في «الختمية» جنوب «كسلا»، ومات فيها سنة ١٢٦٨هـ، وهو من تلاميذ أحمد بن إدريس.

المهدية: نسبة إلى «المهدي المنتظر» محمد بن أحمد بن عبد الله، من السودان، تلقب بالمهدي المنتظر سنة ١٢٩٨هـ، واستطاع السيطرة على السودان، توفي بالوباء سنة ١٣٠٢، ويعرف أتباعه أيضاً بالدراويش، وقد أخذت في فترة ما شكل الحزب السياسي، وهي غير المهدوية الهندية المار ذكرها.

اليَشْرطية: أسسها علي اليشرطي، مغربي هاجر إلى عكا في فلسطين ومات فيها سنة ١٣١٦هـ، وهي فرع من الشاذلية، ويتحدث الناس عن منكر فيها يسمونه «التنوير» وقد انتسب إليها السلطان عبد الحميد قبل انهياره بمدة وجيزة، على يد محمود أبي الشامات (دمشقي).

المدانية: نسبة إلى محمد المداني القصيبي التونسي، من أحياء العقود الوسطى من القرن الرابع عشر الهجري، وهي منتشرة في تونس وما حولها، وهناك من يتهم المداني بالتعامل مع الاستعمار الفرنسي.

الكَسْنْـزانيـة: نسبة إلى عبد الكريم الكسنزاني، عراقي، لعل وفاته كانت بعد عام ١٣٦٠هـ، وهي موجودة في العراق ولعلها فرع من القادرية.

البـريلويـة: نسبـة إلى أحمـد رضـا البـريلوي، من مدينـة بريـلي في الهند في ولاية أتَـرْبْـراديش، كان يلقب نفسـه «عبـد المصطفى»، ويدعوه أتباعه دائماً «حضرة الأعلى» وكـان شديـد سواد اللون، والبريلوية منتشرة في شبه القارة الهندية، والتشيع والانحراف واضحان فيها. مات حضرة الأعلى سنة ١٣٤٠هـ، وكان تخرجه في القادرية.

العلاوية: نسبة إلى أحمد بن مصطفى العلاوي من مستغانم في الجزائر، مات فيها سنة ١٣٥٣هـ.

الحصافية: نسبة إلى حسنين الحصافي، مصري، من أهل النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، وهي فرع من الشاذلية.

المريدية: منتشرة في السنغال، مؤسسها «أحمد بنب»، سنغالي من أحياء عام ١٩٢٦م.

الفيضيـة: شيخهـا محمـود أبـو الفيض المنوفي، مصري، أسس في عام ١٩٢٧م في القاهرة الكلية الصوفية التي بقيت حتى عام ١٩٣٣م. ولعله لا يزال حيًّا حتى كتابة هذه الكلمات؟ وهي فرع من الشاذلية.

الخليليـة: نسبـة إلى الحـاج محمد أبي خليل، من الزقازيق في مصر، توفي بعد سنة ١٩٤٠م، وهي فرع من الأحمدية.

الخَتميـة: فرع من الميـرغنية، شيخها محمد سر الختم الميرغني من أحياء ١٩٦٨م، منتشرة في السودان.

النُـورْسيـة: نسبـة إلى سعيد النورسي، أبرز المشايخ الذين لم يتعرضوا للتصفية في زمن مصطفى كمال، منتشرة في تركيا.

- إلى جانب هذه الطرق، طرق أخرى يسر الله سبحانه معرفة أسماء مؤسسيها، ولم يتهيأ لي معرفة أزمنتهم وأمكنتهم، وهي:

الجَهْـريـة: مؤسسـها الخواجة أحمد السيوري!! منتشرة بين مسلمي الصين، حيث

يجعلون مؤسسها الأول عمر بن الخطاب، وينسبونها في الوقت ذاته إلى «ما هولونج»، لعله من أحياء أوائل القرن العشرين الميلادي.

البرهانية: نسبة إلى الشيخ برهان؟ منتشرة في السودان ومصر، ويجب ألا نخلطها مع البرهانية الغزالية.

المشارعة: نسبة إلى أحمد بن موسى المشْرع اليمني؟

الخشنية: نسبة إلى قطب الدين الخشني؟ وأظنها تصحيفاً من «الجشتية».

النورية: نسبة إلى نور الدين الإسفراييني، وهي غير النورية القديمة المنسوبة لأبي الحسين النوري.

الوفائية: نسبة إلى أبي الوفا لعله العراقي «تاج العارفين» من أهل النصف الأول من القرن السادس؟ إن كان ذلك فهي فرع من الصديقية، وهي غير الوفائية المنسوبة إلى محمد وفا الشاذلي المصري.

العِشْقية: نسبة إلى أبي يزيد العشقي؟ لعلها أصل للشطارية، أو لعلها فرع منها.

الغوثية: نسبة إلى غوث الله؟

العمرية: لعلها نسبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه! وأول من دخل بالخرقة العمرية إلى الشام هو عقيل المنبجي، ويسمونه «الطيار»، لأنه انتقل من قريته في المشرق إلى منبج في شمال الشام طائراً في الهواء. ولعل وجوده في منبج كان في العقود الوسطى من القرن السادس الهجري.

الهوازنية: أظنها نسبة إلى عبد الكريم بن هوازن؟ فإن كان ذلك فهي «القشيرية».

العفيفية: شيخها عفيفي أحمد الساكت، مصري، من أحياء ١٩٦٨م، وهي فرع من طريقة تسمى الهاشمية، وهي غير العفيفية الشاذلية.

القادرية: شيخها عبد القادر القادري، مصري، وهي فرع من طريقة اسمها «القاسمية»، وغير القادرية الجيلانية.

الصاوية: لعلها نسبة إلى أحمد الصاوي، فتكون فرعاً من الخلوتية.

الدمرداشية: لعلها نسبة إلى عبد الرحيم مصطفى الدمرداش، مصري، قريب العهد.

العزازية: شيخها إبراهيم العزاوي، (ولعلها العزاوية)، مصري من أحياء ١٩٦٨م.

الحبيبية: شيخها محمد عبد الباقي الحبيبي، مصري، من أحياء ١٩٦٨م.

المغازية: شيخها أحمد أبو الفتح المغازي، مصري، من أحياء ١٩٦٨م.

الخضيرية: شيخها محمد نور الخضيري، مصري من أحياء ١٩٦٨م.

المروانية: شيخها محمد يوسف مروان، مصري، من أحياء ١٩٦٨م.

الطرق الست الأخيرة، ليس من الضروري أن يكون مؤسسوها هم المشايخ المذكورة أسماؤهم، فقد يكون بعضهم، أو كلهم، ورثوا مشيختها عن آبائهم أو أجدادهم.

أهل الحق: طريقة متفرعة عن الصفوية، وفيها غلوها، منتشرة في القرى العراقية والإيرانية الواقعة بين السليمانية وخانقين، وهي الآن أقرب إلى أن تكون فرقة دينية.

وطرق متفرعة عن الجشتية منتشرة في الهند وفي غيرها (أجهل عصر مؤسسيها):

النظامية: نسبة إلى نظام الدين البدايوني، وهي فرع من الجشتية.

الصابرية: نسبة إلى علاء الدين بن أحمد الصابر، وهي فرع من الجشتية من أهل الوحدة المطلقة.

الكَيسودرازية: منسوبة إلى السيد محمد بن يوسف الحسيني الدهلوي المدفون بكَلبركَة، وهي فرع من النظامية.

الحسامية: شيخها الشيخ حسام الدين المانكپوري، وهي فرع من النظامية أيضاً.

الصفوية الميناتية: شيخها صفي الدين الساثنيوري وهي فرع من النظامية أيضاً.

الفخرية: شيخها مولانا فخر الدين الدهلوي، وهي فرع من النظامية.

وطرق متفرعة عن النقشبندية ومنتشرة في الهند وفي غيرها، أجهل عصر مؤسسيها:

الباقيّة: شيخها رضي الدين أبي المؤيد عبد الباقي بن عبد السلام النقشبندي الدهلوي وقد تفرعت عنها المجددية المار ذكرها، ومنها تشعبت الطرق التالية:

الزبيرية: شيخها زبير بن أبي العلا بن محمد نقشبند، فرع من المجددية.

المظهرية: للشيخ شمس الدين حبيب الله جانجانان العلوي الدهلوي، فرع من المجددية.

الأحسنية: شيخها آدم بن إسماعيل البِنّوري، وهي فرع من الباقيّة، والولي اللاهية والمحمدية الأحسنية فرعان منها.

العَلَمية: للشيخ علم الله بن فضيل البريلوي، فرع من الأحسنية.

وطرق متفرعة عن النقشبندية الممزوجة بالجشتية، منتشرة في الهند

العلائية: للأمير أبي العلاء بن أبي الوفاء الحسيني النقشبندي الأكبرآبادي، وهي مزج للطريقة النقشبندية ببعض أشغال الطريقة الجشتية.

المحمدية العلائية: شيخها محمد بن أبي سعيد الكالْبوي، فرع من العلائية.

المنعمية: للشيخ منعم بن عبد الكريم البهاري، فرع من العلائية.

الأفضلية: للشيخ محمد أفضل بن عبد الرحمن العباسي الإله آبادي، فرع من العلائية.

وطرق متفرعة عن الكبروية منتشرة في الهند.

اليعقوبية: للشيخ يعقوب بن الحسن الصرفي الكشميري، وهي فرع من الهمدانية التي مر ذكرها والتي هي بدورها فرع من الكبروية.

الفردوسية: شيخها الإمام شرف الدين أحمد بن يحيى المَنيري، تخرج في الكبروية.

وطرق متفرعة عن الشاذلية، يمكن أن يكون مؤسسوها آباءً أو أجداداً للمشايخ

المذكورين وكلهم مصريون من أحياء ١٩٦٨م.

القاوقجية: شيخها محمد رضا أبو الفتح القاوقجي.

الجوهرية: شيخها رفعت الجوهري.

المحمدية الشاذلية: شيخها محمد زكي إبراهيم، ويجب ألا نخلطها مع الطرق المحمدية الأخرى.

الإدريسية: شيخها الحسن الإدريسي، وهي غير الإدريسية التي تفرعت عنها الرشيدية.

العفيفية: شيخها محمد عبد الباقي العفيفي، وهي غير العفيفية الهاشمية، وكلتاهما منتشرتان في مصر.

العزمية: شيخها أحمد ماضي أبو العزائم، منتشرة في مصر، ويوجد في سورية أيضا طريقة «العزمية» ولا أعرف إن كانت نفس هذه الطريقة المتفرعة عن الشاذلية، أم غيرها؟.

العَروسية: لعلها نسبة إلى مصطفى العروسي، شيخ الجامع الأزهر بين عامي ١٨٦٠ - ١٨٧٠م.

الناصرية، القاسمية، السالمية، الهاشمية المدنية، الحامدية.

وطرق أخرى متفرعة عن الأحمدية (السطوحية)، مشايخها المذكورون مصريون من أحياء ١٩٦٨م، ويمكن أن يكونوا ورثوا المشيخة عن آبائهم أو أجدادهم.

المنايفة: نسبة إلى عبد الله فؤاد المنوفي.

الفرغَلية: نسبة إلى أحمد صبري الفرغلي.

الشعيبية: نسبة إلى محمد حسن الشعيبي.

الشناوية: نسبة إلى حسن محمد سعيد الشناوي.

السالمية: وهي غير السالمية الشاذلية، وهما غير السالمية القديمة التي تخرج بها أبو

طالب المكي .

الكناسية ، الزاهدية ، الإمبابية ، المرازقة ، الحلبية ، التسقائية ، البيومية .

وطرق متفرعة عن الخلوتية (ولها نفس الملاحظات على سابقتها) .

المصلحية : شيخها عبد العزيز المصيلحي .

المسلمية : شيخها محمد حسن المسلمي ، وهي غير المسلمية التي مرت قبل صفحات .

العلوانية : شيخها محمد محمود علوان .

الشبراوية : شيخها مصطفى عبد الخالق الشبراوي .

الطيفية : شيخها أحمد محمد طيف .

الغُنَيْميَّة : كنية مؤسسها «الغُنيمي» ، لا أعرف اسمه ، لكن له ذرية من أحفاده هاجروا إلى دمشق ، وقد هداهم الله له المنة ، فنبذوا باطل الصوفية ، وصار منهم دعاة إلى الحق والهدى .

البهوتية : فرع من الخلوتية .

وطرق متفرعة عن البرهامية (ولها نفس الملاحظات على سابقاتها) :

الشهاوية : شيخها أبو المجد الشهاوي .

الزنُوبية : فرع من البرهامية .

وطرق لم أستطع العثور على أكثر من أسمائها (إلا الشيء القليل) :

الخاكْسارية : فرع من النعمتللاهية ، منتشرة بين الشيعة في إيران والهند .

المغربية : لعلها فرع من الرحمانية المغربية (الخلوتية) ، ولعلها هي نفسها؟

الخوْفية (أو الخفية) : أتباعها لا يجهرون بأذكارهم (الجالسة الصامتة) ، منتشرة بين مسلمي الصين ، وينسبونها هناك إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

البكرية : لعلها نسبة إلى أبي بكر بن هواري ، فتكون هي «الصديقية» .

الدرويشية: منتشرة في شمال إفريقية، ولعلها المهدية.

التسعينية: منتشرة في السودان.

البرهومية: منتشرة في السودان ومصر.

النُورانية: منتشرة في الهند.

الغُرابية: وهي غير الغرابية، الفرقة الشيعية التي ذابت فيها بعد في المتاولة.

الدندراوية: منتشرة في العراق.

الديوبندية: نسبة إلى مدينة ديوبند في الهند.

القاسمية: هي غير القاسمية الشاذلية، وكلتاهما منتشرتان في مصر، ومنها تفرعت القادرية (غير الجيلانية).

الهاشمية: منها تفرعت العفيفية ولا أعرف إن كانت هي نفس الهاشمية المدنية، منتشرة في مصر.

الأحمدية الكتانية: منتشرة في المغرب.

الشيبانية: فرع من التغلبية الآتي ذكرها.

العزمية: منتشرة في سورية، ولا أعرف إن كانت هي نفس «العزمية الشاذلية» أم غيرها.

الكاكائية: منتشرة بين الأكراد في شمال العراق، ولعلها نسبة إلى اسم قبيلة، أو بمعنى «الأخوية».

الإبراهيمية: منتشرة في الأكراد شمال العراق، وهي الآن أقرب إلى أن تكون فرقة دينية، ومثلها: الشّبَك، والماولية، والباجوان، وكلها منبثقة عن تفاعل بين البكطاشية والقيزلباشية.

الجنابذية: منتشرة في إيران، ولعلها حديثة العهد.

الكونابادية، الصفائية، الأوجاغية: هذه الطرق الثلاث موجودة في شمال إيران

الغربي وشمال العراق وفي الأناضول الشرقي .

السعيدية ، التغلبية ، الخواطرية ، الحيدرية ، الخزنوية ، اليسوية .

كما يتحدثون عن الطريقة «المحمدية» وهي أن محمداً ﷺ يأتي بذاته ويلقنها للشيخ العارف ، في اليقظة لا في المنام (أي يلقنه أورادها) ، وطبعاً يرونه بالكشف .

وممن قالوا عن أنفسهم إنهم على الطريقة المحمدية : محمد الخلوتي ، عبد الغني النابلسي الذي صنف فيها كتاب «شرح الطريقة المحمدية» ، أحمد بن إدريس ، أحمد التجاني ، وطبعاً هناك غيرهم .

هذا ما يسره الله له الحمد ، مع العلم أن بعض هذه الطرق اندثرت أوذابت في طرق نشأت على أنقاضها ، وبدهي أن طرقاً كثيرة غيرها وجدت ولم يتهيأ لي الوقوف عليها ، وخاصة ما كان في إندونيسيا ، وماليزيا ، وسريلانكا ، وإفريقيا الوسطى والجنوبية ، وفي روسيا .

وأذكر هنا أيضاً ، أن هذه ليست طرقاً بالمعنى الصحيح ، إنما هي تبعيات لمشايخ فقط ، لذلك كان الصحيح أن تسمى الواحدة منها «المشيخة» ، فيقال : المشيخة الرفاعية ، والمشيخة القادرية ، والمشيخة النقشبندية ، والمشيخة السهروردية ، والمشيخة البرهامية ، والمشيخة الأحمدية ، والمشيخة الشاذلية ، والمشيخة الخلوتية . . . إلخ .

وفي إيران يستعملون غالباً كلمة «مكتب» ، أي : مدرسة ، بدلاً من كلمة «طريقة» .

وهناك ملاحظة هامة جدًا ، وهي أن أكثر مؤسسي الطرق يجعلون نسبهم متصلاً بفاطمة الزهراء ، ولهم في معرفة ذلك طريقان : الكشف والادعاء الجريء ، والذين لا يفعلون ذلك قليلون بينهم .

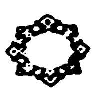
كما يلاحظ أن هناك مركزين رئيسين كانت تنشأ فيهما الطرق الصوفية ثم تنتشر منهما في بقية البلاد .

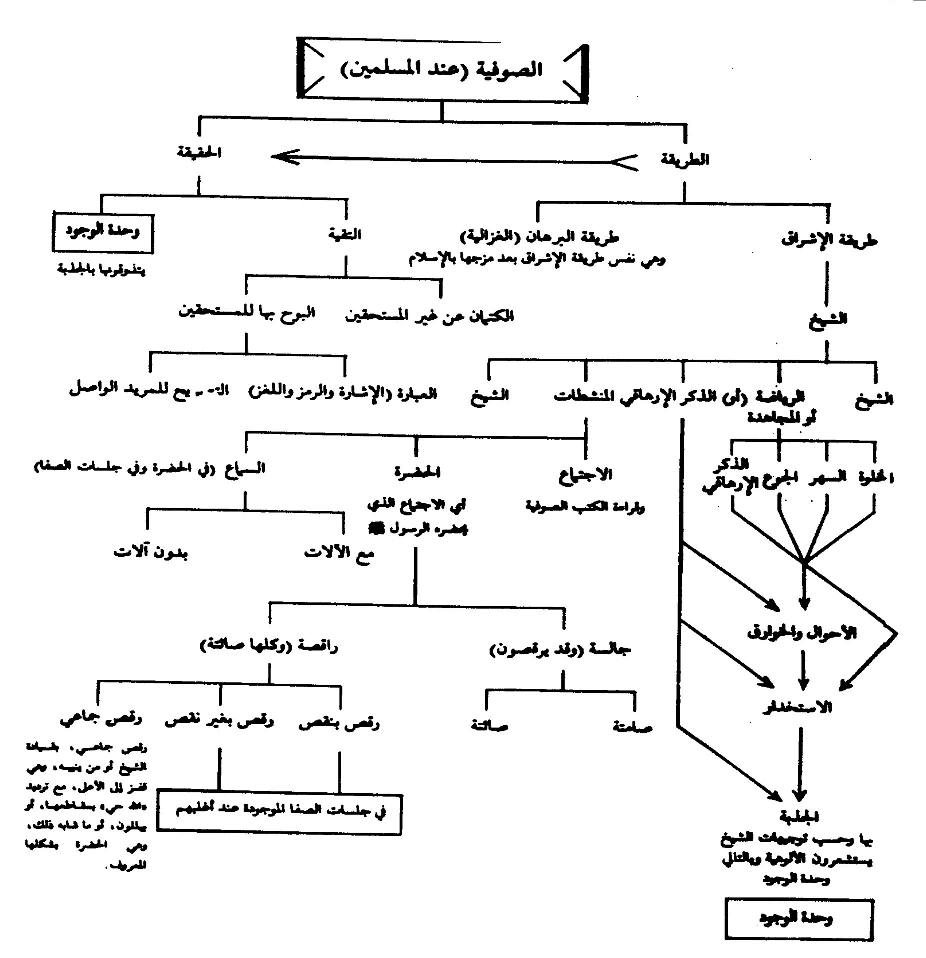
أ ـ مصر : وتأتي في الدرجة الأولى من حيث الكمية ، وفي المرحلة الثانية تاريخيًا ، مع ملاحظة أن عدداً مرموقاً من مشايخها وفدوا إليها من المغرب .

ب ـ العراق: وتأتي في الدرجة الثانية من حيث الكمية، وفي المرحلة الأولى تاريخيًّا، مع ملاحظة أن عدداً مرموقاً من مشايخها وفدوا إليها من فارس.

وطبعاً؛ سيل الطرق لا ينقطع، ففي كل يوم جديد.

وقد ظهرت مؤخراً طريقة جديدة في مصر اسمها «العصبة الهاشمية والسدنة العلوية والساسة الحسينية الحسنية»، يقودها رجل من صعيد مصر يسميه أتباعه «الإمام العربي»، وهو يعتزل الناس في صومعة، ويمرون عليه صفوفاً يسلمون عليه ويحدثونه ويمنحهم البركات ويكشف لهم المخبوء، كل هذا من وراء ستار، فهم يسمعون صوته ولا يرون شكله، إلا المقربون.

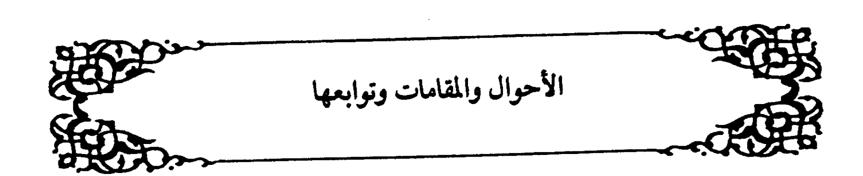




أما المقامات ؛ فلعل أفضل مكان توضع فيه هو لافتات دعائية تنصب على قارعات الطرق، ويوضع إلى جانبها عباراتهم التي وضعوها كتعاريف للصوفية .

مع ملاحظة هامة ؛ وهي أن الذكر الإرهاقي عند متصوفة المسلمين هو الأساس، وقد يغني عن الرياضة .

الباب الثالث: الوصول



الأحوال والمقامات وتوابعها

تتردد في أقوالهم وكتبهم كلمات «الوصول والواصل والواصلون»، فما هو الوصول؟

يبدأ الوصول عادة بخرق العادة، ثم الجذبة، ثم المناظر الجذبية التي يسمونها الكشف، وقد يصل بعضهم إلى الجذبة بدون المرور بخرق العادة.

ولكنهم، في افتراءاتهم، يدّعون أمام أهل الظاهر (أهل الشريعة) أن غاية التصوف هو الوصول إلى ما يسمونه «المقامات» وكثيراً ما يؤكدون هذا في كتبهم، حتى خُدع بذلك المخدوعون، بل وخُدع به بعضهم، فأخذوا يمارسون وسائل شتى، ليتحققوا بما يتوهمونه من مقامات، فما هي هذه المقامات، وما هي الأحوال؟

التعريف نأخذه من كتاب «تربيتنا الروحية» لسعيد حوى، وهو التعريف الذي استقر عليه أكثر الصوفية منذ مئات السنين، يقول:

«يتحدث الصوفية عن شيء اسمُه «حال»، وعن شيء اسمه «مقام» ويعتبرون الحال هو مقدمة المقام، فمثلاً أول ما يبدأ الإنسان يشتغل بالذكر، يصل إلى طمأنينة مؤقتة للقلب لا تلبث أن تزول، فهذا حال، فإذا تابع الإنسان الذكر وصل إلى طمأنينة دائمة للقلب، فهذا مقام...»[1].

---

(١) تربيتنا الروحية، ص١٩١.

إذن . .

الحال: هو ما يرد على القلب فجأة ودون تعمد، ثم يزول بسرعة، وهو أوائل المقام.

المقام: هو استمرار الحال واستقراره ودوامه بحيث يصبح صفة دائمة لصاحبه.

وهم يختلفون في المقامات ـ نوعها وعددها ـ اختلافاً كبيراً!

فهي عند الطوسي في «لمعه» سبعة: التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا الذي هو آخر المقامات[1].

وهي عند أبي طالب المكي في «قوت القلوب» تسعة: التوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة[2].

وهي عند أبي بكر الكلاباذي في «التعرف لمذهب أهل التصوف» غامضة، فهو يذكر المقام ويُعرِّفه تعريفاً ينقصه الوضوح: «لكل مقام بدءٌ ونهاية، وبينهما أحوالٌ متفاوتة، ولكل مقامٍ علمٌ، وإلى كل حال إشارة، ومع كل مقامٍ إثباتٌ ونفي . . .»، حيث نرى أنه لم يكن للحال والمقام معنى واضح عنده، كما أنه يأتي بمَثَلٍ على المقام «الإيمان والأمانة»، ولم أرهما عند غيره، إلا مقام الإيمان عند السهروردي.

وبعد صفحات يفتح الكلاباذي أبواباً للتوبة والزهد والصبر والفقر والتواضع والخوف والتقوى والإخلاص والشكر والتوكل والرضا واليقين والذكر والأنس والقرب والاتصال والمحبة، وعددها سبعة عشر، لكنه لم يُسمِّها «مقامات»، وإنما جعل لكل منها باباً مثل بقية أبواب الكتاب، وعليه نستطيع أن نقرر أن المقامات لم تكن واضحة المدلول عند الكلاباذي! ولم يكن يَعْرف ما هي!

والمقامات عند القشيري في «رسالته» غير واضحة كذلك، فبالرغم من أن تعريفه للمقام فيه شيء من الوضوح، لكن ماهية المقامات غير واضحة! فهو يورد أمثلة على النحو التالي: «مَنْ لا قناعة له لا يصحّ له التوكل، ومن لا توكل له لا يصحّ له التسليم،

---

(1) اللمع، ص٦٨ ـ ٨٠.

(2) قوت القلوب: ١ / ١٧٨.

وكذلك من لا توبة له لا تصحّ له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصحّ له الزهد . .»[1].

من هذا النص نستطيع أن نقول: إن المقامات عند القشيري هي: القناعة، والتوكل، والتسليم، والتوبة، والإنابة، والورع، والزهد.

على أنه بعد صفحات، يورد أبواباً مثل بقية أبواب الكتاب للتوبة، والمجاهدة، (والخلوة والعزلة)، والتقوى، والورع، والزهد، (والصمت) والخوف، والرجاء، والحزن، (والجوع وترك الشهوة)، والخشوع، والتواضع، ومخالفة النفس، (والحسد والغيبة)، والقناعة، والتوكل، والشكر، واليقين، والصبر، والمراقبة، والرضا، والعبودية، والإرادة، والاستقامة، والإخلاص، والصدق، والحياء، (والحرية والذكر والفتوة)، وعددها ثلاثون.

ويقول عن التوبة (في باب التوبة): إنها أول المقامات، كما يخلط معها «الحسد والغيبة»، وفي هذا الكثير من الغرابة.

أما الغزالي في إحيائه، فالمقامات عنده مثيرة للاستنكار والتساؤلات!!

فهو يُقسِّم إحياءه إلى أربعة أقسام (أو أرباع)، فيجعل الربع الأول للعبادات، ويجعل الربع الرابع (الأخير) للمقامات التي يسميها «المنجيات».

ومن هنا ينبعث الاستنكار والتساؤل!!

لأن من بدهيات الإسلام، وما يُعرف من الدين بالضرورة، أن العبادات هي المنجيات، فنسأل هذا الذي سمَّوْه «حجة الإسلام» نسأله: كيف يجعل المنجيات غير العبادات؟! وما هو حكم الإسلام في هذا؟

في واقع الأمر، هذا التقسيم هو عقيدة المتصوفة جميعاً، والدليل على ذلك تقديسهم لكتاب إحياء علوم الدين، وتواصيهم بقراءته وتعلُّمه وتعليمه، حتى قالوا: «بع اللحية واشتر الإحيا»، وتقديسهم لمؤلفه وتعظيمهم له حتى سموه: «حجة الإسلام».

ومقاماته هي. التوبة، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والفقر، والزهد،

---

(١) الرسالة القشيرية، ص٣٢.

والتوحيد، والتوكل، والمحبة، والشوق، والأنس، والرضا، والنية (أو الإرادة)، والإخلاص، والصدق، والمراقبة، والمحاسبة، وعددها ثمانية عشر. هذه هي المنجيات عند حجة الإسلام!! ونعرف أن مثلها موجود في كل الوثنيات.

ننتقل إلى غيره، فنرى ابن سبعين في «بُدّ العارف» يقفز بالرقم عالياً، حيث يقول:

. . . والقسم الأول من القسم الأول[1] من التصوف، هو الذي أدركه رجال «الرسالة القشيرية»، وإليه أشار ابن العريف في «محاسنه»، و«مفاتح المحقق»[2]، وهو مُركّب من طريق وسلوك ووصول وفناء عن الوصول، ولواحقه مائة وخمسون؛ كالصبر، والحلم، والعلم، وغير ذلك يطول ذكره، وهو مقام الغزالي، وجميع من تكلم في التصوف بالعلوم الصناعية، غير أنه لم يحققه على ما يجب[3].

ـ يحق لنا أن نتساءل أمام هذا النص: من أين أتى ابن سبعين بالعدد «مائة وخمسين»؟! لا نعرف. لعله كان عن طريق الكشف!!

على أن الملاحظ أنه لا يهتم (هو نفسه) بالمقامات، بل ويظهر من كلامه أنه ينتقد متصوفة المقامات، ويسمّي تصوفهم «التصوف بالعلوم الصناعية».

ومن الملاحظ أنه لا يجعلها من صميم التصوف، بل يسميها «لواحق».

كما أن من الملاحظ عند ابن سبعين أنه يصبُّ اهتمامه على المجاهدة، وعلى بَدْئها بالاعتقاد بوحدة الوجود، والتركيز عليها، وهذا عكس طريقة رجال «الرسالة القشيرية» الذين يُعَرِّفون السالك بوحدة الوجود بعد الجذبة، أو بعد أن يقطع شوطاً كافياً بالمجاهدة.

والمقامات عند ابن البنا السرقسطي واحد وتسعون مقاماً أو أكثر. يقول:

ألقَوا إليه من صفات النفس	ما كان فيها قبل ذا من لَبْس
وهي إذا أنكرتَها فَلْتعرف	إحدى وتسعين وقيل نيِّف[4]

---

(١) نسبة إلى تقسيم سابق لهذا الكلام.

(٢) كتابان لابن العريف «محاسن المجالس» و«مفاتح المحقق».

(٣) بد العارف، ص١٢٨.

(٤) من قصيدة «المباحث الأصلية».

يعني بقوله: «صفات النفس»، الصفات المذمومة التي يدّعون أنهم يغيرونها بالصفات الحميدة التي هي المقامات، ويقولون: إن كل صفة مذمومة يقابلها صفة محمودة، وبذلك تكون المقامات عند السرقسطي إحدى وتسعين ونيف.

والمقامات عند عمر السهروردي (إمام الوجود)، شيء آخر، يقول: . . . وإني بمبلغ علمي وقدر وسعي وجهدي اعتبرتُ المقامات والأحوال، وثمّرتُها، فرأيتها بجميعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان . . . فصارت مع الإيمان أربعة[1]، وهي: الإيمان، والتوبة، والزهد، والعبودية.

ويضيف: ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى، بها تمامها وقوامها . . . وهي: قلّة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الناس[2]. . . .

نلاحظ في قول السهروردي البغدادي ما يلي:

١ - احتاجت المقامات والأحوال منه أن يبذل وسعه وجهده، بمبلغ علمه، ليعتبرها ويثمرها، وهذا يعني بوضوح أنها مطموسة المعالم، ومجهولة الآثار، لذلك احتاجت منه هذا الجهد ليعتبرها.

٢ - لم يُفرِّق بين المقامات والأحوال، بل يظهر من قوله أنها عنده شيء واحد.

٣ - جعل الإيمان مقاماً، ولم أر أحداً شاركه هذه النظرة غير الكلاباذي.

٤ - جعل قلّة الكلام وقلّة الطعام وقلّة المنام والاعتزال عن الناس مقامات! ولعل القارىء انتبه إلى أن هذه الأربعة هي عناصر الرياضة الصوفية: «الصمت والجوع والسهر والخلوة»، أي إن السهروردي جعل عناصر الرياضة الصوفية من المقامات! ولعله ينفرد بهذه النظرة.

- وعند ابن عجيبة هي: المحاسبة والمراقبة والمشاهدة والتحقق بالفناء والبقاء وعين اليقين وحق اليقين، وكذلك التوبة والورع والزهد والتوكل والرضى والتسليم، فيكون عددها ثلاثة عشر مقاماً.

---

(١) عوارف المعارف في هامش الإحياء: ٤ / ٢٦١. (٢) عوارف المعارف: ٤ / ٢٦٢.

ـ وفي كتاب «الصوفية بين الأمس واليوم» يورد مؤلفه قولاً لأبي سعيد بن أبي الخير يجعل المقامات أربعين: النية والإنابة . . . وآخرها التحقيق، ثم النهاية ثم التصوف. حيث نرى فيها مقامات يكاد ينفرد بها مثل: «مقام الجهد، والولاية، والوجد، والوصال، والكشف، والخدمة، والتفكر، والتجريد، والتفريد، والانبساط» كما نراه يخلط ما قبل الجذبة بما بعدها، بينما أكثر الآخرين يجعلون المقامات في الطريق إلى الجذبة (أي قبلها).

ـ بينما نرى عبد الحليم محمود في كتابه «أبو مدين الغوث» يجعل المقامات خمسة فقط: التوبة والورع والزهد والمحاسبة والمراقبة.

وفي الطريقة القادرية يجعلون المقامات سبعة تختلف عما رأيناه، وهي: النفس الأمارة والنفس اللوامة والنفس الملهمة والنفس المطمئنة والنفس الراضية والنفس المرضية والنفس الكاملة[1].

ويجعلون الأحوال صفات للمقامات: فالنفس الأمارة حالها الميل، واللوامة حالها المحبة، والملهمة حالها العشق، والمطمئنة حالها الوصلة، والراضية حالها الفناء، والمرضية حالها الحيرة، والكاملة حالها البقاء[1].

ـ والمقامات عند عبد القادر عيسى اثنا عشر مقاماً، هي: التوبة، والمحاسبة، والخوف، والرجاء، والصدق، والإخلاص، والصبر، والورع، والزهد، والرضا، والتوكل، والشكر[2]، يذكرها في الصفحة الأولى من الباب الثالث من كتابه.

وبعد خمس صفحات يورد النص الآتي:

قال أبو بكر الكتاني وأبو الحسن الرملي رحمهما الله تعالى: سألنا أبا سعيد الخراز، فقلنا: أخبرنا عن أوائل الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: التوبة، وذكر شرائطها، ثم ينقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف، ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء، ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين، ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين، ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين، ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين، ومن مقام المحبين إلى مقام

---

(١) الفيوضات الربانية، ص٣٧.

(٢) حقائق عن التصوف، ص٢٦٩.

المشتاقين، ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء، ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين[1]. . .

أي إن عبد القادر عيسى يثبت أن المقامات الخرازية، وعددها عشرة، تختلف عن مقاماته بالكم وبالكيف.

كما نرى أيضاً أن الخراز يذكر مقامات لم يقل بها الآخرون! فمقامات (الصالحين والمريدين والمطيعين والمحبين والمشتاقين. . .)، ما رأيناها فيما مر معنا من أقوالهم، ولعله ينفرد بها في طريقته؟

- كما يلاحظ أن سعيد حوى أثبت مقاماً واحداً «الطمأنينة»، ولم أجده إلا في القادرية والعيدروسية.

في هذه النصوص كفاية، تجنباً للإطالة، ويتبين منها (ومن غيرها) ما يلي:

١ - يختلفون في تعريف المقام والحال (وخاصة قرونهم الأولى).

٢ - يختلفون في عدد المقامات اختلافاً كبيراً.

٣ - يختلفون في ماهيتها (أي ما هي المقامات؟) اختلافاً مثيراً للانتباه!

٤ - بعضهم لا يهتم بها، كابن سبعين (بل كلهم).

٥ - في واقع الأمر، ليست المقامات من أهداف التصوف، وليس لها دور أو شأن في الوصول إلى الغاية التي هي الجذبة التي يذوقون فيها الألوهية ويستشعرون وحدة الوجود، وأقوالهم في هذا كثيرة جدًّا، رأينا بعضها في فصول سابقة، ونضيف إليها قولاً واحداً - تجنباً للإطالة - لعبد القادر عيسى، يقول:

فالانقطاع في الطريق مصيبة كبرى وخسران مبين، وسببه موافقة السالك لشهوات نفسه، وتطلعه للمقامات والكشوفات، وانحرافه عن مقصده الأسمى، فالسالك الصادق المخلص لا يطلب المقامات ولا يقصد المراتب والكرامات، وإنما هي منازل يقطعها في طريقه إلى الغاية الكبرى دون انحراف أو التفات.

---

(١) حقائق عن التصوف، ص٢٧٤.

وكـل مقـام لا تقـم فيـه إنـه حجـاب فجـدَّ السـير واستنجـد العونا
فلا تلتـفـت في السـير غيراً وكـلُّ ما سوى الله غيرٌ فاتخـذ ذكـرَه حصـنـا
ومـهـما ترى كلَّ المـراتـب تُجتـلى عليـك فحُـلْ عنهـا فعن مثلهـا حُلنـا
وقـل ليس لي في غير ذاتـك مطـلبٌ فلا صورة تجلى ولا طرفـة تجنـى[1]

من كل ما تقدم، نستطيع أن نقرر مطمئنين، أن المقامات هي عناوين بلا مواضيع، أو هي تنطعات دعـائيـة، «من تنطعات ذي النون المصري»، ونرى ما يشبهها في الجينية والهندوكية والبوذية . . .

ومع ذلك فقد خُدع بها بعضهم وظنها واقعية! حيث نرى بعضهم يريد أن يصحح حالَه في التوكل، وآخر في الصبر . . . إلخ، لكن الشيوخ كانوا ينبهونه إلى غلطه.

وعلى كل حال، يجب أن نعـرف أن عنـدهـم مقـاماتٍ حقيقية غير هذه، نعرفها من وصف القوم لأحوالهم ومشاهداتهم، وهي:

١ ـ مقامان هما نتاج الطريقة، أي إن الطريقة (الإشراقية) تؤدي إليهما، وهما:

أ ـ مقام الاستخدار: يفقد فيه السالك القدرة على المحاكمة الصحيحة والفهم المميِّز للأمور والأشياء، ويظهر عليه ما يُشبه الخبال، ويغدو قابلاً للتأثر بالمخدرات المعروفة (الحشيش والأفيـون وزمـرتهـما) بكميـة أقـل من الكميـة التي كان يتأثر بها عندما كان سليماً، وتقـل هذه الكميـة كلما زاد رسـوخُ هذا المقـام في كيـانه، ولذلك كان الاسم «الاستخدار» اسماً مناسباً لهذا المقام.

وفي هذا المقـام يفقـد السـالك أيضاً اهتمامه بأي أمر آخر من أمور الدنيا والآخرة، ولا يبقى في نفسه من شاغل إلا الوصول إلى المقام الثاني (الجذبة).

ب ـ مقـام الجـذبـة: ويسمونها أسماء كثيرة مثل: «الغيبة، والصعقة، والمحو، والفناء عن الخلق . . .»، ويريدون بالاسم «الجذبة» أن الله سبحانه يجذب بها السالك إليه، و«الغيبـة» أي عن الإحسـاس بالمـوجـودات، و«الصعقة» أخذوها من الآية الكريمة

---

(١) حقائق عن التصوف، ص٢٧٧ و ٢٧٨، والأبيات من قصيدة للششتري.

﴿وخرَّ موسى صَعِقاً﴾، ليوهموا أنفسهم ويوهموا الناس أن صعقة موسى صلوات الله عليه هي جذبة مثل جذباتهم، و«المحو» أي عن الشعور والإحساس، وهي تشبه الحالة التي تحصل لمتعاطي المخدرات شبهاً كاملاً، يكون فيها المجذوب نائماً مثل يقظان، أو يقظانَ مثل نائم، أو كما يصفه القشيري: «إذا كان الغالب عليه المحو فلا علم ولا عقل ولا فهم ولا حس»[1].

والجذبة هي الولاية، فكلمة الولي تعني الذي وصل إلى الجذبة، وكلمة الواصل أيضاً تعني الذي وصل إلى الجذبة.

وتبدأ الجذبة بصورة عامة بشكل «حال»، أي تكون سريعة الزوال، بطيئة المنال، ثم مع الدوام على ممارسة الرياضة، تصير «مقاماً»، أي تصير بطيئة الزوال سريعة المنال.

٢ ـ مقامان ناتجان عن توجيهات الشيخ وإيحاءاته، ويختصان بالرؤى الهلوسية (أحلام الجذبة) التي يراها المجذوب، ولولا الشيخ وإيحاءاته لكانت هذه الرؤى مثل رؤى الحشاش والأفيوني تماماً، ولذلك قالوا: «من لا شيخ له فشيخه الشيطان»، وقالوا:

وصحبة شيخ وهي أصل طريقهم ... فما نبتت أرض بغير فلاحة

وهاذان المقامان هما:

أ ـ مقام الجمع، أو الفناء في الله، أو الحضور بالله، أو الوجود، أو الإحسان، أو الحرية (مقابلة مع العبودية)... إلخ. تمتاز أحلام الجذبة، عموماً، بالجرأة البعيدة والقفز فوق الواقع، وتكون متناغمة كلها مع عواطف المجذوب وأمانيه ومعلوماته المختزنة، لذلك يعمل الشيخ على حقنه بعواطف وأماني جديدة تدور كلها حول رؤية الأنبياء والملائكة ثم العروج إلى الله (جل وعلا)، ثم الفناء فيه، أي: التحقق بالألوهية، وهو مقام الجمع الذي تبدأ رؤاه بشكل «حال»، ثم تتطور حتى تصير «مقاماً»، وتعني كلمة «الجمع» أي جمع الخالق والمخلوق في وحدة واحدة.

وفي هذا المقام تنطلق العبارات المخيفة مثل: «أنا الله، سبحاني، لا إله إلا أنا...»،

---

(١) الرسالة القشيرية، ص٣٥.

وما شابهها، وهي عبارات تقود قائلها إلى سيف الردّة وتدفع المسلمين للانتفاض على الصوفية والقضاء عليها مهما كانت غفلتهم، لذلك يعمل الشيخ على إيصال المجذوب إلى مقام البقاء.

ب ـ مقام البقاء، أو صحو الجمع، أو الفرق الثاني، أو الفرق في الجمع، أو الجمع في التفرقة، أو الإطلاق، أو العبودة (يجعلون في افتراءاتهم كلمة «عبد» في الآية ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ أنها من العبودة).

يبدأ الشيخ بتدريب المريد على العودة إلى الإحساسات العادية والتمييز، ليعترف أمام الناس بالمخلوقية والعبودية مع تحققه بالألوهية، حيث تتحقق حكمتهم أو قانونهم: «اجعل الفرق في لسانك موجوداً، والجمع في جنانك مشهوداً»، وهم يفترون على الأنبياء أنهم كانوا في هذا المقام، وهو عندهم مقام الكمَّل.

٣ ـ مقام لا علاقة له بالطريقة ولا بالشيخ هو «جمع الجمع» أو «البقاء في الله» وقد يسميه بعضهم «الإطلاق».

وهم يختلفون في تعريفه، فهو عند بعضهم الاستغراق في مقام البقاء، بحيث يصبح الواصل دائم الشعور بالألوهية، وأنه هو الله (جل وعلا)، بكل أسمائه وصفاته، وبنفس الوقت يرى نفسه ويرى الأشياء كما يراها الآخرون.

وهو عند بعضهم الآخر الغيبة الدائمة عن الإحساس، والجذبةُ المستمرةُ ليلاً ونهاراً بحيث يفقد الشعور، ومثل هذا يُهمل كل شيء من أمور الدين وبعضَ أمور الدنيا (مثل أحمد البدوي وغيره). ومنهم من يبقى عرياناً مكشوف العورة أمام الناس، ومنهم من يقبع في مكانٍ ما من الجبال أو البراري فاقد الوعي (وكشف العورة حالةٌ ملازمة). ومنهم من يأتي البهائم في الشوارع أمام الناس، ويؤولون له ذلك بأن سفينة في البحر على وشك الغرق وهو يسندها لينقذها، إلى آخر القائمة التي تحتوي أمثال هؤلاء المخابيل الذين نراهم في الأسواق، وفي مستشفيات المجانين، وفي مخابىء التحشيش.

٤ ـ مقامهم قبل الأخير في الموقف بين يدي الله، ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾.

هذه هي المقامات الحقيقية، ولا شيء غيرها، إلا دجلياتهم.

مع العلم أن أول من تكلم بمقاماتهم الموهومة، ووضع لها بعض الأسماء هو - كما يقولون - ذو النون المصري، ولعله أراد بذلك الدعاية للتصوف، ولعل الجنيد أراد منافسته فسبقه بأشواط.

وهذه بعض أمثلة من بعض ممارساتهم لبعض مقاماتهم التي يتنطعون بأسمائها:

● **من مقام التوبة:**

يقول الغزالي في «كتاب التوبة، وهو الأول من ربع المنجيات»:

. . . وحُكيَ عن أبي عمرو بن علوان، في قصة يطول ذكرها، قال فيها: كنت قائماً ذات يوم أصلي، فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي، حتى تولَّد منه شهوةُ الرجال، فوقعت إلى الأرض، واسودَّ جسدي كله، فاستترت في البيت، فلم أخرج ثلاثة أيام، وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون، فلا يزداد إلا سواداً، حتى انكشف بعد ثلاث، فلقيت الجنيد، وكان قد وجّه إليّ فأشخصني من الرقة، فلما أتيته قال لي: أما استحييت من الله تعالى؟ كنت قائماً بين يديه، فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقَّة، وأخرجتْك مِن بين يدي الله تعالى! فلولا أني دعوتُ الله لك، وتبتُ إليه عنك، للقيت الله بذلك اللون؟ قال: فتعجبت كيف علم بذلك؟ وهو ببغداد وأنا بالرقة[1]! اهـ.

● **الملاحظات:**

- نلاحظ أنه تاب عن غيره، ويكفي لبيان هذا الضلال آيتان من عشرات الآيات والأحاديث: ﴿قلْ إنِّي لا أملِكُ لكم ضرًّا ولا رشداً . قل إنِّي لَن يُجيرَني مِن الله أحدٌ ولَن أجدُ مِن دونه ملتَحَداً﴾.

- ونلاحظ أيضاً أنه جعل سواد الجلد في الدنيا عقوبةً من الله! وهذا جهل بالإسلام، إذ لو كان السواد في الدنيا عقوبة أو سوءاً، لما كان بلال أسود البشرة، كما أن القرآن الكريم يخبرنا أنه ما من أمة إلا وظهر فيها نبي منها ﴿وإنْ من أمةٍ إلا خلا فيها

---

(١) الإحياء: ٤ / ٤٨، ونشر المحاسن الغالية، ص٦٨ وغيرها.

نذيرٌ﴾، و﴿ما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومه﴾، وهذا يعني أن الأمم الزنجية، مثلهم مثل غيرهم، ظهر فيهم أنبياء زنوج، فهل كان هؤلاء الأنبياء مغضوباً عليهم من الله سبحانه بسبب سواد بشرتهم؟!

ـ ثم لنلاحظ الدور الواضح الذي قامت به شياطين الجن في هذه التمثيلية وأمثالها.

ـ هذه صورة من مقاماتهم التي يسميها الغزالي «المنجيات». وصورة أخرى:

● **من مقام التوكل:**

يقول الغزالي إياه، في إحيائه إياه:

. . . قال أبو موسى الديلي: قلت لأبي يزيد: ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت؟ قلت: إن أصحابنا يقولون: لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك، ما تحرك لذلك سرُّك. فقال أبو يزيد: نعم، هذا قريب، ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يُعذَّبون، ثم وقع بك تمييزٌ بينهما، خرجْتَ من جملة التوكل[1]. . . اهـ.

هذه صورة من مقام التوكل عندهم، الذي هو من المنجيات عند الغزالي! ولا أرى حاجة للتعليق عليه، فهو أوضح، بل أقبح، بل أبعد ضلالاً من أن يحتاج إلى تعليق (أهل النار وأهل الجنة سيان!). وصورة ثالثة:

● **من مقامي التوكل والصبر:**

يقول الغزالي نفسه:

. . . والمتوكلون . . على ثلاثة مقامات. الأول: مقام الخوّاص ونظرائه، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد، ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعاً وما فوقه، أو تيسير حشيش له أو قوت، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك[2]. . . اهـ.

ـ لست أدري إلى كم من الصفحات يحتاج التعليق المفصّل على هذه الضلالات،

---

(1) الإحياء: ٤ / ٢٢٧.

(2) الإحياء: ٤ / ٢٣٠.

لكن بإيجاز الدوران في البوادي بغير زاد ليس من الإسلام، وهو بذلك مَوْزور لا مأجور، وإن مات فهو كالمنتحر.

- وهناك ملاحظة يحسن التنويه بها، وهي ادعاؤهم أن المقامات هي من السلوك ومن الطريقة، ويدَّعون أن الشيخ يُسَلِّك مريدَه في المقامات حتى إذا تحقَّق بمقام نقله إلى مقام أعلى . . . وطبعاً؛ هذا أسلوب في الدعاية ناجح.

● **قصة للتسلية:**

يورد الغزالي في الإحياء:

. . . فإذا ضيَّع جميعَ عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعَّم بالقرب؟ ولذلك كان الخوّاص يدور في البوادي، فلقيه الحسين بن منصور (الحلاج)، وقال: فيم أنت؟ قال: أدور في البوادي أُصْلِحُ حالي في التوكل، فقال الحسين: «أفنيتَ عمرك في عمران باطنك! فأين الفناء في التوحيد؟!»، فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين[1]. . أهـ.

- هذه القصة تتكرر في كتبهم، ونستفيد منها ما يلي:

١ - كان الخوّاص من الذين يظنُّون أن المقامات واقعية، ذات وجودٍ في الطريق، لذلك كان يريد إصلاح حاله في التوكل حتى يصير هذا الحال مقاماً عنده.

٢ - نبَّهه الحلاج إلى أن هذا ليس هدفاً، والهدف هو الفناء في التوحيد (ونعرف الآن ما معنى الفناء في التوحيد).

٣ - يقرر «حجة الإسلام» أن الفناء في الواحد الحق (أي استشعار وحدة الوجود باستشعار الألوهية) هو غاية مقصد الطالبين . . . وهذا يعني أن المقامات ليست هناك.

٤ - يستشهد الغزالي بالحلاج، ويأخذ عنه الحكم والحكمة (في عدة مواضع من الإحياء)، وهذا يدل على أنه مُزكًّى عنده، وأنه يدين بما كان يدين به، وكل الصوفية مثله.

---

(١) الإحياء: ٤ / ٣٦٨.

□ خرق العادة :

في غالب الأحيان، وبعد ممارسة طويلة (وقد تقصر في النادر) لما رأيناه من الرياضة الصوفية، يحدث للسالك، أو أمامه، أمور غير عادية لا يُعرف لها سبب، هي «خوارق العادة» التي يُصرُّ المتصوفة إصراراً عجيباً على تسميتها «الكرامات» حتى جعلوا التصديق بها عقيدة لا يكمل إيمانهم إلا بها :

وأثبِتَنْ للأوليا الكرامة ومَن نفاها فانبِذَنْ كلامه

مع العلم أن الهندوس والطاويين. . . والكهان في الملل الوثنية، والسحرة الحقيقيين، يفعلون مثلها، وأكثر منها، بل المتصوفة أنفسهم، تكون سرعتهم في الوصول إليها على قدر غلوهم في الشرك بالله في شيخهم.

وفي ما يأتي سنرى نماذج كثيرة من «كراماتهم» هذه، وسنرى أنها ليست كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية، يستدرج بها شياطين الجن هؤلاء القوم إلى شباكهم، فيصيدونهم، ثم يجعلون منهم «دودة الفخ» ليصيدوا بهم.

وهم دائماً يتواصون فيما بينهم، ويوصون مريديهم، ألا يلتفتوا إلى الكرامات لأنها تَشغَلُهم عن الوصول إلى التحقق بالألوهية (أي مشاهدة السالك أنه هو الله). ومن أقوالهم في ذلك :

«اعلم أن المريد الصادق إذا اشتغل بالذكر على وجه الإخلاص، يظهر عليه أحوال عجيبة وخوارق غريبة، وهي ثمرات أعماله من فضل الله تعالى عليه، إما تطميناً لقلبه وتأنيساً، وإما ابتلاءً من الله تعالى وامتحاناً له، فالواجب عليه ألا يلتفت إليها ولا يغتر بها، لئلا ينقطع بها عن مقصوده، ولهذا قال العارفون بالله تعالى : أكثر من انقطع من

المـريـدين بسبب وقوعهم في الكرامات[1]. . . . بل الكرامة العظمى الوقوف على حدود الشريعة الغرّاء، واتباع السنّة الواضحة البيضاء.

ـ أقـول: هذه الجملة الأخـيرة هي مغـالطة يردّدونها بحسن نية، وذلك أن الإشراق (الـذي هو الصـوفيـة) يبقى ضلالاً وزنـدقة ولو مُزِجَ بالوقوف على حدود الشريعة الغراء واتّباع السنّة الواضحة البيضاء.

وخـوارق العـادة ـ في الـواقع ـ متنوعة، لكن لا تحدث كلها لأي واحد منهم، بل قد يحدث بعضها لبعضهم، ويلاحَظ أنها ـ كلها ـ مما يقوم به شياطين الجن استدراجاً وجرًّا لهم إلى وهدة الضلال والإضلال.

والخـوارق التي يقـوم بها متصـوفـة الهنـدوس وغـيرهم أكثر تنوعاً وأعجب مما يقوم به متصـوفـة المسلمين، فقـد يطـير ون في الهـواء، ويمشون على الماء، ويدخلون في النار، ويرفع أحدهم يده في الظلام فيخرج منها نورٌ يضيء الغابة وغيرها، وضرب الشيش هو أشهر خوارق متصوفة المسلمين، وهو موجود في الطريقة الرفاعية والجزولية. . .

وأكرّر القول إنها كلها مما يستطيع شياطين الجن تمثيلها أمام أوليائهم.

أمـا المشـاهـد الضخمـة ذات الأبعـاد الـواسعـة التي تتجاوز حجوم الجن وقدراتهم الطبيعيـة، كقطـع الأرض بخطوة أو خطوات، والصعود فوق جبل قاف، ورؤ ية النفس أطـول من السـماوات، أو العـروج إليهـا، ورؤ يـة الله (جـل الله وعـلا)، والفنـاء فيه، واستشعـار الألـوهية (سبحان الله عما يصفون)، وذوق معانيها، فهذا بحاجة إلى الجذبة وأوهامها، وتشويهها لوظائف الدماغ الطبيعية التي طبعها الله عليها.

والجذبة هي الوصول، أو هي أول الوصول.

وهي الفتـوح، وعنـدمـا نسمـع من يدعو لآخر بقوله: «الله يفتح عليك» فعلينا من الآن فصاعداً أن نعرف أن معناها: «أوصلك الله إلى الجذبة».

فما هي الجذبة؟

---

(١) السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية، ص٣٧.

□ الجذبة :

وأخيراً، وبعد أن اجتزنا الطريق، فإلى أين نصل؟ وإلى أين تقود الطريقة؟

إن الطريقة كلها، بشركها ووثنيتها ونَصَبها وخلوتها وسهرها وجوعها هي من أجل الوصول إلى الجذبة ورؤاها.

والجذبة أو الصعقة أو الغيبة أو المحو أو السكر، هي حالة نفسية يَفْقِد بها المجذوب إحساسه بما حوله وبالواقع، ويرى فيها ويسمع ويحسُّ رؤى وأصواتاً وإحساساتٍ غريبة ومتنوعة، وهي تشبه حالة الغيبة التي تصيب متعاطي المخدرات شبهاً تامًّا مظهراً ومخبراً ورؤى وإحساسات.

وعندما يصل سالكهم إلى الجذبة يصبح وليًّا! فكلمة الولي تعني أنه وصل إلى الجذبة ليس غير، وهي التي يسمونها الفتح، أو خرق الحُجب، والكشف هو ما يرونه ويسمعونه فيها.

وهي الهدف الذي يسعون إليه، ويتوهمون أن الله سبحانه يجذبهم بها إليه، وهذه بعض أقوال لبعض أقطابهم وعارفيهم تدل على ذلك:

يقول شهاب الدين السهروردي البغدادي:

«... وقد ورد: جذبةٌ مِنْ جذبات الحق توازي عمل الثقلين»[1].

ويقول الشيخ حماد بن مسلم الدباس[2]:

---

(١) عوارف المعارف في هامش الإحياء: ٢ / ٩١.

(٢) أحد العلماء الراسخين في علوم الحقائق، صحب الشيخ عبد القادر الجيلاني، وانتمى إليه معظم صوفية بغداد.

«. . . وإن قال لك: اعبدْني، قل: وفقني، وإن قال لك: وحِّدْني، قل: اجذبني»[1].

- لننتبه إلى ربطه التوحيد بالجذبة، ولنتذكر ماذا يعنون بكلمة «التوحيد».

وكان داود الكبير بن ماخلاً يقول:

الحال ما جذبك إلى حضرته، والعِلْمُ ما ردَّك إلى خدمته[2].

ويقول الشيخ بهاء الدين المجذوب[3]:

. . . وذلك أن كل حالة أُخذ العبد عليها، يستمر فيها، ولو خرج عنها يرجع إليها سريعاً، حتى إن من المجاذيب من تراه مقبوضاً على الدوام، لكونه جُذب على حالة قبض؛ ومنهم من تراه مبسوطاً، وهكذا. . وكان الشيخ فرج المجذوب رضي الله عنه لم يزل يقول: «عندك رزقة فيها خراج ودجاج وفلاحون»، لكونه جُذب وقت اشتغاله بذلك؛ وزمنُ المجذوب مِن حين يجذب إلى أن يموت زمنٌ فرد، لا يدري بمرور زمانٍ عليه. ورأيت ابن البجائي رضي الله عنه، لم يزل يقول: «الفاعل مرفوع والمخفوض مجرور، وهكذا»، لأنه جُذب وهو يقرأ في النحو. ورأيت القاضي ابن عبد الكافي رضي الله عنه لما جُذب لم يزل يقول - وهو في بيت الخلاء وغيره -: «ولا حق ولا استحقاق ولا دعوى ولا طلب ولا غير ذلك»[4].

ويقول الشيخ عبد القادر الدشطوطي[5]:

. . . الناس معذورون، يقولون: «عبد القادر ما يصلي»، والله ما أظن أني تركت الصلاة منذ جُذبت، ولكن لنا أماكن نصلي فيها[4]. . . .

ويقول عبد العزيز الدباغ:

---

(1) طبقات الشعراني: ١ / ١٣٥.

(2) طبقات الشعراني: ١ / ١٩٤.

(3) من أكابر العارفين، مات في القاهرة بعد سنة ٩٢٠هـ.

(4) طبقات الشعراني: ٢ / ١٣٩.

(5) من أكابرهم، كف بصره، مات في القاهرة بعد سنة ٩٣٠.

. . . إن الله تعالى لا يحب عبداً حتى يُعرِّفه به، وبالمعرفة يطّلع على أسراره تعالى، فيقع له الجذب إلى الله تعالى[1]. . .

ويقول عمر بن الفارض في التائية الكبرى:

فمنِّيَ مجذوبٌ إليها وجاذبٌ	إليه، ونزعُ النزعِ في كل جذبة
وما ذاك إلا أن نفسي تذكرتْ	حقيقتها من نفسها حين أوحتِ
فحنّت لتجريدِ الخطاب ببرزخ	التراب، وكلٌّ آخذ بأزمّتي

ويقول علي الخواص البرلّسي:

إنما سمي المجذوب مجذوباً لأن العبد لم يزل يتعشق حاله ويألفه ولا ينجذب عنه إلا بما هو أقوى منه، وإذا أراد الله تعالى أن يخلص عبداً ويستخلصه لنفسه جذبه عما كان واقفاً معه من أمر الدنيا والآخرة، فإذا تعشق بها جذبه الحق إليه ثانياً جذبه به عنه ثالثاً[2]. . .

ويقول ولي الله الدهلوي:

. . . وأما طريق وصولهم إلى هذا الكمال المطلق، فهو أنهم ينجذبون إلى الله سبحانه، فيقطعون نور الغيب وغيره، حتى يصلوا إلى ميادين الأسماء. . . ثم يضمحلون في التجلي الذاتي[3]. . .

ويقول عبد الله بن أبي بكر العيدروس:

. . . وحقيقة العارف سائر طائر، ثم السير يستدل بالطير، فالسير يكون في مقامات النفس المطمئنة، والطير يكون في مقامات الروحانية العلوية، ثم يستدل الطير بالجذبات السرية؛ فالجذبة تبعده عن أنيته وتقربه لهويته، إلى أن تورث الجذبة المشاهدة، فالمشاهدة أحضرته معه وغيبته عنه إلى أن ظهر بالعيان[4]. . .

ويقول محيي الدين بن عربي في الباب ٢١٦ من «الفتوحات المكية»:

---

(١) الإبريز، ص٢١٧.
(٢) طبقات الشعراني: ٢ / ١٥٦.
(٣) الخير الكثير، ص١٠٢.
(٤) الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر، ص٧٧.

. . . إنما سمي مجذوباً لجذب الحق تعالى له، وأخذه بأعطافه، ولولا أنه كان متعشقاً بحاله، مستحسناً له، ما جذبه الحق تعالى، فكأن سبب هذا الكشف تعشق أحواله الطبيعية، ولولا الجذب العنيف ما ترك ما كان فيه[1]. . . .

ويقول محمد مهدي الصيادي الرواس:

وبويعت في الحضرة: على المباعدة عن أصحاب دعوى الولاية والمحو الذين تحقق أنهم ليسوا من أهل الانجذاب والغيبة، فإن أولئك من اللصوص والدجالين؛ وكأنهم المقصودين بسر قوله تعالى: ﴿ومَن أظلمُ ممَّنِ افْترى على الله الكذبَ﴾[2].

ومن أوراد الشاذلية (مناجاة ابن عطاء الله السكندري):

«. . . حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي في مسالك أهل الجذب. . .»[3].

ومن الأوراد الخلوتية (من منظومة أسماء الله الحسنى):

ومُنَّ علينا يا ودود بجذبةٍ بها نلحقُ الأقوامَ مَن كان قبلنا

ومن الأدعية التيجانية:

اللهم اجذبني إليك قلباً وقالَباً بجواذب عنايتك، وألبسني خلعةَ استغراق أوقاتي في الاشتغال بك[4]. . .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود:

. . . إننا لا نتحدث هنا عن طريق الاجتباء، فإنه في حقيقة الأمر ليس طريقاً بالمعنى العادي: إنه جذبة مِن جذبات الحق في لحظةٍ بَعْدَها يتبدل المرء حالاً بعد حال، ويدخل رحاب الحق جل وعلا، عبداً من عباده المخلصين[5]. . .

ويقول الدكتور سيد حسين نصر:

(يتكلم عن المرشد) إلى أن يقول: مثل هذا الشخص، إما أنه مسافر أدركته البركة

---

(1) اليواقيت والجواهر. ١ / ١٣٦.
(2) فصل الخطاب. ص١٣٧
(3) النفحة العلية في أوراد الشاذلية، ص٢٤
(4) ميزاب الرحمة الربانية، ص٢٣.
(5) ذو النون المصري، ص٤٩

الإلهيـة فهـو «سـالـك مجذوب» كان قد عبَرَ أولاً جميع المفـاوز والأخـاديـد التي تعـترض الـروح . . . لكنـه بمسـاعـدة الجذب الإلهي بعد ذلك عاد من مقامات القلب ومَصاعد الـروح، وبَلَغ عالم الكشف واليقـين . . . أو أنـه ذاك الـذي جذبته البركة الإلهية فسلك الطريق فهو «مجذوبٌ سالِك»، وكان قبلاً قد عَبَرَ بمساعدة الجذب الإلهي جميع المقامات وبَلَغ عالَم الرؤ يا والكشف عن الحقائق الإلهية[1] . . .

ـ تجنباً لزيادة الإطالة نكتفي بهذه الأقوال الكافية :

إذن؛ فالجذبة هي الهدف الذي يسعون إليه، وهي الفتوح، وعندما نسمع مَن يدعو لآخر بقوله: «الله يفتح عليك» فعلينا منذ الآن أن نعرف أن معناها «أوصلك الله إلى الجذبة».

وأكرر القول بأنها تُشْبه الحالة التي يقع فيها متعاطي المخدرات (الحشيش أو الأفيون والمورفين والايثير وغيرها . .) شبهاً دقيقاً، مظهراً ومخبراً، ورؤ ىً وهلوسات، مع أخذ الدور الذي يلعبه الشيخ وتوجيهه، وإيحاءات الجو الصوفي، بالاعتبار.

وأكـرر أيضـاً أنهم يعتقـدون أن الله يجذب السـالـك إليـه فتحـدث له هذه الحالة، ولذلك يسمونها الجذبة، ويسمون الواصل إليها وليًّا.

وهم يعنـون بقـولهم : «الله» الألـوهية التي يعتقدون أنها باطنة في الإنسان، وفي كل شيء، وأنه محجوب عنها، أو عن الإحساس بها، بالوهم، (أي الوهم أنه مخلوق وأنه غير الله).

هذه الألوهية الباطنة فيه تجذبه إليها، فيفقد إحساساته بالظاهر وبالمخلوقية، حيث تتجـه تلك الإحسـاسـات إلى باطنـه، إلى إلهيتـه التي كان محجـوبـاً عن الإحساس بها بالوهم، هكذا يعتقدون!

يرى المجذوبُ أثناء الجذبة رؤ ىً ومشاهداتٍ تختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة والأمكنـة والثقـافـات، واختـلافُ الـرؤ ى حسب الثقـافـات تعني أن الرؤ ى التي يراها المتصوف المسلم تختلف بعض الشيء عن رؤ ى المتصوف المسيحي، وهذه تختلف بعض

---

(1) الصوفية بين الأمس واليوم، ص٧٥ و ٧٦.

الشيء عنها عند الهندوسي . . وهكذا .

والجذبة - كما رأينا - حالة يفقد فيها المجذوب الشعور بما حوله ، ويرى ويسمع أشياء لا وجود لها ، وقد تأتيه الجذبة ماشياً أو قائماً أو قاعداً أو مستلقياً أو منفرداً أو في جماعة إن كان من الكمَّل ، ونظريًّا يمر الولي (الذي وصل إلى الجذبة) في المراحل التالية :

- تكون الجذبات الأولى قصيرة ومتباعدة وخفيفة ، والعكس ممكن .

- مع الاستمرار على ممارسة الرياضة ، وبعد زمن قد يطول وقد يقصر ، تزداد الجذبات عمقاً وطولاً وتقارباً .

- أما المشاهدات (الكشوف) ، فكثيراً ما تتجاوز حدود المقاييس العادية ، وحدود المعقول لتتخطاها إلى اللامعقول ، فيرى نفسه أطول من السماوات ، أو يرى نفسه يعرج فيها من سماء إلى سماء حتى يصل إلى العرش ، وطبعاً يراها كما يتوهم أنها هكذا ، لا كما هي على حقيقتها .

- وقد يرى مخلوقات ضخمةً بأشكال مختلفة ، يخال بوهمه ، أو بتوجيهات شيخه أنها ملائكة .

- وقد تكون الرؤ ى في المقاييس العادية ، فيرى أشخاصاً يتوهم أنهم أنبياء أو أولياء حسب توجيهات شيخه وطموحاته .

- يستمر السالك على المجاهدة ويزداد إصراراً عليها ، لأن كل هذه الرؤ ى ليست هي غايته ، حتى يرى نفسه جالساً مع الله (جل جلاله) ، يحادثه ويسامره ! وطبعاً هذا كله تابع لتوجيهات الشيخ ، ويكون الحضور مع الله (جل الله) بشكل من الأشكال التالية :

* إما أن يرى المجذوب نفسَه يعرج في السماوات حتى يصل إلى العرش ، وهناك يجتمع مع الله (سبحانه وتعالى عما يصفون) .

* أو أن يرى الله (جل وعلا) ينزل إلى جانبه ويحادثه ، وقد يرفعُه بين يديه ويجوّله في السماوات .

* أو أن يرى نفسه مجتمعاً مع الله (تعالى) في مكانٍ آخر.
وهذا ما يسمونه «المحاضرة» .

وفي كل الحالات يجد لذة عظيمة، ورغم كل ذلك فليس هذا هو الغاية.

ـ يستمر السالك على المجاهدة، وتتكرر المحاضرات وتتطور حتى يرى المجذوب في إحدى جلساته مع الله (جل وعلا) أن الله سبحانه يدمجه في اسم من أسمائه، أو في مكان ما من ذاته (سبحانه عما يصفون)، وهذا ما يُسمونه «المكاشفة»، ويسمونه «الفناء في الله»، وقد يسميه بعضهم «الإحسان».

ـ ويستمر السالك على المجاهدة، ويتطور الفناء في الله ويزداد عمقاً ونشوة ولذة، وينتقل من اسم إلى اسم، (وهذا التدرج ليس ضروريًّا دائماً)، حتى يصل إلى الفناء في الاسم «الرب» أو «الرحمن» على اختلاف بينهم، وهذا الاسم هو أعلى الصفات الإلهية عندهم، فيكون قد وصل إلى قمة المكاشفة، ومع ذلك فليس هذا هو الغاية، إن الغاية هي التحقق بالاسم «الصمد» أو «الله».

ـ ومع المثابرة على المجاهدة، يقفز إلى الاندماج في الذات الإلهية كلًّا في كلٍّ (تعالى الله عما يفترون)، فيرى نفسه أنه هو الله (سبحان الله) بجميع أسمائه وصفاته! وهذا ما يسمونه «المشاهدة» أو «الجمع» أو الفناء في الاسم الأعظم؛ الله، الجامع لكل الأسماء والصفات، وعند بعضهم هو «الإحسان».

وهذه المشاهدات (أو الهلوسات) هي ما يعبِّرون عنها بمثل قول عمر السهروردي: «ابتُلي بنهضة النفس ووثوبها»، أو بمثل قول الغزالي: «وبعضهم يدّعي أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجل»، أو بمثل قول الجيلاني: «هم أبداً في سرادق القرب، فإذا جاءت نوبة الحكم كانوا في صحن الحكم».

ومع استمرار إيحاءات الشيخ وتوجيهاته وغرس الطموحات الوثَّابة في نفس الولي، ومع تكرار مشاهدة الاندماج في الله (سبحان الله عما يصفون)، يتعمق الشعور بالألوهية ويترسخ، وقد يدفعه هذا إلى البوح بالسر أثناء صحوه، فيقع في المحذورات التي تجرُّ عليه وعلى طائفته الويل والثبور، لذلك يأخذون بأهون الشرَّين، فإذا فُضِحَ أمرُه وحَكَم عليه أهل الظاهر (الشريعة) بالكفر، حكموا عليه هم أيضاً بالكفر، وإذا أفتى أهل الظاهر بقتله، أفتوا هم أيضاً بقتله، مع إيمانهم بأنه صديق ولي مقرَّب، لكنّ بعض الشر أهون من بعض.

لتخليص الـولي من هذا المحـذور، ولأن هذا المقـام ليس مقـام الكمّـل من الرجال والنبييـن ، لذلـك يبـدأ شيخـه بتدريبه على السيطرة على لسانه وكلماته ، ليتحقّق بمقام الكمّـل الـذين يتبعون القاعدة «إياك أن تقول أناه، واحذر أن تكون سواه»، حيث يغدو وليّا كاملاً ومرشداً يحق له إرشاد الناس ودعوتهم ، لكنه لا يكون مرشداً كاملاً إلا بمقدار ما يجمع حوله من الأتباع ، ولذلك يعتبرون محمداً ﷺ أكمل الكاملين، لأن أتباعه أكثر الأتباع ، وأنه هو الإنسـان الكامل الأعلى .

وهـذا هو مقـام البقـاء ، أو الفرق الثاني . . . إلى آخر الأسماء ، ولهم في التلميح إليه ووصفه عبارات أدبية يتبارون بالتفنّن بها وتنويع أساليبها ، مرّ معنا مثات منها ، وفي كتبهم ألوف كثيرة غيرها .

وقد يقرأ القارىء في بعض كتبهم أسماء مثل مقام «قاب قوسين» أو مقام «أو أدنى » أو مقام «أنا أنا» أو غير ذلك ، وكلها تعني شدة التحقق بالألوهية مع طول مدتها .

وأكـرر التنبيـه إلى أن الـترتيب المـذكـور ليس ضروريّـا ، وقـد يختلف عند بعضهم اختلافاً كثيراً ، وقد ينعكس في نادرٍ من الأحيان .

وهم يقولون إن المناظر متنوعة لا تتكرر .

كما يتحدثون عن المريد والمراد .

فالمريد هو الذي يسلك الطريقة الإشراقية من أولها حتى يصل إلى الجذبة .

والمـراد هو الـذي يُجْذَب دون إرادة منـه ودون مجاهـدة ، أو كما هو الـواقـع ، المصاب بمرض عصبي ممّن نراهم في الأسواق من المعتوهين والمخبولين والهائمين على وجوههم في البراري ، ومنهم نزلاء مستشفيات المجانين .

ويعْنـون بالاسم «المـراد» أن الله سبحانه أراده فجذبه إليه دون إرادة منه ، ويصِفون المراد عادة بمثل قولهم : «سائح في حب الله» ، ويتبركون به ، وبطلبون منه أن يكَبِّسهم ، أي يضع يده عليهم لتسيل منه الأسرار عن طريقها وتسري في أجسامهم .

وفي جميع الأحوال ، ينتاب المجذوب أحد نوعين من الإحساس :

١ ـ إما شعور باللذة ـ وهو الغالب ـ تختلفُ شدته من جذبة إلى أخرى، وقد تبلغ في بعض الجذبات ـ وخاصة في الفناءات في الله ـ من الشدة بحيث تستغرق كلّ ذرة من جسمه، وعندما يعود إلى الصحو، يعود حامداً شاكراً، ويذهب إلى صندوق ملابسه ليخرج منه سروالاً يلبسه بدل سرواله الذي امتلأ بالمنيّ.

لكنه إذا كان من المتحققين بمقام الزهد، مَسَحَ المبتلَّ من سرواله بالتراب، ومضى إلى حال سبيله.

أما إذا كان متحققاً بمقام التوكل، فيتركه كما هو ولا يلتفت إليه لشدة توكله.

يَعرض الوليُّ أمْرَه هذا على شيخه ومشكاة إمداداته، فيهنّئه ويبشره بأن هذا دليل على صحة المقام الذي وصل إليه، ويفهمه أن سببه هو بقايا شعور بالبشرية، وأنه سوف يزول عندما يتخلص كليًّا منها (أو من الشعور بالمخلوقية)، ويتحقق بالألوهية تحققاً كاملاً.

ويسمون هذا النوع من الإحساس «البَسْط»، ويسمون جذباتها «جمالية»، ويسمون فناءاتها أو تجلياتها التي يشاهدون بها أنفسهم أنهم الله «التجليات الجمالية»، ويوهمون أنفسهم وتائهيهم أن هذه التجليات هي تحقق أو فناءٌ في الصفات الجمالية (عفوٌ غفورٌ ودودٌ رحيمٌ . .).

٢ ـ وإما أن يشعر المجذوب بالاكتئاب أو الغضب أو ضيق الصدر . . . ويسمون له هذا الإحساس «القَبْض» ويسمون جذبته «الجلالية» ويوهمون أنفسهم وتائهيهم أنها تجليات الحق عليهم بصفاته الجلالية (العزيز الجبار المتكبر القهار . . .)، ويسمونها «التجليات الجلالية» أو «التحقق بالأسماء الجلالية» . . .

ويصف عبد القادر الجيلاني هاذين الإحساسين بقوله:

يُكْشَف للأولياء والأبدال في أفعال الله ما يبهر العقول ويخرق العادات والرسوم، فهي على قسمين: جلال وجمال، فالجلال والعظمة يورثان الخوف المقلق والوجل المزعج والغلبة العظيمة على القلب بما يظهر على الجوارح . . . أما مشاهدة الجمال فهو تجلّي القلوب بالأنوار والسرور والألطاف والكلام اللذيذ والحديث الأنيس والبشارة بالمواهب

الجسام والمنازل العالية[1]. . .

- وهو معنى قوله أيضاً (الجيلاني) الذي مر معنا: «. . . وبقلبه ينظر إلى ربه عز وجل، إلى جلاله تارة وإلى جمالة تارة أخرى». (ومثل هذا تماماً تماماً يحصل لمتعاطي المخدرات، والاختلاف بينهما هو في التفسير).

وهذه بعض أقوال لبعض أقطابهم يصفون بها بعض جذباتهم ومشاهداتهم.

يقول المعرّف عن نفسه (شيعي من طهران):

إن الفقير الحقير سيد حسين بن الرضا الحسيني الطهراني النعمتللاهي، نال بركة النعمة الإلهية في سنة ١٣٠٣ للهجرة، ذلك أنني عندما التقيتُ بالسمح الطاهر، مثال العارفين وقطب الهداية في سلوك الطريق، والمرشد الأمين في ممارسة الصلوات، الشيخ عبد القدوس كرمنشاهي . . . بفضل البركة الإلهية ومعونة الأئمة الطاهرين عليهم السلام، التقيت هذا الرجل العظيم في الوقت الذي تَقدَّم ذكره قرب «إمام زادي زيد»[2]، وكان له معي ما كان، وفي غضون أسبوع من الزمان حلّتْ عليّ بركة وجوده وذلك قرب «إمام زادي زيد». . . وبعد أن أجْرى مراسم الندامة والتوبة، أعطاني التعليمات اللازمة، وأدخلني إلى حلقة الذكر وقراءة الأوراد، ودرّبني على ما ينبغي أن يُعمل ويقال، فامتثلت في ذلك كله، وبعد خمس عشرة ليلة، وهو مدى الخلوة الصغرى، عند الفجر، فيما كنت مستغرقاً في التفكير، رأيت جميع الأبواب والجدران في المكان المظلم الذي وُضِعْتُ فيه تشاركني في مراسم الذكر، فغبتُ عن الوعي، وهويتُ إلى الأرض، وبعد شروق الشمس سارع والدي الجسدي بداعي حبه الشديد لي، إلى استدعاء طبيب، ودعا كذلك بمحضّري الأرواح وكاتبي التعاويذ الشافية، ثم إن والدتي الجسدية هي الأخرى عالجتني بكل ما تيسر لها من الأدوات والمنعشات والمغذيات.

وبقيتُ على مثل ذلك عشرين يوماً وأنا لا أقوى على القيام بفرائض الشريعة، ولا أعي لوجوب ممارسة الشعائر والرياضات، ولا أُحدِّث أحداً بذلك. وبعد تلك الفترة عاد إليّ الوضع الطبيعي أو كاد، وأصبحتُ طليقاً من حال الجذبة، فذهبتُ إلى الحمّام

---

(١) فتوح الغيب، ص٢٢.

(٢) مزار أحد الأولياء في طهران.

وتـوضـات ، وشعـرت برغبـة شـديدة في لقاء ذلك الشيخ العظيم ، وبقيتُ بضعة أيام هائماً على وجهي كالمعتـوه في الطـرق والأسـواق ، ساعيـاً في طلبه ، وأخيراً ظفرتُ به ، وقبلتُ يده ، فأبدى لي لطفه وعطفه .

وأقـول موجـزاً : إنني سلكتُ الطـريق تحت رعايته مدة سنتين ، آخذاً نفسي بجميع تعليـماتـه ووصـايـاه ، لذلـك تحوّلتُ عن العلوم التقليـدية تحوّلاً تامًا ، وأقبلتُ على تفهم مسائل المعرفة ، والسير في طريق اليقين ، أطعته بكل ما أمرني به دون أن أجيب بنعم أو لا ، وإذا بدا لي أن بعض ما سمعتُ أو رأيتُ منه يعارض في ظاهره للشريعة ، رددته إلى عيب في سمعي أو تقصير في بصري . . . أحمد الله أنني بفضل ذلك العالم الكبير ، وبفعل إرادته الروحية ، استطعت أن أقف على ملابسات الفقر الروحي ، ودقائق المعرفة الثابتة ، ولطائف الحق اليقين ، حتى بلغتُ حال الفناء في الله والبقاء فيه[1] . . .

● الملاحظة :

ما أُنبه إليه بشكل خاص هو تحوله عن العلوم التقليدية تحولاً تامًا ، ومِنْ هذا القول ، ومن أقوال كثيرة مرت وستمر ، نعرف سبب الجهل الذي تتخبط فيه أُمتنا .

والمـلاحظـات كثيرة ، يمكن للقـارىء أن يتسلى بالبحث عنهـا ، والمتكلم شيعي يعرف بـ «شمس العرفاء» .

ولنتنبـه إلى أنـه استعمل عبارة «بركة النعمة الإلهية» بمعنى الجذبة ، ولعلّه استعمل عبـارة «النعمـة الإلهيـة» انبثـاقـاً من اسم الطـريقة «النعمتللاهية» التي كان شيخه «عبد القدوس كرمنشاهي» شيخها .

ويقول عبد العزيز الدباغ (الولي الكامل والغوث الحافل) :

. . . وبعـد وفـاة سيـدي عمـر بثـلاثـة أيام ، وقع لي والحمد لله الفتح ، وعرّفنا الله بحقيقـة نفـوسنـا ، فله الحمـد والشكـر ، وذلـك يوم الخميس الثامن من رجب عام خمس وعشرين ومائة وألف ، فخرجنا من دارنا ، فرزقني الله تعالى على يد بعض المتصدقين من عبـاده أربـع موزونـات[2] ، فاشـتر يت الحـوت ، وقدمت به إلى دارنا ، فقالت لي المرأة :

---

(١) الصوفية بين الأمس واليوم ، ص٧٧ و ٧٨ و ٧٩ . (٢) عملة مغربية كانت متداولة آنذاك .

«اذهب إلى سيدي علي بن حرزهم[1] وآقدم لنا بالزيت لنقلي به هذا الحوت»، فذهبت، فلما بلغت باب الفتوح دخلتْني قشعريرة، ثم رعدة كثيرة، ثم جعل لحمي يتنمل كثيراً، فجعلت أمشي وأنا على ذلك، والحال يتزايد إلى أن بلغت إلى قبر سيدي يحيى بن علال نفعنا الله به، وهو في طريق سيدي علي بن حرزهم، فاشتد الحال، وجعل صدري يضطرب اضطراباً عظيماً، حتى كانت ترقوتي تضرب لحيتي! فقلت: هذا هو الموت من غير شك، ثم خرج شيء مِنْ ذاتي كأنه بخار الكسكاس[2]، ثم جَعَلَتْ ذاتي تتطاول حتى صارت أطول من كل طويل، ثم جعلتْ الأشياء تنكشف لي وتظهر كأنها بين يدي! فرأيتُ جميع القرى والمدن والمداشر، ورأيتُ كل ما في هذا البر، ورأيت النصرانية ترضع ولدها وهو في حجرها، ورأيت جميع البحور، ورأيت الأرضين السبع وكل ما فيهن من دواب كالبرق الخاطف الذي يجيء من كل جهة، فجاء ذلك النور من فوقي ومن تحتي وعن يميني وعن شمالي وعن أمامي وخلفي، وأصابني منه بَرْد عظيم حتى ظننت أني متُّ، فبادرت ورقدتُ على وجهي لئلا أنظر إلى ذلك النور، فلما رقدت رأيت ذاتي كلها عيوناً؛ العين تبصر، والرأس تبصر، والرجل تبصر، وجميع أعضائي تبصر؛ ونظرت إلى الثياب التي عليّ، فوجدتها لا تحجب ذلك النظر الذي سرى في الذات، فعلمت أن الرقاد على وجهي والقيام على حدٍّ سواء؛ ثم استمر الأمر عليّ ساعة وانقطع[3].

● **الملاحظة**: إن كشفه منبثق من المعلومات السائدة في محيطه، ومثل هذا يحدث لمتعاطي المخدرات.

ويقول نفسه: ... فبقي معي سيدي عبد الله البرناوي (صوفي من قرية برنو)، يُرشدني ويسدِّدني ويقويني ويمحو الخوف من قلبي فيما أشاهده، بقيَّة رجب وشعبان ورمضان وشوال وذي القعدة وعشر ذي الحجة، فلما كان اليوم الثالث من يوم العيد، رأيت سيد الوجود ﷺ، فقال سيدي عبد الله البرناوي: يا سيدي عبد العزيز، قبل اليوم كنتُ أخاف عليك، واليوم حيث جمعك الله مع رحمته تعالى سيد الوجود ﷺ، أمِنَ قلبي

---

(١) هو شيخ أبي مدين المغربي، والزيت من النذور التي تقدم للمقام.
(٢) أكلة مغربية معروفة تسمى في الشرق باسم «المغربية» أو «المفتول».
(٣) الإبريز، ص٩.

واطمأنَّ خاطري[1]. . .

ـ ولنسمع إلى العارف القطب عبد الكريم الجيلي، يقدم وصفاً عامًّا، يقول:

أما بعد، فإن المناظر الإلٰهية مَحاضر لجمال العلوم اللدنية، وإن تفصيلها لا يكون إلا عن موهبة ثابتة إلٰهية، فقد يدرك تلك الموهبة العبدُ في نفس المناظر العلى إيحاء إلٰهيًّا، أو بحقيقةِ اتِّصافٍ من الصفة العلمية. . . وقد يتأخر عليه تفصيل تلك العلوم إلى نزوله عن تلك المناظر، فيفهم ما كان فيها إلهاماً إلٰهيًّا، أو بإعلام شيخٍ مربٍّ مكاشفٍ بالمناظر الإلٰهية، فيوفي الوقت الذي هو فيه أدباً به، ولكن فاته أدب تلك المناظر لفواتها، لأن التجلّي الواحد لا يبقى زمانين، بل لله تعالى في كل زمان تجلٍ مخصوص، من سرِّ قوله: ﴿كلَّ يومٍ هو في شأنٍ﴾. ومن الناس مَن يُجذب إلى بعض المناظر الإلٰهية، فيخرج منها وهو لا يدري أين كان، ولو سمع بأوصاف المناظر التي كان فيها تعجب وأنكر ما كان عليه، وذلك لضعف علمه وقصور فهمه، فإن الدهش لا يطرأ إلا على الضعفاء. اعلم أن لكل منظر آفة تحجب الداخل فيها عما فوقها وتمسكه عندها، ما لم يعلم تلك الآفة، فإذا اطَّلع عليها ترقَّى عن ذلك المنظر إلى غيره[2]. . .

ـ يبيِّن الشيخ هنا أن تفسير الرؤى الكشفية نابع من معلومات مسبقة أو من إعلام شيخ مربٍّ. . .

ويقول: منظر اعبد الله كأنك تراه:

«هو باب المناظر كلها. . . فيَتصوَّر له حضرةُ الحق تعالى الوليّ بكبريائه وعظمته، فلا يأتي عملاً وهو مأخوذ عن ذلك العمل، لغلبة حال الدهش على قلبه، ويكون سائرُ أحواله وأفعاله وأقواله كلها عبادات، لأنه مأخوذ عنها إلى تصوُّر الحضرة الألٰهية، فهو شاهد لذلك التصوُّر بحقيقته في سائر أموره، وفي هذا المنظر يُفتح عليه علوم الاصطلام، ويُكشف له عن أسرار الحق تعالى في ظواهر المخلوقات، فيقرأ رقوم كتابة أسماءِ الله تعالى على صفحات وجوه المخلوقات، ويَعْلم السرَّ الذي أخذ بالعالَم إلى مأخذهم فيما هو عليه، فلا يرى قبيحاً في الوجود[3].

---

(1) الإبريز، ص١٠.

(2) المناظر الإلٰهية، ص٧ و٨.

(3) المناظر الإلٰهية، ص١١.

- مع أن عبد الكريم الجيلي واضح العبارة في ما يكتب، إلا أنه في هذا النص يبعد في الإشارة والرمز، ومع ذلك، فبقليل من التروي يتضح كلامه. إنه يقول: إن هذا المنظر هو منظر الدهش، لأنه يرى نفسه إلهاً، ثم تنكشف له علوم الوحدة. . .

ويقول: منظر الوجود:

يتجلّى الحق تعالى في هذا المنظر بأعيان المظاهر، فيكون عينَ الظاهر، وعينَ المُظهر، وهذا أول مجالي الصفة الواحدية، ولا يشهد صاحب هذا المشهد لشيء في العالَم وجوداً البتة، فلا يبقى للمُحْدَثات عنده أثر. . . وفي هذا المشهد ينفتح على الداخل فيه علومُ تنوعاتِ التجلّي، وينكشف له أن العالَم كله تجلٍّ في تجلٍّ، ليس شيء غير ذلك. . . . ويطّلع في هذا المنظر على السر الذي عبدتْه المخلوقاتُ من دون الله. . . وفي هذا المشهد يطّلع على السر الإلهي، فيكون شافعاً لمن شاء من عبدة الأوثان والمشركين وغيرهم من النِّحَل والمِلَل الماضية، فيحصلون في حقيقة الإيمان قبل الموت أو بعده، ويُحشرون في زمرة الموحدين[1]. . .

ويصف تجلي الأفعال، فيقول:

فأما تجلي الأفعال، فإن الله تعالى إذا كشف عن بصر بصيرة العبد بتجلّي الواحدية في العالَم، فإنه أول ما يقع عنده من تفصيل ذلك المحلّ، إرجاع أفعاله إلى الحق، وينسبها إليه سبحانه بعين ما كان ينسبها إلى نفسه، وفي هذا المشهد يسلب فعل العبد وقوته وإرادته، فلا يبقى له فعل ولا قوة ولا قدرة ولا إرادة، بل هو كسائر الجمادات، فهو في هذا المنظر لا فعل له البتة، فلو تكلم وسألته عن كلامه، لقال: «لم أتكلم في هذا المشهد»، وقد يفوت من الفرائض وغيرها على مَنْ لم يحفظها الله عليه من أوليائه، وقد يصدُر ما يصدُر عليه من لسان المعاصي، فيقال: عصى وترك ما وجب عليه من الفرائض، وهو بريء من ذلك مسلوب القوة والقدرة والفعل والإرادة. . . ويكشف له عن اللوح المحفوظ. . . فيشهد بلا شهود يُنْسَبُ إليه، ويعلم بلا علم، ويرى بلا رؤية، ويفعل بلا فعل يضاف إليه[2]. . . .

ويصف تجلي الصفات فيقول: منظر تجلي الصفات:

---

(١) المناظر الإلهية، ص١٤ و١٥.

(٢) المناظر الإلهية، ص١٦.

وهو في هذا التجلّي يشهد صفات الحق تعالى النَّفْسِيَّة، فكلما ظهرت لك صفةٌ من صفات النفسية، فنيت صفة من صفاتك، إلى أن تفنى عن جميع صفاتك النفسية، فإذا فني وصفك شهدت وصفه، فتعلم حينئذ أن حياتك وعلمك وإرادتك وقدرتك وسمعك وبصرك وكلامك، جميع ذلك منسوبٌ إليه على حدِّ ما كان منسوباً إليك بلا صفة لك، بل تكـون صفـاتـك صفات الله، فتتحقق أن لا حياة لك، بل الحياة حياته، وأن لا علم لك بل العلم علمـه، وأن لا إرادة لك بل الإرادة إرادتـه، وأن لا قدرة لك بل القـدرة قدرتـه، وأن لا سمـع لك بل السمـع سمعـه، وأن لا بصـر لك بل البصر بصره، وأن لا كلام لك بل الكلام كلامه، وفي هذا المنظر يجيب الله من دعاه بهذه الصفات، فلا يشهد وقوعَها إلا عليه، فأنت بريءٌ من شهود صفاتك لشهودك أنها الله تعالى سنفاً وعياناً يفتح عليك في هذا المحل معرفة الوجود الساري، ويكون عندك هذا العلم من علوم التوحيد[1]. . .

ويقول: منظر اترك نفسك وتعال:

تَرْك النفس إما هو بجحود الأنية وثبوت الهوية الإلهية، تعرَّضِ أنيتك فتكون أنت لا أنت، بل هو، بل ما أنت هو، لأنـه هوهو. وفي هذا المشهـد تضـاف أسـماء الحق تعالى إليك فتجيب الداعين بها. فإذا قال قائل: «يا الله» أجبته: «لبيك وسعديك»، وما أنت المجيب، بل الله الـذي أجـاب مَنْ دعـاه، لطيفـة إلٰهيـة، لا يعـرفهـا إلا الواقع فيها ذوقاً وُجوديًّا وكشفاً حقيقيًّا، وفي هذا المشهد تنزل عليك الأسماء الألٰهية اسماً اسماً، والصفات الرحمانية صفةً صفة، وأنت تَقْبَلُ بقدر ما يقتضيه حالك[2]. . .

ويقول: منظر التكوين:

هومشهـد ذاتي، تتلون فيـه بمعـاني الأسماء والصفات، فيغلب عليك في كل زمان حكْمُ صفـة، فتكـون في لونٍ غير ما كنت عليـه قبـل. . وفي هذا المشهـد تجد من اللذة الإلٰهية ما يسري في جميع أجزائك، إلى أن تكاد تخرج روحك من عالَم التركيب إلى عالَم

---

(١) المناظر الإلٰهية، ص١٧.

(٢) المناظر الإلٰهية، ص١٨، وفي الكتاب أخطاء مطبعية أو نسخية، منها: «الأينية» بدل من «الأنية»، و«عرض أينيتك» بدلاً من «تعرمن أنيتك».

الأرواح لشـدة اللذة المنطبعـة فيـك، تجدهـا بحكم الضـرورة محسـوسـة، كما تجد لذة المحسوسات. وقد أخذتْ هذه اللذةُ فقيراً عن محسوساته حتى غاب عن الكون وما فيه، فلما رجع إلى نفسه وجده قد أمنى لما سرت فيه اللذة الروحانية، فعمّت الروح والقلب، وأضافته على بشرة جسده، فأعطاه الجسد حكْمَ بشريته، وكان ما كان[1]. . .

ويصف مشهداً آخر، فيقول: منظر اللذة السارية:

يتجلّى الله بتجلٍّ يكشف فيه للعبد بمكانه من الحقائق الإلهية، فيظهر له من الله ما لم يكن يحتسب. . . ووجدتُ كلَّ ذرة من وجودي حاملةً من المعارف الكمالية ما لا يمكن شرحـه، فلعطتني عوالمي كل اسم وصفـة ومعنىً ومـرتبـة لا نهايـة لها، فلما وجـدتُ ما وجـدتُ، سرت فيَّ لذةُ الإلهيـة حتى ذقت أمـراً محسوساً تكاد الروح أن تذهب لوجدانه، فلما رجعت إلى عالَم الكون، حدث فيّ حادث، وكنتُ يومئذ متقدماً في هذا الطريق. . . ولا وَصَـلَ إلى تحقيق تلك «المقـام اللذة» إلا بذلـك الحـادث، فمَن لم يحدُثْ به ذلـك الحـادث، لم يتمَّ له ذلـك اللذة، بل ما عنـده إلا طَرَفٌ منهـا، لأن اللذة المستـولية عليه، عمَّت الجسد وأخذت صاحبها، لا يجد بدًّا من أن يمني[2]. . .

ويصف مشهداً آخر، فيقول: منظر من أنت:

يتجلى الحق تعـالى على العـارف، بكشفٍ عن حقيقـة ذات العارف، فيقال له في هذا المشهد: من أنت؟ فيقول ما قال الحلاج وأبويزيد وغيرهما من أهل هذا المقام[3]. . .

● الملاحظة:

لعلنا نذكر ما قاله الحلاج وأبو يزيد وغيرهما فيما سبق من هذا الكتاب: «أنا الحق، سبحاني. . .»، ومتى يقول العارف هذا الكلام في هذا المقام؟؟ إنه يقوله عندما يُكشفُ له حقيقة ذاته! أي إن حقيقة ذاته هي الله، يعرفها بالكشف!

منظر من أنا:

---

(١) المناظر الإلهية، ص٢٢.
(٢) المناظر الإلهية، ص٥٦.
(٣) المناظر الإلهية، ص٧٦.

يتجلى الحق تعالى في هذا المشهد بتجلٍّ يكشف للعبد فيه عن حقيقة الذات المقدسة، فلا يجد العبد ما ثمّ إلا «أنا»، وحقّ ما قال، وصحّ ما ادّعى، ولكن أين مقام العبودية عن مقام الربوبية[1]؟ . .

منظر الإشارة:

للإشارة منظر جليٌّ، ومشهد عليٌّ، ومعنى سنيٌّ، أنت المراد بها على كل حال، وهو المشار إليه في كل مقال، أنت العين وهو الحُكْم، أنت الوجود وهو المشهود، وأنت الجوهر وهو العرض، أنت هو وهو أنت، أنت الموصوف وهو الصفة، لكنه الموصوف، أنت الأثر وهو الأم وأنت الولد، لكنه الروح وهو الجسد، أنت حاصلُ كنوزه، أنت مغازُ رموزه، أنت صريحُ لمغموزه، هذا كله منك وفيك، والله تعالى عن الإشارة والعبارة، وهو الكبير المتعال، فأَشْحِذْ فهمك، وجَرِّدْ همتك، وافتقْ ما رتقناه عليك ليسهل فهمُ ما أشرناه إليك، كلامُنا لا يُفهم، وحالنا لا يُعلم، أي جان أي دوست، . . . لأن الكلام عن الحقائق بالإشارة[1]. . . .

منظر ﴿وإنْ مِن شيءٍ إلا عندنا خزائِنُه﴾:

يتجلّى الله تعالى على العبد بتجلٍّ يُكشف له فيه عن مفاتيح الغيب ذاته، فيلج في خزائن الملكوت، ويرى ما أودَع الله فيها من أسرارِ الجبروت ما لا يدخل تحت الحصر، ولا يعرفها إلا الله تعالى، وحينئذ يقرأ حقيقة قوله تعالى: ﴿وإنْ مِن شيءٍ إلا عندنا خزائنُه﴾، مَن يتجلى الله عليه في هذا المنظر حلّ رموز العالم من ذات نفسه، وعلِمَ هيكَلَه بجميع ما فيه، كلُّ ذرة منه روحانيةُ عالَم من العوالم الوجودية الشهادية، فإنْ أراد تدبير ذلك العالَم وتحريكَه حرك من نفسه ذلك الرمز الذي هو روح ذلك العالَم، فتحرّك أجزاءُ ذلك العالَم في عالَم الشهادة والملك والملكوت بتحريك ذلك الرمز، فإن الجسد تابع للروح. . . وقد تحققتُ بهذا المشهد في سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة[2].

منظر (كُنْ فيكونُ):

---

(1) المناظر الإلهية، ص٧٦ و ٧٧. وكلمة جان فارسية معناها «ابن» ودوست معناها «صاحب».

(2) المناظر الإلهية، ص٧٨ و ٧٩.

أول ما يتصف العبد بالتكوين في عالم الغيب، فيكوّن الأشياء في الملكوت، ولا يستطيع على تكوينها في الملك! فمثله مَنْ يستطيع تصور الخيالات في عقله ولا يقدر عليها في محسوسه، فإذا استقام رجلُه في هذا المنظر، ثم اتصف حسًّا بصفتي القدرة والإرادة، يتجلى الله عليه بتجلٍّ إلهي يُكسبه نفوذ الأمر في عالم الأكوان جميعاً، الغيبية والشهادة، فحينئذ يقول للشيء كن فيكون، غيباً وشهادة، والناس في هذا المنظر متفاوتون، فمنهم من يظهر أثر أمره على الفور، ومنهم من يتأخر ظهور أثر أمره[1]. . .

● ملاحظة:

أرجو من القارىء الكريم أن يقرأ في فصل لاحق، مفعول المخدرات ورؤاها، ثم يقارنها بهذه الرؤى والمشاهدات، مع ملاحظة أن رؤى حشاش المخدرات تنبثق من عواطفه وأمانيه الساذجة، أما رؤى حشاش الإشراق فتنبثق من إيحاءات الشيخ وتوجيهاته والطموحات المسيطرة على الجو الصوفي.

- ولنكتف من هذا الغوث بهذه المشاهد.

- ولنستعرض بعده الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر محيي الدين بن عربي في بعض وصفه لبعض الكشوف، يقول:

. . . واشتغلْ بالذكر حتى يتجلّى لك مذكورك. . .

ثم بعد هذا يُكشَف لك عن عالَم سَرَيان الحياة السببية في الأحياء، وما تعطي من الأثر في كل ذاتٍ بحسب استعداد الذوات. . .

فإن لم تقف مع هذا رُفِع عنك، ورُفعت لك اللوائح اللوحية[2]، وخوطبت بالمخاويف، وتنوعت عليك الحالات، وأُقيم لك دولابٌ تعاين فيه صُوَرَ الاستحالات، وكيف يصير الكثيف لطيفاً واللطيف كثيفاً. . .

فإن لم تقف مع هذا رُفِع لك نورٌ متطاير الشرر، فستطلب الستر عنه، فلا تخف، ودُمْ على الذكر فإنك إذا دمت على الذكر لم تصبك آفة. . .

---

(١) المناظر الإلهية، ص٧٩.

(٢) اللوحية نسبة إلى اللوح المحفوظ.

. . . فإن لم تقف مع هذا رُفع لك عن أرواحٍ مستهلَكَة في مشهدٍ من مشاهده، هم فيه حيارى سكارى قد غلبهم سلطان الوجد، فدعاك حالهم.

فإن لم تقف لدعوته رُفع لك نورٌ لا ترى فيه غيرك، فيأخذك فيه وجد عظيم وهيمان شديد، وتجد فيه من اللذة بالله ما لم تكن تعرفها قبلَ ذلك، ويصغر في عينك كلُّ ما رأيته، وأنت تتمايل فيه تمايل السراج[1]. . .

ـ وهذا وصف آخر لابن طُفَيْل في أول كتابه «حي بن يقظان»، يقول:

سألتَ أيها الأخ الكريم، الصفي الحميم، منحك الله البقاء الأبدي، وأسعدك السعد السرمدي، أن أبثَّ إليك ما أمكنني بثه من أسرار الحكمة المشرقية[2]. . . . ولقد حرّك مني سؤالـك خاطراً شريفاً أفضى بي إلى مبلغ هومن الغرابة بحيث لا يصفه لسان، ولا يقوم به بيان، لأنه من طَوْرٍ غير طورهما، وعالَم غير عالَمهما. غير أن تلك الحال، لما لها من البهجة والسرور، واللذة والحبور، لا يستطيع من وصل إليها وانتهى إلى حد من حدودها، أن يكتم أمرها أو يخفي سرها، بل يعتريه من الطرب والنشاط والمرح والانبساط ما يحمله على البوح بها بجملة دون تفصيل، وإن كان ممن لم تحذقه العلوم، قال فيها بغير تحصيل؛ حتى إن بعضهم قال في هذه الحال: «سبحاني ما أعظم شأني»، وقال غيره: «أنا الحق»، وقال غيره: «ليس في الثوب إلا الله»، وأما الشيخ أبو حامد الغزالي، رحمة الله عليه، فقال متمثلاً عند وصوله إلى هذا الحال بهذا البيت:

فكان ما كان مما لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

وإنما أدبته المعارف وحذقته العلوم. . .

. . . إلى أن يقول:

. . . وهذه الحال التي ذكرناها وحرّكنا سؤالُك إلى ذوقٍ منها، هي من جملة الأحوال التي نبه عليها الشيخ أبو علي (أي ابن سينا)، حيث يقول: «ثم إذا بلغت به الإرادة والرياضة حدًّا ما، عنَّت له خلسات من اطّلاع نور الحق، لذيذة، كأنها بروق تومض

(١) رسالة الأنوار، ص٨ ـ ١٢.

(٢) يستعمل ابن طفيل عبارة «المشرقية» بدلاً من «الإشراقية» تقليداً لابن سينا.

إليـه ثم تخمـد عنـه[1]، ثم إنـه تكثـر عليـه هذه الغواشي إذا أمعن في الارتياض، ثم إنه ليوغل في ذلك حتى يغشاه في غير الارتياض، فكلما لمح شيئاً عاج عنه إلى جناب القـدس[2]، فيـذكـر من أمره أمراً، فيغشاه غاش، فيكاد يرى الحق في كل شيء، ثم إنه لَتَبْلُغُ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة، فيصير المخطوف مألوفاً، والوميض شهاباً بيِّناً، وتحصل له معارفه مستقرةً كأنها صحبة مستمرة. . » إلى ما وصفه من تدرُّج المراتب وانتهـائهـا إلى النيـل بأن يصير سرُّه مرآةً يحاذي بها شطر الحق، وحينئذ تدرُّ عليه اللذات العلى، ويفـرح بنفسـه لما يرى بها مِنْ أثـر الحق، ويكـون له في هذه الرتبة نظرٌ إلى الحق ونظرٌ إلى نفسه، وهو بعدُ متردد، ثم إنه ليغيب عن نفسه، فيَلحظ جناب القدس فقط، وإن لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة، وهناك يحق الوصول.

- قبل تكملة المسيرة مع ابن طفيل، أريد أن أنبه إلى أننا يجب أن نفهم العبارات: «يرى الحق في كل شيء» و«كأنها صحبة مستمرة» و«يحاذي بها شطر الحق» فهماً منطلقاً من عقيدة الصوفية التي ترفض الاثنينية وما ينبثق عنها من قول بالحلول أو الاتحاد، وتكفِّر من يقول بها، أي يجب أن نفهمها انطلاقاً من عقيدتهم بوحدة الوجود، فقط.

ونعود إلى ابن طفيل، يقول بعد فقرات من قوله السابق:

. . . وظهر بهذا القول أن مطلوبك لم يتعدَّ أحد غرضين:

١ - إما أن تسأل عما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق والحضور في طَوْر الولاية، فهذا مما لا يمكن إثباتـه على حقيقـة أمـره في كتـاب، ومتى حاول أحـد ذلك وتكلفه بالقول أو الكتب، استحـالت حقيقتـه، وصـار من قَبيـل القسم الآخر النظري، لأنه إذا كُسِيَ الحـروف والأصـوات، وقُرِّب من عالم الشهـادة، لم يبق على ما كان عليـه بوجـه ولا حال، واختلفت العبـارات فيـه اختـلافـاً كثيـراً، وزلّت به أقـدام قومٍ عن الصراط المستقيم، وظُنّ بآخرين أنها زلّت وهي لم تزل، وإنما كان ذلك لأنه أمرٌ لا نهاية له في حضرةٍ متسعة الأكناف، محيطةٍ غير محاط بها.

٢ - والغَرَض الثاني من الغَرَضين اللذين قلنا إن سؤالك لن يتعدى أحدهما، هو أن تبتغي

---

(١) هذا هو ما يسمونه البوارق أو اللوامع أو اللوائح أو البواده . . . إلخ.
(٢) يعني بعبارة «جناب القدس» الألوهية.

التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر، وهذا ـ أكرمك الله بولايته ـ شيء يحتمل أن يوضع في الكتب، وتتصرف به العبارات، ولكنه أعدمُ من الكبريت الأحمر، ولا سيما في هذا الصَّقْع الذي نحن فيه، لأنه من الغرابة في حدٍّ لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد، ومَن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس به إلا رمزاً، فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد مَنَعت من الخوض فيه وحذرت عنه . أهـ .

ـ مع الانتهاء من فقرات ابن طفيل، أريد أن أظن أن القارىء الذي تمرس باللغة الصوفية يعرف أن معنى جملة ابن طفيل : «وظن بآخرين أنها زلت وهي لم تزل، وإنما كان ذلك لأنه أمر لا نهاية له في حضرةٍ متسعة الأكناف . . » هو أن هناك قوماً قالوا العبارات المخيفة «أنا الله، أو سبحاني، أوما شابهها»، وظنَّ أناسٌ بهم أنهم زلُّوا، وهو ليس كذلك، لأنهم قالوا ذلك وهم مغلوبون بشدة الجذبة .

ويريدون بقولهم : «زلُّوا»، أي صرحوا بوحدة الوجود في حالة الصحو، أو فاهوا بالعبارات التي تفضحهم، مثل : «أنا الله، سبحاني . . .» أوما شابه ذلك، وهذا هو البوح بالسر.

وغوث آخر يصف كشوفه :

يقول ابن قضيب البان[1] في كتابه «المواقف الإلهية» :

موقف الإسراء :

. . . ثُم زَجَّني الروح بالشوق إلى جهة الفوق، حتى حلَلْنا الطبقة الثانية، فتلَقَّانا بها أممٌ سانية، ورأيت في ذلك السَّوْح نبي الله نوحاً يملي على أهل كل صنعةٍ صنعته، ويبكي حتى تجري على خديه دمعته، ورأيتُ دموعه أصل وجود الشهب لتنوير تلك الحجب، ورأيت هناك أرواح العلماء به حافَّة، وأقدام الشهداء بين الملائكة صافة . . ورأيت فيها عين ماءٍ جارية إلى فوق، وأرواح أهل الشوق والعشق واقفة في تلك السماء، ورأيت فيها فارساً على فرسه طارداً لا يمل ولا يكل ساعة واحدة، فسألت عنه، فقيل :

---

(١) عبد القادر بن محمد بن أبي الفيض السيد الأفضل أبو محمد، يتصل نسبه بقضيب البان الموصلي، ولد بحماة سنة ٩٧١هـ، وتوفي في حلب سنة ١٠٤٠هـ .

هو الملك عطارد، كاتب الأخبار، وكلُّ مَن في تلك السماء كتبة . . .

ـ للعلم : عطارد (أو الكاتب)، هو كوكب سيار من المجموعة الشمسية، مثل الأرض، يظهر صباحاً قبيل الشمس في المشرق، أومساءً في المغرب، حيث يغيب بعد الشمس بقليل، والكشف الجاهل، لم يساعد القطب الجاهل، على معرفة عطارد كما لم يساعده على معرفة الشهب.

ويكمل ابن قضيب البان قصة عروجه فيقول :

ثم ارتقينا إلى السماء الثالثة، وهي أعظم دائرة . . . ورأيت عليها حاجبين مُوَكَّلين، اسم الواحد «القوة»، والآخر «الحول»، فأخذا بيدي ودارا بي في تلك الأماكن كلها . . . وفيها رأيت يوسف الصديق جالساً على كرسي من الحُسْن . . . ورأيت في ذلك السماء صورةً مبتسمة والحياء ظاهرٌ منها، فقال لي الروح : هذا المسيح بن مريم روح الله، ورأيت فيها ملائكة لكل ملك ألف رأسٍ، في كل رأس ألف وجه، في كل وجه ألف فم، في كل فم ألف لسان، وقال لي الروح : هذه الملائكة الذين وكلهم الله بأرزاق أولاد آدم في الأرض، وعليهم ملك أعظمهم اسمه «القاسم».

ثم انتهينا إلى السماء الرابعة، وهي من معدن الفضة، وجنس خلقها منها، لهم أنوار تتلألأ، ورأيت هناك ملكاً على كرسي جالساً، أعظم أهلها هيبة وهيئة، والملائكة صافَّة به، فسألت عنه، فقيل : هومغناطيس الأرواح وجامعها بعد انبثاثها في الصُّوَر . . . ثم قال لي الروح : اسم هذه السماء : «القدرة الباهرة»، وفيها رأيت إدريس وأكثر أولياء أمة محمد العارفين بالله، وفي هذه السماء انتَشَتْ فيَّ الحواسُّ حتى بقيت أدرك بكل حاسة كلَّ ما تدركه الحواس الخمس، وفيها خَرق بصري الكون وشاهدت أعلى عليين وأسفل سافلين.

ثم انتهينا إلى السماء الخامسة، وإذا هي من معدن الذهب، ولونها حمراء، وخلق أهلها من جنسها . . . وهناك رأيت يحيى وزكريا وهارون . . .

ثم انتهينا إلى السماء السادسة، وهي من لؤلؤة، ونورها أبيض يعطي إلى الصفرة، وخلق أهلها منها، وفيها رأيت موسى بن عمران عليه السلام، وفيها رأيت ملكاً اسمه «بلسائيل» . . . وسألته عن أهل الأرض البيضاء، وأصل نشئها، فأجاب عنها بأنها

خُلقت قبـل أن يخلق الله تعـالى السـماوات والأرض بكذا ألف سنة ، وذكر أن هذا الليل والنهار والشمس والقمر كانوا موجودين في عالَمٍ منها ، وكذلك الجواري الكنَّس ، فلمَّا خلق الله السـماوات نقـل كل كوكب إلى سماءٍ منهـا ، وذكـر أن الجنـة والنـار يسمـع بهما أهـل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من الجن ولم يدروا أماكنها . . .

ثم انتهينـا إلى السـماء السابعة ، وهي درة بيضاء كاللبن ، وخلق أهلها من جنسها ، وفيها ملك اسمه «روحائيل» موكَّل بأهلها . . . وفيها ملك على كرسي من نور ، له أربعة أوجـه ، وجـه على صورة الإنسـان ، ووجه على صورة الأسد ، ووجه على صورة الثور ، ووجـه على صورة الأسـد[1] . . . وفي هذه السماء رضوان خازن الجنان . . وفيها إسرافيل رئيس عالَم الجبروت ، وهو الذي بشَّرني بالقرب والمنزلة الكريمة عند ربي ، وبالسعادة في الآخرة والشفاعة في أمة محمد ﷺ ، وفي هذه السماء رأينا إبراهيم الخليل مسنداً إلى البيت المعمـور ، وتـركت عنـدَه الـروحَ الملكـوتي ، وأخـذ بيـدي الـرئيسُ للأرواح الجبروتية ؛ إسـرافيـل ، ثم انتهينـا إلى بحـارٍ سبـع ، بحـرٍ أحمـر ، وبحـر أسود ، وبحر أزرق ، وبحر أخضـر ، وبحـر أبيض ، وبحـر أصفـر ، وبحر لا لون له ، ثم انتهينا إلى حجبٍ سبعين ، عنـد كل حجـاب من الحجب من أصنـاف المـلائكة ما لا يعلم صنفهم وعددهم إلا الله تعـالى ، وعَـرْضُ كل حجـاب كما بين المشـرق والمغـرب هنـاك ، وعمقُـه كما بين السـماء والأرض ، ثم انتهينا إلى سبعين حجاباً أُخر ، منها مِن ذهب ، ومنها مِن فضة ، ومنها من نحاس ، ومنها من جوهر ، ومنها من ثلج ، ومنها مِنْ بَرَد ، ومنها من نور ، ومنها من ظلمة ؛ وكنتُ كلما دنـوتُ مِن حجـابٍ تلَقَّـاني حاجبه وزجَّني فيه إلى أعلاه ، بعدما يريني عجائبه وصُنْع الحق تعالى فيه ، ويبشرني بالكرامة مِن ربي القادر ، حتى انتهيت إلى آخر حجاب هنـاك ، وإذا بكـرسي من اللؤلـؤ منتصبـة قوائمُـهُ من الجـوهر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر ، فأخذ آخذٌ بيدي وأجلسني عليه ، ثم نزل عليَّ شيءٌ ودخل جوفي من حيث لا أعلم ، فقال لي شيءٌ في قلبي : ها قد أكرمك مولاك بالسكينة الربانية . . . ثم نُوديت مِنْ مكان قريب ، وذلك من جهاتي الست : يا حبيبي ومطلوبي ! السلام عليك ، فغمضتُ عينيَّ ، وكنت أسمع بقلبي ذلك الصوت حتى أظنه مِن جوارحي لقربه مني ، ثم نوديت :

---

(١) صورة هذا الملاك الذي يقدمها هذا القطب ، تذكرنا بصور آلهة الهندوس في الهند .

انظر إليَّ! ففتحتُ عينيَّ فصرتُ كلي أعيناً، وكأنّ في باطني ما أراه في ظاهري، وصرت كأني برزخ بين كونين وقاب.... ثم سمعتُ بقارىء يقرأ قوله: ﴿آمنَ الرسولُ بما أُنزل إليه...﴾، وإذا بذلك الحجاب قد رُفع، وأُذِنَ لي بدخوله، ولما دخلتُه رأيت الأنبياء صفوفاً صفوفاً، ودونهم الملائكة، ورأيت أقربهم إلى الحق أربعةَ أنبياء، ورأيت أولياء أمةِ محمدٍ أقرب الناس إلى محمد، وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى، وأقرب إليه أربعة أولياء فعرفت منهم السيد محيي الدين عبد القادر، وهو الذي تلقّاني إلى باب الحجاب، وأخذ بعضدي حتى دنوتُ من سيدنا محمد صلى الله عليه وآله، فناولني يمينه، فأخذتُه بكلتا يديّ، فلا زال يجذبني ويُدنيني حتى ما بقي بين وبين ربي أحدٌ، فلما حققتُ النظرَ في ربي رأيته على صورة النبيّ، إلا أنه كالثلج أشبه شيء أعرفُه في الوجود مِن غير رداء ولا ثياب، ولما وضعتُ شفتي على محلٍّ منه لأقبله، أحسستُ ببردٍ كالثلج سبحانه وتعالى، فأردتُ أن أخرَّ صعقاً، فمسكني سيدنا محمد صلى الله عليه وآله، وأعادني إلى ورائي، فعُدْتُ معه، فتلقّاني ثان، فلا زلتُ القهقرى وأنا شاخصٌ إلى ما أراه، فلم أشعر بنفْسي إلا وأنا على الكرسي الأول[1]...

- جاء في حاشية الصفحة (١٧٢) أن المؤلف (ابن قضيب البان) كان علّق في هامش الصفحة التي فيها هذا النص ما يلي: وإذا أنا بالمسجد الحرام من مكة عند المقام، جالس في الحجر، قريب الفجر، فجدّدت الوضوء، وحضرت الصلاة سنة الألف وكنت مجاوراً بمكة حينئذ، فتمتْ الواقعة بعد الصبح.

ونترك مناقشة هذا الكلام الرهيب والتعليق عليه للقارىء.

ويقول ابن قضيب البان أيضاً في نفس الكتاب:

موقف سر قيام الحياة بالذات الوجودية:

أوقفني الحق على سر قيام الحياة بالذات الوجودية، فنظرتُ إلى سريان وحدة الوجود، والتئام شمل كل موجود، ثم حققتُ بعين الاعتبار، فإذا أنا بمراتب الوصال... ثم أطْلعني على أسرار البدء والعود لدوائر الآثار وتنافر الأسماء، ثم كشف لي

---

(١) الإنسان الكامل في الإسلام، ص١٦٦ - ١٧٢.

عن دائـرة الكـون السفـلي . . . ثم كشف لي عن سر التنـزيـل والإرسال، وحكمة الوعد والـوعيـد، وحالة الاجتباء والاصطفاء، ومقام الاختبار، ثم أشهدني العمدة في ذلك بعد كشف السُّبُحات، فرأيتُ هناك صورةَ شاب، وجهه الشمسُ نوراً، وحوله صُوَرٌ كالبدور والنجـوم حُسنـاً، وأشعـة أنـوارهم جاذبـة لكـل موجود، وبين أيديهم موائد وأوانٍ بفواكه مملوءة، وأثمار معددة، وأشخاص يأخذون من ذلك الفضل، ويفعلون ما يؤمرون؛ وقد أشغلني نظري إليه، وأدهشني حضوري لديه، فنظر إليَّ نظر داعٍ وشفيقٍ راعٍ، فسمعت صوتـاً يقـول: أرسـل له الأمانةَ ـ بعدما هممت بالإقبال عليه، وكان بيني وبينه نحو عشرة صفـوف ـ وإذا بشيء حمله ومـدَّ به يده إليَّ، فتنـاولته بكلتا يدي، وهي آنية مملوءة من كل شيء، فابتلعتهـا لوقتي، وتيقظتُ لحسِّي، فإذا أنـا بالبيت الحـرام طائف، وقـد حييت بحق المقام، وفي يدي كأس من زمزم، ما رشفته منه متمم، وحمدت الله على ما شهدته من الخير المقدم[1].

ـ ويقول: موقف الأنانية:

أوقفني الحق على بسـاط الأنـانيـة، ثم كشف لي عن سر قيام النفس الرحماني والسر الباعث لروح الكشف والانتباه . . . وهناك أراني سر الحقائق في السعة والمضايق . . . ثم كشف لي عن أسرار المؤالفة والمتابعة وحال المعاينة، وأسرار الأديان المختلفة بالألقاب، ثم كشف لي عن بيت العـزة، وأراني كيفيـة تنزُّل الصحف والكتب المسطَّرة، وكشف لي عن أمم الحـروف العـاليـة، وتنـزُّلهـا في قوالب الكلِم المـرمـوقـة، فرأيت لكـل حرف سبعـة أبطن . . . وكشف لي عن إبطان المعية الذاتية وسريانها في سبق السوابق ولحق اللواحق. وكشَفَ لي عن قيام أسرار حروف الألِف، فرأيت قيام امتداد «الهمزة» بكل حقيقة خفية، «واللام» بكل عالَمٍ كوْنيّ جليّ، و«الفاء» بمعرفة كل معروف عند تُعريفه، وقال لي: هذا السر لا يظهر إلا عند أُفول قَمَر البشرية، وتجلّي شمس الروحانية (أي في حالة الجذبة)، ثم قال لي: وفي ظهـورهـا قوة «شـين» المشيئـة، و«ميم» الكـلام، و«سـين» السلطان في حجب السبحـاتيـة[2]. . . (إلى آخـر هذه الهـذيـانـات التحشيشيـة الأفيـونيـة الحلوسية «التحشيش الروحاني»).

---

(١) الإنسان الكامل في الإسلام، ص١٨٦ و١٨٧. (٢) الإنسان الكامل في الإسلام، ص١٨٧ و١٨٨.

ـ ويقول: موقف القطبية:

أوقفني الحق على بساط القطبية، وقال لي: الإنسان الكامل قطب الشأن الإلهي، وغوث الآن الزماني، أول ما أُسلّم له: التصريف في قُطر نفسه حتى يبلغ الأشد، ثم أُسلّم له ما وافقه من أقطار الأقاليم، ثم أُسلّم له الأرض، ثم يُسَلّم له الملك، ثم يُجمع له الملك والملكوت، وهذا هو النائب الرحماني. وقال لي: القطب يعرفه كل شيء حتى أهل الغيب وعالم المحال وأهل الأرض البيضاء، ويعرض عليه أحوال العوالم، وصُوَرُ أولي العلم حتى يَسِمَها بطابع الرحمة ويردّها بالبصر. وقال لي: القطب قلبه في كِنِّ عالم الأزل، ومخدع الألوهة، وشخصه قبل كل واردٍ على الله في مركز الوقت على صفةٍ بين كل عالم وبرزخ بين القبضتين والدارين، وبصره في أسرار الوجود ووجوه القلوب، وهو نكتة إنسان العين في الأبد والأزل، وهو المرآة لرؤية وجه الحق، وعنده مقر قاب قوسين، وقيام لواء الحمل. وقال لي: القطب فاروق الوقت، وقاسم الفيض، وإليه مُفَوّض أزمّة الأمور... وقال لي: الكون كله صورة القطب، وأنا ذاته، وبأنفاسه ظهور ألوان الشؤون الذاتية، وهو الباب الذي لا دخول ولا خروج إلا منه[1].... (إلى آخر هذه الضلالات الهذيانية الحمقاء).

ـ ويقول: موقف الغوثية:

أوقفني الحق على مقام غوثية الوجود وسر الإغاثة لكل موجود عند خروجه من بحر العدم، ثم كَشَفَ لي عن المعارف الغوثية وأرواح مشاهدها في الشاهدين، وتحققتُ أسرار الصمدانية عند شهود أنوارها... ورأيت نشر حلل الرضا وكؤوس الصفا وهي دائرة على الواردين من أهل الكشف، وفيها شراب النور والرؤية ومخاطبة الأسرار وسماط اللقاء، ومؤيد البقاء على كرسي الارتقاء، فرأيت أعيان حقائق الوجود حافّة به، ثم رأيت تجلّي الوجه الأحدي، ثم رأيت الهوية ومحاسن «إلاّ هُويَّة»[2] من مظاهر الألوهية في حضرة الأنس وحظيرة القدس... ثم أُتي لي بخلعة الغوثية[3].

---

(١) الإنسان الكامل في الإسلام، ص١٨٩ و ١٩٠.
(٢) «إلاّ هوية» مأخوذة من «إلا هو» في قولهم: «لا هو إلا هو».
(٣) الإنسان الكامل في الإسلام، ص١٩٤.

● ملاحظة :

يخبرنا ابن قضيب البان في هذا النص، أنه غوث زمانه، كما يخبرنا أن مقام الغوثية يرافقه، أو يرتبط به شهود أنوار الصمدانية، أو تحقق أسرارها.

وعبارة «تحقق أسرار الصمدانية» أو «شهود أنوار الصمدانية» تحمل نفس معنى العبارة التي تقول: «ذقت من معاني اسمه الصمد».

إذن، فنضيف إلى سؤال سابق سؤالاً جديداً: لِمَ لا تغيث الأمة الإسلامية وتنقذها مما تتردى فيه من ذل ومهانة ودمار في كل مكان، وجهل بالإسلام الذي أنزل على محمد ﷺ؟ لِمَ، مادمت غوثاً، أو قطباً على الأقل؟!

وللعلم، فإنه لا يكون موجوداً في وقت واحد إلا غوث واحد (هكذا يقررون)، ومع ذلك فلم يَخْلُ زمن من عدة أغوات مثل الجيلاني والرفاعي وأبي مدين مثلاً، ويوجد الآن عدة أغوات، حيث يظهر أن شياطينهم مختلفون فيما بينهم.

وللعلم أيضاً، كل الواصلين منهم يعرجون في السماوات ويتحققون بالفناءات، إلا من لا شيخ له.

والملاحظة الهامة أن رؤاهم كلها تنبثق من عواطفهم وطموحاتهم، وتتحرك في أجواء مأخوذة من معلوماتهم التي استقوها من المعارف الشائعة في عصرهم، بعجرها وبجرها وعامها وخاصها.

ونختم هذا الفصل بكلمة لأبي الهدى الصيادي «المرشد الكامل» عن اللذة في الجذبة، يقول: «... كما أن لهم المناجاة واللذة السارية في جميع وجودهم...»[1].

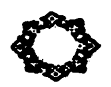
وأقول: إن هذه اللذة هي من الأسباب التي تربطهم بالصوفية، والعشق الإلهي هو - في الحقيقة - الشوق إلى هذه اللذة مع مرض الإدمان.

ولعل أهم ملاحظة يجب أن ننتبه إليها هي هذه الرؤى الكشفية التي وصفوها، والتي تظهر بوضوح أنها منبثقة من معلومات المكاشف وأمانيه المختزنة في لا شعوره،

---

(١) قلادة الجواهر، ص١١٢.

وطبعاً، استقى معلوماته من الوسط الثقافي الذي يحيط به، ومن توجيهات الشيخ. كما نرى أن دور قواه الفكرية اللاشعورية هو التنسيق والتصوير، ولو كانت معلومات المكاشف المختزنة وأمانيه مختلفة لتغيّرت كشوفه حسب اختلافها.



صدر حديثا من توزيعاتنا من النوادر القيمة :

كتاب : الفتح المبين بالرد على نقد عبد الله الغماري لكتاب الأربعين .

بقلم : د. علي بن محمد ناصر الفقيهي.

وكتاب: أعجب العجب من أحوال العرب. تأليف: عبد الحق حقي الأعظمي.

وكتاب : النكت للإمام شمس الأئمة السرخسي : (٤٩٠ هـ).

وهو شرح لزيادات الزيادات. للإمام محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩ هـ)

مع تعليق وجيز كان على هامش الأصل . وشرحها للإمام أبي نصر

أحمد بن محمد العتابي البخاري .(٥٨٦ هـ).

عنى بتحقيق أصولهما : أبو الوفا الأفغاني

رئيس اللجنة العلمية للجنة إحياء المعارف النعمانية بالهند.

وكتاب : سفر السعادة . للعلامة الفقيه اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي صاحب القاموس، وبصائر ذوي التمييز . وغيرهما من المؤلفات القيمة . (المتوفى سنة ٨١٧ هـ) .

وكتاب : مشيخة النَّعَّال البغدادي.

لصائن الدين محمد بن الأنجب، (٥٧٥هـ ــ ٦٥٩هـ). تخريج الحافظ المنذري، (٦١٣هـ ــ ٦٤٣هـ) تحقيق : د. ناجي معروف و د. بشار عواد معروف.

وكتاب : نكت الهميان في نكت العميان للصفدي .تحقيق: أحمد زكي.

وكتاب : تاريخ نجد . للإمام الألوسي . تحقيق : محمد بهجة الأثري.

ونظرات في كتاب صفة الغرباء لسلمان العودة. بقلم : صلاح الدين مقبول أحمد

ونظرات في كتاب النبوة والأنبياء للصابوني .تأليف : محمد محمود أبو رحيم .

وكتاب وقفات مع كتاب للدعاة فقط .تأليف : محمد بن سيف العجمي .

وتحذير الأمة عن التهاون بصلاة الجماعة والجمعة .تأليف : عبد العزيز عبد الرحمن الشثرى

تحريم آلات الطرب . تأليف: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى

- التذكرة في القراءات الثمان لطاهر بن غلبون ٣٩٩هـ ، تحقيق : أيمن رشدي سويد .
- التلخيص في القراءات الثمان لأبي معشر الطبري. تحقيق : محمد حسن عقيل .
- وللمحقق أيضا : مختصر الفتح المواهبي في مناقب الإمام الشاطبي. للقسطلاني.
- غاية الاختصار في القراءات للهمداني. تحقيق : أشرف محمد فؤاد طلعت.
- الموضح في وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم. تحقيق: عمر حمدان الكبيسي.
- منظومة المفيد في التجويد لأحمد بن الطيبي تحقيق : أيمن رشدي سويد .
- علوم القرآن في سؤال وجواب . تأليف: تقي الدين الهلالي.
- سبع رسائل في الاحتفال بالمولد النبوي . تأليف : جمع من العلماء العاملين .
- الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية. للحافظ العراقي .تحقيق :محمد تامر.
- البيان المفيد عن حكم التمثيل والأناشيد . لعبدالله السليماني.تقديم : صالح آل فوزان.
- تحذير ولاة الأمور من المغالاة في المهور. لمحمد موسى البيضاني.مراجعة :مقبل بن هادي
- التدابير الشرعية الواقية وكيف نحفظ أولادنامن الانحراف.بقلم:الدسوقي السيد عيد.
- تذكرة الحج والعمرة . تأليف : رجائي بن محمد المصري.
- تغليظ الملام على المتسرعين إلى الفتيا وتغيير الأحكام. بقلم : الشيخ حمود التويجري.
- تقاليد يجب أن تزول في الأفراح والمآتم والموالد .بعناية : محمود مهدي استنابولي.
- سبيل الجنة بالتمسك بالكتاب والسنة . تأليف:الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي.
- ستون سؤالاً في أحكام الحيض .للإمام محمد بن صالح بن عثيمين ـ رحمه الله ـ .
- التحذير عن التهاون بصلاة الجماعة والجمعة. لعبد الملك الكليب وعبد العزيز الشثري.
- ضرورة الاهتمام بالسنن النبوية .تأليف : عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم.رحمه الله.
- العبادات الشرعية والفرق بينهاوبين البدعية.للإمام ابن تيمية.تحقيق: حسين بن الجمل .
- فصل الخطاب وجوب الجماعة والقوامة والحجاب.لرجائي بن محمد المصري .
- كيفية الوضوء والغسل والتيمم والصلاة . للعلامة عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ .
- نصح العقلاء بما جاء في تحريم آلات اللهو والغناء .بقلم : هاشم بن حامد الرفاعي
- صورتان متضادتان .تأليف : أبي الحسن الندوي .
- الفقه السياسي في إيران .تأليف : محمد السعيد عبد المؤمن .
- الفكر المادي في ميزان الإسلام .تأليف : د. صابر طعيمة .

- الردة وخطرها على المجتمع المسلم . بقلم : عبد الله أحمد قادري .
- العُجالة السنية شرح ألفية السيرة النبوية للعراقي. تأليف : عبد الرؤوف المناوي .
- التقريرات السنية شرح فى المنظومة البيقونية .تأليف : الشيخ حسن المشاط
- الحيدة (وانتصـار المنهج السلفى) .تأليف : الإمام عبد العزيز الكنانى المكى .
- الحسبة في الإسلام ووظيفة الحكومة الإسلامية .تأليف : شيخ الإسـلام ابن تيمية .
- حركة التأليف باللغة العربية في الهند.تأليف الدكتور : جميـل أحمـد.
- الفوائد البديعة في فضائل الصحابة وذم الشيعة .تأليف : أحمد فريد
- الفوائد المجموعة بترتيب أحاديث الآلىء المصنوعة.تأليف : عبدالحميد الدخاخني.
- القواعد المنهجية في التنقيب عن المفقود من الأجزاء التراثية .تأليف. د. حكمت ياسين بشير .
- مزالق خطيرة للجماعات الإسلامية .تأليف : أبي العباس مازن بن سالم باوزيد.
- مسند الحب ابن الحب . لابى القاسم البغوي .تحقيق : أبي الأشبال الزهيري .
- المصارعة [مصارعة أهل الباطل] . تأليف : مقبل بن هادي الوادعي.
- تفسير ابن كثير ٣/١ .تحقيق : مقبل بن هادى الوادعى .
- الحق والجبروت ..تأليف : أبوالمنذر جاهين .
-حكمة تحريم الخمر .تأليف : سعيد بن عبدالرحمن الأخمري .
- جهود المفكرين في مواجهة التيار الإلحادي .تأليف : د. محمود عبدالحكيم عثمان .
- السيوف الباترة لإلحاد الشيوعية الكافرة .تأليف : مقبل بن هادي الوادعي .
- موسوعة فهارس كتب الزهد .فهرسة : محمد محمد شريف .
- قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين.تأليف : العلامة عبد الرحمن آل الشيخ.
- ماذا تقول التوارة والإنجيل عن محمد ﷺ.تأليف : الشيخ أحمد ديدات رحمه الله.
- متن الاجرومية .تأليف : ابن أجروم .
- مختصـر التحفة الإثنى عشـريـة .تأليف : الدهلوى . اختصار : الآلوسى .
- الرجال الذين تكلم عليهم المنذري فى كتابه الترغيب والترهيب، ومعه الـرواة المختلف فـيـهـم فى نفس الكتـاب ، ومـعـه رسـالة فى الجـرح والتعـديل للحافـظ المنـذري .جمع وتعليق: ماجد بن محمد أبى الليل
- بذل الماعـون في فضل الطاعـون للحافظ ابن حجر تحقيق كيلاني خليفة .